خولة حمدي

بلوط بطاء

حجر الشمس

رواية

@ART_OF_BOOK

حمدي، خولة.
سماء بلا ضياء : رواية /خولة حمدي

تصحيح لغوي: حسام مصطفي إبراهيم.
القاهرة: كيان للنشر والتوزيع، 2025.
492 صفحة، 20 سم.
تدمك: 978-977-820-267-0
ا- القصص العربية.
أ- العنوان: 813
رقم الإيداع: 33023 / 2024
الطبعة الأولي: يناير 2025.
جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة ©

كيان للنشر والتوزيع
إشراف عام:
محمد جميل صبري
نيفين التهامي

٤ ش حسين عباس من شارع جمال الدين الأفغاني- الهرم
هاتف أرضي: 0235918808
هاتف محمول: 201000405450+ – 201001872290+
بريد إلكتروني: info@kayanpublishing.com
الموقع الرسمي: www.kayanpublishing.com

• إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأى **الناشرين**.
©جميعُ الحقوقِ محفوظةٌ، وأيُ اقتباسٍ أو إعادةِ طبعٍ أو نشر في أي صورةٍ كانتْ ورقيةً أو الكترونيةً أو بأيةِ وسيلةٍ سمعية أو بصريةٍ دون إذن كتابي من الناشر، يعرض صاحبه للمساءلة القانونية.

خولة حمدي

سماء بلا ضياء

حجر الشمس

إهداء

إلى السكان الأصليين للعالم

@ART_OF_BOOK

(1)

اليوم الأوّل

السّماء.. لقد اختفت!

حين فتح عينيه، لم ير السماء.. كان ممدّدًا على ظهره، يتوسّد رأسُه فراشًا ناعمًا من الرّمال أو ما شابهها. بوسعه أن يشعر بالملمس الحبيبيّ الرّقيق يتخلل أنامله. كان مبتلًا، نصفه السّفليّ مغمور كلّيًا، منقوع مثل قطع المخلّل في الماء المالح، فيما تتحرّك الأمواج في مدّ وجزر لترتفع حتّى صدره ثمّ تنسحب.. يشعر بوخزات متفرّقة في قدميه، ربّما أصيب ببعض الخدوش التي جعلت الماء لاسعًا.

احتاج إلى حفنة من الدقائق، ربّما أكثر أو أقلّ، فلم يكن إحساسه بالوقت دقيقًا، حتّى يدرك أين هو.. إنّه على شاطئ ما، يذكّره هدير الأمواج -التي يتغيّر ارتفاعها، لكنّ همسها العميق ثابت مع اختلاف الشّواطئ- بذكرى ما من طفولته البعيدة، حين كانت عائلته تقيم في منزل على ساحل البحر. كان يفيق صباحًا على تلك النّغمة السّاحرة للماء وهو يضرب المسطّح الرّمليّ المتاخم له فيغمره الانتعاش ويمتلئ رغبة في الهرولة إلى الخارج.

يتخلّص ذهنه من سيطرة الذكرى التي تستحوذ على انتباهه لوهلة..

لقد نجا.

كان الهدوء من حوله مُربكًا باستثناء حركة المدّ المستمرة في لطم السّاحل على الوتيرة ذاتها. والسّماء، لم تكن هناك! كانت عيناه زائغتين إلى أعلى تدوران في محجريهما بخمول، تتفقّدان المساحة التي تعلو رأسه. لم تكن السّماء تشبه أيّ شيء عرفه في الدّيار، يعرف كيف يتبدّل الطّقس من صفاء وزرقة وشمس ساطعة إلى سحب متفرقة بيضاء ثمّ تتلبّد الغيوم في كتل رماديّة قاتمة تنذر بالأمطار والعواصف لكنّ ما ظهر فوقه في تلك الآونة كان مختلفًا.

ارتفعت فجأة موجة مندفعة وغمرت رأسه فشدّ جسمه المتصلّب ليستقيم على الفور وهو يبصق ويسعل مقاومًا الاختناق. حين استقرّ تنفّسه واستأنف الهواء مساره في مجراه الطبيعيّ رفع بصره ليتفقّد محيطه.. كانت الرّمال من تحته وخلفه ذات لون رماديّ باهت يشبه الفضّة، رَمْش في عصبيّة لكنّ اللّون لم يتغيّر، حتّى الماء عند قدميه وأسفل جلده كان يتّخذ لونًا داكنًا لا يكاد يختلف عن لون الرّمال ولولا القوام السّائل لأحد المسّطحان في ضبابيّة مخاتلة، ويصنع الزّبد الأبيض -وهذا على الأقلّ لون طبيعيّ يعرفه- الحدّ الفاصل بين مساحات الفضيّ الشّاسعة. حرّك أصابعه خلال الماء ثمّ باعد بينها ليترك السّائل يتسلّل عبرها إلى الأسفل، تنهّد باستثناء اللّون بدت الكثافة والسّيولة ومفعول الجاذبيّة طبيعيًا للغاية.

على مبعدة عشرات الأمتار كانت غابة كثيفة من الأشجار الباسقة الدّاكنة تغلق مجال الرّؤية وتملأ الفضاء وتعانق السّماء؛ السّماء التي لم تكن مثل أيّ سماء أخرى.

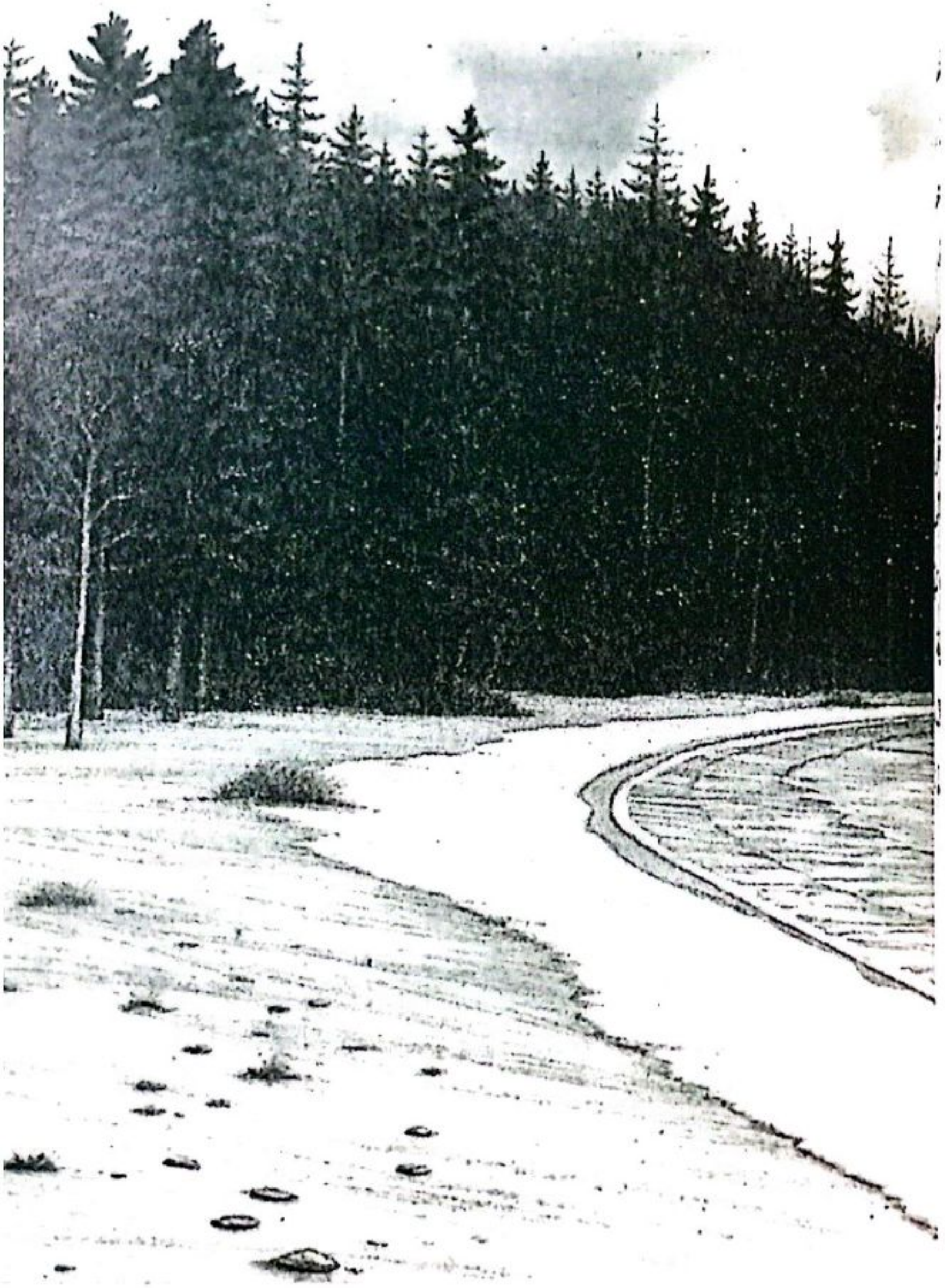

كانت سحب خفيفة منخفضة تملأ الفضاء على مدّ البصر.. سُحب! هذا أقرب توصيف في معجمه لما يراه لأنّ ما يستقرّ في السّماء ويحجب الشّمس غالبًا ما يُسمَّى سُحبًا، لكنّ هذه السّحابة الضّبابية كانت مثل رقعة متّسعة منتظمة بلا ثقوب أو اختلافات في اللّون والسّمك والكثافة، وكانت قريبة، أقرب من أيّ سحب أخرى.. فكّر أنّه إذا ما انتصب واقفًا على أطراف أصابعه واستطال بعض الشيء فقد تلامس أنامله ندفها الرّطبة، يكاد يتخيّل ملمسها النّاعم على بشرته.

وهناك، على مسافة قريبة، تختفي قمم الأشجار عبر السّحابة الضخمة الممتدّة وتعانق نهايات أغصانها السّماء الخفيّة، تتطاول بحثًا عن قبس من نور في الارتفاعات الشّاهقة، ربّما كانت السّماء الحقيقيّة لا تزال هناك، فوق السّحابة، رغم كلّ شيء وربّما تتبدّد الغيمة في وقت ما وتظهر الشّمس والسّماء الزّرقاء، البيضاء أو الرّماديّة، التي يعرفها، لكنّ هذا لم يحدث بعد.

بعد ذهول اللّحظات الأولى دارت نظراته المتفقّدة في كلّ الاتّجاهات ثمّ توقّفت، حدّقت في تدقيق مستميت ثمّ أضاءت قسماته وقد تعرّف على كتلة داكنة لفظتها الأمواج في البعيد.. أجبر عضلاته المتيبّسة على الحركة وسحب قدميه، ثنى ركبتيه ثمّ استند إلى راحتيه ليدفع جسده نحو وضع الوقوف، احتاج إلى أكثر من محاولة أنّت خلالها كلّ قطعة عظام؛ السليمة منها والمتورّمة.. ثمّ تجرّأ على الخطو المترنّح بتأنٍّ شديدٍ أوّلًا، كانت الآلام محتملة ربّما لم يُصَب بكسور في نهاية الأمر! وحين اطمأنّ إلى توازنه تقدّم بسلاسة متزايدة مع تعوّد باطن قدميه الأرضيّةَ الرّخوة المبتلّة.

حين اقترب من الكتلة تحوّل مشيه إلى هرولة وقد تعرّف ملامحها المألوفة، انحنى فوق الجسد المسجّى وأخذ يهزّه برفق.

- أبي.. أبي!

خرج صوته متحشرجًا أجشّ فتنحنح ليجلو حلقه ثمّ استأنف النّداء بحرقة وهلع، انحنى ليُصغي إلى نبضاته؛ تلك الحركة الرّتيبة لصدره ارتفاعًا وهبوطًا كانت مطمئنة، إنّه يتنفّس، كان يحتاج إلى أن يُبصره مفتوح العينين حتّى يطمئن.

عجيب ذلك القلق الذي يسكن الصّدر في اللّحظات الفارقة كأنّ الشّخص الذي لم يكن مُهمًّا منذ أمد قصير قد غدا أهمّ الأرواح على سطح البسيطة! ألم يتمنّ بالأمس فقط لو أمكن لوالديه استبدال الأماكن: ليكون والده طريح الفراش وترافقه أمّه في رحلة استطلاعيّة ما؟ لم يكونا متقاربين قطّ لكنّه صار رجلًا غريبًا في السّنوات الأخيرة، لا يكاد يألف حضوره بالجوار حتّى ينطلق في «رحلة استكشافيّة» أخرى!

لقد تساءل: كيف؟ كيف يحمل ضميره وطأة الغياب مخلّفًا زوجة عليلة في مرحلة متقدّمة من المرض الخبيث وولدًا شبّ عن الطّوق ولمّا يعرف أباه، ليبحر عبر المحيطات خلف وهم جزيرة أشباح ما؟ لكنّ خشية تحقّق أمنيته السّريّة تؤرقه في تلك اللّحظة وهو يشدّ بكفّه على كتفه آملًا في أن يفيق على الفور.

رمش الكهل ثمّ سعل وحين حطّت نظراته على وجه الشّابّ المنحني فوقه افترّت شفتاه عن ابتسامة، كانت سعادتهما باللّقاء مشتركة، فكّر أنّهما لم يتشاركا لحظة تواطؤ وتقارب مشابهة منذ زمن بعيد، منذ كان الشّاب طفلًا!

استند الكهل إلى ساعد الشّاب ليطوي جذعه ويسحب أطرافه ويجلس على الشّاطئ، كان يلهث، لاحظ الشّابّ تنفّسه العسير وضيق صدره كأنّ الهواء في رئتيه أثقل، تلفّت الرّجل ليتفحّص الأرض التي لفظتهما الأمواج إليها ثمّ ألقت في عينيه نظرة ظفر غريبة، قال بصوت هامس:

- آدم، بُنيّ.. لقد وصلنا!

***

خلال خمسة عشر عامًا بحث البروفيسور أشرف الصّافي عن الجزيرة.

بالتأكيد لم يكن بروفيسورًا طوال الوقت! لقد تدرّج في سلّم البحث الأكاديميّ ونشر الأبحاث تلو الأبحاث حتّى استحقّ الرّتبة والمكانة العلميّة لكنّ شغفه بالجزيرة لم ينقص يومًا، كانت «أطلانتس» الخاصّة به.

في بداية القرن السّادس عشر تقريبًا ظهرت جزيرة تحمل اسمًا يُنذر بالخطر لأوّل مرّة على خرائط العالم الأوروبية، بالقرب من سواحل «نيوفاوندلاند» و«لابرادور»: «جزيرة الشياطين»، وقد سُمّيت بهذا الاسم نسبة إلى الأرواح الشريرة التي يُعتقد أنها تسكن شواطئها، لم تكن إضافة منطقة جديدة إلى خرائط الملاحة ظاهرة نادرة فقد عكف رسّامو الخرائط الأوروبيون الأوائل في العصر الحديث على مراجعة مواقع الأراضي المعروفة والمُكتشَفة حديثًا باستمرار، بناءً على تقارير المستكشفين وطرق الملاحة الأكثر دقّة، وانضمّت جزيرة الشياطين إلى مجموعة من المناطق الأقل ثباتًا من ناحية البيانات والإحداثيات والمعروفة باسم «الجزر الوهمية»؛ تلك المواقع رُسمت في وقت ما على أنّها مساحات أرضيّة حقيقيّة رغم عدم وجود أدلة مادّية على وجودها وبدلًا من ذلك كانت الأساطير والخرافات وحكايات البحارة والأساطير المحلية والسّراب والمبالغات والأكاذيب والإحداثيات الخاطئة هي التي أعطت شكلًا لخطوط هذه المساحات الهلاميّة.

لذلك، كانت الجزر الوهمية -مثل جزيرة الشياطين- تظهر وتختفي من الخرائط حين يرفض المستكشفون وجودها أو تتلاشى الأساطير من الخيال الجمعيّ. ربّما كان الاتجاه السّائد -حديثًا- لفهم رسم الخرائط كونها

صورة مجردة وموضوعية وثابتة للعالم لكن السّمة الأولى لذلك تاريخيًّا كانت تحويل حكاية ما إلى حقيقة.

وقد روى البروفيسور أشرف قصّته كثيرًا لكنّه لم يجد أذنًا مُصغية، لقد كان هناك، في المحيط الهندي، في مكان ما بين أرخبيل المالديف والسّواحل الإفريقيّة، وقد وضع قدميه على أرض صلبة ممتدّة لا تشبه في شيء أيّ أرض أخرى عرفها في سنوات ترحاله شابًا. لقد خاض تلك الرّحلة بنفسه وعاد سالمًا إلى الدّيار لكنّه لم يعثر على أدنى أثر لـ«جزيرته» الأثيرة على خرائط العالم؛ القديمة والحديثة!

لم يعتقد أنّ جزيرته كانت «وهميّة» بأيّ شكل من الأشكال فقد كان حضوره الذّهنيّ شديدًا وتجربته الملموسة قد تركت أثرًا لا يُمحى في وجدانه لكنّ قصّته ظلّت فرديّة، لم يجد في مراجع الأطلس وكتب تاريخ المستكشفين في القديم والحديث ذكرًا ولو عابرًا لجزيرة مأهولة، باسم أو دون اسم، في تلك المنطقة الجغرافيّة بالذّات.

بعض الباحثين الذين استشارهم في الأمر أشار إلى إمكانية أن تكون جزءًا من أرخبيل المالديف في نهاية الأمر غير أنّه بقي على إصراره: لقد أبحر اليخت ثلاثة أيام في اتّجاه الشّمال مبتعدًا عن «ماليه» العاصمة المالديفيّة، باتّجاه شبه الجزيرة العربية قبل أن يصل إلى اليابسة.

لم يعتقد، خلال البحث الذي دام سنوات طوال، أن يكون هو الشّاهد الوحيد الذي يعرف بوجودها، ولمّا تراكمت المراجع على مكتبه عن الجزر الوهمية أو المفقودة عبر التّاريخ اقترح عليه صديق ما، عابثًا، أن ينشر بحثًا أكاديميًا في الموضوع. ما بدأ كمزحة عابرة انتهى به إلى مسيرة بحثيّة طويلة متشعّبة ليكون واحدًا ضمن ثلّة -تعدّ على أصابع اليد الواحدة- متخصصة في مسار دقيق من البحوث الجغرافيّة، لقد حسب أن التخصّص

سيفتح المجال لمزيد من المعرفة لكنّه لم يُضف إلى حصيلته غير عديد من الفرضيّات والأسئلة المفتوحة! لقد تعرّف إلى نخبة الباحثين وحاضر -عبر خمسة عشر عامًا- في شتّى جامعات العالم ولم يفوّت فرصة للقاء مستكشف أو بحّار.. غير أنّه لم يقف على مراده قطّ!

***

انتصب البروفيسور أشرف بصعوبة وخطا على الرّمال مستندًا إلى آدم محاولًا أن يسرع من خطوته لكنّ جسده كان أشبه بكتلة معجونة من اللّحم والعظام بعد السّقطة العنيفة التي تعرّضا لها، قال وهو يلهث:

- السُّكان، يجب أن نجد السُّكان!

لاحظ آدم العرج البيّن في ساقه اليسرى فانحنى ليعاينها قلقًا. كان هناك جرح طوليّ قليل العمق وتورّمٌ في الكاحل لكن والده قد احتفظ بحذائه على الأقلّ، همهم البروفيسور متعجلًا:

- أنا بخير، يجب أن نتقدّم.

كان يدفع في اتجاه السير نحو الأشجار في حين استمرّ آدم يتلفّت إلى الخلف في قلق، لم يكن يرتاح لفكرة عبور الغابة القاتمة ويسترجع لمحات من واحد من برامجه المفضلّة «التّائهون»، لقد وجد الأبطال أنفسهم في وضع مشابه بعد أن تحطّمت طائرتهم فوق جزيرة مجهولة، الغابة قد تُخفي مفاجآت غير سارّة والخيار الآمن يكون في البقاء قرب الشاطئ والبحث عن هيكل الطائرة ومحاولة الاتّصال بالسّفينة.

أفضى أخيرًا بما يؤرقه:

- الطّائرة.. ألا يجدر بنا البحث عنها؟

- في وقت لاحق، إن كنّا نريد العيش فعلينا أن نجد السّكان.

لم يناقشه آدم طويلًا فقد بدا واثقًا من فكرته فهو المختصّ بشأن تلك الجزيرة الغريبة على أيّ حال ثمّ إن ذلك النَّفَس المتحشرج الذي يتردّد في صدره بمشقّة أنبأه بأنّه لا يجدر به إرهاقه بمزيد من الشّرح والكلام الذي يستنفد طاقته.

شعر بالرّهبة حين وصلا إلى حدود «الغابة السّوداء»، كان آدم قد أطلق عليها ذلك الاسم للتّو، فقد كانت الأوراق داكنة أكثر من أيّ غطاء نباتيّ عرفه في حياته، مزيد من الاختلافات في الألوان تحت السّماء المنخفضة. تساءل إن كان ذلك كلّ شيء؛ اختلاف في اللّون أم أنّ اللّحظات المقبلة ستكشف عن مزيد من الفروقات؟

بعد أن قطعا أمتارًا قليلة داخل الدّغل ازداد الهواء كثافة من حولهما، كانت الرّطوبة عالية كأنّ مسامّ الأرض ولحاء الشّجر وغطاء الأوراق تنفث هواءً ساخنًا في وجهيهما، لحظ بسرعة صعوبة التقدّم على والده وانهيار رئتيه، كانت أنفاسه قصيرة مجهدة، فكّر أنّ عبور الغابة لم يكن الخيار الأفضل، لكنّ الكهل لم يعرب عن أدنى رغبة في العودة إلى الشّاطئ.

لا يذكر آدم أنّه كان يومًا بذلك القرب الجسديّ من والده؛ أن يتّكئ أحدهما على الآخر وتلتحم الأكتاف وتتعانق الأذرع، أن يشعر بنبضاته تحت راحته وتتردّد أنفاسه في أذنه، لقد بدا شيخًا في تلك اللّحظات بقدر لم يستوعبه، لقد شاخ والده كثيرًا مقارنة بالصّورة اللّامعة للبروفيسور المغامر التي يحملها عنه في لا وعيه!

في المدرسة كان الفخر يلازمه حين تأتي سيرة الآباء وتلتمع أعين أصحابه وأساتذته غبطة وفضولًا أمام ذكر «الرّجل الموسوعة» الذي يحلّ ضيفًا على برامج التليفزيون باستمرار. كان وجهًا أكاديميًا معروفًا يحظى بالاحترام والتّقدير من الجميع، لكن فخر آدم تضاءل في السّنوات الأخيرة

مذ أقعد المرض والدته وتطلّب إقامتها الدّائمة في المصحّة، مع ذلك فإن الرّجل الألمعيّ لم يهدأ وتيرة أسفاره لمنح أهله صدارة أولوياته بل لعلّ ترحاله قد تضاعف واستطال حتّى ما عاد يراه سوى أيّام معدودة كلّ شهر!

لقد أدرك في وقت ما أنّ والده بات يفضّل الفرار إلى البعيد لتجنّب نظرة الألم في عيني زوجته واللّوم في عيني ابنه الشّاب، فتركهما لمصيرهما كلّ هذه السّنوات، غير أنّ والدته لم تسخط عليه قطّ ولم تكفّ الابتسامة الوديعة تفارق شفتيها حين يذكره أمامها بسوء، كانت تقول دائمًا في حقّه: «أنت لا تفهمه، ستفعل يومًا ما وستدرك ثم هو رجل عظيم!»

في تلك اللّحظات التي يمشيان فيها جنبًا إلى جنب على الطّريق التّرابيّة داخل غابة استوائيّة داكنة لم يشعر بأيّ أثر للعظمة التي أشارت إليها والدته أو الفخر الذي أثاره في دواخله صبيًّا، لكنّ الشّفقة هي كلّ ما ملأ صدره هذا الرّجل الذي أفنى عمره يبحث عن جزيرة، ها أنّه قد وصلها أخيرًا، وهو يكاد يكون حطامًا، لم يبد قطّ في حال مزرية أكثر ممّا هو عليه الآن.

توقّف البروفيسور فجأة وقد أمسك صدره في ألم، كان من العسير أن يدرك مدى الضّرر الذي طال أعضاءه الدّاخليّة إثر التحطّم الكارثيّ للطّائرة المروحيّة وكانا في حاجة إلى الرّاحة واستمرار الحركة لم يُسعفهما معروفًا قطّ! انتبه آدم فجأة إلى جفاف حلقه وطعم الملوحة اللّاذع، لو كان يفكّر تفكيرًا سويًّا لكان الآن يتتبع أثر منبع ماء جارٍ أو يبحث في الأحراش عن فاكهة تُؤكل، سارع يقول:

- اجلس هنا، سوف أبحث عن الماء والطّعام.

ساعد الرّجل المتهالك على الاستناد إلى جذع سميك لشجرة مُعمّرة لكنّ والده شدّ على ذراعه يمنعه من المضيّ وقال بصوت مجهد متقطّع:

- لا.. لا ماء ولا طعام بعد، يجب أن نجد السّكان أوّلًا!

استجاب آدم لرجائه على مضض فأقعى على الأرض فوق سجّاد من الحشائش وتأمّل وجه أبيه السّاكن، كان قد أغمض عينيه وأخذ يتنفّس مجهدًا بشفتين منفرجتين؛ شفتين متشقّقتين ويابستين. كانا يحتاجان إلى الماء، دون ماء لن يستمرّا طويلًا لكنّ والده الملهوف يُصرّ بلا منطق أو عقل على تحقيق مجده البحثيّ أوّلًا حتى لو كان ذلك على حساب حياته ذاتها!

تساءل إن كان الليل سيهبط قريبًا، لم تكن الإضاءة الطّبيعيّة تسمح بتمييز أيّ وقت من النّهار كان، في وجود الشّمس كان بوسعه تتبّع حركتها وتحديد الصّبح من الزّوال أو العصر لكنّ كلّ ما يملكه الآن هو التكهّن الأعمى، إذا حالفهما الحظّ فقد تكون أمامهما بضع ساعات بعد ليجدا الماء وشيئًا يقتاتان به.

تمهّل لبضع دقائق حتّى أدرك أنّ والده قد غفا، كان مكدودًا ومستنفد القوى. وقف آدم في تصميم وتلفّت حوله، كان يحتاج إلى أن يضع علامة يُحدّد بها موقعه ثمّ يترك أثرًا حتّى يرجع أدراجه دون أن يتوه، انحنى ليجمع بضع حصيّات بيضاء لكنّه أدرك بسرعة أنّها لن تكون مرئيّة وسط الحشائش إذا ما هبط الظلام. كان يشعر بوخزها في باطن قدميه بعد أن فقد حذاءه في البحر، تفقّد ساقيه، لم يجد أثرًا لأيّ خدوش رغم إحساسه بتنميل مثل دبيبٍ على جلده، لاحظ فجأة الطّين الفضيّ اللّامع الذي التصق بهما فأخذ حفنة وترك أثرًا على جذع الشّجرة التي يرقد تحتها والده ثمّ ابتسم.. كان الطّين الرّمليّ يتوهّج.

ابتعد بحذر عن موقعه وعيناه على موطأ قدميه ودأب على ترك علامات طينيّة بجذوع الأشجار على امتداد الطّريق. كان يتوقّف من حين إلى آخر ويصغي إلى الطّبيعة السّاكنة، لحسن الحظّ لم يتناه إليه غير أصوات العصافير والحشرات التي تئزّ حول الحشائش، لم يبد أنّ كائنات شرسة

قد تتربّص به في الجوار. أخيرًا، ميّز خرير المياه المتدفّقة! هرول في لهفة إلى الجدول القريب ثم انحنى ليغمس كفّيه ويأخذ غَرفة، تذوّق الماء بطرف لسانه ليجده عذبًا زلالًا فأخذ ينهل منه بنهم، شرب طويلًا حتّى ارتوى ثمّ غسّل وجهه وأطرافه وقد تجدّد انتعاشه.

لم تكن السماء قد أظلمت بعد، رفع عينيه بانتباه فأبصر شجيرات برية تشبه التّوت، بدت ثمراتها مألوفة، في الدّيار كانت تلك فاكهة تؤكل، التقط قطعة توت حمراء داكنة وتذوّقها، كانت حامضة لكنّ طعمها مستساغ، انبرى يجمع حبّات التّوت ويَلقي قطعة في فمه من حين إلى آخر، حدّق في الكميّة التي تجمّعت بتجويف قميصه المرفوع وقرّر أنّها كافية للوقت الحاليّ، مشى بحذر حتّى لا تتساقط قطع التّوت ثمّ راح يفكّر في كيفية حمل الماء إلى والده.

تطاول لينتزع ورقة عريضة من شجرة قريبة ثمّ انحنى ليصنع منها كوزًا بعمقٍ كافٍ أغطسه في الجدول ليملأه ماءً ثمّ استعدّ للعودة.

سار بهدوء محاذرًا أن يفقد قطرات الماء المترنّحة ممسكًا الورقة المطويّة بكفّ وقابضًا على طرف قميصه الذي يحتضن حصيلة الحصاد بكفٍّ ثانية ومتتبّعًا العلامات التي خلّفها على الجذوع. بدت رحلة الرّجوع أطول وأشدّ وطأة على أعصابه لكنه حين أبصر الرّجل الذي يغطّ في النّوم لم يغادر مكانه تنفّس الصّعداء.

جلس إلى جواره وقرّب الكوز من شفتيه ليبلّلهما ثمّ سكب الماء في حلقه بجرعات صغيرة تقبّلها أشرف في لهفة، كان لا يزال غائبًا مغمض العينين، بلطفٍ ضغط آدم على حبّة توت ثمّ سكب عصارتها في فم والده وهمس:

- أبي، يجب أن تأكل!

فتح البروفيسور أشرف عينيه الغائمتين ثمّ شعر بالطّعم الحامض على لسانه، في اندفاع يائس بصق الثّمرة بقوّة وصرخ بصوت متهدّج:

- ماذا فعلت؟ ألم أقل ألا تأكل شيئًا؟

حدّق آدم في والده المستشيط غضبًا دون أن يستوعب ثورته، لقد فعل ما تمليه غريزة البقاء لكنّ والده لم يبد سعيدًا لأدنى درجة، تعالى صراخه المختنق مجدّدًا:

- أنت لا تصغي! متى تتعلّم الإصغاء إلى ما يقوله الكبار؟

الكبار! لقد بلغ الثالثة والعشرين منذ بضعة أشهر، لم يعد طفلًا، إنّه شاب بالغ عاقل ومشهود له بالذّكاء وحضور البديهة لكنّ والده البروفيسور الموقّر لا يعتبره بعد من «الكبار» ولا يعامله بما يستحقه من احترام.. نفض كفّيه في وجوم.

جاءه صوت والده المستسلم وهو يقول:

- صلِّ.. صلِّ أن نجد السُّكان قبل أن نموت!

***

غادرت سفينة «الأسطورة» سواحل البحر الأحمر في منتصف سبتمبر باتّجاه الجنوب. باستثناء طاقمها كان عدد قليل من المسافرين على متنها، صاحبها «مايك راسل» وابنته اليافعة مانويلا كانا ضمن المرتحلين هذه المرّة. لسنوات خلت كان مسارها الطبيعيّ يمتدّ من البحر الأحمر إلى السّواحل الآسيويّة مرورًا بالهند والصين وسنغافورة حيث تُشحَن السّلع وتُفرَّغ في مختلف الموانئ عبر مسيرة غدوّ ورواح تدوم شهرًا ونيّف، لكنّ الرّحلة الحالية كانت من نوع آخر.

يفهمه وقد أحضرت أخاها لأنها تودّ أن تقنعه بشيء ما، لعلّها تسعى إلى جعله يستمع ارتيا لم يكن ليصغي لكلّ هذا الشّرح في ظروف أخرى ولولا اضطراره لمرافقتها لما صبر على ثرثرتها عن «مهافيا دياما» وعلومه.

قالت فجأة وهي تشير إلى ريحان:

- هلّا تفقّدت الطريق؟

أومأت الطّفلة بحماس عفويّ وتوارت خلف الشّجيرات. فكّر آدم أنّها تعلن نهاية الجلسة، كان ذلك هو الوقت المناسب ليسلّم أوراقه، قال وهو يمدّ اللّفافة تجاهها:

- لقد انتهيت من تدوين سورة البقرة.

التمعت عيناها وهي تأخذ منه الورق وتقلّبه في اهتمام، لقد حرص على كتابة واضحة وجميلة، لا يذكر أنّه قد اهتمّ يومًا بأناقة الخطّ كما فعل في لياليه الماضية، يستحضر رسم المصحف العثمانيّ في ذهنه ويجتهد ليحاكيه ما أمكنه لذلك حين ظهرت تلك الابتسامة الجذلة على شفتيها انتابه إحساس غامر بأنّ الأمر كان يستحقّ العناء.

فاجأته حين همست دون مقدّمات:

- هل تودّ أن تلقي نظرة على «المصدر»؟

زأر مروان في غضب:

- روان!

حدّق آدم فيها بشكّ فيما تربّت ركبة شقيقها بكفّ حازمة وتشير إليه بنظرة مطمئنة. تساءل إن كانت قد حدّثت أخاها بشأن «سرّه»! فإن لم تكن قد فعلت ألا تعرّض نفسها للانتقاد وربّما اللّوم إن هي أخلفته في تلك الزّيارة؟ وهل كان تدوينه سورة البقرة يستحقّ تلك المكافأة؟

مايك، مثل أيّ مستثمر ناجح، كان يقتنص الفرص فور ظهورها وقد لاحت له فرصة مميّزة حين ظهر البروفيسور أشرف عند مكتبه، لم يكن المحيط الهندي منطقة مجهولة بالنّسبة إلى طاقمه لكنّ تمشيط رقعة المحيط دون إحداثيات واضحة بحثًا عن جزيرة موهومة كان ضربًا من الجنون! بيد أنّه كان الرّجل الذي يتمتّع بقدر كافٍ من الاندفاع ليلمح بريق الفرصة في عتمة الغموض.

قبل أن يتوصّل البروفيسور أشرف إلى اتّفاقه مع مايك راسل كان قد جرّب طرقًا ملتوية أخرى. لم تكن الوظيفة الأكاديميّة تصنع ثروة رغم المجد والتقدير والاحتفاء الاجتماعيّ، بعد خمسة وعشرين عامًا من العمل لم تكن مدّخراته قادرة على تمويل رحلاته الاستكشافيّة، لم تقتنع الجهات الحكوميّة بجدوى ضخّ المال في التّفتيش عن جزر ما يعتقد البروفيسور المهووس بأنّ أحدًا قبله لم يكتشفها بعد اختراع الأقمار الصّناعيّة والرّادارات وأجهزة تحديد المواقع!

كانت الرّحلات السّابقة برفقة بعض صائدي الجوائز، هؤلاء كانوا يبحرون بحريّة للعثور على السّفن والطائرات القابعة في قعر المحيطات لكنه لم يكن يقدر على إملاء المسار في تلك الحالات إنّما يرضى بمرافقة السّفن المغامرة لعلّها تقترب بالقدر الكافي من جزيرته.

في النهاية لم تُسفر رحلاته مع صائدي الجوائز عن نتيجة تُذكر لكنّها فتحت عينيه على كنوز العالم المخفيّة! في بحار العالم ترقد ثروة تقدّر باثنين وثلاثين مليار دولار جرّاء غرق السّفن القديمة، فكّر.. لو أنّه لم يشغل شبابه بالبحث عن جزيرته هذه فربّما كان ليجد صيد الكنوز تحدّيًا ملائمًا ولعلّ الكنوز المكتشفة كانت لتكفيه مؤنة البحث عن تمويل! لكن لكلٍّ مسيرته في الحياة وقد كانت رحلته الخاصّة عبر بوّابة الخرائط.

ولم يكن صيد السّفن الغارقة بأيسر من التّفتيش عن الأرض الخفيّة، كثيرًا ما كانت الرّحلات ترجع خالية الوفاض أو تكتفي باستخراج حطام طائرة تجاريّة ما بلا قيمة، غير أنّ القبطان «سنكلير» كان يروي بحسرة قصّة فرصته الأكبر دون انقطاع.

«فلور دي لا مار» سفينة حربية برتغالية كانت عائدة من حملة عسكرية عام 1511 في ملقا، وهي مركز تجاري رئيسي في جنوب غرب ماليزيا، محملة بغنائم الحرب بما في ذلك الكنوز التي جاءت من نهب القصر الملكي لسلطان ملقا. تعرضت السفينة لعاصفة شديدة ويقال إن نحو أربعمئة رجل قد فقدوا حياتهم وغاص مع السفينة قرابة ثمانين طنًا من الذهب والمتعلّقات الثمينة الأخرى بقيمة اثنين ونصف مليار دولار بأموال اليوم.

في سنة 1992 كان «سنكلير» يعمل على استخراج الغنيمة لكنّ الحكومة الإندونيسية اعترضت طريق سحب الذهب من مياهها، قال سنكلير: «لقد ظلوا يريدون نسبًا أعلى وأعلى مما سنستردّه، لم يعد الأمر مجديًا من الناحية المالية، كانت لدينا فكرة جيّدة عن مكان السفينة ولكن بدا الأمر وكأننا نصنع قدرًا من يخنة المحار ونكتشف أن لدينا صديقًا جائعًا للغاية».

على سطح «الأسطورة» استلقى آدم على مقعده المريح محاولًا الاسترخاء. لم يكن يختًا سياحيًا من الدّرجة الرّفيعة لكنّ مقصورة الطّابق الثالث التي حظي بها كانت مريحة بشكل كافٍ، لم يختر الإبحار بملء إرادته، دفعت به والدته دفعًا واستحلفته كي يفعل، قالت بصوت متأثّر بعد نوبة من السّعال:

- عليك أن تقترب من والدك أكثر، تعرَّف عليه وشاركه اهتماماته، إذا رحلتُ يومًا فلن يبقى لأحدكما إلا الآخر!

كان يشقّ عليه أن يخلّفها وحيدة لكنّها ألحّت:

- أسبوعان، سأكون في انتظارك بعد أسبوعين، لن تندم، أعدك!

لكنه ندم ألف مرّة منذ وضع قدميه على متن السّفينة!

بعد أن تدرّجت «الأسطورة» في مياه البحر الأحمر حتّى مضيق باب المندب ثمّ خليج عدن وبحر العرب، أفضت إلى المحيط الهنديّ الفسيح. كانوا في عرض المحيط منذ بعض الوقت؛ تصبح المياه أكثر عمقًا ولونها ذا زرقة داكنة فتوحي بظلمة بعيدة في الأغوار السّحيقة، لم تكن أشعّة الشّمس تصل إلى الطبقات السفلى حيث تختفي مجاهل ساحرة وغامضة، وقد أخذ يستشعر الملل والرّهبة مذ أصبح المحيط فضاءً واحدًا شاسعًا لا أثر فيه لياسبة أو حياة أخرى، كأنّهم وحدهم تمامًا أمام وحش الماء المتقلّب!

وقد كان يخشى وحش الماء ويرهبه، في أعماقه كانت رواسب تجربة قديمة منذ أيّام منزل الشّاطئ لا تزال تؤثّر في قراراته، وكان الإبحار مناقضًا للتّحذيرات الدّاخليّة التي يتردّد صداها في أذنيه بإلحاح.

بعد والدته، كانت مانويلا طرفًا حاسمًا في مغامرته.

جاءت الصّهباء الأعجميّة لتحلّ طالبة زائرة في جامعته منذ سنتين، كان شكلها جديرًا بشدّ الأنظار إليها تلقائيًا لكن شخصيّتها ما صنع شعبيّتها داخل قاعات المحاضرات وخارجها. مانويلا تحبّ السّفر، وهي رحّالة متمرّسة، زارت نصف بلاد العالم قبل أن تبلغ العشرين، فيما يفتخر آدم بمكانة والده وتضلّعه في علم الجغرافيا، كانت مانويلا تحفظ خارطة العالم مثل كفّ يدها بناءً على تجربة شخصيّة ثريّة، كانت الرّحالة الشابة تسير على خطى أسلافها المستكشفين البرتغاليين «فاسكو دي غاما» و«فردبناند ماجلان»، بثبات وعزم.

وانبهر آدم بصورتها الفتيّة النّابضة بالحياة، لا ينكر، فتقرّب إليها كما فعل شُبّان كثر من الدّفعة، لكنّه نجح في الحصول على انتباهها، ليس بفضل مزاياه الفريدة ولكن لاهتمامها بنشاط والده! كان جلّ ما يتحدّثان بشأنه هو رحلتها السّابقة أو المقبلة وأبحاث والده. يعترف لنفسه أنّها لم تكن صنفه المفضّل من الفتيات لكنّ حرصه على صداقتها له دافع مختلف، لم يفتأ يستشعر الفضول تجاهها، ألم تكن الابنة المثاليّة التي يتمنّاها باحث مثل والده؟

في النهاية، كانت هي مَن اقترح لقاء الرّجلين، وبفضل مساعيها الحثيثة وجد البروفيسور أشرف سفينة تقلّه إلى مكان التّنقيب الذي يريده.

شعر بخطوات والده تقترب، إن كان الهدف من الرّحلة أن يتقاربا فإنّهما لم يتبادلا سوى جمل عابرة خلال اليومين الماضيين. كان البروفيسور مشغولًا في محادثات مطوّلة مع المستثمر والقبطان، يشرح الإحداثيات التقريبيّة ويرسم صورًا بيانيّة ويضع خطّة التمشيط المستحيلة، قال آدم في اندفاع:

- هل هي مميّزة إلى هذه الدّرجة.. جزيرة الأشباح هذه؟

ابتسم أشرف، ثمّ أخذ يشرح كأنّه يلقي محاضرة على طالب بليد:

- هذا النّوع من الجزر بعضها يطلق عليه «الجزر الوهميّة» وهي تلك التي توهّم البحّارة وجودها في زمن ما ثمّ عدّلت الخرائط الحديثة لتحذفها.. بعضها الآخر يسمّى «الجزر المفقودة» لأنّها كانت موجودة ثمّ اختفت بسبب العوامل الطبيعيّة، ومن المتوقع أنّ عددًا من جزر أرخبيل المالديف ستختفي خلال بضعة عقود بسبب ارتفاع مستوى المياه.. وما زالت الجهود حثيثة لإيقاف المدّ ورفع مستوى اليابسة رغم أنّ الحلول مثيرة للجدل؛ إنّهم يسحبون

الرّمال من قعر المحيط لتعزيز اليابسة وتمديد عمر الجزر المهدّدة خمسين أو مئة عام أخرى! وهناك أيضًا «الجدران البحرية» وهي جدران حقيقيّة من الخرسانة الثابتة تُبنى حول الجزر لتحدّ من أثر العواصف وهجمات الأمواج!

لوّح آدم بكفّه على مضض، فليكن، أيًا ما كان، لم يكن مهتمًا، كان ساخطًا لاضطراره خوض رحلة سخيفة وراء وهم بلا قيمة لكن بما أنّ مايك راسل كان مخبولًا بالقدر الكافي ليجاري والده في أحلامه غير الواقعيّة. الباحثون والمغامرون كلاهما يتمتّع بقدر من الجنون والسّذاجة، تحتاج إلى أن تكون ساذجًا لتعتقد أنّ في العالم مكانًا لم يصل إليه أحد قبلك ومجنونًا لتنفق أموالًا طائلة وسنوات طويلة في سبيل هذا الوهم!

- لكن هذه الجزيرة.. أنا واثق أنّها لم تختف.. ليس بعد! رقعتها ممتدة وعليها مرتفعات جبليّة وتلال.. لا يمكنها أن تختفي بهذه السّهولة!

سرحت نظرات آدم إلى البعيد، لم يكن هذا نوع التقارب الذي توقّعه، أن يستمع إلى محاضرات والده المملّة! طلبت منه والدته أن يفهمه أكثر، إنّه يحاول، لكنّ ذلك الشّغف الشّديد بعالم خياليّ يثير حنقه! إنّهما حقيقيّان على الأقل، هو وأمّه، لكنّ البروفيسور لا يراهما، هناك أشياء أكثر أهميّة تشغل رأسه الأشيب وتنخر عقله الهرِم.

- هل سمعت عن أطلانتس؟

عادت نظرات آدم إلى والده في استفهام..

- هل تقصد مدينة الكنز الخياليّة التي صنعت حولها أعمال سينمائية ودراميّة؟

أومأ أشرف ثمّ أضاف:

- لقد جاء ذكر أطلانتس في بعض النّصوص القديمة لأفلاطون، الفيلسوف الإغريقيّ.. على أنّها جزيرة كانت موجودة في وقت ما من الماضي. يعتقد بعض العلماء أنّها بالفعل تقع جنوب إسبانيا حيث كشفت صور الأقمار الصّناعيّة التي التُقطت للمنطقة أنّ خصائص الأرض هناك تُطابق الوصف الذي ذكره أفلاطون في «المدينة الفاضلة»، وأنّها ربّما تعرّضت للدّمار نتيجة فيضانات بين عامي 500 و800 قبل الميلاد.. ويقال أيضًا إنّ الخرائط القديمة التي رسمها البحّار المستكشف كولومبس -قبل رحلته الشّهيرة لاكتشاف القارّة الأمريكيّة- تُظهر رسمًا لجزيرة كبيرة غير موجودة في الوقت الحاليّ قد تكون أطلانتس نفسها.. وكما تعلم فإن الأسطورة قد أسالت حبرًا كثيرًا وخُلِّد اسمها في الروايات والأعمال الدراميّة منذ عصور طويلة!

هزّ آدم رأسه في استسلام ثمّ قال بلهجة ساخرة:

- وجزيرتك هذه، هل تحمل اسمًا ما؟ هل ذُكِرَت في أسطورة إغريقيّة أم رومانيّة؟

ابتسم أشرف برحابة صدر وقال:

- ربّما أكون أوّل من يُسمّيها ويذكرها في أبحاث تفصيليّة فيسعى الباحثون والبحّارة وراءها في المستقبل وينسج الروائيّون قصصًا عنها!

- ماذا عن الأقمار الصّناعيّة؟ ألم تُحدّد موقع أطلانتس؟ لماذا لا تُظهر موقع جزيرتك هذه إذًا؟

غامت نظرات البروفيسور للحظات ثمّ هزّ كتفيه:

- لا أدري! هناك أمر غامض ومستعصٍ بشأنها، إنّها لا تظهر في الصّور.. ولا يمكن رصدها بالرادار.. ولن تعرف أنّها بالقرب منك حتّى تصطدم بها!

- «الجزيرة المراوغة»!

ابتسم أشرف وهزّ رأسه:

- اسم مناسب فعلًا، سأضعه على قائمة الأسماء المحتملة.

***

لقد غلبه النّعاس وحين فتح عينيه أدرك أنّه قد غفا دون أن يشعر، هبط الليل على الجزيرة فجأة، لم يكن الليل المتوقّع في عتمة غابة استوائيّة فالظّلمة لم تكن بالشدّة المتخيّلة، لعل السّحب المنخفضة كانت تنشر أشعّة القمر لتصنع طبقة رقيقة من الإنارة الطّبيعيّة اللّيليّة، لكنه لم يعتقد أنّ القمر وحده قد يصنع هذا القدر من الضياء، من وراء طبقات السحب الكثيفة، لتغدو مثل أمسية على لهيب الشّموع أو توهج شفق قطبي بلون واحد! وكانت الرّمال الفضيّة عند قدميه تستمرّ في التألق عاكسة الإضاءة من حولها.

التفت إلى حيث استقرّ والده في نوم وديع وعميق، تأمّل وجهه المجعّد ورأسه الذي اشتعل شيبًا، سحنته الباهتة، أطرافه المستسلمة، صدره الذي يرتفع ويهبط بصعوبة، لقد كره خلافهما منذ ساعات، أراد أن يثبت نفسه، أن يكون مفيدًا، لكن لا شيء يرضيه!

قرقرت معدته بصوت بيِّن، كان يشعر بوخزات الألم، ولعلّ ذلك ما أيقظه؛ ألم المعدة، كره أن يعترف بأنّ والده ربّما كان على حقّ، لعلّه أعلم منه بخفايا الحياة البرّيّة، فقد سبق أن سمع عن أنواع سامّة من الفطر والأعشاب، لم يكن من الحكمة أن يتناول أيّ شيء في نظام بيئيّ مجهول،

السُكّان كانوا سيعلمون بالتّأكيد أيّ الأنواع سامّ وأيّها صالح للأكل، والآن.. يشعر بتوعّك شديد كأنّه قد تناول طعامًا فاسدًا!

انحنى فجأة وأخذ يتقيّأ بقوّة، كانت معدته متشنّجة، لقد تناول كثيرًا من التّوت البريّ، أفرغ ما في جوفه من عجين لزج ذي صبغة حمراء مثل الدمّ ممزوج بالندم والجزع، حملق في قيئه فزعًا.. لم يعرف إن كانت فاكهة صافية أم أنّه قد تقيّأ دمًا! اتّسعت حدقتاه واضطربت أنفاسه وكاد يستسلم لنوبة هلع، لكنّ التشنّجات لم تتوقّف وجعلته ينحني من جديد وهو يشدّ على معدته متوجّعًا.. لفظ العصارة الهضميّة الصفراء والمرّة، تتخلّلها خيوط حمراء، وما زالت معدته تتقلّص بعنف، تقرصها هواجس الليل!

حين انتهت وصلة القيء.. كان متعرّقًا وفارغًا تمامًا، تملّكه ذلك الإحساس بالخواء والبلادة كأنّ جسده هيكل متهالك وخالٍ من أيّ شيء بالدّاخل، علِق طعم المرارة في حلقه مثل شوكة طويلة حادّة ليزيد من إحساسه بالجفاف.. ماء.. كان يحتاج إلى ماء. ما زالت العلامات التي تركها على جذوع الأشجار تتوهّج في ظلمة الليل، استقام وخطا بهدوء متتبّعًا المسار المتعرّج عبر الأشجار مرّة أخرى حتّى وصل إلى الجدول، ملأ بطنه بالماء البارد ثمّ تنهّد في إعياء، بصق في كفّه بحذر بعد أن تمضمض بثفانٍ، خشي أن يُبصر الدّم في لعابه لكنّه بدا صافيًا.

مرّة أخرى، صنع كوزًا من ورق الشّجر وملأه ماءً من أجل أبيه ثم قفل راجعًا. فكّر: إن لم يجدا أحدًا.. كم من الوقت يقدران على الاستمرار أحياء؟ أين يمكن أن يكون السُّكان؟ على مسافة ميل؟ أكثر أو أقل؟ في أيّ اتّجاه؟ عادت إليه نظريّته القديمة: ربّما تجدر به العودة إلى الشّاطئ والبحث عن حطام الطّائرة، ربّما يتمكّن من الاتّصال بالسّفينة أو العثور على بعض المؤن الآمنة.

سكب قطرات الماء برفق بين شفتي والده، بدا أنّ الرّجل الكهل يعاني أعراضَ الجفاف، فكّر آدم أنّ عليه الرّجوع إلى الجدول في رحلة أخرى ليزوّده بمزيد من الماء، لمست أنامله بعفويّة بشرة عنق الكهل النّائم فتراجع مصعوقًا، عاد ليضع راحته على جبينه مستطلعًا فهالته الحرارة المتدفّقة من جسده.. كان محمومًا! بلّل آدم طرف قميصه بالماء وأخذ يمسح وجه والده برفق قبل أن يلحظ تلك البثور الصّغيرة التي ظهرت أعلى صدره وأسفل عنقه، اتّسعت عيناه دهشة.. هل كان والده يعاني حساسيّة ما؟ حساسيّة تجاه التّوت البرّيّ؟!

الحمى والبثور بدت علامات واضحة لحساسيّة الطّعام، لكن لا وجود لمضادّات الحساسيّة في البريّة ولا أيّ نوع من الدّواء الخافض للحرارة! مسح وجهه بكفّه في عصبيّة، لقد كان عليه أن يتصرّف في ظلّ انهيار والده.. تمنّى لو كان البروفيسور أشرف قادرًا على توجيهه بقدر ما، لو كان أشرف الصّافي مكانه، ماذا كان ليفعل؟ هل كان ليعود إلى الطائرة؟

لكنّه قد أخبره بالفعل بما ينبغي له عمله..

«جِد السُّكان!»

***

سيطر الضّباب على سطح السّفينة، حين استفاق آدم صباحًا كانت الرؤية شبه منعدمة، هبط ضباب أبيض كثيف على البحر غدرًا واستباح الظلمة الأعين. طفا الغموض في الهواء من جميع الاتّجاهات لحجب مشهد المحيط مترامي الأطراف.

غادر آدم مقصورته بهدوء متوجّس الفؤاد ومشى حتّى السّطح يراقب ما يحدث. كانت محرّكات السّفينة متوقّفة والمرساة ملقاة في عمق المحيط

بالفعل، لن يبحر القبطان في هذا الطّقس إلّا إذا عرف أين يتّجه، لكنّها رحلة تمشيط لعينة بلا وجهة محدّدة!

في مقدّمة «الأسطورة» كان والده يتجادل مع المستثمر بصوت عالٍ. مشى باتّجاههما في فضول وريبة، كان مايك راسل متجهّمًا في حين يحاول البروفيسور أشرف إقناعه بشيء ما..

- لا يمكنني المجازفة، الطيّار لن يوافق على اصطحابك!

- لا أحتاج إلى الطيّار.

قال أشرف بثبات ثمّ أضاف في عنادٍ:

- أحمل رخصة قيادة!

ضحك آدم خلفهما، فاستدارا ناحيته، قال ساخرًا:

- رخصة قيادة؟ إنّها طائرة مروحيّة يا أبي!

حدّق فيه أشرف بانزعاج، لم يبد أن النّكتة تثير رغبة الضّحك لديه، أخرج محفظته الجلديّة واستظهر بطاقة تحمل صورته الشخصيّة، تفحصّها مايك، قبل أن ينتزعها آدم من كفّه في ذهول؛ رخصة قيادة طائرة خاصّة، كان يدرك أنّه لا يعرف والده جيّدًا لكنّه لم يتوقّع هذا النّوع من المفاجآت، قال أشرف شارحًا:

- حين كنت أستاذًا زائرًا في الولايات المتّحدة الأمريكية، كانت هناك خدمة التنقّل عن طريق الطّائرات المروحيّة الخفيفة لاكتشاف الجزر القريبة، وقد رأيت من المفيد أن أحصل على الرّخصة لتيسير التنقّل؛ استئجار طائرة لنهاية الأسبوع كان أمرًا متاحًا هناك..

أعاد آدم إليه الرّخصة ولمّا تنطفئ نظرة الدّهشة في عينيه.

قاطعها مايك:

- لكنّني لن أؤجّر الطائرة لك! مخاطر التّحليق في هذا الجوّ عالية!

- سأدفع لك!

- كيف ستدفع؟ هل تعلم كم تُكلّف طائرة مثل هذه؟

- سأدفع بعملة نادرة لن تقدر على رفضها.

لمعت في عيني مايك نظرة مكر وطمع، بدا أنّه يدرك أيّ نوع من العملات يتحدّث عنه البروفيسور، تنهّد ثمّ قال مستسلمًا:

- ما دمت مُصرًّا.

نزل البروفيسور إلى مقصورته ثمّ رجع بعد دقائق وبيده صندوق خشبيّ بحجم راحة اليد، فتحه مايك بحرص وألقى نظرة متفحّصة على ما يحتويه، ثمّ أشار إلى المروحيّة الرّابضة في مهبطها أعلى السطح وقال:

- الطائرة في عهدتك.

أومأ أشرف شاكرًا ثمّ استدار إلى آدم، انتابه التردّد لحظة، كان يدرك مقدار الخطر الّذي يحفّ تلك الرّحلة، سأله برفق:

- آدم.. هل تودّ مرافقتي؟

فتح آدم شفتيه وهمّ بالاعتذار ثمّ لمح مانويلا التي جاءت لتنضمّ إلى ثلاثتهم في مقدّمة السّفينة، لم تكن الفكرة تستهويه لكنّه تهوّر دون سبب، هل أراد إثارة إعجاب الفتاة الصّهباء؟ إثبات جدارته؟ من المؤكّد أنّ لنظراتها المُربكة دورًا في تسرّعه، وإن علم على الفور أنّه سيندم قريبًا!

أومأ برأسه وهو يتبع خطوات والده في ثبات. على منصّة الهبوط كانت مروحيّة رصاصيّة ذات مقعدين شديدة الخفّة من طراز «سيكاري 18» تربض في انتظارهما. وهو يتّخذ مكانه على مقعد مساعد الطيّار، ابتسم آدم

لنفسه منهكًا، ربّما كان هذا نوع المغامرة الذي سيجعلهما أقرب؛ رحلة في طائرة مروحيّة عبر المحيط في يوم ضبابيّ منعدم الرؤية!

جلس أشرف أمام دفّة القيادة، احتاج إلى بعض الوقت ليتعرّف مكوّنات لوحة المفاتيح أمامه وفوق رأسه ويراجع مراحل الإقلاع في ذهنه، همس آدم لنفسه ساخرًا: «بالتّأكيد كلّ الطّائرات تتشابه مثل السيّارات!»، بعد دقائق قليلة زمجر محرّك الطّائرة وأخذت المروحة في الدّوران.. «لعلّها تتشابه فعلًا، في نهاية الأمر!»

حين أقلعت المروحيّة في خطّ متعرّج شعر بمعدته تلتصق بحلقه واستبدّ به الدّوار والرّعب، لم يكن قد ركب مروحيّة من قبل فضلًا عن مروحيّة يقودها والده! تمسّك بأصابع متيبّسة بهيكل الطّائرة الجانبيّ وازدرد لعابه في عصبيّة، كان آخر ما لمحه من زجاج المروحيّة الجانبيّ قبل أن ترتفع الطّائرة في الهواء ويحجبها الضّباب هو ابتسامة مانويلا المتشنّجة، لوّحت له بكفّها تلويح مودِّع.. لم يدر ما الذي كان يدور بخلدها في تلك اللّحظة، هل تمنّت أن تكون مكانه؟ أم لعلّها أشفقت عليه من المصير المجهول الذي يتربّص به؟

في المقابل، كان والده في منتهى التّركيز والثّقة أيضًا، سأله آدم في شكّ:

- ما الذي يجعلك مُصرًّا على الإقلاع في هذا الجوّ؟

أجاب أشرف باقتضاب وعيناه تتابعان المسار باهتمام:

- الضّباب!

لم يكن ذلك هو الجواب الذي توقّعه، غير أنّه لم يحاول أن يقاطع تركيزه مجدّدًا. استسلم لقدره الذي جعله يغامر بخوض تجربة متهوّرة على متن سفينة تشقّ المحيط بلا وجهة ثمّ داخل علبة معدنيّة تطير عن طريق سيفين دوّارين!

بعد برهة، أخذ أشرف يشرح من تلقاء نفسه:

- ألم أقل لك؟ إنّها جزيرة مراوغة لا تظهر للعيان بسهولة، خاصّة إن كنت تفتّش عنها عمدًا، لديها خدعها الخاصّة للتواري، لذلك أعتقد أنّ هذا الضّباب علامة على اقترابنا، أحتاج إلى أن ألقي نظرة من علٍ، ربّما يمكنني أن أميّز علامة ما تقودنا إلى الاتّجاه الذي ينبغي الإبحار فيه.

همهم آدم بكلمات غير مفهومة مقاومًا رغبة في التقيّؤ.

في الخارج كانت المروحة تستمرّ في الدّوران السّريع ممزّقة كتل الضّباب ليهتزّ جسم الطّائرة باستمرار متأثّرًا بمقاومة الهواء. إنّ ما يعدّه الطيّارون مجازفة، يعتبره البروفيسور أشرف فرصة. تمنّى آدم لو يتوقّف الاهتزاز فقط، لو يعودان بأمان إلى سطح السّفينة بعد جولة استطلاعيّة سريعة فأحشاؤه لا يمكنها تحمّل مزيد من الضغط فترةً طويلة.

فجأة توقّف الأزيز والاهتزاز بغتة.. لجزء من الثانية حسب آدم أنّ صلواته قد استجيبت وأنّ الوضع في السّماء قد استقرّ بمعجزة ما، لكن الطائرة أخذت تهوي بسرعة هائلة إلى الأسفل، صرخ أشرف في هلع:

- تمسّك جيّدًا!

فتمسّك آدم.. لكنّ تمسّكه لم يمنع جسده من الارتفاع في حركة مضادة للجاذبيّة، ليلتصق بسقف المروحيّة الهابطة في سقوط حرّ، سمع دويًّا عنيفًا لارتطامها بسطح الماء وامتلأ رأسه بطنين صارخ يمزّق طبلتي أذنيه وأظلمت الدّنيا في عينيه..

ثمّ لم يشعر بشيء بعد ذلك.

(2)

اليوم الثاني

«أينك كنت هنا!».

تصله تلك الصّور من مانويلا في مناسبات عدّة وهي واقفة في خيلاء أمام معالم سياحيّة أو مشاهد طبيعيّة خلابة، قبل أن تذيّلها بتلك العبارة التي تحمل في ظاهرها نوعًا من المشاركة الوجدانيّة، في حين تُبطن -كما يظن!- قدرًا من التفاخر والاستعلاء!

كانت تلك العبارات السّخيفة التي تردّدها مانويلا تثير سخريته.. «سافِر.. أنت لست شجرة!»، «سافِر.. تَعِش أكثر!»، يمكن لأيّ شخص أن يقول الشّيء ذاته عن هوايته الأثيرة؛ القراءة مثلًا أو السّينما أو الفنّ عمومًا، أنت تعيش أكثر وأكثف وأعمق حين تنغمس في ما تحبّ، تحيا أكثر ممّن يهيم على وجه الأرض، كمن يؤدّي واجبًا لا أكثر، وتفتقر حياته إلى المتعة والشّغف والعشق.

أنت تعيش أكثر، ليس لأنّك تتنقّل عبر المكان بل لأنّ روحك تحلّق في مساحات خيال غير ماديّة لا يدركها الآخرون من حولك ولا تخطر على قلب أحدهم، وهو شغوفٌ بما يكفي لحيوات عدّة فلا تضرّه قلّة السّفر.

وللمفارقة، رغم أن والده يسافر كثيرًا بدوره فقد كانت قدما آدم راسختين على الأرض، لم يغادر موطنه قط إذ لم يكن أبدًا مُحبًّا للطّبيعة والأنشطة الخارجيّة ولم يستوعب ولع النّاس بالتعرّق والتعرّض لأشعّة

الشّمس الحارقة ولسعات البعوض وخدوش الأغصان والحشائش والاتّساخ بالطين والرّمال! لم يكن يكره الأنشطة الرّياضيّة لكنّ التريّض المفضّل لديه يكون في القاعات المكيّفة والنّظيفة.

لا يذكر متى كانت آخر جولة له في منطقة جبليّة أو في قلب الغابة، لا شكّ أنّها كانت في زمن الطّفولة، في وقت لم يكن يتّخذ فيه قراراته بنفسه، لم يذهب قطّ للتخييم، يفضّل السّباحة في الأحواض المعقّمة بالكلور على وطء شواطئ رمليّة تتراكم الطّحالب -التي لفظتها الأمواج- على حافّتها، كان منظرها يثير بداخله التقزّز ويدفعه إلى العودة غريزيًّا للاحتماء بحمام السّباحة ذي الإطلالة الرّومانسيّة، لم يكن يكره الطّبيعة بل يجدها جذّابة غالبًا في لوحات تزيّن الجدران وخلفيّة جهاز الحاسب الآليّ وعبر شرفة منتجع فاخر، كان شخصًا مَدنيًّا حتّى النّخاع ومتحضّرًا للغاية.

الحياة في المدينة لها مزايا جمّة مثل التمتّع بالهواء المكيّف، البقاء متّصلًا طوال الوقت، تلقّي رسائل الأصدقاء وإشعارات الإعجاب لمجمل المنشورات على مواقع التّواصل، مشاهدة الأشرطة المسليّة ولعب ألعاب الفيديو ساعات متواصلة.. لكنّه كان مهندس حاسب آليّ أيضًا، والبرمجة مهمّته في الحياة. كان البقاء ملتصقًا بالجهاز ساعات طوال من الليل والنّهار أمرًا بديهيًّا في نظام عيشه. في اعتقاده أنّ أفضل إنجاز للبشريّة كان اختراع التّكنولوجيا الحديثة والاعتماد على الآلات في قضاء كلّ الشّؤون اليوميّة، وقد كان شخصًا عمليًّا يفضّل الأجهزة التي تستجيب بضغطة زرّ.

إنّ المبيت في العراء بغابة استوائيّة داكنة والبحث عن سبل النّجاة في مكان مجهول ووالده فاقد الوعي عند جذع شجرة أمرٌ لم يخطر بباله ولو في أسوأ كوابيسه، ولعل أقرب شيء لما يعيشه الآن في حياته المألوفة المادة من لعبة «ماينكرافت»!

لذلك، حين فتح عينيه على شاطئ مقفر بعد سقوط المروحيّة كان أوّل خاطر راوده هو أنّه كان يضع نظارات الواقع الافتراضيّ ويتأمّل مشهدًا سرياليًا من شريط خيال علميّ! عمليًا، لم يكن يذكر شيئًا عمّا حصل بفصل اصطدام المروحيّة بالماء ووصوله إلى الشّاطئ، شخص ما فكّ حزام الأمان الخاصّ به ودفعه إلى خارج الجسم المعدنيّ الغارق. لم يطرح السّؤال على والده لكنّ الاحتمال الأقرب هو أنّ البروفيسور أشرف هو المسؤول عن إنقاذه مثلما كان مسؤولًا عن تعريضه للخطر!

والآن، يقف وسط الغابة أشعث الشعر متلبّد الخصلات وقد تركت صبغة التوت الحمراء أثرًا في قميصه المجعّد والتصقت ثيابه بجسده وتضوّعت برائحة عرق نفّاذة كما غطّت لطخات الطّين الفضيّ فخذيه الحافيتين وساقيه حتّى الرّكبتين وملأت الخدوش ذراعيه وباطن قدميه. كان في حال مزرية من القذارة والإرهاق! وآخر ما قد يفكّر فيه في تلك اللّحظة هو إرسال صورة لمانويلا، مذيّلة بعبارة «ليتك كنت هنا» مع ذلك فكّر عبر الخاطر السّاخر ذهنه لوهلة قصيرة قبل أن يستعيد وعيه بدقّة الموقف.

سيطر عليه الارتباك لدقائق بعد أن اكتشف إصابة والده بالحمّى. تحرّك في جميع الاتّجاهات ولم يذهب إلى أيّ مكان. كان يحتاج إلى ترتيب أفكاره والسّيطرة على قلقه. مرّة أخرى، كانت نوبة الهلع قريبة لكنّه راح يتنفّس بعمق وهو يتأمّل الغابة من حوله. تذكّر هاتفه المحمول فتفحّصه أملًا واهيًا، دسّ كفّه في جيب بنطاله ليخرج الجهاز الذي يقطر ماءً ليلتقط صورة تذكارية بل ليجرّب الاتّصال. لكنّ الشّاشة ظلّت معتمة مصمتة بعد أن ضغط زرّ التّشغيل مرّات عدّة. تنهّد في إشفاق، حتّى لو تحمّل الهاتف الغرق فإنّه يشكّ في وجود تغطية بتلك الأرض النائية!

استحضر قواعد النّجاة في الألعاب الإلكترونية وفكّر أنّ التّجربة الواقعية لا يمكن أن تكون شديدة الاختلاف عن الألعاب، أليس كذلك؟ فكّر: أين يمكن أن تكون القرية المأهولة؟ لم يكن خبيرًا بشأن الجزر لكنّ الحضارة غالبًا ما تستقرّ قرب مصدر الماء العذب، وأفضل استراتيجيّة سنكون بتتبّع جدول الماء حتّى منبع العين.

كان يهمّ بالانطلاق في مهمّته الاستطلاعيّة الخاصّة حين تململ والده وفتح عينيه. ندّت عنه همهمة خافتة فسارع آدم للانحناء بالقرب منه. كان يحتاج بحرارة إلى تأييده في ما اعتزم تنفيذه. خلال ليلة واحدة أصبحت مصادقة السّلطة الأبويّة أهمّ شيء على الإطلاق! البروفيسور أشرف يعرف ما يجب عليه عمله لذا كان يرجو أن يستفيق ويُسعفه بالتّوجيهات اللّازمة.. يعود ولدًا عديم الحيلة فجأة.

- الوقت.. ينفد...

كانت تلك الكلمات التي تلفّظ بها البروفيسور المنهك بالحمّى فشدّ آدم على أصابعه في حرقة، إنّه يدرك أنّ الوقت ينفد لكنّه يتوق إلى خطّة عمليّة، هتف شارحًا فكرته:

- سأجد السّكان، سأتتبّع مجرى الماء إلى المنبع! سأجدهم!

حرّك أشرف رأسه بقوّة يمينًا ويسارًا فاتّسعت عينا آدم دهشة، إن لم يكن هذا فماذا إذًا؟ جاءه صوت والده مرّة أخرى يائسًا ومفعمًا بالمرارة:

- الوقت ينفد.. صلِّ! صلَّ.. وابتهل إلى الله!

انهار آدم على ركبتيه واضطرب تنفّسه. هذه المرّة لن يقدر على منع نوبة الهلع من السّيطرة على حواسّه، تتسارع نبضاته تسارعًا جنونيًّا، يصمّ صوتها أذنيه ويملأ رأسه، ينتابه دوّار لولبيّ يُفقده التّوازن ويحتشد الفزع مثل كتلة صلبة تسدّ مجرى أنفاسه، يشهق طلبًا للهواء ثمّ تشتدّ قبضة على

معدته الفارغة اشتدادًا مؤلمًا، يمسك وجهه بين راحتيه ويغمض عينيه ثم يضغط جبهته على ركبتيه.

تنفّس.. شهيق ثمّ زفير.

امتدّت كفّ والده لتربّت رأسه بحنوّ، يد دافئة بفعل الحمّى وجافّة متغضّنة. كان ذلك التدخّل الخارجيّ مفاجئًا، كان معتادًا على التعامل مع نوباته بمفرده. هدأت الضربات على جدار صدره تدريجيًا ثمّ استعاد هدوءه، أخذ نفسًا عميقًا، كان يودّ أن يتصرّف بعملية، أن يجد حلًا، لكنّ والده -وهو ليس متديّنًا تمامًا- يطلب منه الصّلاة! بدا أنّهما قد وصلا إلى ذروة المحنة إذًا، والصّلاة.. حسنًا.. الصّلاة إن لم تُفد فإنّها لن تضرّ أيضًا.

تحرّك باتّجاه الجدول بخطى مغموسة باليأس، توضّأ ثمّ وقف يصلّي. ربّما كان موعد الفجر، فليصلّ ركعتين إذًا، في أيّ اتّجاه؟ لا يهمّ. سوف يصلّي ويدعو ثمّ يفعل شيئًا ما، يتبع خطّة، يتحرّك في اتّجاه العين أو عائدًا إلى الشّاطئ، إن كان والده قد استسلم لليأس فستكون المسؤولية منذ الآن على عاتقه وحده.

حين لامس جبينه الأرض همس «يا رب.. لم أفعل شيئًا في حياتي لأستحق الموت في جزيرة نائية، أريد العودة إلى الدّيار، أرجوك! ابنتي مريضة وهي تحتاج إليّ!»، ثمّ أضاف بعد برهة «وأبي كهل متعب، قد أنهى شبابه بحثًا عن هذه الجزيرة فلا تجعلها مقبرته».

أنهى صلاته ووقف متأهّبًا.. ماذا الآن؟

قبل أن يغادر موضعه.. شعر بحركة في الظلال، تلفّت بسرعة، مواكبًا تدفّق الخفيف عبر الشّجيرات، فظهرا أمامه.. تسمّر مكانه محدّقًا في الرّجلين، لوهلة كاد ينفجر ضاحكًا.. هل مفعول الصّلاة سحريّ إلى تلك الدّرجة؟! لكنّه انشغل عن الضّحك بتأمّل شكلهما الغريب.

كان أوّل ما لفت انتباهه هي البشرة البيضاء شبه الشّفافة لهؤلاء القوم. إنّ ساكني الجزر الاستوائيّة غالبًا ما تلوّح الشمس بشرتهم السّمراء وتترك عليها أثرًا بليغًا، ولو أنّه لم يلمح شمسًا منذ وصوله، فإنّه لم يعتقد ولو لثانية واحدة أنّ غيابها دائم! إنّها مختفية وراء السّحب وهو يستشعر دفأها، لكنّها ستشرق في اليوم التالي، وربّما إذا تحسّنت الأحوال الجويّة يسيطر قرصها الأصفر على السّماء كما يفعل في كلّ بقاع الأرض!

بعد البشرة توقّفت نظراته على الثّياب، لم يكونا عاريين مثل رجال الكهف لكنّهما لا يرتديان شيئًا من الملابس الدّارجة؛ قطنية كانت أم صناعيّة.. إنّ أقلّ ما يقال عنها إنّها شخصيّة و«حسب الطلب»، لا تُنتج مصانع الأقمشة أردية مشابهة ولا يعتمد المصمّمون هذه القصّات المختلفة. لا شكّ أن الإنتاج هنا محليّ جدًا وخاصّ جدًا، إذ بدت فضفاضة بقدر مريح دون أن تعوق حركة الرّجلين السّلسة خلال الأحراش، أمّا المادّة التي صُنعت منها فلا يسعه الحكم عليها من مجرّد الرؤية، يحتاج إلى أن يلمسها ويفحصها عن قرب، لكنها بدت ناعمة على البشرة مثل الكتّان وعمليّة أيضًا، أمّا ألوانها فباهتة وتزدان بنقوش داكنة على الجِيْد والأكمام.

أشار إليه أحدهما وهو ينطق بكلمات لم يفهمها آدم، همهم بإنجليزية مترددة:

- هل تتحدّث الإنجليزية؟

لكنّ الرّجل استمرّ يتحدّث بلغته فهزّ آدم كتفيه ثمّ أشار إلى حيث ترك والده وقال:

- أبي، إنّه مريض.. هل يمكنكما المساعدة؟

لم تبد عليهما المبالاة بما يقول ودفعه أحدهما بلطف في اتّجاه ما. فسار برفقتهما على مضض، ربّما يأخذانه إلى أحد يمكنه مخاطبته بلغة مفهومة! سار ثلاثتهم بمحاذاة الجدول فابتسم آدم وقد شعر بالفخر يغمره، لقد كان محقًّا في نهاية الأمر، كان عليه تتبّع الماء! لو لم يصلا إليه أوّلا فربّما كان ليصل إليهما بعد حين.

***

استمرّ المشي زهاء ساعتين أو أكثر قبل أن يُشرفوا على حدود القرية، لم تظهر أدنى معالم للحياة في ذلك الوقت من الليل، كان الجميع يغطّون في نوم عميق ببيوتهم. على ضوء الإنارة الطبيعيّة أمكن لآدم أن يميّز الجدران الحجريّة والأسقف المغطاة بالأغصان والخيزران وسعف النّخل، بدت القرية بدائيّة، بناؤها يعتمد على الموارد الطبيعيّة دون طلاء أو تزويق عصريّ.

اقتاده الرّجلان عبر الشّوارع التّرابيّة الهادئة حتّى وصلوا إلى أحد البيوت. فتح أحدهما الباب الخشبيّ فاستقبلهم ظلام دامس ثمّ امتدّت كفّ لتلامس شيئًا على الجدار فأضاء السّقف بآلاف النّجوم الفضيّة، فغر آدم فاه في دهشة، بالنّسبة إلى قرية من العصور الوسطى كانت الإضاءة مذهلة.

تحدّث الرّجلان ثانية بلغتهما وحاول آدم أن يُصغي علّه يميّز بعض الأصوات في أثناء الطّريق. كان يتفكّر في الأمر، معظم الجزر في المحيط تتكلّم «الكريول» وهي لغة هجينة تطلق على لغات حديثة ظهرت خلال المدّ الاستعماريّ. باعتبار سيطرة الاحتلال الإنجليزيّ والفرنسيّ على الجزر فإنّ «الكريول» يكون مزيجًا من لغة محليّة مطعّمة بالفرنسيّة أو الإنجليزيّة أو كليهما، لكنّه لم يميّز إحدى اللّغتين على لسان الرّجلين، في الحقيقة بدا

له أنّ النّغمة تتحوّل إلى العربيّة من حين إلى آخر وهو ما كان مدهشًا بالنّسبة له! إنّ أقرب شيء يعرفه إلى «الكريول» المتأثّر بالعربيّة هي اللّغة التي يتحدّثها الهنود الوافدون للعمل في شبه الجزيرة العربيّة، وحتّى تلك فإنّها ليست لغة بالمعنى المتعارف عليه بل تطويع للعربيّة وطمس لقواعدها النحويّة حتى تغدو سهلة التعلّم على غير النّاطقين بها.

بعد لحظات وصل رجلان آخران يحملان محفّة يرقد عليها والده! هرول آدم إليه في لهفة، كان يخشى أن يطول الوقت قبل أن يجد من يفهمه ويحدث مكروه لأبيه، لكنّ السّكان عرفوا موقعه بشكل ما وأحضروه إلى الغرفة، ابتسم أشرف المحموم وشدّ على أصابع ولده وهو يهمس:

- ألم أقل لك!

فجأة، أشرق المعنى في رأس آدم.. الصّلاة! هل هي نوع من الإشارات؟ هل كان عليه أن يصلي ليجذب انتباه السّكان؟ كلّما فكّر في الأمر ازداد اقتناعًا بأنّ الرّجال كانوا يراقبونهما طوال الوقت وينتظرون إشارةً ما، لقد ظهروا بسرعة مذهلة فور فراغه من الدّعاء، هل يعقل أن يكون الأمر كذلك؟

في الغرفة كان هناك سريران خشبيّان، وُضع والده على أحدهما فجلس آدم على طرف الآخر متوتّرًا.. ماذا الآن؟ متى يصل أحد يمكنه أن يتواصل معه؟ خلال بضع دقائق وصلت سيّدة شابّة، ترتدي رداءً أبيض ناصعًا ونضع غطاء رأس تربطه وراء عنقها. تأمّل بشرتها باهتمام، كانت بيضاء لكنّها ليست بذات البياض الصّادم عند الرّجال، جلدها طبيعي إلى حدّ ما، بياضه بشريّ، وقد جعله ذلك يشعر بارتياح نسبيّ.

قالت بعربيّة واضحة:

- مرحبًا.

فاتّسعت حدقتاه دهشة! حسنًا، لقد كان محقًّا مرّة أخرى، إنّهم يتكلّمون العربيّة! انتابه الزهوّ لوهلة، إنّه ينجح في التّحليل والاستنتاج، تمنّى لو كان والده مستيقظًا ليرى ذلك بعينيه، يودّ أن يقرأ الفخر والإعجاب في نظراته.

وضعت السيّدة في كفّه كتلة صغيرة من العجين الأسود بحجم حبّة الفاصولياء، ثمّ ساعدت والده على ابتلاع واحدة مماثلة، تأمّلها آدم بين أصابعه في حيرة، فقالت:

- إنّها تساعد على التأقلم مع جوّ الجزيرة.

وضعها في فمه، لم تقدّم كوب ماء معها، ضغط عليها بأسنانه وحاول أن يمضغها فأفرزت سائلًا لزجًا حامضًا ولاذعًا اضطره إلى ابتلاعها على الفور وهو يهمهم بكلمات شكر ثمّ سأل في فضول:

- ممّ تتكوّن؟

قالت بهدوء:

- تتكوّن أساسًا من الدّماء.

أوشك أن يتقيّأ على الفور، انتابه إحساس ممض وهو يبتلع لعابه باستمرار ليتخلّص من مذاق الدّم. هل هم من أكلة لحوم البشر؟ تأمّلها في حذر بعض الوقت فلمح الابتسامة على جانب وجهها. كانت شابّة لكنّ ملامحها جادّة وتصرّفاتها وقور مقارنة بسنّها. لم يكن أيّ شيء في سلوكها يوحي بنوع من الوحشيّة أو البدائيّة، ربّما كانت تتمتّع بقدر من الرّقة والأنوثة أيضًا بالنّسبة إلى حياة البريّة الموغلة في التقشّف التي تحيط بها. هدأت أعصابه بعد حين، أليست بعض الحضارات في العالم الحديث تستهلك سجق الدّم؟ إنّها مجرّد عادات غذائيّة مختلفة!

قالت بعد حين بلهجة معتذرة:

- اهلًا بكما في جزيرتنا، نحن لا نستقبل كثيرًا من الغرباء ومجلس الحكماء -الـ«كوتانا»- منعقد منذ يومين في المعتزل الجبليّ، لذلك كان من العسير تقييم الوضع تقييمًا سليمًا وسريعًا، احتجنا إلى بعض الوقت حتّى نتّخذ القرار.. آمل أنّنا لم نتأخّر.

استمع إليها آدم في دهشة متزايدة، لقد كانوا يراقبونهما بالفعل -وهذا استنتاج سليم آخر- لكنّهم لم يفعلوا شيئًا لإنقاذهما! شعر بالغضب يتجمّع داخله، أيّ بشر هؤلاء؟

تحرّكت الشابّة مثل ملاك يرفل في رداء أبيض، تهبط كفّها البيضاء بخفّة على جبين والده وصدره، ثمّ ترسم خطوطًا وهميّة سلسة فوق ذراعيه وساقيه وهي تعاين خدوشه وتورّم كاحله، فتتناثر على أطراف أناملها البيضاء الرقيقة شذرات من الضوء الأبيض. رمش آدم في تشوّش، ربّما كان ضباب الجزيرة يخادعه ويرمي غلالة بيضاء من الوهم على عينيه، كلّ هذا البياض من حوله يجعل الخيالات تتراقص في ذهنه.

قالت تطمئنه:

- سوف يكون بخير.. لقد انخفضت الحرارة بالفعل.

انتصب آدم مسرعًا وتقدّم ليتفقّد حرارته بدوره، كان مفعول العجينة الدّمويّة سريعًا ومذهلًا! قالت وهي تلتفت باتّجاهه:

- اجلس رجاءً.

شعر بالإحراج وهي تقترب لتتفحّص بياض عينيه، أعماق حلقه، تجويف أذنيه، بشرة ذراعيه. وهي تنحني تجاهه داعبت رائحة ثيابها أنفه، كانت تتضوّع بعبق الخزامى أو زهرة بريّة أخرى. شعر بالحرج لمظهرها النّظيف ورائحة العرق النّفاذة التي تفرزها مسامّه بسخاء، إنه يحتاج إلى

حكام، حين التفت نظراته بعينيها قرأ فيهما شيئًا من الاستغراب.. قالت أخيرًا:

- تبدو بحالٍ جيّدة!

تنحنح في اعتداد ثمّ قال:

- مناعتي جيّدة.

لقد أبلى بلاءً حسنًا باستثناء التقيؤ المُزري ونوبات الهلع، لكنّها لا تلح إلى أن تعرف، لقد حصل على الدّواء الغريب وسيكون بخير.

- سنحصلان على حبّة دواء في الصّباح وأخرى في المساء ثم نعود يرجع الحكماء غدًا تمثلان أمامهم لينظروا بشأنكم.

اتّجهت نحو الباب لتغادر فقال منتفخًا:

- هل نحن محتجزان في هذه الغرفة حتّى الغد؟

استدارت في دهشة ثمّ قالت:

- لا، بالتّأكيد لا.. لكن.. لا أنصحكم بالتّجول في القرية وحدكم سوف أرسل دليلًا لمرافقتكم، نحن.. لسنا معتادين على وجود الغرباء.

قبل أن تغادر الكوخ استوقفها ليقول على استحياء:

- هل يمكنني الحصول على صاع من الأرز؟

(3)

اليوم الثالث

عام 2015 وصلت جثة الطفل السّوريّ آلان كردي إلى السّواحل التركيّة بعد أن غرق المركب المنكوب الذي أقلّه وأعدادًا من أهله فرارًا من أتون الحرب المستعرة. تناقلت صورته وسائل الإعلام العالميّة بكثافة وغزارة مثل فاجعة حطّمت قدرة العالم على تحمّل الحزن وتشظّت لأجلها الأفئدة، ثبتت في الذّاكرة الجمعيّة اللقطة المقرّبة لجسد مغروس في الرّمال؛ بقميصه الأحمر وسرواله القصير الأزرق وحذائه.

حين فتح آدم عينيه في الظلمة الفاترة لكوخ الحجارة والطّين.. كانت صورة الطّفل الغريق عالقة في ذهنه وأوّل ما فكّر فيه هو حذاؤه، حرّك أصابع قدميه الحرّة.. لقد احتفظ الطّفل آلان بحذائه، لكنّه فقد حذاءه الرّياضيّ ذا الماركة. كان من الوقاحة أن يعدّ ضياع مطيّة رجليه فقدًا في حين غادر الحياة جسدُ الطّفل الذي احتفظ بحذائه!

أصغى في انتباه إلى قطرات الماء التي استمرّت تنقر سطح المنزل في نسق متفاوتٍ طيلة ساعات الليل. مثل غيرها من الجزر الاستوائيّة لا شكّ أنّ الجزيرة تحظى بقدر وفير من التّساقطات لتحافظ على غطائها النّباتيّ الكثيف وتزوّد سكّانها بالماء العذب. قلّب عينيه من حوله دون أن يغادر موضع استلقائه، يظهر فوقه سقف مخروطيّ مكوّن من أعمدة خشبيّة

تغطيها طبقات من الخيزران وسعف النّخل يتخلّلها سُمك لا بأس به من الطّين والحجارة، يمثّل الكلّ مجتمِعًا غطاء عازلًا يمنع مرور الماء.

كان يشتمّ رائحة المطر المألوفة؛ تلك الرّائحة المنبعثة من ذرّات التّراب الخامدة حين تنكشها قطرات الماء وتتخلّلها فتحدث في قلبها بلبلة وتدفعها إلى أعلى في ثورة واضطراب، كانت الرّائحة تتسلّل من مكان ما مع أنّ الباب الخشبيّ كان مغلقًا، وفي غياب أيّ نوافذ على الجدران كانت الغرفة الصغيرة تصلها تهوية كافية عبر فتحات خفيّة لا تتبيّنها عيناه، لو كان مهندسًا معماريًا لاهتمّ بالتعرّف إلى طريقتهم الفريدة في البناء. قبل اختراع المكيّفات كانت الحضارات البدائيّة تعرف كيف تتأقلم مع عناصر الطبيعة وتستغلها لصالحها.

انبعث فجأة خلال السّكون نداء شجيّ.. أصاخ آدم السّمع إلى الصّوت البشريّ البعيد المتكسّر الذي تكتمه زخّات المطر، مضت بضع لحظات قبل أن يتبيّن حقيقته؛ أذان الصّلاة! لعلّه موعد الفجر، تربّع آدم جالسًا على سريره وتساءل إن كان عليه أن يلّبي النّداء! لا يعرف أين يقع مسجد القرية أو إذ كان سيُرحَّب به هناك. بعد لحظات من المداولات الصامتة قام فتوضأ ثمّ نوى استقبال القبلة وصلّى في الفراغ الفاصل بين السّريرين.. (وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ).

حدّق في وجه أبيه النّائم الذي لم يوقظه قرع الودق على السّطح ولا نداء المؤذّن. لا شكّ أنّ الإرهاق قد بلغ منه مبلغًا عظيمًا. تنهّد في إشفاق وآثر ألا يوقظه. بعد فترة من التأمّل انتهى به الأمر إلى الاستسلام لتهويمة المطر حتى غلبه النّعاس.

حين استيقظ صباحًا كان كلّ ما يشعر به هو الجوع، كان نومه عميقًا وريحًا، شعر بطافته تتجدّد لكنّ معدته تقرقر، ربت الخشبيّة قليلة الشّمك التي كان ينكبّ عليها في اهتمام، لا يعرف بما كانت محشوّة لكنّه شيء رائع مثل ريش النّعام! لم يحسب أن مرتبة بمثل هذه النّعومة قد تتوافر في قرية نائية!

ما إن استقام جالسًا حتّى انتبه إلى الطبق الخشبيّ الموضوع على المنضدة. كانت به قطعة سمن في بركة من العسل وإلى جوارها قدح لبن طازج ورغيف خبز ما يزالان دافئين. ابتسم في رضا، هذا طعام مألوف، هزّ كتف والده بلطف ليوقظه ثمّ ساعده على تناول وجبته.

كانت ملاح البروفيسور أشرف تشعّ نشاطًا وقوّة. بدا أنّ حبّة دواء وليلة نوم هانئة ووجبة مشبعة كانت كافية ليستعيد صحّته. إلى جوار الطّبق كانت هناك حبّتا دواء، تناول أشرف حبّة وابتلعها على الفور في حين حدّق آدم في حبّته بفضول وشكّ فحثّه والده على ابتلاعها..

- أنت في حاجة إليها.. خذها ولا تردّد.

هزّ آدم رأسه ثمّ تظاهر بابتلاع الحبّة وأخفاها بين طيّات ثوبه، يمكنه الاهتمام بنفسه.

على المنضدة أيضًا كانت هناك ثياب نظيفة لكلّ منهما. تأمّل آدم القميص الطويل والسّروال الذي يتجاوز طوله الرّكبتين بقليل متفرّسًا، كانت تشبه ما ارتداه الرّجال بالأمس، لم يكن النّسيج يشبه الأقمشة المعهودة لديه وقد تسنّى له تأمّله الآن عن كثب فوجده ناعمًا ومريحًا، ربّما مثل القطن الطبيعيّ وربّما أفضل. كانت كلّ قطعة مكوّنة من رقعة قماش واحدة لا أثر لخياطة في حواشيها أو ثناياها، تبقيها متماسكة أربطة تجتمع على الجانبين. غيّر ملابسه بسرعة ثمّ وقف مبتسمًا، لشدّ ما يرغب في تأمّل نفسه في المرآة لكن لا وجود لواحدة في الغرفة.

إلى جوار السّرير استقرّ كيس صغير من الخيش، انحنى ليلتقطه في اهتمام ثمّ فكّ الرّباط ليلقي نظرة على محتواه، قبل أن يهزّ رأسه في استحسان.. رغم برودها الظاهر وفّرت المعالجة كيس الأرز دون تأخير، دسّ كفّه ليلتقط حفنة من الحبّات البيضاء التي تميل إلى الامتلاء، كانت شبيهة بحبّات الأرز التي يعرفها وإن كان يفضّل الأرز البسمتي طويل الحبّة، أمّا بياضها فشاحب شفّاف مثل بشرة سكّان الجزيرة.

استخرج هاتفه من جيب بنطاله الذي نزعه منذ حين ودسّه في كيس الأرز، إذا حالفه الحظّ ستتولى حبّات الأرزّ مهمّة امتصاص الرّطوبة من هاتفه وقد يتمكّن من تشغيله بعد بضع ساعات.

انتبه فجأة إلى انفراج الباب قليلًا وظهور عين متلصّصة، وقف في تحفّز وأشرع الباب فتراجعت صبيّة في العاشرة من عمرها مفزوعة، حدّق فيها آدم بشكّ فقالت بتهذيب:

- أنا ريحان.. شقيقة روان.

كان لا يزال يحدّق فيها دون أن يبدو عليه الاستيعاب، فأضافت:

- «ماغداخا».. المعالجة؟

- آه، نعم.

اسمها روان إذًا.. «ماغداخا»؟ بدت كلمة من اللّغة المحليّة! عاد انتباهه إلى الصغيرة التي تربط شعرها في جديلتين طويلتين حتّى خصرها وتسأل في ضيق.. هل هذه هي الدّليل السيّاحيّ الذي وعدت به الـ«ماغداخا»؟

- هل تناولتم الطّعام؟ ترغبان في جولة في القرية؟

التفت آدم إلى والده فلوّح أشرف بكفّه وهو يقول:

- اذهب أنت.. أودّ الاستلقاء هنا فحسب.

أومأ في تفهّم ثمّ تبع الفتاة إلى الخارج دون حماس، لم يكن ينتظر شيئًا يذكر من رفقة طفلة صغيرة غير أنّه لا يملك خيارًا إذا كانْ يرغب في مغادرة غرفة العزل. لفتت انتباهه بشرتها القمحيّة التي تكاد تكون في غير محلّها داخل عالم الجزيرة وأهلها البيض، تساءل إن كانت بشرتهم تبدأ طبيعيّة ثمّ تزداد شحوبًا بمرور الزّمن؟!

مشى بهدوء متأمّلًا المشهد من حوله.. تقدّما في ما بدا أنّه شارع رئيسيّ يقسم القرية إلى جزأين؛ شماليّ وجنوبيّ، وعلى كلا الجانبين ظهرت صفوف منتظمة من منازل ذات طابق واحد متشابهة في الشكل والحجم، غالبًا تتكوّن من غرفتين أو ثلاث تحيط بها حديقة صغيرة. لمح الطرق المتفرّعة وأعداد المنازل التّقليديّة التي تتراصّ على الجانبين، ربّما كان هناك العشرات منها أو المئات، بدت مثل مجمّع سكنيّ أنشئ على نسق موحّد مثل تلك التي تملأ ضواحي المدن الكبرى في الدّيار.

على امتداد الطّريق لمح أنابيب خشب مجوّف تنزل المنحدر من حيث توقّع أن تكون عين الماء، كان نظام توزيع المياه يوفّر الماء العذب الجاري في كلّ بيت وهو أمر مدهش بالنّسبة إلى قرية بخصائص عتيقة لم يفقها إبهارًا سوى أعمدة الإنارة المنتصبة كلّ بضعة أمتار والتي يجهل تمامًا بأيّ طاقة تعمل في غياب الأسلاك أو ألواح الطاقة الشّمسية!

كان الهدوء لا يزال يخيّم على بيوت القرية رغم مضيّ الليل وانتشار الضوء معلنًا بدء نهار جديد. تساءل وهو يقترب ليمشي إلى جوار ريحان:

- أين ذهب السّكان؟

- إلى العمل!

- آه، بالتّأكيد، أقصد، الجميع؟

- نعم. باستثناء العجائز والمرضى والأطفال الرضّع..

هزّ رأسه متفهّمًا، ثمّ سأل بعد أن قطعا بضع خطوات:

- إذًا.. ما الذي سنشاهده في هذه الجولة؟

- كلّ شيء، يمكننا أن نبدأ من السّوق؟

ربّما كان ليهتمّ بالسّوق لو كان يملك بعض القطع النّقديّة، على كلّ حال لم يكن يرغب في اقتناء شيء محدّد، ربّما يسعه الاكتفاء بالفرجة على الصّناعات المحلّية، انتبه إلى جهله التّام بنوع العملة التي يستخدمها سكّان الجزيرة، تساءل عن وجود مكتب صرف في مكان ما، فسألها في فضول:

- ما العملة المستخدمة هنا؟

بدا عليها الارتباك وهي تكرّر:

- عملة؟

فكّر أنّ قرية منعزلة ربّما لا تكون لديها عملة خاصّة بها، قال في ظفر:

- إذًا تستخدمون المقايضة؟

- مقايضة؟

كانت الفتاة أشدّ ارتباكًا وضيقًا.

- أنا آسفة، لقد تعلّمت العربيّة، لكنّني لم أتعلّم هذه الكلمات بعد.

بدا عليها الحزن، كانت فخورًا لطلاقة لسانها وإتقانها اللغة، لكنّ يستخدم عبارات لم ترد في دروسها، قال شارحًا:

- حين تذهبين إلى السّوق وترغبين في الحصول على شيء ما.. ماذا تفعلين؟

- آخذه!

- ببساطة؟

ارمات مؤكدة فاتّسعت ابتسامة غير مصدّقة على شفتيه، هذا المكان رائع! يمكنك أخذ ما تريد من السّوق دون أن تدفع شيئًا؟ لكنّ الفتاة واصلت:

- كلّ شخص على الجزيرة يقدّم خدمات للآخرين. بعضهم يزرع وبعضهم يصنع.. بعضهم يعالج المرضى وبعضهم يعلّم الأطفال.. لكلّ منّا موقعه من المجتمع.

- آه.

حسنًا، لم يكن الأمر بتلك البساطة، سألته في فضول:

- وأنت؟ ما دورك في المجتمع؟

تنحنح وهو يقول في فخر:

- أنا مهندس حاسب آلي!

بدت لها الجملة مجموعة من الكلمات التي لا معنى لها، هتفت بعد صمت قصير:

- حاسب! هل تهتمّ بحساب الأعداد؟ محمود يتميّز في هذا.. إنّه يحصي صناديق السّمك وأكياس الأرز والمؤن وكيفيّة توزيعها على السّكان...

قاطعها على الفور وقد شعر بالإهانة:

- لا.. لا، ليس الحساب، بل الحاسب الآليّ، إنّها آلة، هل تعلمين.. يمكنها تشغيل برامج معقّدة تنجز كثيرًا من الأشياء...

- مثل؟

- مثل موقع ويب!

@ART_OF_BOOK

رفعت عينيها في امتعاض، مزيد من الكلمات التي لا قيمة لها، شرح برحابة صدر:

- مثلًا، لو أراد أحد الحرفيين في السّوق التّعريف بمتجره وبضاعته، فيمكنني أن أُنشئ موقعًا من أجله.. موقعًا افتراضيًّا يمكن للجميع زيارته وهم في بيوتهم! أضع عليه صورًا للبضاعة المعروضة ويمكنك الاتّصال به عن طريق الموقع والاستفسار عن المواد المستعملة لصنعها مثلًا أو حجز قطعة قبل أن يحصل عليها الآخرون!

تغاضت عن كلّ العبارات المجهولة وضحكت في مرح:

- ولماذا أحجز قطعة؟ يمكنه أن يصنع واحدة أخرى لي! ثمّ لماذا أشاهد الصّور إذا كان السّوق قريبًا ويمكنني الذهاب إليه؟

قال في تحدّ:

- ماذا لو كانت تمطر؟
- أذهب في الغد!
- ماذا لو كنتِ مريضة؟
- أرسل شقيقتي إلى السّوق!

زفر في ضيق.. حسنًا، لم يكن مثال موقع الويب أفضل شيء يشرح طبيعة عمله في مجتمع مصغّر كهذا، فكّر لبرهة ثمّ قال:

- يمكنني أن أكتب خوارزميات تسهّل عمل المزارعين والحرفيين.. أن أقترح الطريقة المثلى لأداء أيّ شيء بطريقة تحدّ من الوقت واستهلاك الموارد!

كانَ فخورًا وأراد أن يتباهى باحترافه الهندسة لكنّها حطّمت غروره وهي تقول بجفاف:

- نحن نعرف كيف نقوم بكلّ شيء بأفضل ما يمكن!

تنهّد. حسنًا.. لا يمكنه الفوز في نقاش مع فتاة صغيرة وساذجة، لا يدري لماذا يحاول أصلًا! تذكّر شيئًا فجأة فسألها:

- هل تعرفين أين يمكنني إجراء اتّصال؟

- اتّصال؟

- الحديث مع شخص بعيد.. مثل الهاتف؟

- هاتف؟

- أو الإنترنت؟

- إنترنت؟!

زفر في ضيق وهي تعيد بلهجة مستهجنة كلّ كلمة ينطق بها ثمّ سأل بحدّة:

- كيف يمكنكم التّواصل مع العالم الخارجيّ إذًا؟

قالت ببساطة:

- لا نعرف أحدًا في العالم الخارجيّ!

- ماذا تفعلين إذا رغبتِ في نقل خبر إلى شخص ما ولم يكن إلى جوارك؟

- أذهب إليه! المسافات قريبة هنا، هل تعلم؟ ليس هناك مكان في القرية لا يمكنك الوصول إليه مشيًا.

- ماذا لو كان بعيدًا جدًّا! في الغابة أو في الجبال؟

- أنتظر عودته!

قال في تحدّ:

- وإذا كان الأمر عاجلًا؟

- أستخدم البوق لإطلاق إنذار.

- ماذا لو كان الأمر شخصيًّا؟

- لا يسعني عمل شيء إذًا.

هزّت كتفيها في حسم فاتّسعت عيناه في صدمة ثمّ هتف:

- أنتم أيّها القوم لا تعرفون شيئًا عن الحضارة الحديثة؟ هل سافرتُ عبر الزّمن إلى العصور الوسطى حقًّا؟

التمعت عينا الفتاة وهي تقول:

- أعرف العصور الوسطى! إنّها الفترة الواقعة بين تعميد «كلوفيس» ورحلة «كولومبس» لاكتشاف القارة الأمريكيّة! آسفة، لا أظنّ أن بإمكانك السّفر إلى هناك.

أطلق آدم ضحكة مغتصَبة، في النهاية كانت تعرف شيئًا يجهله! لم يكن مولعًا بدروس التّاريخ. تنهّد في استسلام وشعر بالاكتئاب فجأة، لن يكون قادرًا على الاتّصال بالسّفينة أو بوالدته في الدّيار.

على حدود القرية ظهرت بعض المباني المتّسعة، أشارت إليها ريحان شارحة: المدرسة، المشفى، دار العبادة، المخازن حيث تخبّأ فوائض المحاصيل بعد توزيع نصيب كلّ عائلة، الفوائض تستخدم في المناسبات مثل الأعياد وحفلات الزّواج وحفلات التخرّج من المدرسة. ثم ظهرت وراء المباني مساحة ممتدّة تملؤها شواهد القبور الحجريّة.

- على اليمين قبور شعبنا، «آم» وعلى اليسار قبور الغرباء «أبتورا»!

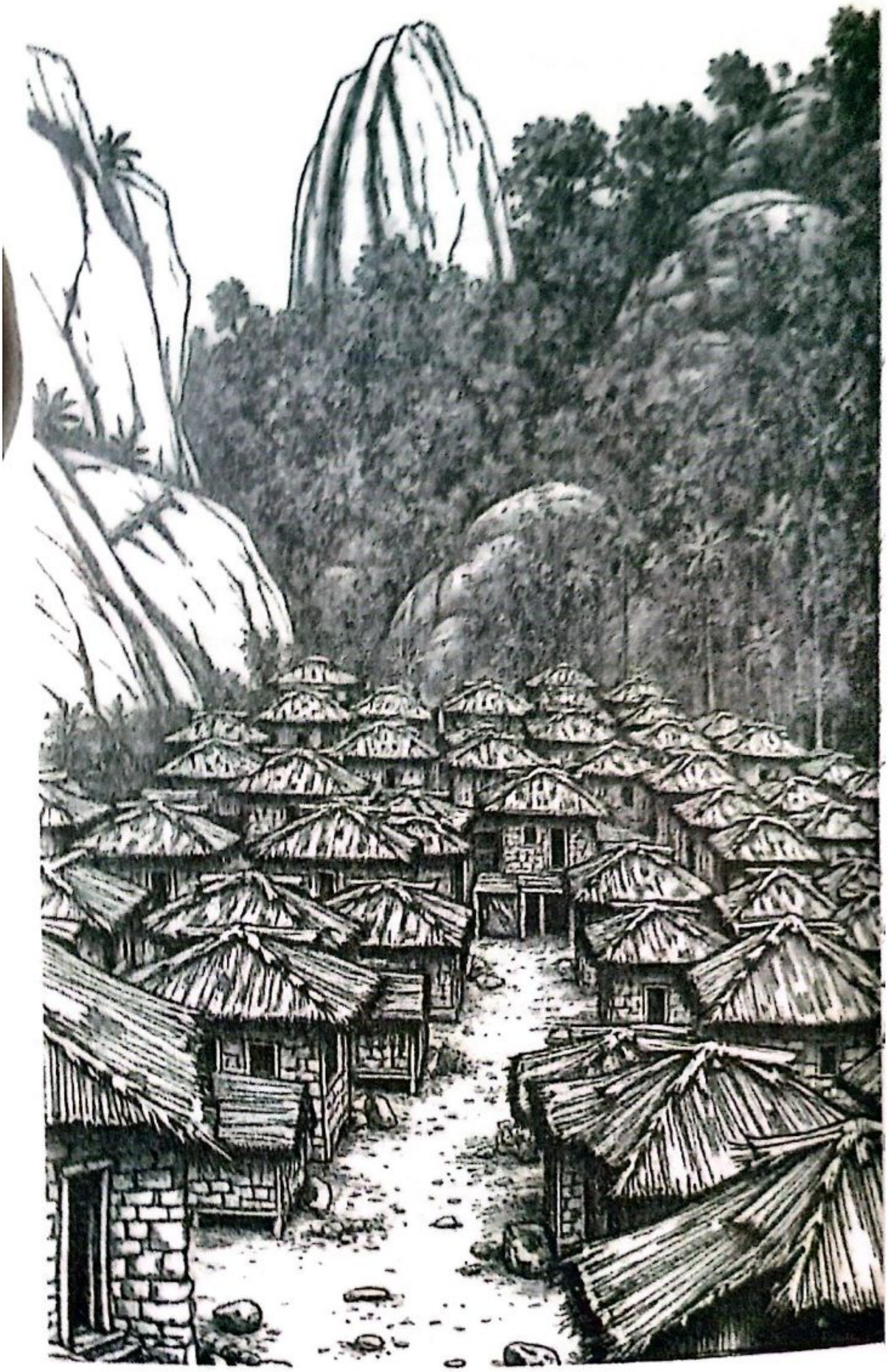

حدّق آدم في دهشة.. تتسلّق مدينة الموتى سفح التلّ إلى قمّته المتوارية تحت غطاء الضباب، لم تكن المساحة المخصصّة للغرباء شاسعة لكنّه قدّر أنّ مئات الغرباء؛ مئات من الـ«أيتورا»، يرقدون بعيدًا عن أوطانهم، تساءل: هل كانت الأمواج تلفظهم جثثًا بعد تحطّم ناقلاتهم؟ أم أنّ السّكان يتركونهم لمصيرهم في الغابة ثمّ يتكرّمون بدفنهم؟ كتم غضبه بداخله، لم تكن إلا طفلة وليس عليه أن يُثقلها بذنوب الرّاشدين من قومها.

كانا قد اقتربا ممّا أسمته السّوق، نظر فوجده عبارة عن محلّات صغيرة -أعمدة خشبيّة تعلوها أسقف من السّعف- يجلس فيها حرفيّون يعملون في مجموعات، بعضهم يصنع أدوات خزفيّة وآخرون ينسجون خيوطًا أشبه بالقطن باستخدام آلات خشبيّة عتيقة لتستوي نسيجًا مثل الذي يلبسه. أخذت ريحان تشرح له عمل كلّ واحدٍ فيهم بدقّة متناهية، بدت خبيرة في الحرف اليدويّة والصّناعات التي يمارسها مواطنوها، فغرفاه في إعجاب.

- أنتِ تعرفين كلّ شيء عمّا يفعلونه؟

التهبت وجنتاها حرجًا وقالت في فخر:

- بالتأكيد.. نحن نتعلّمها في المدرسة!

أثارت هذه المدرسة إعجابه قبل أن يزورها.

- هل تتعلّمين العربيّة في المدرسة؟

أومأت بابتسامة جذلة ثمّ أضافت:

- نحن نتعلّم العربيّة والكتاب المقدّس والحساب والتاريخ والعلوم ومختلف الحرف حتّى نختار منها ما يناسبنا في المستقبل.. أودّ أن أكون «ماغداخا»، مثل روان، لكنّ هذا المسار صعب جدًا.

ابتسم في سخرية، بالتأكيد، يبقى الطبّ أكثر المهن سموّا وجاذبيّة سواء كان ذلك في مدينة متحضّرة أو في قرية صغيرة بجزيرة نائية، سألته ريحان في اهتمام:

- ألا تعرف كيف تُصنع الأدوات في بلادك؟

هزّ آدم كتفيه ثمّ قال في حيرة:

- الآلات تصنع معظم الأشياء!

- نحن أيضًا نستخدم الآلات لكنّنا نعرف كيف تعمل.

لم يستطع كتمان ضحكه:

- آلات؟ وهل تسمّين هذه آلات؟

انتفخت أوداج الصّغيرة وقد شعرت بالإهانة فأحسّ بالحرج، عليه أن يعترف.. ربّما لا يحتاجون إلى تلك الآلات ذات الإنتاج المتدفّق والسّرعة الشديدة، إنّهم يعيشون في مجتمع مصغّر له احتياجات محدودة وهم ينتجون كلّ ما يحتاجون إليه، في الحقيقة كانوا جديرين بالإعجاب، لديهم اكتفاء ذاتيّ، لا يستوردون شيئًا، هم يعيشون في عصر ما قبل العولمة حرفيًّا!

قال معتذرًا:

- أنا أحترم حرصكم على تجنّب التّبعية الاقتصاديّة للاتّحاد الأوروبي أو الولايات المتّحدة والصين.

حدّقت فيه بصمت فتنهّد، مزيد من العبارات التي لا تعي الصغيرة لها معنى، قال متسائلًا:

- أنتِ تعرفين أين تقع الصّين؟

هزّت رأسها في حماس:

- أحفظ خريطة العالم! هل تعرف أين تقع بيليز؟

حدّق فيها بدوره، إنّها لا تزال تدهشه، لم تكتف الفتاة بتعليمه حِرف شعبها لكنّها تحمل معلومات عن العالم الخارجيّ أيضًا، لم يكن يدرك وجود بلد بهذا الاسم على الكرة الأرضية! قالت موضّحة:

- لقد وصل «أيتورا» غريبٌ من بيليز منذ أربع سنوات ووضع علامة على الخريطة الخشبيّة في غرفة الحكماء، حين يرجعون من العُزلة ربّما يمكنك أن تضع علامة بلادك أيضًا، من أيّ بلد أنت؟

انتبه في تلك اللّحظة إلى ارتفاع صوتيهما وسكون ما حولهما، كانا يقفان في منتصف السّوق وقد اتّجهت الأبصار إليهما في فضول جماعيّ. رفع آدم رأسه وأحناها بلطف ليُلقي التحيّة على الحرفيّين فردّ بعضهم الانحناءة وبادله آخرون الابتسام، كانوا جميعًا، رجالًا ونساءً، بذات البشرة البيضاء شبه الشفافة. فكّر آدم.. ربّما كانت ريحان تنتمي إليه أكثر ممّا تنتمي إليهم، شعر بالحرج وهو يتلفّت حوله وارتفعت الدّماء إلى وجهه، همس لريحان بهدوء:

- هل تخشون الغرباء؟

- لا يأتي كثيرون منهم وليس الجميع مسالمين!

نظر إليها في استفهام فواصلت هامسة:

- لقد كان ذلك منذ سنوات، وقعت حادثة، نحن لا نتحدّث عن الأمر لكنّ الحذر واجب مع الغرباء، لا يمكن استقبال أيّ شخص بسذاجة!

هزّ آدم رأسه متفهّمًا واحترم صمتها، سألته فجأة:

- كيف هو العالم بالخارج؟ هل لا يزال خطيرًا ومدنّسًا؟

نظر إليها في استغراب:

- العالم بخير!

- أنصد الحروب، أناس يقتلون بعضهم والأوبئة والمجاعات!

- آه، صحيح، يحدث ذلك من حين إلى آخر.

- هذا مؤسف!

أوما آدم.. إنّه كذلك بالفعل.

- نعرف عن العالم ما يقوله الغرباء.. العالم خطير على شعبنا كما تعلم.

لم يكن يعلم، ما الذي تقصده بالضّبط؟ ربّما كانت العودة عسيرة عليهم لصعوبة تحديد موقع الجزيرة! تذكّر.. من أجل هذا بالذات جاء والده إلى هنا بعد أن أنفق سنوات من عمره في البحث! كان هدفه أن يرفع اللّثام عن سرّ اختفاء إحداثيات الجزيرة من صور القمر الصّناعي. رفع رأسه إلى السّماء.. الضباب ما زال على حاله، لعلّه تعوّد وجوده فلم يُثر في نفسه الغرابة التي استشعرها أمس، لكنّ الضباب لا ينقشع!

قالت ريحان في وجوم:

- من يغادر لا يرجع أبدًا!

قال بشيء من المرح:

- العالم مسلٍ لو تعلمين، ربّما يستمتعون بوقتهم؟

تنهّدت ثمّ قالت بلهجة جادّة:

- الشياطين ترتع في كلّ مكان بالعالم الخارجيّ، لكنّ سقف الظلّة يحمينا، إنّها لا تصل إلى هنا.. نحن في أمان.

رفع آدم حاجبيه في عجب ولم يعلّق.

ابتعدا عن السّوق ونزلا في اتّجاه الحقول والمراعي. كانت هناك قطعان من الجاموس البريّ والماعز ترعى في البعيد بالإضافة إلى الأرانب المدجّنة التي تنطّ بوداعة. بدت الأرض خصبة والكساء النّباتيّ ثريًّا أكثر من أيّ أرض عرفها. ليس أنّه قد سافر كثيرًا.. لكنّه يعرف شيئًا أو اثنين، شرفات الأرز التي تزيّن التّلال مثل سلالم ذات درجات عريضة ومتموّجة ستثير حسد الصّينيّين لا محالة، أمّا حقول الشّاي الأبيض فقد امتدّت في أفاريز متوازية ذات نظام هندسيّ بديع يكاد يجزم أنّ الهنود سيقفون عاجزين أمامه، والأشجار المثمرة تميل أغصانها المثقلة بأطايب الفاكهة حتّى تكاد تلامس الأرض. كان عالمًا منظّمًا وخلابًا -باستثناء الألوان الباهتة التي لم تألفها عيناه كأنّ المشهد يكتسي مرشحًا بصريًا يسرق العالم نضارته وإشراقه- والجميع منشغل بعمله في تفانٍ.

يكاد لا يصدّق أنّ أحدًا هنا لا ينال أجرًا لقاء عمله لكنّ الجميع يتقاسم الموارد ويتبادل الخدمات. في نظام اجتماعيّ مماثل لن يكون هناك غنيّ وفقير! يقف الجميع على قدم المساواة من ناحية توزيع الثّروات، وفيم تهمّ الثّروة أساسًا إذا كان الذّهب والفضّة لا يشتريان شيئًا ولا يمنحان ميزة؟!

في البعيد لمح تلًّا مرتفعًا يتراءى تجويف عند سفحه كأنّه مدخل كهف. تساءل إن كان منجمًا ما! إنّهم يملكون مصدرًا ما للطّاقة وهو يشعر بالفضول. وقف متأمّلا لثوانٍ فسحبت ريحان كمّه وهي تقول بلهجة صارمة:

- هذا موقع خاصّ لا يُسمح لنا بالوجود هنا!

تبعها في وجوم لكنّه بقي يتلفّت وقد تزايد فضوله.. سيجد فرصة أخرى.

في طريق العودة أبصر عربات مجرورة تسحبها الجواميس تنقل المحاصيل من الحقول إلى القرية، كان الجميع يلقي عليهما التحيّة في حين لا تتوقّف ريحان عن الحديث، تشرح كلّ شيء عن كلّ شيء، اعترف في داخله أنّه لا يملك عشر معرفتها عن وطنه ولا يمكنه أن يكون دليلًا سياحيًّا ناجحًا.

حين اقتربا من حدود القرية انتبه إلى مجموعة من العمّال منكبّين على تشييد منزل جديد بالحجارة والطّين على طراز باقي دور القرية، تتبّعت ريحان نظراته ثمّ قالت بمرح:

- هذا منزل العروسين! سيكون هناك حفل زفاف بعد يومين، ربّما تودّ البقاء لحضوره؟

تطلّعت إليه في أمل فابتسم متردّدًا، بعد يومين سيودّ أن يكون في طريق العودة إلى الوطن لكنّه لا يعرف بعدُ ما ينتويه والده وما أهداف زيارته للجزيرة وبأيّ قدر سيكتفي! هل إثبات وجودها هو نهاية الرّحلة؟ أم أنّه يتطلّع إلى مزيد؟ لذلك لم يسعه أن يعدها بشيء لكنّه هزّ رأسه شاكرًا الدّعوة.

رفع رأسه إلى السّماء فألفى السّحب السّميكة القريبة لم تتحرّك، نظر إلى ريحان وسألها:

- ربّما يكون سؤالًا سخيفًا لكن.. هل تطلع الشّمس هنا؟ تعلمين.. الشمس.. ذلك القرص الأصفر الذي يضيء السّماء؟

ضحكت ريحان وقالت ساخرة:

- بالتأكيد أعرف الشّمس! نحن ننتمي إلى المجموعة الشّمسيّة والأرض تدور حول الشّمس لكن، لا، الشّمس تُشرق في أماكن أخرى من العالم. لكنّني لم أرها من قبل! الظلة فوقنا لا تسمح بمرور أشعتّها على الإطلاق.

حدّق فيها غير مصدّق وانتظر أن تنفجر ضاحكة بعد النّكتة الرّهيبة التي أطلقتها، لكنّها لم تفعل وتابعت مشيها على مهلٍ كأنّها لم تصدمه للتوّ.

تفكّر على امتداد الطّريق وهو يتأمّل الكساء النّباتيّ من حوله، لا يمكن أن تكون الجزيرة محجوبة عن الشّمس تمامًا، وإلا فكيف تحصل النّباتات والمحاصيل على الطّاقة التي تحتاجها؟ وكيف تتمّ عمليّة البناء الضوئيّ الضرورية لنموّ النّبات؟ ربّما لم تكن الأوراق بالخضرة الطبيعيّة المشرقة، وربّما كانت الألوان باهتة وشاحبة، تمامًا كبشرة السكّان، لكنّها تحصل على كفايتها من الجزء الأزرق لطيف الكهرومغناطيسي على الأقلّ، فيمتصّها الكلوروفيل لإنتاج احتياجات النّبات من الطاقة. ربّما كانت الظلة مانعة لبعض الأطوال الموجيّة، لكنّها بالتأكيد تسمح بمرور أخرى.

حين رجع إلى الكوخ كان يتضوّر جوعًا، ولعلّه قد مشى أكثر مما فعل في حياته كلّها، كان والده جالسًا على السّرير وقد بدا أفضل حالًا بكثير. على المنضدة كان طبق الغداء ينتظر؛ خضراوات مطبوخة وأرز وقطعة لحم دسمة، اتّسعت ابتسامته في شوق وقد سال ريقه، هؤلاء القوم يقدّرون البروتين الجيّد، بالنّسبة إلى آدم وجبة دهنيّة مشبعة بالبروتين الحيوانيّ أفضل أنواع الغذاء، من حسن حظّه أنّ سكّان الجزيرة لا يتبعون حمية مانويلا الغبيّة! لم يكن يعتبر مانويلا غبيّة أبدًا لكنّه لا يستسيغ حميتها النّباتيّة، في آكل لحوم من الطّراز الأوّل.

انضمّ إلى والده على مائدة الطّعام فورًا، تذوّق الخضراوات في البداية كانت مقرمشة من الخارج وليّنة من الدّاخل تكاد تذوب على لسانه، لم يكن يعتقد أنّه قد يُثني على طبق خضراوات من قبل لكنّه يفعلها الآن، خضراوات عضوية فريدة، ثمّ تحوّل إلى قطع اللّحم المطبوخ مع الأرز، لم يكن الطّعم يذكّره بأيّ نوع من اللّحوم المعروفة لكنّه شهيّ بطريقة ما

تُصدّق، تساءل إن كان لحم ماعز أم جاموس. يشكّ أنّ الأبقار والخرفان تربّى في هذا المكان، لم تكن هناك بهارات كثيرة في المرق لكنّ النّكهة تُسيل لعابه طلبًا لمزيد منها وكانت شهيّته مفتوحة بعد استنشاق هواء الطّبيعة العليل.

- كيف كانت الجولة؟

سأله والده بعد أن فرغا من تناول طعامهما، قال آدم في جديّة:

- لم أتحدّث إلى أحد، إنّهم مرتابون من الغرباء لكنّ الصّغيرة تعرف كثيرًا عن كلّ شيء، المكان غريب ومدهش! لم أكن لأتصوّر أن جزيرة مثل هذه توجد في الواقع، تخيّل.. إنّهم منعزلون تمامًا، ينسجون ملابسهم ويصنعون أدواتهم ويزرعون خضراواتهم!

استمع أشرف بابتسامة هادئة إلى ولده وهو يثرثر دقائق بصدد كلّ ما رآه وسمعه حتى ختم بقوله:

- إنّ هؤلاء القوم لا يمكنهم التأقلم مع العالم المتقدّم.. الحِرف التي يمتهنونها قضت عليها الثورة الصّناعيّة ثمّ التّكنولوجيا الحديثة، لكنّ العكس صحيح أيضًا، مهن العالم المتقدّم لا تُجدِي هنا، لا مكان لمبرمج ذكاء اصطناعيّ أو مصمّم مواقع أو مهندس شبكات!

اتّسعت ابتسامة أشرف وهو يقول بحماس:

- لكنّهم أحرار! هم أسياد أنفسهم، لا يخضعون لسلطة خارجيّة تجبرهم على الرّكوع، لا أحد يبتزّهم ليحصل على نفط أو غاز مقابل الغذاء!

أومأ آدم ببطء، إنّ والده لم يشاركه جولته عبر الجزيرة لكنّه يعرف كثيرًا عن أهلها بالفعل، فاجأه صوته العميق والغامض:

- أنت لم تر كلّ شيء بعد!

تطلّع آدم إليه في حيرة ثمّ قال بلهجة جادّة وقد تذكّر أمرًا:

- أبي.. يجب أن نجد حطام الطائرة لتتمكّن من الاتّصال بالسّفينة إنّهم لا يملكون أيّ وسائل اتّصال هنا ولا يمكننا الاعتماد على مساعدتهم بهذا الشّأن.

هزّ أشرف رأسه ببطء ثمّ قال:

- ليس بعد.

زمّ آدم شفتيه بقوّة ولم يعقّب، لا يدري لماذا لا يشاركه والده ما يدور في ذهنه بوضوح، كان يفعل ذلك طوال الوقت، يُلقي إليه بكلمات غامضة ولا يشرح مقصده، هناك في السّفينة ثمّ في الطّائرة وحين كادا يموتان جوعًا في الغابة، لا يدري لماذا لا يثق به والده كفايةً حتّى يُفضي إليه بخططه! لماذا لا يزال يعتبره طفلًا لا يُعتدّ برأيه!

وقف في عصبيّة وغادر الغرفة صافقًا الباب بعنفٍ وراءه.

توقّف في ارتباك محدّقًا في المعالِجة التي كانت قد وصلت لتوّها عند المبنى ثم تمتم بكلمات اعتذارٍ فقالت بلهجة جادّة:

- لقد رجع الحكماء من معتزلهم مبكّرين.. سيكون بوسعكما المثول أمامهم هذا المساء.

***

حرص آدم على الحصول على الحمّام الذي يحتاج إليه المثول أمام المجلس، إنها مناسبة تستحقّ قدرًا من العناية بمظهره خاصّة بعد أن لاحظ حرص السّكان الشديد على نظافتهم الشخصيّة، لعلّهم لا يستخدمون العطور الباريسيّة الفاخرة لكنّ نوعًا من الانتعاش يشتمله حين تنتهي إليه نكهات الأعشاب الطازجة التي تتضوّع من أجسادهم.

رغم وصول الماء الجاري إلى البيوت عبر القنوات الخشبيّة المجوّفة كانوا يستحمّون في بِرَك تشبه الحمّامات العامّة، قادته ريحان إلى الأحواض الخاصّة بالرّجال عند مشارف الغابة، ثمّ انصرفت فاكتشف في استمتاع أحواض الماء السّاخن التي تتدفّق من عين طبيعيّة تتفجّر بين الصّخور، تختبئ الأحواض الكلسيّة خلف خميلة من الشّجر الأسود الكثيف ويتصاعد بخار دافئ من المياه الحارّة اللامعة ببريق الفضّة.

خطا بهدوء داخل الحوض الخالي إلا منه، أجال بصره في فضول ليخترق حجب البخار فلم يلمح أحدًا فاستمرّ يمشي فوق الأرض غير المستوية حتّى بلغ الماء خصره، قرفص داخل الحوض وأغمض عينيه ليسترخي بعض الوقت ثم ما لبث أن اكتنفه سكون مخدّر حتّى غاب في سِنَةٍ من النّوم.

فتح عينيه حين طرقت سمعه ضحكات رقيقة وخافتة، تلفّت في ذعر ثمّ أصغى في حيرة حتّى أدرك أنّ حمّام السيّدات لم يكن بعيدًا، لعلّ بعض الفتيات حسبن المكان يخلو إلا منهنّ فاسترسلن في المرح والتّراشق الصّاخب بالماء، قبل أن تسكن الحركة وتتسلّل إليه كلماتهنّ الباهتة، كنّ يتحدّثن بلغتهنّ الغريبة عنه إلّا أنّ كلمة مألوفة تكررت على ألسنتهنّ بوضوح «أيتورا»-غريب- فلعلّ جولته الصّباحية في القرية جعلته مادّة ثريّة للثرثرة. التهبت وجنتاه حين تبيّن أنّه موضوع سمرهنّ أم لعلّ حرارة الماء هي التي جعلت وجهه ساخنًا فقرّر أنّه قد مكث بما يكفي في الحوض.

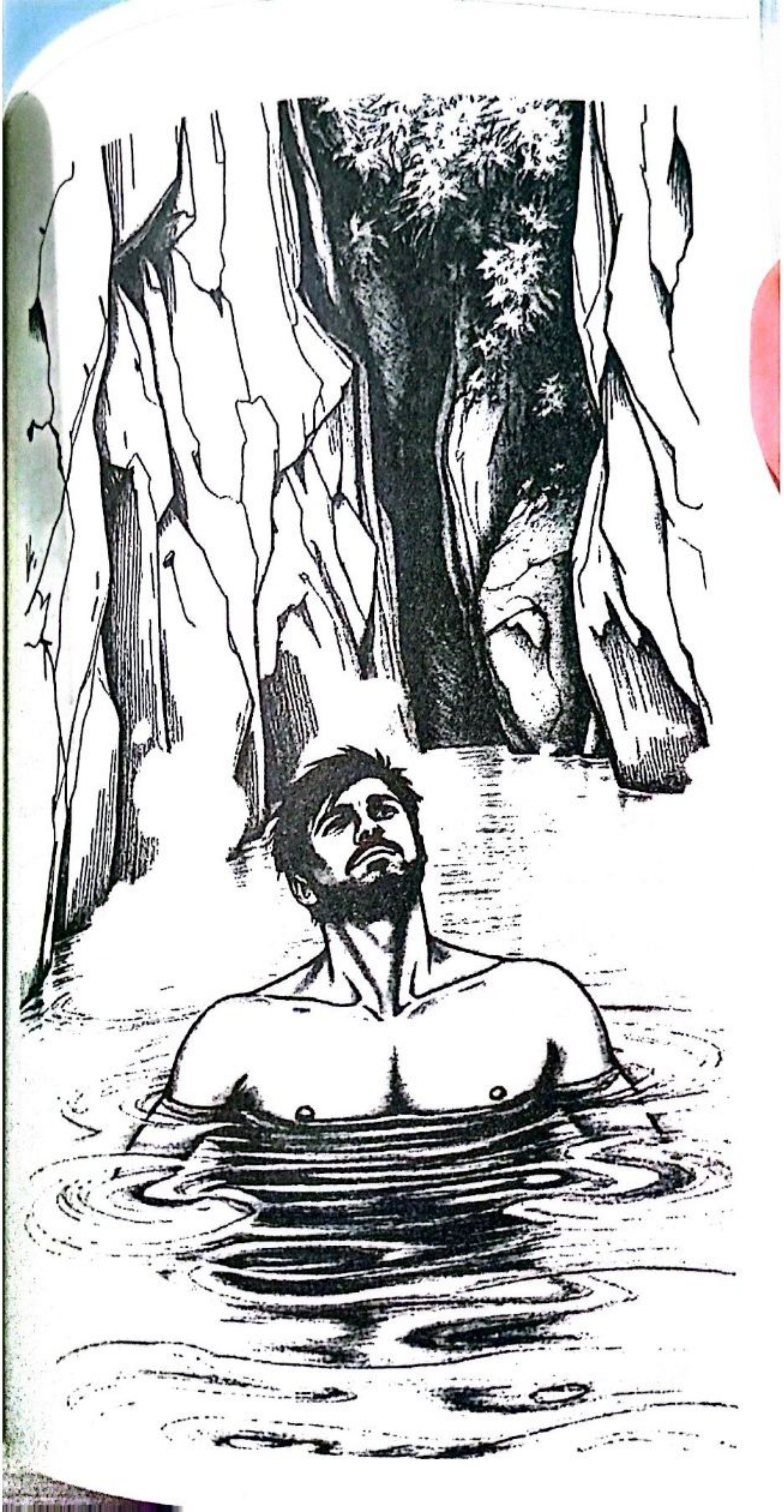

بعد قليل كان يمشي رفقة والده خلف الرّجلين اللذين حضرا لاقتيادهما نحو دار العبادة حيث يجتمع الـ«كوتانا»- مجلس الحكماء- كان آدم يعرف الطّريق فقد قطعه صباحًا رفقة ريحان في جولته الاستكشافيّة، لكنّ والده الذي لم يصحبه سابقًا مشى مطأطئ الرّأس، لم يحاول أن يرفع عينيه ليتأمّل مشهد القرية أو يتعرّف على ملامح المكان، وقد بدا ذلك غريبًا بالنّسبة إلى آدم.. فهذه جزيرته التي حلم بالوصول إليها طويلًا، فلماذا لا يملأ عينيه منها؟!

نوعًا ما صار يميّز تقريبًا بين أوقات النّهار، لم يكن الليل قد هبط بعد لكنّ الإضاءة الطّبيعيّة آخذة في الخبوّ. كان السّكان قد رجعوا من أعمالهم منذ زمن وطالعهم كثيرون من شرفات منازلهم ونوافذها المطلّة على الشّارع في اهتمام. لقد استوعب أن وجود غرباء على الجزيرة حدث استثنائيّ لذلك يودّ كلّ واحد منهم أن يلقي نظرة عن كَثب.

وزّع التحيّات وهزّات الرأس والابتسامات يمينًا وشمالًا نيابة عن كليهما، فالبروفيسور أشرف لم يكن مهتمًّا بالتّواصل مع أفراد الشّعب المُضيف.

حين وصلا إلى دار العبادة كانت هناك جموع غفيرة في انتظارهما، لعلّها لم تقدم خصّيصًا لإلقاء التحيّة عليهما بل احتفاءً بعودة الحكماء من المعتزل الجبليّ، لكنّ وصولهما استرعى الانتباه وجلب الأنظار. كان البناء المخصّص للمجلس فسيحًا من الدّاخل ومع ذلك فقد احتشد النّاس وتدافعوا لإيجاد موضع قدم، كثيرون كانوا يتزاحمون لمصافحة الحكماء ونيل مباركتهم.

بعد ذلك ارتفع النّداء للصلاة فاصطفّ الرّجال باستقامة وخشوع وأمّ الجموعَ شيخ طاعن في السّن تلا سورتي النصر والمسد بعد الفاتحة جهرًا، وقف آدم ضمن المصلّين في الصّفوف الأخيرة وإلى جواره والده، وفيما

بمجلس للتشهد. تذكّر فجأة أنه لم يسمع الأذان في أيّ وقت سابق من النهار، لقد تجوّل رفقة الصّغيرة ريحان عبر المسارات والمعالم ولم يكن قطّ أبعد من دار العبادة منه حين كان في الكوخ إلا أنّ النّداء لم يبلغه.. إمّا لأنه لم يكن منتبهًا وإما لأنّ الأذان لم يُرفع!

بعد الصّلاة تطاول آدم ليحدّق في ما وراء الزّحام، كانت مجموعة من الرّجال عظام الجثّة تتصدر القاعة بعد أن انسحب الشّيخ، أحصاهم باهتمام، كانوا ستة؛ كلّ واحد منهم أطول قامة من أيّ رجل ضمن حلقة النّاس يقفون في شموخ مشرفين على قومهم من العلياء بنظرات أبويّة حانية، وكأنّ طول الهامة والكتلة العضليّة سمة خاصّة للانضمام إلى المجلس وكانوا جميعًا بالبياض الاستثنائيّ نفسه المميّز لباقي أفراد شعبهم بالإضافة إلى بياض الشّعر واللّحى الكثّة كما يجدر بشيوخ القبائل في القصص الشعبيّة أن يكونوا. حين غدا الجميع جلوسًا أخيرًا واستقرّ بهم المقام انتبه إلى الفرد السّابع، كان شكله نشازًا وسط البياض النّاصع، إذ كان متوسّط الطول، بشرته حنطيّة متوسّطية لوّحتها الشّمس، فبات يتساءل في حيرة إن كان لون البشرة المغاير طفرةً ما! أولًا المعالجة وشقيقتها والآن هذا الحكيم!

أضاء ذهنه سريعًا بفكرة أخرى: إنّهم عائلة! لا شكّ أنّ هذه العائلة غريبة عن السكّان الأصلّيين، أراد أن يشارك والده تحليله لكنّ الصّمت الذي خيّم على المجلس جعله يحبس الكلمات في حلقه ويُصغي.

تصدّر الحكماء الجلسة على منصّة قليلة الارتفاع وجلس الحضور على سجّاد ممتدّ غطّى القاعة حتّى أقصى أطرافها، كان لون السّجاد أحمر داكنًا تتخلّله خيوط بيضاء في نقوش عتيقة تشبه كتابة قديمة ما، هُيّئ لآدم أنّها تماثل الأشكال التي يُعثر عليها محفورة على جدران الكهوف من العصر الحجريّ مشيرة إلى حضارات قديمة، لقد بدا أن «الحضارة القديمة» كانت

مستمرّة هنا! حزر أنّ التّوت البريّ الذي تناوله بالأمس ربّما كان يستخدم في الدّباغة واستخراج الصّبغة الحمراء، ما عدا ذلك كانت الألوان الطّاغيّة نربيّة، طبيعيّة في مجملها وسيدّها البياض، في المجمل كان البناء شبيهًا جدًا بالمساجد التقليديّة التي يعرفها.

ألقى الحكماء خطابًا افتتاحيًا باللغة المحليّة دام دقائق قليلة قبل أن يبدأ الملتقى الشّعبيّ، واحدًا إثر الآخر تقدّم بعض السّكان للوقوف في منتصف القاعة وعرض حاجاتهم، ربّما كان يشهد نوعًا من المحكمة إذ ينظر المجلس في النّزاعات والطّلبات الخاصّة، لكنّها كانت محكمة هادئة تغمرها السّكينة، لم يلحظ ارتفاع صوت أحدهم أو تبادل اتّهامات بلهجة قاسية، انتبه آدم إلى تلك السّمة الغالبة على كلّ شيء: الهدوء! حتّى في تزاحمهم كانوا «منحضّرين» تحضرًا يثير غيرة كلّ الشعوب المتمدنة في العالم!

تلهّى عن الكلام غير المفهوم بالتأمّل في تفاصيل المكان، كانت القاعة رحبة خالية من الزّينة والزّخارف باستثناء لوحة تغطّي جزءًا كبيرًا من الجدار الرّئيسي ظهرت عليها خريطة العالم التي تحدّثت عنها ريحان فبدت مثل نموذج تقريبيّ للعالم الذي يعرفه نُحِت في الخشب غيبًا كأنّها خريطة مستكشِف قديم لم تصحّح أبعادها وتفاصيل حدودها بالنّظر في صور الأقمار الصّناعيّة، وعلى الخشب المصقول ظهرت علامات حمراء متفرّقة كاد يجزم أنّها تذكارات تركها الزّوّار الغرباء الذين تكرّم عليهم السّكّان بإنقاذهم!

ثمّ حدّق في السّجاد عند ركبتيه، فوق المساحة الدّاكنة ظهرت مربّعات بيضاء استقرّت داخلها رسوم متتالية مثل إفريز يحمل لوحات منفصلة، انشغل لبعض الوقت بفكّ شيفرة الرّموز مثل باحث أنثروبولوجيا أو دارس للحضارات القديمة، ظهرت جوهرة ثمانيّة الأضلع في بداية خطّ

الزّمن يليها خطّ متموّج يشير إلى البحر غالبًا ثمّ شكل جبل بفوّهة عالية، ربّما هو بركان تتناثر من حوله الحمم، وسحب قاتمة لعلّها ترمز إلى الظلمة بالإضافة إلى الرّموز الطبيعيّة وتخلّلت الرسوم مجسّمات لأشخاص ما.. رجل وامرأة يضمّان تيجانًا ملكيّة ورجل منفرد بلحية كثّة طويلة وآخر يحمل رمحًا كأنه محارب ما يطارد شكلًا بشريًا مشوّها بقرون! تكرّرت كذلك رسمات حيوانيّة؛ الطّيور والماعز والأبقار والحيتان أيضًا.. ثمّ كائن غريب يشبه السحليّة. حزر أنّ الرّسوم تحكي قصّة ما، لكنّها -مثل أحافير العصر الحجريّ- مستعصية على البسطاء المفتقرين إلى بُعد النّظر الأبستمولوجي أمثاله! تساءل إن كانت ريحان تعرف المغزى من تلك الرّسوم..

انبثق رأس ريحان فجأة في الثغرة الضئيلة إلى جواره كأنّه قد استحضرها بمفعول سحريّ حين خطرت بباله، ابتسمت في تهذيب وهمست:

- ربّما تحتاج إلى مترجم؟

أومأ في امتنان فأخذت تقول:

- إنّهم يتحدّثون عن حفل بلوغ سنّ الرّشد الذي سيقام خلال أيّام.. في يوم البومة، كلّ شباب القرية إناثًا وذكورًا يختارون دورهم في الحياة حين يبلغون الثامنة عشرة، كلّ الأفراد الذين بلغوا سنّ الرّشد خلال السّنة الماضية سيحضرون الحفل، أخي مروان سيكون من بينهم! يوم البومة؟ ابتسم آدم وهو يهزّ رأسه، لكلّ الشعوب تقويمها الخاصّ الذي يعكس ثقافتها وتاريخها، ربّما إذا تعسّر عليهم تأمّل الأجرام في السّماء توصّلوا إلى تسمية الأيّام والشهور نسبة إلى الكائنات الحيّة التي تحبّها، سألها هامسًا:

- وماذا سيختار أخوك؟

انتفخت أوداجها فخرًا وهي تقول بثقة:

- سيكون «بندار»!

- «بندار»؟

- تعني مُسخِّرًا، لديه القدرة على تسخير الطّاقة! لقد كان والدي قلقًا من أجله لكنّه نجح في الاختبار وسيُكمل تدريبه بعد الحفل..

استمع إليها في سكون، يراوده على الدّوام إحساس بالنّفور حين يثار حديث الطاقة في عالمه، إنّه رجل علم وعقل ولا يؤمن بالخرافات السّاذجة التي يخادع بها الدّجالون العامّة، التّفاعل مع طاقة الكون وقانون الجذب والطاقة النقيّة وكلّ تلك التّرهات تثير اشمئزازه، لذلك لم يرغب في نقاش الصّغيرة بشأن ادّعائها، إلا أنّه التقط خيطًا آخر ليسألها على الفور:

- هل والدك ضمن مجلس الحكماء؟

هزّت حاجبيها في دهشة:

- كيف عرفت؟

ابتسم في زهوّ وهزّ كتفيه، لم يكن الأمر عسير الكشف، كان اختلافهم عن الآخرين صارخًا، استعاد كلماتها: لماذا كان والدها قلقًا على أخيها؟ لأنّه مختلف! ربّما لم يكن يملك المهارات التي يحوزها الآخرون، وإن كان حدسه صحيحًا -مرّة أخرى- فإنّ تسخير الطّاقة ليس أمرًا هيّنًا يتقنه أيّ أحد. همست ريحان فجأة:

- إنّه دوركما!

كان أحد الحكماء لا يزال يتحدّث ثمّ تحرّك رجلان باتّجاههما وأشارا إليهما برفق للتقدّم، تحوّلت اللّغة فجأة إلى العربيّة حين تكلّم الحكيم -«كوتاتا»- حنطيّ البشرة، والد ريحان، قال مبتسمًا:

- أهلًا ومرحبًا بالغريبين! يسرّنا حلولكما ضيفين علينا ونعتذر لتأخرنا في الترحيب بكما، في الوقت الذي وصلتما فيه كانت تشغلنا مسائل أخرى. في العادة، يمثل الغرباء أمام المجلس فور وصولهم للنظر في شأنهم واتخاذ القرار باستقبالهم أو إرسالهم في طريقهم، لكنّ ابنتي روان بادرت باتخاذ القرار حين عرفت أنكما مؤمنان. العالم الخارجي مليء بالمخاطر ونحن لا نعرف أيّ الأشخاص تُلقي بهم الأمواج على شاطئنا!

حتى تلك اللحظة كان أشرف يرخي عينيه مثبتًا نظراته على حجره، لسبب لم يدركه آدم، لكن حين رفع رأسه ليواجه المجلس لاحظ آدم الرجفة الخفيّة التي مرّت في عيني والد ريحان برهة قصيرة قبل أن يستعيد رباطة جأشه. نقل آدم عينيه بين الرجلين في ريبة، يكاد يجزم بوجود معرفة سابقة بينهما! إنّ ذلك لا يفاجئه كثيرًا وهو الذي صار يتتبّع العلاقات المنطقيّة بين الإشارات التي يلمحها من حوله: هذا الـ«كوتانا» غريب عن الجزيرة وهو على صلة بوالده ولعلّ والده الذي لم يغادر غرفة العزل منذ وصولهم كان يتجنّب النظرات التي قد تتعرّف عليه، أو يخشى لقاء أشخاص بعينهم! كانت اكتشافاته تزيد من توتّره وشدّه على أصابعه فوق حجره وتشنُّج فكّه.

تابع أحد الحكماء الآخرين:

- فلتعلما أنّ «آرا» أرض آمنة، إن لم تسيئا إلى أحد أو تُفسدا شيئًا فلن يتعرّض لكما أحد من الـ«آم» بالأذى، نحن لا نسرق ولا نغشّ ولا نرتكب الفواحش ومَن يفعل يُطرد بلا رجعة ليلتهمه الـ«هنا» دياما»!

ارتجف آدم وقد تمثّل في ذهنه صورة وحش أسطوري ما، همست ريحان شارحة:

- «مهفايا دياما» تعني العالم الخارجيّ، حرفيًا «ما وراء البحر»!

رفع آدم حاجبيه في دهشة مستغربًا الصّورة التي يحملونها عن «العالم الخارجي» كأنّه وحش محسوس يلتهم أبناء شعبهم بالفعل! عادت إليه ثانية كلمات الصبيّة ذلك الصّباح: «العالم خطير على شعبنا».

- سيعاملكما كلّ فرد كأنّكما أبناء شعبنا -أبناء «آم»- مهما طالت مدّة إقامتكما، ستحصلان على الطعام والكساء والمأوى، ويمكنكما المشاركة في أعمال الحياة اليوميّة بما تملكان من مهارات ومعارف، نحرص على أن يكون كلّ فرد على أرضنا مفيدًا.. فالفراغ يسبّب مفاسد كثيرة.

أومأ أشرف موافقًا ثمّ قال:

- أشكر لكم لطفكم وكرمكم، أنا مدرّس ويمكنني أن أشارك خبرتي التّعليميّة مع الفتيان والفتيات وكلّ من يرغب فيها، أمّا ابني فهو يجيد التّعامل مع الآلات.

- جميل.

أراد آدم أن يعترض، أن يضيف شيئًا، لكنّ الحكيم أشار إليهما بالانسحاب. سار آدم خلف والده وهو يشعر بالغيظ، يجيد التّعامل مع الآلات! هل يعرف والده نوع الآلات في الجزيرة وتلك التي يتقن ولده العمل عليها؟! ثمّ ماذا عن وسيلة العودة إلى الدّيار؟ لم يُشر أشرف من قريب أو بعيد إلى المدّة التي ينوي قضاءها على أرض الجزيرة ولا عبّر عن أسباب قدومه! أصابه الرّعب لمجرّد تخيّل العزلة الرّهيبة التي سيخضع لها

في الأيام القادمة في ظلّ غياب أيّ تكنولوجيا حقيقيّة، بل أسوأ: قد تعود التقنية أدراجها حين تنقضي عدّة أيّام دون العثور على أثرهم!

حين وصلا إلى الكوخ استلقى على السّرير ووفّى أبيه ظهره، كان يرتجف من الغضب، فكّر في والدته التي تترقّب عودتهما وفي الوظيفة التي يعترض به استلامها خلال أسبوع واحد. كان قد تخرّج في كليّة الهندسة للتوّ وأتى تدريبه العمليّ، الحياة الحقيقيّة تنتظر، لكن لوالده رأي آخر وهو مجبر على الخضوع والاستسلام!

لا، ليس مجبرًا، اتّخذ قراره، إن وجب عليه التحرّك بمفرده فسيفعل.

(4)

اليوم الرّابع

قد يكون البحر ملاذًا ومهربًا لآخرين لكنّه عنوان لشيء واحد في وعيه: أنه محاصرا ترفع الأمواج العالية سدودًا وجدرانًا من حوله تضاهي في وجدانه متانة الخرسانة المسلحة التي تُشيَّد بها المعاقل والسّجون.

لم يكن الأمر على تلك الشّاكلة في القديم، لقد عرف في وقت بعيد كيف يكون صديقًا للبحر إلّا أنّ حاله انقلبت بعد تلك الحادثة، منذ خمسة عشر عامًا، في تلك الليلة السّاكنة تساقط المطر رقيقًا في زخّات متفرّقة، حين دعاه نداء بعيد للخروج إلى الشرفة، كأن صوتًا بشريًّا يطلب النجدة أو هكذا حسبه، بين خفقات الماء على سطح المنزل وفوق حافّة النّافذة ميّز الدّعوة التي خصّته دون كلّ البشر.

كان طفلًا دون الثامنة إلّا أنّه يألف البحر ولا يخشى ظلمته ليلًا، كان قد وُلد ونشأ في ذلك البيت الشاطئيّ الصّغير فأحبّ ذلك القرب من الجسد المائع الممتدّ على مدّ البصر، وقف يطالع الأفق البعيد في لهفة غريبة، استمرّ الصّوت يناديه، إلا أنّه لا يميّز شيئًا بعد عدا السّكينة والعتمة الحالكة، انحسر الودق وانقشع الغمام فأطلّ القمر ساطعًا ولامعًا مثل مصباح معلق في السّماء وانعكس بريقه على سطح الماء مثل طلاء من الفضة الرقراقة، غمرت المياه قدميه فأخذ يسير ويخوض في البحر كالمُسَرنَم. ارتفع الماء من حوله وكل حواسّه مُستلَبَة منه بالصّوت وصاحبه.

حين انتبه كان قد غدا محاطًا تمامًا بالأمواج المتأرجحة في زخم، لم يدر كم مضى عليه من الوقت وهو يسبح، ولا إلى أيّ مدى قد جرفه التيّار، لم تعد قدماه تلامسان الأرض الصّلبة ولا عاد منزل الشّاطئ ولا الأضواء الباهتة لبيوت الشّريط السّاحليّ تتراءى لناظريه، غير أنّه كان بخير حتى تلك اللحظة، لكنّ استرجاع الادراك جعله يرتبك لينهج بعنف ويبتلع الماء المالح بغزارة، كان يختنق، يتخبط ويعبّ الماء مكان الهواء ثم فقد الوعي، كان يغرق الآن فعلًا!

تفصل تلك اللّحظة عن موعد عودته إلى الحياة فترة زمنيّة لا يدرك مداها، حين استيقظ في سريره شهق التماسًا لهواء كان قد حسب نفسه فقده إلى الأبد وكانت نبضاته هائجة ومتسارعة، في الصّالة كان والداه يتشاجران، تتناهى إليه أصوات الصّراخ العائم وهما يتبادلان اللّوم، لو سألاه لحار في الجواب بدوره: كيف غادر المنزل؟ ولماذا؟ وما الذي تسبّب في غرقه؟

منذ تلك الليلة صارت والدته توصد الباب بإحكام في المساء حتّى لا تحمله قدماه في اتّجاه البحر، وبعد أسبوعين تركت العائلة منزل الشاطئ نهائيًا، قال الأطبّاء أشياء كثيرة وتناول العقاقير التي وُصفت من أجله، هل كان يسير في أثناء نومه؟ أم تراوده هلاوس سمعيّة؟ أم أنّها ضربة شمس تعرّض لها في اليوم السّابق أفقدته حضوره الذّهني؟

بعد خمس عشرة سنة كان يُبحر للمرّة الأولى.

***

@ART_OF_BOOK

أيقظته طرقات خفيفة على باب الكوخ، جاءت ريحان مرّة أخرى ورفقتها عدد من الأطفال أكبر وأصغر سنًّا منها، كانوا جميعًا يطالعونه بفضول وشغف وابتسامات ودود على وجوههم. قالت ريحان:

- يريدون التّرحيب بك.

كانت جوقة الاستقبال مُربكة، هل كان يُفترض به دعوتهم إلى الدّاخل! قال في ضيق:

- أليست لديكم مدرسة اليوم؟

- اليوم عطلة!

عظيم، لديهم إجازات! لماذا يبدو هذا مفاجئًا؟ إنّ صرامة الحكماء بالأمس أوحت إليه بحياة لا مرح ولا راحة فيها لكنّه ممتنّ للفسحة المتاحة قبل أن يضطرّ إلى «العمل».

في الشّارع كان النّشاط باديًا في الشّرفات والحدائق على عكس اليوم السّابق. تعالت أصوات الجيران وهم يلقون التّحيات ويتبادلون الأحاديث من وراء حواجز النّبات المنخفضة أو ينهمكون في الأعمال المنزليّة ويهتمّون بحدائقهم الخاصّة.

قالت ريحان ثانية أمام صمته:

- هل تودّ مرافقتنا إلى الميناء؟ يصل الصيّادون بعد قليل!

لديهم ميناء إذًا، قد يكون ذلك مفيدًا، ميناء يعني قوارب، قد يتمكّن من استئجار واحد أو استعارته من أجل رحلته نحو السّفينة، لا يذكر شيئًا كثيرًا عن حادثة غرقه في سنّ الثامنة إلا أنّه لا يزال يعاني آثار رهاب الماء الذي أصابه بعدها كلّما وقف على شاطئ ما، عاد إليه فزع لحظة الانتباه المفاجئ في خضم الأمواج المتلاطمة يتبعها الاختناق إلّا أنّه قد وجد ركوب «الأسطورة» مقبولًا، سيكون بخير طالما ظلّت أطرافه جافة.

أوما موافقًا لاقتراح الصّغيرة ومشى متبوعًا بكوكبة من الأطفال المتحمّسين كأنّه زعيم قبيلة وكان النّاس في الشّارع يلقون عليهم التحيّة بسعادة واضحة، حسنًا، لعلّه من الممتع أن تكون محطّ الأنظار وذا شعبيّة عالية مثل شخصيّة عامّة أو بطلٍ قوميّ أو غريب في جزيرة منعزلة!

في أثناء المشي كان يدرس الطُّرقات بدقّة، إن كان يسعى إلى إيجاد وسيلة للعودة إلى الدّيار فربّما يبدأ التعرّف إلى محيطه حتّى يتمكّن من التحرّك بسلاسة، رسم خريطة للجزيرة في رأسه، بدت حسب تقديره مثل بيضة مسطّحة تستقرّ القرية في قسمها الشّماليّ الغربيّ فيما تمتدّ الحقول والمراعي في الجانب الشّماليّ الشّرقيّ، كان تحديد الشّمال والجنوب لاعتبارات ذاتيّة محضة، فلم تكن هناك أيّ دلالات طبيعيّة في السّماء ترشده إلى الاتّجاهات المعروفة لكنّه قرّر أنّ تحديدها سيمكّنه من استحضار الخريطة في ذهنه بطريقة أكثر وضوحًا.

كان يلمح الغابة ناحية الجنوب -الافتراضيّ- ولعلّها تملأ المساحة الأكبر موفّرة غطاءً نباتيًّا ومصدرًا دائمًا للمواد الأوّليّة التي يعتمد عليها السّكان في حياتهم اليوميّة مثل الخشب والخيزران والسّعف. كانت القرية محميّة من جهة الشّمال بالتلال المرتفعة ومن الجنوب بالأشجار الباسقة، وفي منتصف الرّقعة كان هناك جبل بارز تختفي قمّته وسط السّحاب الكثيف مثل فوّهة بركان تنفث رمادًا فضيًّا يغمر السّماء ويرمي رداءً سميكًا يحجب الجزيرة عن العيان، أو مثل مفاعل نوويّ يعمل بطاقته القصوى طوال الوقت مرسلًا دخانًا مستمرًّا. سيطرت عليه تلك الفكرة: قد يكون مصدر الطّاقة العجيب الذي لم يدرك كنهه بعد، تذكّر رسم الجبل البركانيّ على السّجاد ومدخل الكهف عند السّفح وردّة فعل ريحان القاطعة، بجد

الفرصة ليتحقّق من أمره في وقت لاحق، أيّا كان سرّ هذه الجزيرة فهو يكمن في الجبل! كان حدسه يخبره بذلك وكان على صواب غالبًا.

كان الميناء واقعًا في المساحة الفاصلة بين المراعي والغابة، لم يكن ميناءً بالمعنى الحقيقيّ لكنّ عددًا من مراكب الصّيد الخشبيّة كانت تلقي مرساتها عند الشّاطئ فيما أُنشئت منصّة خشبيّة فوق الرّمال لتيسير تفريغ حمولة السّمك، تراكض الأطفال في المياه القوارب التي رست منذ وقت قريب أو كانت في طريقها نحو الجزيرة وأخذوا يقفزون ويلوّحون بحرارة.

فاحت في الجوّ رائحة السّمك الطّازج مع رائحة البحر المثقلة باليود وتتابع نزول البحّارة محمّلين بالصّناديق الملأنة، كثير منها، يتراقص داخلها سمك فضيّ وفير. بدا أنّ استقبال الصّيادين نوع من طقوس العطلة بالنّسبة إلى الأطفال، ابتسم آدم ساخرًا: في جزيرة نائية حيث تنعدم وسائل التّرفيه من الطّبيعيّ أن يبحث الأطفال عن أيّ طريقة سخيفة لتزجية الوقت.

بعد تأدية مهمّة التّرحيب جلسوا في مجموعات على الشّاطئ. كان الأولاد الأصغر سنًّا يلعبون بالرّمال الفضيّة ويغمسون أرجلهم في الماء ويجمعون الأصداف فيما يستلقي آخرون على الأراجيح الشبكيّة التي ربطت بخيوط متينة بين الجذوع العريضة أو يتقاذفون كُرةً من المطاط الخام الذي يُصنع من العصارة اللبنية لأنواع من الأشجار في حين تحلّق الكبار حوله في فصول حادّ. كان آدم يتابع بنظرات جانبيّة سير الأشغال على المرفأ، فكّر أنّ يوسعه الحديث إلى البحّارة بشأن استعارة مركب حين تحين الفرصة الموالية.

قالت ريحان، سفيرة الجزيرة إزاءه:

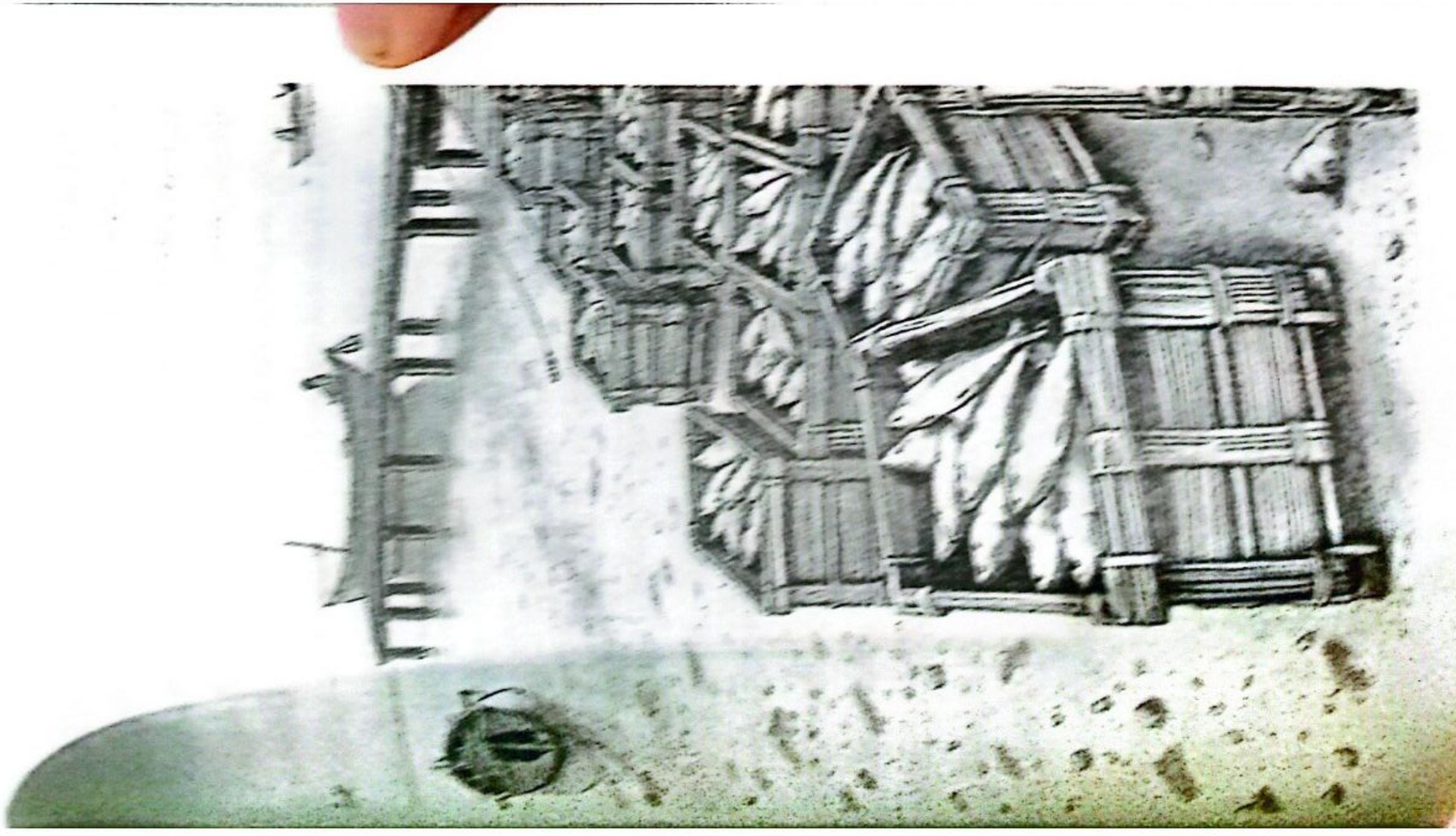

- لعلّك تدرك.. لا يأتينا غرباء يتكلّمون العربيّة إلّا نادرًا.. ليس منذ ولدتُ على الأقلّ، لذلك لا نجد فرصة للتحدّث إليهم، بعض المدرّسين يتكلّمون قليلًا من الإنجليزيّة، تعلّموها من الغرباء على فترات متباعدة فأصبح بإمكانهم التّواصل مع من يأتي منهم لكنّها ليست حال الأغلبيّة..

هزّ آدم رأسه في اهتمام، ثمّ سألها:

- كيف انتهى الأمر بكم إلى تعلّم اللّغة العربيّة دونًا عن غيرها من اللّغات؟

هزّت الفتاة كتفيها وبادلت الآخرين نظرات حائرة:

- لقد كان الأمر كذلك منذ القديم! لدينا لغة نتكلّمها في ما بيننا ونتعلّم العربيّة في المدرسة لأنّها لغة الكتاب المقدّس!

هذا أمر آخر يحيّره: كيف وصل الدّين إلى تلك الجزيرة النّائية التي لا يغادرها أصحابها أبدًا؟ ردّت ريحان ببساطة:

- منذ زمن بعيد جاءنا «نافيا»!

- «نافيا»؟

- «نافيا» تعني المُعلّم الرّوحي، لقد جاءنا بالمعجزة وعلّمنا الكتاب المقدّس!

ابتسم في استخفاف.. هل حظيت هذه الجزيرة المنعزلة بنصيبها من الـ«غورو» الرّوحانيّين؟ أو ربّما اعتقد أحدهم أنّه قد يكون «بوذا» آخر لقومه؟

همست ريحان مجدّدًا:

- إنّهم يريدون أن يعرفوا أكثر عن «مهافيا دياما» - العالم الخارجيّ!

تنحنح آدم استعدادًا لمحاضرته ثمّ قال:

- حسنًا.. في العالم الخارجيّ تُوجد مدن كبيرة شوارعها واسعة يغطيها ملايين البشر وأبنية عالية جدًا تسمَّى ناطحات السّحاب لأنّها تعانق السّحب!

قاطعه أحد الأولاد وهو يشير إلى أعلى:

- لكنّ الظلة ليست مرتفعة جدًا.

ضحك الآخرون في تسلية فقال آدم معترضًا:

- السّحاب في العالم الخارجيّ مرتفع!

لم يبد الأطفال منبهرين، فتلك صورة لا يمكنهم تخيّلها، أضاف بجديّة:

- وهناك مركبات تجري بسرعة في طرقات ممتدّة وأخرى تطير في السّماء وتحلّق فوق السّحاب!

هنا فغر الأولاد أفواههم، إنّ فكرة وجود مركبات فوق السّحاب الذي يعتبرونه غطاء عالمهم ولا يدركون ما يوجد وراءه كانت مذهلة، استغلّ فرصة اهتمامهم وقال:

- لقد وصلتُ على متن واحدة منها لكنّها سقطت في البحر وتحطّمت.. هل تعرفون إن كان المدّ قد ألقى بها على أحد الشّواطئ؟

تبادل الأطفال النظرات، إن كان شيء كهذا قد حدث فإنّه سيكون حديث القرية بالتأكيد لكنّ أيًا منهم لم يبد على معرفة بشأنها:

- إذًا لعلّها قد سكنت قاع المحيط... ربّما إذا تمكّنت من استخراج حطامها سيكون بوسعكم إلقاء نظرة عليها!

سرت همهمات حماسيّة بينهم، قال ماهر ذو الأربعة عشر عامًا:

- الصيّادون! ربّما يمكنهم العثور عليها.

- إنهم يلقون الشّباك في قاع المحيط ثمّ يسحبون أشياء كثيرة.

تزايدت المهمات وتحدّث آخرون عن أشياء غريبة يجدها الصيّادون في الماء. غالبًا ما تستخرج الشّباك موادّ صلبة يُلقي بها الغرباء في المحيط أو تترشّب من السّفن الغارقة.

قال فتى آخر بفخر:

- سأتحدّث إلى والدي بشأن مركبتك، إنّه بحّار.

التمعت عينا آدم ثمّ وقف ليرافق الولد الذي يُدعى ياسر إلى المرفأ. كان الصيّادون قد أنهوا تفريغ صناديق السّمك ووصل الحمّالون بالعربات المجرورة لنقلها بالمياه المخزن، جلس البحّارة على الشّاطئ وقد انشغل بعضهم بالعزف على آلة وتريّة وأخذ الآخرون يرافقونه بالتّصفيق بالمتهم الغربية.

سحب ياسر أحد البحّارة من كفّه وتحدّث إليه جانبًا قبل أن يقوده إلى حيث وقف آدم حيال الرّجل بودّ ثمّ قال بعربيّة مهشّمة:

- لم نعثر على شيء يشبه مركبتك، إن كانت قد انجرفت بعيدًا فلا يمكننا الوصول إليها.. أنت تعرف، لا يمكننا الإبحار في المحيط العميق نحن لا نبتعد كثيرًا، نبقى دائمًا في نطاق الظلة.

حسنًا، لقد بات يعرف نوعًا ما. تلك المخلوقات التي يفترسون بها مراكبهم باتت تتراكم في ذاكرته لتبني صورة متكاملة عن طبيعة حياتهم وتفكيرهم.

في بلدته مثلهم، تلك حدودهم الإقليمية وهم لا يتجوّلون خارجها، فلماذا يجهد

- ربّما إذا سمحتَ لي بمرافقتكم في رحلة استطلاعيّة قد أجد وسيلة للعثور عليها.

هرش الرّجل رأسه ثمّ قال:

- لن نبحر قبل يومين، أنت تعرف، هناك حفل زفاف يوم غدا!

أومأ آدم في امتعاض، نعم، كان يعرف، حفل الزّفاف يعدّ حدثًا اجتماعيًّا مهمًّا في الجزيرة ولن يغيّر أحد نسق الحياة الرّتيبة الخاصّة به من أجل حطام طائرته، لكنّه يمتلك خطّة على الأقل، بعد الزّفاف سيكون بوسعه الشّروع في البحث.

(5)

اليوم الخامس

في عتمة الليل فتح آدم كيس الأرز ومسح سطح الهاتف بعناية ثم ضغط زرّ التّشغيل وترقّب بضع ثوانٍ قبل أن تضيء الشاشة، تنفّس بارتياح. بسبب الرّطوبة العالية في الجوّ احتاج الجهاز إلى أيام حتّى تغادره رواسب الماء أخيرًا.

فتح الباب برفق وتسلّل إلى الخارج في هدوء، تلفّت حوله ليطمئن إلى خلوّ الشّارع ثمّ مدّ ذراعه ورفع الجهاز إلى أعلى ما أمكنه، لكنّه لم يلتقط أدنى إشارة. تنهّد وهو يعود أدراجه إلى الدّاخل، ليس أنّه لم يتوقّع هذا إنّما كان عليه أن يجرّب رغم ذلك، يشير شحن البطاريّة إلى نسبة ثمانين بالمئة، عليه أن يحافظ عليها قدر الإمكان حتى تتيسّر له العودة، أطفأ الجهاز بسرعة ثمّ أعاده إلى الكيس.

لم يغادر والده السّرير لليوم الثاني على التّوالي، لقد حيّره الأمر، إنّه يتناول الدّواء الغريب بحرص صباحًا ومساءً ويبدو ظاهريًّا بحال حسنة لكنّه لا يكاد يغادر الغرفة المخصّصة لهما إلا في ما ندر! قال أشرف حين دعاه آدم لمرافقته:

- أشعر بالدّوار.. أفضّل البقاء في السّرير حتّى أستردّ عافيتي تمامًا.

هز ادم رأسه ولم يعلّق، إنه يشعر بالذهاب والعذاب أيضا حين يستيقظ صباحًا، إحساس شبيه بإدمان البحر، كأنه يستعذ بأن جسمه على متن السفينة لكنه يتحسّن فوريًا حين يتناسب واقفًا، يلامس قدماه الأرض الصلبة غير أنه لا يتناول حبّات الدواء بل يتركها بحرص لعدة الرحلة، لم يكن قطّ مولعًا بالأدوية، يفضل أن يمنح جسده الفرصة للتعافي طبيعيًا، الجسد السليم والرياضيّ عالي المناعة يدافع عن نفسه تلقائيًا وقد كان يفخر دائمًا بقدرته على تجاوز حالات الزكام والإنفلونزا الموسميّة بيسر.

وهو يبتعد عن الكوخ فكّر أنّ والده دنيا يعاني حالة اكتئاب! تلك حالة تصيب من يأوي إلى الفراش أمر ما سنوات طويلة ثمّ يخرج عليه فجأة فتنطفئ رغبة الحياة في داخله وقد صار جاهزًا بين يديه لحظة إمساك بالشراب الذي رفض خلفه طيلة حياته ليتمثّل واقعًا ملموسًا فيتوقف عن السعي ولا يكون له هدف بعد ذلك، لقد أفنى البروفيسور أشرف عمره في رحلة البحث ولم يحقّق الوصول معاني الاكتفاء التي هيّأها له تخيلاته فأصيب بالإحباط!

ثمّ هناك ذلك الحكيم الغريب الذي تعرّف عليه في اجتماع المجلس!

حين وصل إلى الشوق كان أمرٌ آخر قد صار يستحوذ على تفكيره، كان يحتاج إلى كاشف معادن من أجل رحلته الاستطلاعيّة! يمكنه أن يصنع واحدًا بواسطة عصا طويلة أو حبل، يربط في طرفها مغناطيسًا ويلقي في الماء إلى أعماق لا تبصرها العين المجرّدة حتّى يتمكّن من تحديد موقع الحطام المحدّد للطائرة، ثمّ حين يصل إلى موقعها سيتمكّن من ربطها إلى بعض القوارب وسحبها إلى الشاطئ أو تدبّر أمر رافعة ما، إذًا عليه إيجاد المغناطيس أوّلًا. تأمّل محلّات الحرفيّين مشرعة الأبواب وقال: إذا كان هناك مكان يمكن أن يجد فيه مغناطيسًا فهو هذا!

جال بين المحلّات بتأنٍّ وهو يحدّق في الآلات والبضائع، سيكون عليه أن يباشر عمله في أحدها قريبًا إن لم يجد وسيلة للمغادرة، تنهّد، حسنًا، من محاسن «المدينة الفاضلة» أنّ كلّ شيء ملك مشاع للجميع! قلّب الآلات في اهتمام، كانت جميعها مكوّنة من الخشب والحجر والأنسجة وقطع مصقولة من صدف المحّار. لم يكن هناك أثر للمعادن فضلًا عن المغناطيس! كيف يقطعون الخشب إذًا؟ وكيف ينحتون القطع الحادّة؟ إنّهم يحتاجون إلى أدوات صلبة وقاطعة من المعدن! لكنّه لا يجد لها أثرًا! لا يعلم إن كانت الأصداف بالكثافة والصلابة الكافيتين للقطع والثقب لكن ماذا عن صقل الأصداف ذاتها؟ حاول أن يتذكّر: لقد تحدّثتْ ريحان عن طريقة عمل الآلات لكنّها لم تُشر قطّ إلى كيفيّة صنعها!

توقّف طويلًا عند آلة شحذ للأواني الخشبيّة، كانت مكوّنة من عدّة تروس مسنّنة معشّقة يؤدّي دوران الأوّل إلى حركة لولب سريع في نهاية المسار، حاول أن يستحضر دروس الفيزياء القديمة، لم تكن الفيزياء اختصاصه لكنّه أحبّ المقرّر وتميّز فيه، إنّ التيّار الكهربائيّ يصنع حقلًا مغناطيسيًّا وحركة الدّوران يمكنها أن تولّد تيّارًا كهربائيًّا بمادّة ناقلة في حضور حقل مغناطيسيّ، لكنّ هذا يعيده إلى الخانة الأولى: العثور على مغناطيس!

عاد أدراجه باتّجاه القرية، كانت السّاحة المتاخمة لدار العبادة تشهد استعدادات مكثّفة، تذكّر: هناك عُرس هذا المساء! كانت السّيدات مشغولات بتقطيع الخضراوات وإضرام النّار ونقع الأرز فيما تتصاعد أهازيج شعبيّة يردّدنها مثل جوقة مثاليّة، عدد من الرّجال يقيم سرادقًا بأعمدة خشبيّة ونسيج أحمر داكن، خمّن أنّه خاصّ بالعروسين وقطيع من الماعز يُساق إلى المسلخ ليكون وليمة الجموع المدعوّة؛ أي كلّ أهل الجزيرة.

ابتسم وكاد لعابه يسيل مع وعد العشاء الفاخر الذي يلوح في الأفق، لقد كان الطّعام لذيذًا لذةً استثنائيّة لكنّه.. متكرّر. كان ووالده يحصلان على وجبتين في اليوم؛ واحدة قوامها السّمن والعسل والثّانية مكوّنة من خضراوات وأرز وسمك، كان يتوق إلى شيء مختلف وشهيّ.

بعد وجبة اللّحم الوحيدة التي حظيا بها في اليوم الأوّل كان السّمك هو كلّ البروتين الذي حصل عليه وقد تفكّر في الأمر طويلًا وأدرك أنّ اللّحم كان طريقتهم في الاحتفاء بالضّيف، لم تكن القطعان وفيرة وهم يستغلّون الجواميس في جرّ العربات والماعز للحصول على الحليب والوبر الذي ينسجون منه أرديتهم أمّا السّمك فهو أكثر الأغذية وفرة في أرض يحيط بها الماء من كلّ جانب.

توقّف قرب المشفى وقد عادت إليه خواطر الصّباح، ربّما يحتاج والده إلى رؤية الطبيب، ألقى نظرة من البوابّة فلمح عددًا من الفتيات اليافعات بالدّاخل، كنّ يتهامسن ويضحكن في مرح غير منتبهات لوجوده، تساءل إن كنّ جميعهنّ معالجات وإن كان هناك معالجون في مكان ما أم أنّ الحرفة حكرٌ على النّساء؟ ربّما بينهنّ ممرّضات أو محضّرات دواء.. وإن كان من العسير التّفكير في وجود هذا النّوع من التخصّص في المهام بجزيرة نائية، إنّهم لا يسمّونهم أطبّاء مثلًا لأنّ الطبّ علم متشعّب ربّما لا يدرك أحد هنا مدى وعورته فيما يوحي لفظ المعالج بمستوى بسيط وسطحيّ مثل الطبّ البديل والعلاج بالأعشاب، نوع من العلاج البدائيّ لكنّه كلّ المتاح في الظروف الرّاهنة.

انتبه إلى توقّف الهمس وثبات أزواج العيون على وجهه، تنحنح ثم ألقى التحيّة، توقّفت عيناه عليها؛ المختلفة بين أقرانها، قالت ريحان اسمها روان، أشار إليها وقال:

- هل يمكنك المجيء، رجاء؟

تركت مكانها وعلى وجهها علامات الدّهشة، قال بتلعثم:

- إنّه أبي، لا يبدو بخير!

حين ابتعد على إثرها عاد إليه الهمس من ورائه مثل طنين نحلات نشيطات. مشت «ماغداخا» روان تسبقه بخطوة ومهما حاول اللّحاق بها كانت خطواتها تمتدّ وتتّسع لتحافظ على أسبقيّتها، حين صارت عند باب الكوخ تراجعتْ لتسمح له بالدّخول قبلها ثمّ استأذنت قبل أن تتبعه إلى الدّاخل، ابتسمت وهي تنحني فوق البروفيسور أشرف:

- اسمح لي بفحصك سيّدي.

مثل المرّة الأولى.. كان فحصها يدويّا بدائيّا دون أيّ أدوات تُذكر، لمستْ نبضه على مستوى الرّسغ ونظرت في بؤبؤ عينيه ثمّ سألت في شكّ:

- هل تشكو من شيء محدّد؟

سارع آدم يقول:

- لقد شكا من الدّوار كما أنه لا يجد القوّة أو الرّغبة في الخروج، ربّما هي مشكلة نفسيّة؟

رمقته بنظرة عابرة، تساءل آدم في سرّه إن كان «المرض النفسيّ» يعني شيئًا بالنسبة إليها.

- هل يتناول الدّواء؟

أومأ أشرف وهو يقول:

- أنا بخير يا سيّدتي، أتناول الدّواء ولا أشكو إلا من بعض الدّوخة، لا شيء يستحقّ القلق.

- سأرسل إليك أعشابًا تنقعها في الماء الدّافئ، ستساعدك على التّوازن صباحًا.

شكرها الرّجلان ثمّ تبعها آدم إلى الخارج.

- سأرافقك.. من أجل الأعشاب.

مشى خلفها بالوتيرة السّابقة نفسها، كانت بعض الأسئلة تدور في خلده بشأن العلاج الذي تمارسه ومدى فاعليته، لكنّه لم يشأ أن يهينها أو أن تسيء فهمه فأحجم. عندما صارا على مشارف المشفى استدارت فجأة وتفحّصت عينيه بنظرات ثاقبة ثمّ سألت في ريبة:

- هل تتناول دواءك؟

ازدرد لعابه في ارتباك، لا يدري كيف كشفت أمره، لكنّه همهم كاذبًا:

- بالتأكيد!

لا يعلم إن كان قد خدعها لكنّها لم تلحّ أكثر بيد أنّ الشّكّ راح يتسلّل إلى نفسه: لماذا يتناول دواءً إن لم يشعر بالحاجة إليه؟ ولماذا تحرص على ألّا يفعل؟

اختفت داخل المبنى لبضع دقائق خلالها كانت عيون الفتيات تسرق نظرات مستكشفة فضوليّة للـ«أيتورا» الذي يتجوّل بحريّة على الجزيرة سمعها تنهرهنّ وهي في طريقها إلى الخارج فتفرّقن وهن يطلقن ضحكات مكتومة. ابتسم آدم في غرور، حسنًا، من المثير الحصول على بعض الاهتمام وهو يجني كثيرًا منه هذه الأيام. في أروقة الجامعة لم يكن إلا شابًا عاديًا شبه شفاف، لا يكاد يلتفت أحد لمروره، طالته نظرتها الصّارمة فتلاشت ابتسامته وهو يتلقّى صندوق الأعشاب، قالت:

- ملعقة واحدة من المسحوق في كوب واحد من الماء الدّافئ.

هزّ رأسه شاكرًا وهو يستنشق المسحوق في فضول، ربّما هو خليط من أعشاب مألوفة وأخرى لم يُحِط بها، ثمّ ورد بباله خاطر مفاجئ فسألها:

- هل تعرفين أين يحتفظون بالأشياء التي يلتقطها الصيّادون من قاع المحيط؟

ظهرت الدّهشة في عينيها لكنّها أومأت وهي تشير إليه أن يتبعها، سارت حتّى تجاوزت حدود القرية، تقدّما في صمت خلال مسار متعرّج يعبر التّلال ثمّ أخذت خطواتهما تنحدر في اتّجاه وادٍ قليل العمق، حين أشرفا على السّاحة التمعت عينا آدم في دهشة وهو يحدّق في المشهد الذي تبدّى أمامهما، بدا الموقع مثل مكبّ نفايات صناعيّة، في الأرض أخاديد محفورة بعمق عدّة أمتار ترقد تحتها ربّما أطنان من المعادن وفضلات العالم الحديث التي ألقى بها المدّ على شواطئ الجزيرة، على يمينه تقبع كومة حديثة الوصول تنتظر دورها في الرّدم.

رمقته روان في إشفاق وهي تلمح ابتسامته البلهاء، قرأ أفكارها في عينيها: المسكين.. يتوق إلى أيّ شيء يذكّره بالدّيار حتّى لو كان قديمًا وفاسدًا وغير ذي نفع، لكنّه لم يكلّف نفسه عناء الشّرح.

قالت بلهجة جادّة:

- نستخرجها من قاع المحيط لأنّها تضرّ بتوازن الطّاقة ونعيدها إلى باطن الأرض، إلى حيث تنتمي، بقاؤها يفسد الـ... آه!

توقّفت كلماتها عن التّدفق حين وضع علبة الأعشاب على الأرض وراح يخوض عبر الكومة أمام نظراتها المذهولة، لم يكن يستمع جيدًا، كان مشدودًا إلى الأشياء الصّدئة التي تراكمت أمام عينيه.. معدن! كان هناك كثير من المعدن! تساءل: هل هم بهذا الغباء فلا يستغلّون هذه الخردة لصنع آلات متينة وفعّالة؟! كان يلتقط القطع واحدة تلو الأخرى ويفكّر في عشرات

الاستخدامات الممكنة، وكّز أكثر.. لو أمكنه إيجاد قطعة معدن ممغنطة فسيكون هناك صنع مجال مغناطيسي مستحثّا سائلها دون أن يرفع رأسه:

هل تلاعبون في بقائي هنا؟ ربّما أحتاج إلى بعض الوقت حتى أجد ما أحتاج إليه..

هزّت رأسها في حيرة ثمّ ابتعدت.

***

حين رجع آدم أدراجه إلى القرية كان الليل قد هبط بالفعل، كان قد عثر على بعض الحاويات المعدنية داخل الكومة، ملأها بقطع من أحجام مختلفة يظنّ أنّها مفيدة، في علبة صفيح جمع عددًا من المسامير والبراغي فيما احتوت علبة أخرى على أجزاء معدنيّة حادّة يمكن استخدامها في التقطيع والنّحت، في كومة صغيرة جانبيّة فرز الصّفائح المسطّحة سهلة التّطويع والطيّ التي يمكن أن تصير أدوات ما، لا يدري بعد لكنّه سيفكّر بمهامّ من أجلها، بعد ساعات من التّقليب وسط الطّردة كان محظوظًا بشكل ما، لم يكن هناك إنجاز حقيقيّ بعد لكنّه على أبواب تحقيق شأن فارق في حياة سكّان الجزيرة.

لا يدري كيف استحوذت عليه تلك الفكرة، كلّ ما كان يطمح فيه هو إيجاد مغناطيس -وجد واحدًا بالفعل- لكنّه لم يتوقّف عند ذلك الحدّ وقد تحمّس لمشاركتهم معرفة لا قِبَل لهم بها، إنّ مجرّد تخيّل نظرات الانبهار التي ستظهر في عيونهم حين يعرض أدواته المتطوّرة يملؤه رضا.

كان يحمل علب الصّفيح بين ذراعيه وهو يتّجه نحو الكوخ حين استوقفه مشهد الاحتفال الذي بدأ بالفعل، كانت الوليمة قد نُصبت فوق السّجاد المبسوط على امتداد السّاحة وجلس النّاس في حلقات حول

أجساد الماعز الكاملة والمشويّة على ألسنة اللّهب والإضاءة المحيطة مشرقة إشراقًا استثنائيًا وبما يليق بالأجواء الاحتفاليّة.

أشار إليه رجل ما بكفّه داعيًا فانضمّ إلى حلقة قريبة، كان الرّجال مجتمعين يسار السّرادق في حين خصّص الفضاء يمينه للنّسوة، وكانت أمام كلّ مجموعة كميّة وفيرة من الأرز والمرق وهم يكمشون بأصابعهم مباشرة لحم الماعز لرفعه عن عظامه، كان لحمًا طريًا سائغًا مثل الزّبد، تناول قطعة ثمّ أخرى وأخرى، أكل حتّى كاد يصاب بالتّخمة ثمّ استلقى على جانبه وهو يبتسم في اكتفاء.

بعد الوليمة رُفعت قدور الطّعام ثمّ استهلّ الموسيقيون السّهرة فتزاحم الحاضرون للاستماع، استخدموا المزامير والطبول ونقر أحدهم بأعواد رقيقة على شبكة من الأغصان المتضافرة، تلفّت آدم حوله متسائلًا إن كان والده حاضرًا، كان من العسير العثور عليه وسط الجموع لكنّ سحنه المختلفة ربّما تيسّر المهمّة، بعد محاولات استكشاف بلا جدوى فكّر أنّ عليه الرّجوع إلى الكوخ للتّخلّص من حمولته وتفقّد والده لعلّه -باعتبار عزلته الاختياريّة- لا يواكب الأحداث فلم يعرف بشأن العُرس.

كان قد سار متسلّلا خارج الزّحام حين استوقفته ريحان ومجموعة الأطفال التي تقودها، قالت في مرح:

- ستأتي العروس والفتيات بعد حين، يجب أن ترى هذا!

ابتسم ثمّ استسلم لكفّها تشدّه خلفها فقادته إلى موضع قريب من السّرادق المنصوب فوسّع لهم النّاس محلًا للجلوس، تربّع على الأرض متململًا وتطلّع إلى المشهد، وما لبثت أن تصاعدت أصوات النشيد عذبة عن يمينه ثمّ ظهرت العروس في فستانها الطويل الأحمر منسدلًا خلفها في خيلاء تحيط بها كوكبة من الفتيات في مقتبل العمر وهن يهاتفنها في

والنّاتق، كانت أساور الأحجار اللاّمعة تحتشد في معاصمهنّ وسواعدهنّ وتتلألأ قلائد اللؤلؤ حول أعناقهنّ وفوق أجيادهن وقد أسدلن غلالات رقيقة على وجوههنّ احتشامًا وأخفين شعورهنّ تحت أوشحة منقوشة باستثناء بعض الخصلات الشقراء النافرة من هنا وهناك والجدائل الطويلة التي تتأرجح على ظهورهنّ كأنّهنّ في مسابقة تتباهى كلٌّ منهنّ بطول شعرها الذي لم تطله قطّ شفرات مقصّ أو تعبث به يد مصفّف حتى اتّخذت العروس موضعها فوق المصطبة فجلسن من حولها مثل الوصيفات.

مضت برهة قبل أن تنبعث أصوات الدّفوف التي تُقرع في البعيد من جهة الشّمال ثمّ أقبل العريس في رداء أحمر أيضًا يحفّه شباب في مثل سنّه يدقّون بأرجلهم وأكفّهم ويرفعون أصواتهم بنداءات حماسيّة بلغتهم التي لا يفهمها آدم.

كان المشهد مُسليًا وباعثًا على البهجة ومألوفًا لآدم بشكل ما، ربّما لو كلّل الرّجال رؤوسهم بتيجانٍ من الرّيش ورسموا خطوطًا من السّخام على وجناتهم لما ميّزهم عن الهنود الحمر كما يعرفهم في الوثائقيات! لكنّهم بيض، بشرتهم بيضاء شفّافة، وفي حركاتهم الرّصينة أنفة وكبرياء ساحران، ربّما تتشابه رقصات السّكان الأصليّين بمحض تناغم أصيل كأنّ ذاكرة نظريّة مشتركة تربط البشريّة دون سابق تعارف أو اتّصال.

بعد وصلة من الرّقص الرّصين وسط السّاحة تحوّل الجمع إلى منصّة جانبيّة على الطرف المقابل للسّرادق، قبل أن يتقدم رجل وقور ويسير حتّى توسّط الميدان ثم أشار إلى العروسين فوقف كلاهما وسارا مصحوبين بصبحات الحماس والفرح حتّى التقيا في منتصف الطّريق حيث ينتظرهما الشّيخ الجليل. جاء أفراد العائلة المقرّبون ليشهدوا الحدث عن كثب ثمّ بدأت مراسم الزّفاف، تكلّم الشيخ باللّغة المحليّة ووجّه كلمات إلى العروسين

والأولياء والشّهود في ما يشابه الإيجاب والقبول قبل أن يعلن حصول الموافقة وإبرام العقد بنجاح، حينئذٍ أمسك الزوج الشابّ كفّ عروسه وتوجّها نحو نار المخيّم التي أضرمت وسط الساحة وأخرج كلّ منهما خصلة ثخينة من الشعر الأشقر وألقياها وسط اللّهب ثمّ وقفا في سكون يتأملان ألسنة النيران وهي تلتهم الشعر حتّى الذوبان. همس آدم لريحان:

- ماذا يفعلان؟

- إنّه طقس الحماية.

- حماية؟ ممَ؟

- من الشياطين بالتأكيد.

سار العروسان إلى السّرادق بخطوات تجمع بين الخجل والفخر فيما استعاد الآخرون أماكنهم حول الميدان فأعلنت ريحان بحماس:

- سيبدأ العرض الآن!

ألقى عليها نظرة متسائلة فأشارت إلى السّاحة فتابع ما يجري باهتمام. وقف شابّ من أصحاب العريس وتوسّط الميدان ثم رصف في دائرة حبّات جوز هند خضراء لامعة على الأرض قبل أن يركع على ركبتيه وسطها ويطلق صرخة حربيّة عاليّة وينهال على حبّات الفاكهة بقبضته المجرّدة لتتشظر كلّ منها نصفين وتتطاير الشّظايا في الهواء! ارتفعت هتافات الجماهير المشجّعة في حين استقام الشّاب واقفًا وهو يلوّح بكفّه في اعتداد وكبرياء.

فكّر آدم: «حسنًا، كان ذلك مروّعًا».

همست ريحان لآدم:

إنهم يحاولون إثارة إعجاب الفتيات؛ وصيفات العروس، الفتيات اللاتي يبلغن السادسة عشر ولم يتزوّجن بعد يتزينّ في العُرس وينصدّرن الجلسة لانتقاء العرسان، ويقدّم الفتيان عروض قوّة ومهارة لإثبات جدارتهم..

زمّ آدم شفتيه في امتعاض، بالتأكيد، في مجتمع بدائيّ تقتصر المهارات على القوّة الجسديّة! هذا لا يبدو عادلًا جدًّا ولا مثيرًا للاهتمام! ماذا عن المهارات الحسابيّة والذّكاء المنطقي؟ ربّما شعر بشيء من عدم الارتياح وهو يضع نفسه في مقارنة مباشرة مع هؤلاء الشّباب طوال القامة مفتولي العضلات الذين يفوقونه متانة وقوّة!

كانوا يواصلون العروض بتتابع والجماهير تهتف بحرارة فيما تتهامس الفتيات المعنيّات ويتبادلن ابتسامات وضحكات رقيقة. تذكّر مجموعة البنات في المشفى منذ ساعات فابتسم في تهكّم، لعلّهنّ كنّ يخططن من أجل هذا المشهد بالذّات ويتخيّلن الأمسية التي سيكنّ محطّ الأنظار فيها وصاحبات الرّأي والكلمة العليا، وربّما يصنّفن الشّباب ويقارنّ بينهم ويقرّرن من سيقع عليه اختيار كلّ منهنّ! دقّق النّظر فانتبه إلى حضورها بينهنّ: روان، همس لريحان:

- شقيقتك ستتزوّج؟

أومأت البنت في حيوية ثمّ قالت:

- شقيقتي «ماغداخا»، لا يمكنها الارتباط إلا بمُسخِّر - «بندار»!

إنّها لا تبدو في السّادسة عشرة، تظهر مثل شقيقة كبرى للفتيات البانغات اللواتي يحطن بها، ربّما جعلتها وظيفتها كمعالجة تتأخّر في الزّواج لتنهض بمسؤوليات أكبر، وربّما لم يرتق أيّ من الشّبان لتوقّعاتها.. تساءل باهتمام:

- مُسخِّر طاقة؟

أومأت ريحان من جديد فعاد لمتابعة العرض في انتباه. تلاعب أحد الشّباب بمشاعل مشتعلة مثل لاعبي الخفّة ثمّ رفع آخر كُتلًا من الحجارة الصّماء فوق ذراعيه ثمّ تقدّم شابّ آخر بملامح هادئة ومشية رصينة، همست ريحان في إثارة:

- هذا أوران، إنّه «بندار»! إنّه المرشّح الأفضل من أجل روان.

تابع آدم المشهد في اهتمام جليّ، جلس الشّابّ على ركبة واحدة ووضع كفّه على الأرض الرّمليّة ثمّ أحنى رأسه وأغمض عينيه، بدا في حالة من التّركيز الشّديد، كان السّكون قد طغى على الجماهير المترقّبة ولم تعد تُسمع أدنى همهمة، الكلّ ينتظر، فجأة رفع الشّابّ كفّه إلى السّماء فانفجرت أضواء فضيّة في الهواء مثل ألف نجم لامع كأنّها ألعاب ناريّة!

اتّسعت عينا آدم في ذهول فيما تعالت الهتافات الصّاخبة المحتفية من كلّ حدب وصوب، سأل آدم في انبهار:

- كيف فعل هذا؟

- ألم أقل لك إنّه «بندار»! إنّه قادر على امتصاص الطّاقة من الأرض وتحويلها إلى ضوء!

حاول آدم ألا يضحك فالتّفسير الذي تقدّمه الصّغيرة ساذج وغير مقنع، ربّما في الأمر خدعة ما يجهلها الأطفال مثل ألعاب الخفّة التي يتقنها السّاحر في عروض السّيرك بالدّيار فيجعل الأشياء تختفي في قبّعته أو يُخرج منها طيور اليمام الأبيض، لم يكن آدم قد وضع يده على السّر بعد حين اقترب منه الصبيّ ماهر وقال:

- الفتيات.. إنّهنّ يستدعينك!

- ماذا؟

دفعته ريحان ضاحكة وهتفت:

- اذهب، إنّهنّ الملكات اليوم وطلباتهنّ مجابة!

وقف آدم في ارتباك ومشى على استحياء حتّى مثل أمام السّرادق وقد انصفت عيناه بالأرض، لم يخطّط ليكون جزءًا من المهرجان لكن ها هو ذا، قالت إحدى الفتيات في غنج من وراء قناعها الشّفاف:

- أيّها الـ«أيتورا» هل تقدّم لنا عرضًا من بلادك؟

وقف مطأطئ الرأس في حيرة، لم تكن لديه أيّ موهبة جسديّة يستعرضها باستثناء بعض مهارات الخفّة باستخدام ورق الكوتشينة، لكنّه لن يجد أيًّا منها هنا! فكّر في قذف حبّات الفاكهة في الهواء مثل كرات البهلوان لكنّها لن تكون باهرة على الإطلاق إذا قارنّها بعرض المشاعل السّابق! ثمّ خطرت بباله فكرة مفاجئة فابتسم في ظفر..

عاد إلى مجلسه وتناول صندوق الخردوات المعدنيّة ورجع ثانية إلى السّاحة وتحت العيون الفضوليّة المتسائلة أخذ يرصف قطع المعدن على الأرض بشكل دائريّ ثم تحرّك بخفّة في أداء درامي وهو يقلّد محطّم جوزات الهند في طقوسه وحين انتهى من تجهيزاته ألقى نظرة على الجمهور الذي يتابعه في انتباه، ابتسم ثمّ اكتست ملامحه مسحة جديّة وهو يتظاهر بالتّركيز، كما فعل الـ«بندار» من قبل، كان يريد أن يكون مقنعًا مثل صاحب موهبة ما، ثمّ حين شعر أنّ الأداء يبلغ ذروته مدّ كفّه اليسرى وقرّبها من الأرض بهدوء وتأنّ فارتفعت فجأة قطعة المعدن لتلتصق بالمغناطيس الذي كان قد أخفاه في كمّ قميصه، فتعالت شهقات الإعجاب بين الحاضرين، واصلت كفّه حركتها الدّائرية على الأرض لترتفع القطع المعدنيّة واحدة إثر الأخرى في تحدّ سافر للجاذبيّة!

تعالت الهتافات الحارّة وهو ينحني في حركة استعراضية تحيّة للجمهور ثمّ يستدير باتّجاه الفتيات اللّائي أثارت «موهبته» حماستهنّ فيحيّهنّ قبل أن ينسحب من الميدان راضيًا بخطوات فيها خُيلاء.

(6)

اليوم السّادس

«يُحكى انّ الملك سليمان بعث واحدًا من أتباعه الجنّ فانتقى موقعًا مميّزًا في عرض البحر ورمى قطعة من الياقوت الرّماديّ، وبفضل سحره اخترق الحجر الكريم طبقات الماء والرّمل والصّخر حتّى وصل إلى أعماق الأرض ثمّ شقّ طريقه نحو السّطح ثانية وقد تدفّق من ورائه سيلٌ رماديّ ثائر حارق حتّى تكوّنت جزيرة في وسط المحيط في مركزها عينٌ لا تزال إلى اليوم تفور بالسّائل الرّمادي اللّامع، ثمّ هبط الملك سليمان وزوجه على تلك الأرض فأحبّت الملكة المكان وأرادت أن يكون خاصًّا بها دون غيرها فرمت بسحر إضافيّ لتنطلق الأبخرة السّميكة من جوف الأرض وتصنع غطاء ضباب يحجب الجزيرة الآسرة عن العيون، بعد ذلك جاء الملك بعدد من أتباعه وأمرهم بالبقاء على الجزيرة منقطعين عن العالم، يحرسون العين من الشياطين ويتعبّدون، ولم يكن لهم أن يغادروا الأرض التي سيرثها أبناؤهم إلى أجيال كثيرة حتّى يأتيهم المُخلِّص الذي يقضي على الشياطين! حين يصل الرّجل الغريب الذي يملك سحر المادّة المنوهجة، الـ«مادرا»، سيخبرهم بأنّ الوقت قد حان وسيكون عليهم أن يتبعوه إلى أنحاء العالم».

***

تحرّك شبحٌ عبر الغرفة متسلّلًا ففتح آدم عينيه على الفور ليبصر في دهشة الفتاة ريحان التي كانت تضع أطباق طعام الإفطار على المائدة، ابتسم للاكتشاف، إذًا فقد كانت هي مَن يحضر وجباتها! كان يأكل جيّدًا وفي كلّ مرّة كان الطّبق يصل في وقت غيابه أو في أثناء نومه، لقد تعامل مع الوجبات الدّسمة والشّهية كحقّ مكتسب ولم يتساءل قطّ من كان مسؤولًا عن إطعامه، سألها وهو يتثاءب:

- أليست لديك مدرسة اليوم؟

التفتت الفتاة مبتسمة وقالت:

- أنت مستيقظ؟ سأذهب بعد قليل!

أومأ وهو يتمطّى، لقد حصل على قسط وفير من الرّاحة في الأيام الماضية، نام كلّ يوم حتّى وقت متأخّر، والآن مع مباشرته عمله في الشّرق سيكون عليه النّهوض باكرًا. نظر إلى سرير والده الخالي في استغراب، أين ذهب في هذا الوقت؟ لقد كان نائمًا حين رجع أمس من العُرس والآن ها هو قد اختفى، لم يتسنّ لهما الحديث منذ يومين، لقد خاصمه ابتداءً ثمّ لم يعد يلتقيه حتّى تساءل إن كانت تلك عادته منذ البداية: يتحرّك خلسة عن القرية حين يكون الجميع نيامًا! كان الشكّ في داخله يتعاظم.

قالت ريحان مرّة أخرى:

- هل أنتظرك؟ يمكننا أن نترافق على الطّريق.

ابتسم في امتنان، اغتسل سريعًا وتناول وجبته ثمّ غادر الكوخ برفقتها محمّلًا بصناديق خردته فيما كانت محمّلة بدفائرها المصنوعة من عجين أوراق الشجر الجافة والمطحونة، لم يكن والده قد رجع بعد حين انطلقا سألها وهما يمشيان بهدوء عبر الطّرقات مع آخرين يسعون إلى مراكزهم تلبية لنداء الواجب:

- هل أنت من يعدّ الإفطار؟

- امّي تفعل، أنت لم تلتق أمّي بعد، ما رأيك لو تزورنا؟

ابتسم لفكرة زيارة منزل الـ«كوتانا»، لا يعرف بعد كيف تبدو منازل القرية من الدّاخل فضلًا عن منزل الحكيم، إنّها تتشابه في الشّكل الخارجيّ لكنّها قد تكون شخصيّة جدًّا من ناحية التأثيث والتزيين، سألها في فضول:

- أين يقع منزلك؟

- أرأيت التفرّع الثاني من الشّارع الرّئيسي؟ إنّه البيت الخامس على اليمين.

حاول أن يتمثّل خريطة القرية في رأسه ثمّ هزّ رأسه وقال:

- حسنًا، سأفعل، أعدك.

ابتسمت بزهوّ لحصولها على وعد بالزّيارة من الـ«أيتورا».

بينما يمشيان حكت له قصّة الملك سليمان والجنّ الذي أخرج الجزيرة من بطن الأرض بفضل الجوهرة كما يرويها «صاحب الحكاية»، ومع تدفّق كلماتها أخذ آدم يسترجع تدريجيًّا الرّسوم المزخرفة التي تغطي سجّاد دار العبادة، صار بإمكانه أن يربط خيوط الحكاية تقريبًا، كانت أسطورة أخرى! في نهاية الأمر تحبّ الأمم بلا استثناء أن تصوغ قصصها الشعبيّة الخارقة كأنّ في الأمر إرضاءً لكبرياء جمعيّ يهب أرضها نوعًا من العظمة المزيّفة.

انحنت ريحان لتقطف زهرة نبتت على جانب الطّريق ثمّ وضعتها في كفّه بابتسامة عريضة:

- هذه زهرة الشّمس ستجلب لك الحظّ في يومك الـ

@ART_OF_BOOK

تأمّل آدم الزّهرة في دهشة، لم تكن تشبه زهرة الشّمس التي يعرفها في الدّيار -زهرة عباد الشمس ذات السّيقان الطويلة والأعناق المائلة التي تتبع الشمس حيث مضت- فقد كانت ساقها قصيرة وبتلاتها صغيرة ثمّ أي شمس قد تطاردها زهرة الشمس المنسيّة؟ إلّا أنّها تتمتّع بلون أصفر مشعّ، كانت جديرة بالاسم على طريقتها، خمّن أنّ أيّا من كان قد أطلق عليها فإنّه يعرف الشّمس حقّ المعرفة.

هزّ رأسه شاكرًا وهو يدسّها خلف أذنه ثمّ سألها:

- هل يمكنك تدبّر بعض شِبَاك الصّيد القديمة؟

- ربّما يمكن لياسر أن يحصل على بعضها من والده، لماذا تريدها؟ هل ستتعلّم الصّيد؟

غمز بمرح وهو يقول:

- ستعرفين لاحقًا!

حين وصلا إلى أطراف القرية تراءت له مجموعة من الشّباب ميّز من بينهم أصحاب عريس الأمس، وما إن برز برفقة ريحان عند المنعطف خفّ وشوش أحدهم الآخرين ثمّ استدارت الأنظار إليه فجأة، لم تكن علاقتهما بشكل فجّ لكنّها لم تكن ودّية تمامًا، كان هناك حذر مغلّف بعدم الثّقة ابتسم في سخرية، لم يكن يدرك أنّ عرض المغناطيس سيجعله محطّ الاهتمام بذلك القدر، ربّما كان عليه أن يكتفي بالتّلاعب بقطع الفاكهة في الغرفة لعلّهم يعتبرونه تهديدًا الآن بسبب «هِبَته» الغريبة القادمة من وراء المحيط.

أشارت ريحان إلى شابّ من المجموعة وهتفت:

- هذا أخي مروان.. إنّه متمرّن على التّسخير.

حدّق آدم في أفراد المجموعة، لم يكن أيّ منهم ذا بشرة مختلفة تشبه «كوتانا» أو بناته، كانوا جميعًا بيضًا بالقدر نفسه، عندئذٍ انبثق في ذهنه الاكتشاف المثير: بنات الحكيم.. إنّهنّ هجينات! والدهم غريب ووالدتهم لا شكّ من أهل الجزيرة الأصليّين! لم يكن يعلم أنّهم يتزوّجون الغرباء، ربّما لا يحدث ذلك كثيرًا لكنّ أمامه مثالًا واحدًا على الأقلّ، لقد ظهرت سمة البشرة البيضاء عند الولد وتنحّت عند الفتيات.

تريّث بغتة، كان عليه أن يتأكّد.. ماذا لو تبيّن أنّ الولد متبنّى مثلًا؟ ماذا لو كانوا نصف أشقّاء والولد من أمّ أخرى أو والد آخر؟ لم تكن ريحان الشّخص المناسب ليطرح عليها تلك الأسئلة المربكة، تلك مواضيع لا تُناقش مع الأطفال، ربّما يسبّب لها الشكّ في منشئها أو أصل أشقائها صدمة لا تُشفى، إنّه يعرف ذلك النّوع من الصّدمات التي يطلقها الآخرون مثل مزحة سخيفة: «إنّها ليست أمّك! أنت متبنّى!» وهو لا يسعه أن يعرّض طفلًا آخر للصّدمة ذاتها.

تابع الشّباب بعينيه فيما يتّجهون تباعًا إلى المسار المؤدّي إلى الكهف، هل يتدرّبون هناك على «تسخير الطّاقة»؟ يثق أنّ عمليّة التّسخير تخضع لقواعد علميّة لا يزال يجهلها، استعاد مشهد الشّابّ أوران الذي أطلق نجومًا في الهواء أمس وقد تضاعف فضوله، سيكون من المثير أن يعرف مزيدًا عن الطاقة الخاصّة بهم، أجبر خطواته على اتّخاذ المسار المؤدّي إلى السّوق بعد أن لوّح لريحان أمام مدرستها.

ألقى نظرة على المشفى فلمح الفتيات مجتمعات في المدخل مثل أمس، أخذن يتهامسن ويبتسمن وهنّ يلقين نظرات مختلسة في اتّجاهه، حسنًا، إنّ التأثير يزيد على الحدّ المتوقّع بعض الشيء، أحنى رأسه في تحيّة عابرة ثمّ حثّ الخطى مبتعدًا، لا يودّ التّورّط في مشكلات مع الأهالي.

انشغل معظم النّهار بتقليب الآلات ودراسة إمكانيّة تحسينها باستخدام قطع المعدن التي بحوزته وتمكّن كذلك من تجميع القطع الضّروريّة لصنع «كاشف المعادن» الخاصّ به، كان يستعدّ لرحلة الإبحار التي يزمع خوضها في الغد ويتقصّى المعلومات اللّازمة عن مواعيد انطلاق الصيّادين، في نهاية الدّوام كانت قد تشكّلت لديه بعض الأفكار عن كيفيّة تعزيز الآلات بالمعدن وتكوّنت في ذهنه فكرة واضحة عن رحلة الغد مع البحّارة.

في الانتظار كان ينوي صنع مولّد طاقة من خلال حثّ التّيار الكهربائي داخل سلك معدنيّ في حضور حقل مغناطيسيّ، في الأوقات التي لا يستغلّ فيها المغناطيس في كشف المعدن في أعماق المحيط يمكنه توظيفه لتوليد طاقة كهربائيّة، ربّما تمكّنه من شحن هاتفه على الأقلّ، أولًا ينبغي له أن يقطع الصّفائح المعدنيّة طوليًّا ليشكّل منها ألياقًا رقيقة يلفّها بشكل متلاصق مثل لفّات النّابض، استهلك ساعات طويلة في محاولة تشكيل الألياف من الصّفيحة الحادّة ولم يكن قد أحرز تقدّمًا حقيقيًّا بعد.

كان الصُنّاع -رجالًا ونساء- يمرّون به فيهزّون رؤوسهم مُلقين التحيّة ويتطلّعون إلى أدواته في حذر ممتزج بالفضول، بات يشعر بثقل مسؤولية التوقّعات على كتفيه، كانوا ينظرون بريبة إلى أدواته الغريبة بعد عرض أمس وقد صار عليه أن يُدهشهم أكثر حفاظًا على السّمعة التي اكتسبها به لا محالة.

كان يجمع أدواته ويهمّ بالعودة حين ظهرت ريحان برفقة ماهر وياسر، تعرّف إلى الولدين اللذين كانا في جلسة الشّاطئ منذ يومين، سألت ريحان بفضول:

- هل صنعتَ آلة جديدة اليوم؟

ابتسم متلطّفًا وقال:

- أحتاج إلى بعض الوقت لدراسة الآلات التي تستخدمونها لكن لديّ بعض الأفكار.

وبينما انشغل بالحديث إلى ريحان اقترب الولدان من صناديق المعدن في اهتمام..

- ما الذي تفعله بهذه الأشياء؟

التقط ياسر صفيحة مسطّحة وحادّة الأطراف، هتف آدم على الفور:

- انتبه، قد تؤذي نفسك!

إلّا أنّ نداءه أفزع الولد الذي أفلت القطعة فسقطت مباشرة على قدمه العارية، صرخ ياسر متألّمًا وتدفّقت الدّماء من القَطع العميق الذي أحدثته الأطراف الحادّة، ارتبك آدم وتلفّت حوله في فزع، كان عليه أن يفعل شيئًا، أيقظه صوت ريحان:

- إلى المشفى!

انحنى آدم ليحمل الولد بين ذراعيه ويهرول في اتّجاه المشفى، كان مرأى الدّم الغزير يثير غثيانه، لكن لم يكن الوضع يحتمل نوبة هلع أخرى، كان عليه أن يُبقي ذهنه متيقظًا، تنفّس بعمق رغم اللّهاث وتسارعت نبضاته وهو يحدّق في الجرح غير قادر على رفع نظراته عنه، سيحتاج إلى خياطة لكنّه لا يعرف إن كانت بحوزتهم إبر، إبر غير معدنيّة، ربّما من الأصداف إذًا، إنّهم يعرفون كيف يتصرّفون، بالتّأكيد سيفعلون.

تسلّل إليه الارتياح حين أبصر مبنى المشفى، سبقته ريحان إلى الدّاخل وهي تنادي شقيقتها، ظهرت روان عند العتبة وعلى ملامحها علامات التحفّز، أحاطت بالوضع بنظرة واحدة ثمّ قالت بهدوء:

- ضعه على السّرير!

أرخى آدم ذراعه لينزلق الولد على السّرير المنخفض بلطف، كان ياسر يئنّ بصوت مكتوم رغم العبَرَات التي تناثرت على وجنتيه، خاطبت روان الولد بحنوّ بلغتهما فأومأ بهدوء وكفّ عن البكاء، ربّما كانت عبارات تشجيع «أنت ولد شجاع، ستكون بخير خلال وقت قصير» أو أي شيء من هذا القبيل.

تابع آدم المشهد في اهتمام، كانت الغرفة من الدّاخل بيضاء ناصعة مثل غرف المشافي التي يعرفها إلّا أنّها خالية من الأدوات والآلات الطبيّة علوًا محيرًا، ترقّب ظهور ممرّضة ما تحمل دواءً مطهّرًا وأدوات التّقطيب إلّا أن أحدًا لم ينضمّ إليهم، كانت الـ«ماغداخا» توليه ظهرها وتحجب عنه رؤية الدّماء حجبًا مريحًا لأمعائه غير أنّه لم يتمكّن من مشاهدة ما تفعله.

استمرّ صمت غريب لبعض الوقت، تململ آدم في قلق، ثمّ تحرّكت روان أخيرًا. ابتعدت خطواتها باتّجاه صنبور الماء فملأت طستًا خشبيًّا ثم عادت، وضعت الطّست على الأرض وجعلت الولد يُدلي قدمه ليغمسها في الماء البارد، تحوّل لون الماء بسرعة إلى الأحمر القاني، ارتجفت أوصال آدم وتشنّجت وهو يتابع في صمت، رأى المعالجة وهي ترفع القدم وتخفّفها بقطعة قماش نظيفة ثمّ وقف ياسر ليخطو بخفّة وعلى شفتيه ابتسامة منشرحة.

لم يستوعب آدم ما حدث أمام عينيه، كانت روان تربّت رأس الطّفل وتبادله الابتسام فيما شلّت الصّدمة حركة آدم، لبث يحدّق فيها مطوّلًا في عدم تصديق حتى شعر بالتهاب وجنتيها حرجًا، انتفض متنبّهًا وخفض نظراته ثمّ توقفت عيناه عند القلادة التي تتدلّى على صدرها، كان حجر فضيّ لامع بحجم حبّة العنب يستقرّ في طرفها؛ حجر خام وغير مصقول

تحيط به خيوط رقيقة مجدولة إلا أنّ لمعانه يخطف الأبصار، أجبر نفسه على الابتعاد عن بريقه المغناطيسيّ وتبع الولدين إلى الخارج دون أن ينطق.

انطلق ياسر أمامه في قفزات واسعة وقد عادت قدمه سليمة معافاة! أرفقه آدم بحركة مباغتة وانحنى ليعاين قدمه ويدقّق النّظر في الجرح، مرّر أنامله على موضع الإصابة جيئة وذهابًا، بدا الشّكل والملمس مطابقين لندبة حديثة ملتئمة التئامًا جميلًا، كان الجلد لا يزال ورديًّا هشًّا لكن لا أثر لقطب أو تدخّل طبيّ! فغر فاه وهو يهمس في ريبة:

- لكن.. كيف؟

هزّت ريحان كتفيها وهي تقول ببساطة:

- إنّها معالجة!

لم يستطع عقل آدم المتشبّث بالحقائق العلميّة أن يتفهّم كيف يمارس هؤلاء القوم السّحر بيسر كنشاط يوميّ! إنّه يعرف المشعوذين والدّجالين الذين تعجّ بهم الأزقّة الضيّقة في الأحياء القديمة وتتضوّع باحات دورهم برائحة البخور والأعشاب العطريّة، يعرف الصّورة التي تنقلها برامج التلفاز عنهم على الأقلّ، لكن حتّى هؤلاء المدّعون لا يقدرون على شيء ملموس بأيديهم العارية، إنّهم لا يملكون من أمرهم شيئًا ويسخّرون أعوانًا من الجنّ يصنعون لهم «الأعمال» السحريّة، أمّا هذا.. أن تمرّر الشّابّة كفّها على جرح الفتى فيندمل في التّوّ واللّحظة فهو أقرب شيء رآه في حياته لمعجزة عيسى عليه السّلام، إذ كان يبرئ الأكمه والأبرص ويُحيي الموتى بإذن الله!

إنّها معجزة إذًا، إمّا ذاك وإمّا أنّ شيئًا في أجساد هؤلاء القوم يعمل بشكل مختلف عن سائر البشر، أليس بياضهم النّاصع دليلًا على تركيبة جينيّة مغايرة؟ هل هم متحوّلون؟

اقشعرّ جسده لتلك الفكرة إلا أنّها بدت مستساغة بقدر كبير؛ الجينات المتحوّرة -في أفلام الخيال العلميّ- ينال أصحابها هبات خاصّة!

فجأة، اتّخذت الكلمة معنى جديدًا في رأسه.. «معالجة»! إنّها لا تحتاج إلى أدوات أو آلات لأنّها تملك «هبة»! العلاج هبة، تمامًا مثل «تسخير الطّاقة»! مهما حاول التأمّل لا يتوصّل إلى وسيلة علميّة تجعل الـ«بندار» الشابّ يطلق النّجوم من راحة يده، أمّا فكرة «الهبة» فإنّها تجعل كلّ شيء يتّسق، مهما كان التّصديق بها جنونيًّا!

دلف آدم إلى الكوخ ولمّا تفارق البسمة المنتشية شفتيه، كان والده بالدّاخل هذه المرّة، ألقى التّحيّة وجلس قبالته على السّرير الثّاني في صمت، إنّهما لا يتحدّثان. يخفي عنه والده أشياء كثيرة؛ مثل الأفعال المجهولة التي يُقدِم عليها حين يغادر الكوخ في أثناء نومه، كان يفترض به أن يداوم اليوم في المدرسة، تساءل في نفسه إن كان قد فعل، لكنّه لم يبح باستفساراته الكثيرة، يمكنه أن يتجاهله الآن فقد كان لديه ما يكفي من المشاغل والاكتشافات!

بادره أشرف:

- ما الذي بحوزتك؟

فرد آدم كفّيه في برود، كان قد ترك صناديقه في السّوق لكنّه احتفظ بكاشف المعدن الذي أنهى صنعه، كان يلفّ الحبل الطّويل على قاعدة معدنيّة في حين يتدلّى المغناطيس المثبّت على طرفه، قال في فتور:

- لقد وجدتُ قطعًا من المعدن في كومة الخردة التي تلتقطها شباك الصّيادين بالإضافة إلى مغناطيس...

أومأ أشرف في اهتمام يحثّه على الإفصاح أكثر، تردّد آدم، لقد حاول إقناعه في وقت سابق بالبحث عن حطام الطّائرة والاتّصال بالسّفينة لكنّه

و بين جرح، إنّه لا يبدو راغبًا في المغادرة و لا يفعل شيئًا لإخراجها من هذه الورطة! لا يدري إن كان سيحاول منعه إن هو أفضى إليها بخطّته الخاصّة يوم الأحد أم لا، لم يكن واثقًا في تعاونه، لذلك، رأى أنّ الكتمان أفضل في تلك اللّحظة، قال فجأة مغيّرًا مجرى الحديث:

هل نعرف أنّهم متحوّرون جينيًا ولديهم «قوى خارقة»؟

التمعت عينا البروفيسور وهو يرقبه عن كثب، فتابع آدم:

منذ حين كنت في المشفى، المعالِجة تمكّنت من شفاء جرح عميق نازف بكفّيها العاريتين! وأمس في حفل الزّفاف ظهر «مسخّر طاقة»، لقد لمس الأرض بيده.. هكذا.. ثمّ رفعها لتتناثر النّجوم في الهواء!

كان يهبط بركبته إلى الأرض مشيرًا بكفّه إلى السّقف مقلّدًا حركة المُسخِّر. قبل أن يعلّق أشرف تعالت طَرَقات على باب الكوخ فاستقام آدم وتوجّه لاستقبال الزّائر، فوجئ بوالد ريحان عند الباب..

- سيّدي الحكيم!

- مساء الخير يا ولدي، هل يمكنني الحديث إلى والدك؟

تراجع آدم ليدعوه إلى الدّاخل فخطا الحكيم ببطء. وقف الرّجلان متقابلين متصلّبين مثل خصمين متنافرين وران صمت مزعج على ثلاثتهم، قال أشرف أخيرًا:

- آدم، بنيّ.. هلّا تركتنا بمفردنا؟

لوما آدم في ضيق ثمّ غادر مغلقًا الباب خلفه برفق وإن وقف على مقربة وأصاخ السّمع، جاء صوت والده بعد حين بنبرة ساخرة:

- عمّار.. كنت أتساءل متى ستشرّفني بالزّيارة!

تناهى صوت الحكيم هادئًا ورصينًا:

- ما الذي جاء بك إلى هنا يا أشرف؟

تعالت نبضات آدم في عصبيّة، لقد كان محقًّا من جديد إذ يعرف أحدهما الآخر!

- لقد كانت رحلة مضنية! هل تعلم.. لقد أفنيت سنوات طويلة حتّى وجدت طريق الجزيرة أخيرًا، وكنت أتساءل: هل سيكون عمّار هناك حين أرجع؟

- ما الذي تريده منّي؟

- لا أريد منك شيئًا.

- ما الذي تفعله هنا إذًا؟

- أخبرني أوّلًا.. كيف انتهى بك الأمر «كوتانا»؟

كان في صوت والده شيء من الاستهزاء إلّا أنّ الحكيم أجاب بهدوء:

- لقد تغيّرتُ! لست الصبيّ المتهوّر الذي عرفته منذ خمسة وعشرين عامًا!

- هذا يختصر عليّ كثيرًا، كلانا تغيّر، سأخبرك لماذا جئت، أحتاج إلى الـ«مادرا».

- أنت لست جادًّا! يجب أن تكون «بندار» أو «ماغداخا» لتكون لك صلاحيّة الوصول إلى الـ«مادرا»، وأنا لستُ أيًّا منهما!

- لكنّك «كوتانا»!

- ولأنّني «كوتانا» فإنّني أعرف ما يجب فعله وما لا يجب التفكير فيه!

ساد الصّمت لثوانٍ قليلة ثمّ قال والد ريحان من جديد:

- إذا شئت النّصيحة فغادر بسلام قبل أن يتعرّف عليك أحد، صحيح أنّ ربع قرن قد انقضى لكنّ آخرين قد يذكرونك كما أفعل، وحينها لن أستطيع حمايتك!

تحرّكت خطواته باتّجاه الباب فتراجع آدم ليختفي في الظل ثم راح يراقب الحكيم وهو يبتعد إلى نهاية الشّارع قبل أن يجرّ قدميه إلى الدّاخل وقد تزاحمت الأسئلة في رأسه وتداخلت الأحاسيس بصدره. كان والده يجلس مطرقًا وهادئًا بما يتعارض مع انفعاله الذي تناهى إليه عبر الباب المغلق، تأمّله آدم للحظة ثمّ قال بصوت صارم:

- هل ستخبرني الآن ما الذي يحدث؟

رفع أشرف رأسه ثمّ ابتسم برفق وأشار إلى المكان جواره فوق المرتبة، توجّع آدم بالدّعوة لكنّه استجاب دون تفكير، جلسا متقاربين قبل أن يقول أشرف:

- هل استمعتَ إلى حديثنا؟

أومأ آدم ثمّ سأل:

- مَن يكون الـ«كوتانا»؟

- إنّه صديق قديم، وصلنا معا إلى الجزيرة منذ خمسة وعشرين عامًا غير أنّني رحلت في حين اختار البقاء، لم أعتقد أنّه سيكون هنا بعد كلّ هذا الوقت!

- هل كنتَ تختبئ منه في الأيّام الماضية؟

- ليس منه، لا أظن أنّه قد يضرّني.

- لكنّ السّكان قد يفعلون؟

صمت أشرف متردّدًا فسأل آدم مرّة أخرى في إلحاح:

- لماذا تخشى أن يتعرّف عليك أحد؟

تنهّد والده وسكت لدقائق ثقيلة حتّى حسب آدم أنه لن ينطق أبدًا، ثمّ أخذ أشرف نفسًا عميقًا قبل أن يلقي باعترافه المدوّي حتى تمنّى آدم لو أنه بقي صامتًا:

- لقد قتلتُ واحدًا منهم!

اتّسعت عينا آدم مصدومًا وأوشكت الدّنيا أن تظلم في عينيه إلّا أن والده سارع يقول على الفور:

- لقد كان قتلًا عن طريق الخطأ، لقد تواجهنا في نزال بساحة القرية أمام الجميع، لكنّه مات.. لم أكن أقصد!

زفر آدم بعمق وقد كاد قلبه يتوقّف قبل لحظة، تساءل: إن كانوا يقتلون مواطنيهم الذين لا يمتثلون لقواعد المدينة الفاضلة فما الذي يفعلونه بالغرباء الذين يرتكبون جرمًا إذًا؟!

تابع أشرف:

- لم أكن واثقًا إن كان أحدهم سيتعرّف عليّ بعد كلّ هذا الوقت لكن عمّار فعل، وغيره قد يفعل، أهل الضحيّة مثلًا! لذلك لا يسعني الظهور باستمرار، يجب ألا أكون محطّ الأنظار، يجب ألا نكون كذلك.. أنا وأنت، ينبغي أن نبقى شفّافين رغم أنّ الغرباء لا يكونون كذلك.

- آه!

لم يبدر عن آدم أكثر من صوت حلقيّ مكتوم، لقد فات الأوان على هذا، لا يعرف والده بعد بشأن العرض والهبة والفضول الذي يثيره

حضوره في نفوس الصّغار والكبار، لم يكن قد نطق بعد حين أضاف والده بلهجة جادّة:

- ربّما كان تحرّكك في الأرجاء أيسر.. سأحتاج إلى مساعدتك!

تسارع وجيب قلب آدم. هذا تصاعدٌ في الأحداث لا قِبل له به! هل سيخبره والده أخيرًا بهدف الرّحلة؟ والخطّة التي يخبّئها عنه؟ كلّ الأسرار التي بتوق إلى اكتشافها؟

- نحتاج إلى الوصول «للحجر» قبل رحيلنا.

- «الحجر»؟

- «حجر الشّمس» الذي يستخدمه السّكان لإنتاج الطّاقة والعلاج!

تراءت أمام عينيه قلادة روان المصنوعة من الحجارة المميّزة والتي تلمع ببريق غريب غير مألوف لديه، تساءل في عجب:

- وهل يعرف سكّان الجزيرة الشّمس حتّى يطلقوا اسمها على حجرهم؟

- للشّمس الخفيّة فوق الظلة دلالة بليغة فهي مصدر الطّاقة الأساسيّ لمخلوقات العالم الخارجيّ لكن تلك الحجارة الفريدة -بشكل ما- هي شمسهم الخاصّة، لعلّها تسدّ حاجتهم إلى الشّمس بالفعل، ولذلك اختاروا لها هذا الاسم الغريب!

أوما آدم فيما يواصل أشرف:

- «حجر الشّمس» يتكوّن من مادّة فريدة يسمّونها الـ«مادرا» -«المادّة المتوهّجة»- تلك المادّة الفضيّة هي ما يصنع الظلّة الكثيفة التي تغطّي الجزيرة وتحجبها عن القمر الصّناعيّ وذبذبات الرّادار وتعبث بالمجال المغناطيسي وتعطّل كلّ الأجهزة والإشارات في

صيدها، وهي أيضًا ما يوفر الإضاءة الطبيعية التي تراها من حولك في النهار والليل...

أخرج يوصفانه من جيبه فحدّق آدم في الإبرة التي تتحرك بتوتر في جميع الاتجاهات، ولا تستقرّ أبدًا، فتح فاه في دهشة وهو يتذكر أن مغناطيسه مع ذلك يعمل! من وجهة نظر علمية قد يشوّش بخار «المادة المتوهجة» على المغناطيس فيعكس أقطابه ويحدّ من تأثيره لكنّه مع ذلك قد يحتفظ بقدرته على جذب المعدن، لكنّ الأثر ذاته سيكون كارثيًا حين يتعلق الأمر بالأجهزة التي تعمل بالموجات الكهرومغناطيسية.

- إنها كنز الجزيرة الذي يحرصون عليه أكثر من حياتهم.. لكننا نحتاج إليها، ولن نغادر حتى نحصل عليها!

كان تصميم أشرف قاطعًا وصوته حازمًا لكنّ آدم لم يملك إلا أن يتساءل في حيرة صادقة:

- لماذا؟

تنهّد أشرف ثمّ قال برقّة:

- إنها من أجل والدتك، إنّ صحّتها تتدهور باستمرار وهذه الحجارة وحدها يمكنها أن تشفيها.

فغر آدم فاه في صدمة، كما فعل منذ ساعة حين نجحت «الماغنولا» في شفاء الجرح بلمسة يد، هل كانت الحجارة ما جعلها قادرة على العلاج؟ هل تستمدّ هِبتها منها؟ وهل يمكنها علاج الأمراض الدّاخلية الخفية أيضًا بالإضافة إلى الجروح الظّاهرة؟

ثمّ تداعت المعاني في رأسه تباعًا.. «والدك رجل عظيم».. لقد كانت والدته تنظر إلى سُفرات والده المتكرّرة بتفهّم غير طبيعيّ، كانت تعرف أنّ

أنه يجوب البحار من أجلها وليس من أجل الكشف العلمي أو الإنجاز الأكاديميّ اللذي يدّعيه! لمعت العَبَرات في عينيه فجأة، لقد أتى إدراكه متأخّرًا ومربكًا.

تساءل: لماذا لم يخبره قبلًا؟

لكنّ الإجابة كانت بديهيّة: لم يكن ليصدّق شيئًا عن مادّة سحريّة بمكنها علاج مرض والدته الخبيث! كان ليبدو ادّعاءً مخبولًا وهروبًا من المسؤوليّة عبر التمسّك بالوهم! لكنّه اليوم بالذّات بات مستعدًّا لتصديق أشياء كثيرة، بعد عرض المُسخِّر الذي أبصره بعيني رأسه أمس ومشهد الجرح النّازف الذي أخفته الـ«ماغداخا» بلمسة سحريّة منذ حين!

أخذ نفسًا عميقًا ثمّ قال:

- إذا كان «حجر الشّمس» هو ما يستخدمه المسخّرون فإنّه سيكون داخل الكهف.

قاطعه أشرف بسرعة:

- لا يمكنك الدّخول إلى الكهف ما لم تكن «بندار» أو «ماغداخا».

الـ«ماغداخا».. إنّها المفتاح!

- الـ«ماغداخا»؟

هل كان يقصد روان شقيقة ريحان؟ إنّها معالجة لكن هل هناك غيرها؟

قال في تردّد:

- لأنّها امرأة؟ ربّما تتعاطف إذا أخبرتها عن والدتي فتسمح لي بأخذ شيء منها؟

قاطعه أشرف بلهجة صارمة:

- حذار! لا تفصح عن نيّتك أمام أحد خاصّة المعالِجة! إذا شكّت بأمرك فلن تكون لديك أيّ فرصة.

- ماذا إذًا؟ أسرقها؟

تبادلا نظرة طويلة، لقد كانت تلك هي الخطّة على الدّوام! يا لسهولة! لقد جاءا لسرقة كنز الجزيرة! تبدو العبارة مثيرة ومخيفة، مسليّة ومخيفة، مضحكة ورهيبة، تتردّد ضحكة عصبيّة في حلقه، لقد بات شريكًا الآن في عمليّة سطو مزمعة، هل يشعر بالارتياح الآن بعد أن عرف سرّ والده وخططه؟! إنه ليس واثقًا تمامًا!

***

انهمرت على عمّار الأموال دون حساب حين حصل على نصيبه من ثروة والده بعد أن قسّم الميراث بينه وبين أخويه. كان والده بخيلًا مقتّرًا لم يعرف الأولاد معنى التّرف في حياته لكنّ وفاة الرّجل فتحت أبواب السّماء أمامهم. ترك عمّار لأخيه الأكبر إدارة شركة المقاولات والتصرّف في العقارات لتصله الأرباح نهاية كلّ سنة فيما استسلم لعبث الغِنَى، كان شابًّا جامحًا ومتهوّرًا ينطبق عليه قول أبي العتاهية:

إنّ الفراغ والشّباب والجدة مفسدة للمرء أيّ مفسدة!

بعد أن وضع يده على نصيبه من الميراث كان أوّل ما فعله هو فتح بخت كجزء من طقوس الحداد بعد وفاة والده. بعض النّاس يمارس الحداد في غرفة منعزلة وبعضهم ينخرط في الأعمال الخيريّة لكنّه اختار طريق الإبحار، لقد أراد ذلك بشدّة منذ سنوات وحين سنحت الفرصة اختار بختًا شراعيًّا من الحجم الصّغير بمقصورتي نوم وصالة فسيحة وجاكوزي في الخلفيّة المفتوحة بالإضافة إلى ركن الشّواء. كان سائح أيرلنديّ يعرض بخت «الأميرة» بسعر معقول فلم يتردّد أمام العرض.

بسرعة تحوّلت حياة عمّار، صار بين عشيّة وضحاها ينتمي إلى نادٍ حصريّ يقتصر على أمثاله من أصحاب اليخوت! لم يكن يفوّت فرصة ليقول بعفويّة وفي معرض الحديث «هل تعلم، يقدّر عدد اليخوت التي تبحر عبر بحار العالم بأقل من عشرة آلاف يخت فقط! وهذا عدد قليل جدًا مقارنة بأعداد السيّارات».

وقد كان أشرف «الصّديق الحقيقيّ» الوحيد في نظره، إذ يستمع إلى أحاديثه الطّويلة عن اليخوت دون تذمّر بل باهتمام صميم، كان ذلك قبل زمن من شروع أشرف نفسه في البحث عن الجزر، ولعلّ عمّار كان السّبب المباشر لانخراطه في تلك الطّريق، لفترة طويلة كان يحدّثه بتفاصيل تدريباته على الإبحار ومدى تقدّمه في مشروع التحوّل إلى رحّالة.

وكان -على صعيد آخر- يُحصي الجزر غير المأهولة حول العالم في أرخبيل إندونيسيا والفليبين والمالديف والسيشال وتلك ذات الملكيّة الخاصّة لأفراد ومشاهير كأنّما يتتبّع أنباء «السّوق» الفريد لبضاعة نادرة، كان يقول متبجّحًا:

- سوف أشتري جزيرة خاصّة وأصنع محميّة طبيعيّة مثل «براندن غريمشو»!

كان «براندن غريمشو» صحفيًا بريطانيًا قبل أن يقرّر شراء جزيرة ضمن أرخبيل السيشال في سبعينيات القرن الماضي بمبلغ لا يزيد على عشرة آلاف باوند، خلال عقود عاش براندن وحيدًا على جزيرته الخاصّة وعمل على غرس عشرات الآلاف من الأشجار ومهّد ما يقارب خمسة كيلومترات من الطّريق التّرابيّة وجلب أصنافًا من الحيوانات والطّيور لتكون الجزيرة موطنها الطّبيعيّ الجديد وأهمّها السّلاحف البريّة العملاقة، وقد اشتهرت الجزيرة التي أطلق عليها اسم «الوسطى» حتّى أصبحت

مزارًا سياحيًّا للمقبلين على اكتشاف السيشال خاصّة لرؤية السّلاحف في محيطها الطبيعيّ.

حلم عمّار في ذلك الوقت بحياة عزلة وديعة على جزيرته الخاصّة وكان يتحرّق شوقًا لإنهاء التّدريب والشّروع في الإبحار ليعاين «البضاعة» في سوقها لأنّ بضاعته الجزر وسوقها بحار العالم ومحيطاته! وحين جاءت اللّحظة الحاسمة كان أشرف الصّديق الوحيد الذي عرض عليه مرافقته في مغامرته.

أبحر يخت «الأميرة» في نهاية شهر أكتوبر باتّجاه جنوب شرق آسيا وعلى متنه شابّان حالمان، كانت اليخوت من جميع أنحاء العالم تتدفّق نحو جنوب جزيرة «بوكيت» التايلنديّة من أجل احتفالات نهاية السّنة الميلاديّة وقد أراد عمّار أن يكون جزءًا من الاحتفال هذه السّنة كنوع من إعلان انتهاء الحديث لأصحاب اليخوت.

انطلقت الرّحلة من شواطئ البحر الأحمر عبر مضيق باب المندب حتّى المحيط الهنديّ، كان الإبحار عبر البحر الأحمر لا يزال آمنًا في ذلك الوقت فلم يكن نشاط القراصنة الصوماليّين قد بدأ بعد ليَسِم بعد ذلك بداية مرحلة الألفيّة الثّالثة بوسم الخطر.

كان المسافران قد قطعا نصف المسافة عبر المحيط الهنديّ إلى الشّواطئ التايلنديّة وتوقّفا عند جزر المالديف للرّاحة والاستجمام، كانت زرقة الماء مذهلة أكثر من أيّ مياه أخرى عرفها أحدهما والرّمال البيضاء آسرة لعينيهما كما يأسر اللؤلؤ الأبيض قلوب الجميلات والعالم البحريّ تحت السّطح يخلب اللّب ويُغري بالبقاء. أمضيا أيّامًا ممتعة ولولا الوجهة النّهائيّة التي يتوقان إليها ووعد مهرجان اليخوت الذي يصبوان لحضوره لبقيا هناك فترة أطول.

غير أنّ أمواج المتعة انحسرت فجأة قبل أن يشدّا الرّحال في اتّجاه جنوب الهند، ذات مساء وصل عمّار اتّصال من شقيقه الأوسط يحمل رسالة مفجعة: «الشّركة أعلنت إفلاسها، شقيقك الأكبر تعرّض لأزمة قلبيّة، الممتلكات تُصَادر تباعًا، لا ترجع الآن»!

استولت الصّدمة على عمّار وأصابه ذهول عن العالم، كان أشرف من اتّخذ القرار عنه بالرّجوع على أعقابهما، لم يكن عمّار في مزاج جيّد للحديث أو النّقاش، لأيّام استمرّ في صمت مُربك.. كان عالمه قد انهار فعليًّا وباستثناء اليخت الذي يركبه لم يعد يملك شيئًا!

أبحرا في صمت في اتّجاه الدّيار بعد أن تجاوزا أرخبيل المالديف ثمّ بعد ثلاثة أيّام خيّم ضباب كثيف، ذلك الضّباب، لقد تعرّف إليه أشرف حين وجد نفسه أمامه بعد خمسة وعشرين عامًا، لقد استمرّت «الأميرة» تتقدّم ببطء وهي تتأرجح يمنة ويسرة بعد أن توقّفت أجهزتها فجأة دون مقدّمات، وبعد ساعات دفعت الرّياح أشرعتها لترسو على شاطئ فضيّ.

قال عمّار:

- إنّه القدر! لقد جاء بي القدر إلى هنا، ربّما يستحقّ هذا المكان المكوث بعض الوقت حتّى تهدأ أعصابي وتنحسر العاصفة!

لكنّ بعض الوقت تحوّل إلى كلّ الوقت، حين قرّر عمّار أن يعتبر الجزيرة موطنه الجديد! إن كان حلم شراء جزيرته الخاصّة قد تلاشى بلا رجعة فيمكنه اختيار استيطان جزيرة أخرى ومشاركة سكّانها أرضهم طالما يرحّبون به، على كلّ حال لم يكن هناك أيّ محفّز الآن للعودة إلى الدّيار.

@ART_OF_BOOK

(7)

اليوم السّابع

استيقظ آدم مبكّرًا عن عادته، لقد أفاق أمس في وقت باكر من أجل الدّوام في السّوق، لكنّه اليوم أكثر تبكيرًا بسبب رحلة الصّيد.. ولعلّ نومه كان متقلّبًا ومشوبًا بالأرق بفضل اكتشافات أمس الصّادمة، لم يغمض له جفن حتّى ساعة متأخّرة ولم ينم إلا ساعات يسيرة قبل أن يندفع خارج السّرير وقد قرّر أنّ النّوم شيء مبالغ في تقديره، كان يحتاج إلى أن يفكّر ويُصفّي ذهنه.

كان قد عاد إلى الكوخ بعد أن أمضى الأمسية على الشاطئ، يتجمّع حوله الأولاد فيشغلهم ويشغل نفسه بالحكايات، كان يحكي لهم أساطير تخصّ عالمه البعيد والمجهول تجعل أفواههم تسقط على صدورهم دهشة وانبهارًا، ولئن كان قد نجح في اجتذاب الأطفال وشدّهم إليه فلعلّه أيضًا قد كسب ضغينة «صاحب الحكاية»؛ ذلك الرّجل المسنّ ذو العباءة الذي يستأثر بالترفيه عن سكّان الجزيرة من خلال إلقاء القصص القديمة ذاتها على أسماعهم كلّ مساء! لقد جعل زبائنه الدّائمين ينفضّون من حوله وقد سئموا حكاياته المكرّرة على مرّ السّنين لصالح قصص طازجة ومتجدّدة عن معجزات العالم الحديث.

أمس أيضًا ربط الشبكة القديمة التي أحضرها الصبيّ ياسر إلى وتدين خشبيّين غرسهما في الرّمال وعلّم الأطفال كيف يلعبون الكرة الطائرة الشاطئية، لقد ركض في كلّ اتّجاه مطاردًا كرة المطاط التي قذفها الأولاد والبنات بمهارة وقد أجهد نفسه متعمدًا متوسّلا نومًا عميقًا يجيء بعد حمّام مسائيّ إلا أنّ الإرهاق لم يحجب عنه الأرق ليستيقظ منهكًا إنهاكًا مضاعفًا.

أخذ كاشف المعدن وتسلّل في الظلام مخلّفًا والده نائمًا، لقد تصارحا أمس واعترف والده بأشياء كثيرة من الماضي لكنّ آدم لم يفعل المثل، احتفظ بخطتّه لنفسه، ولعلّ أحداث أمس لم تترك مجالًا لأحاديث إضافيّة فقد عقدت الصّدمة لسانه، كان يريد الخلوة بنفسه واسترجاع كلّ ما قيل بهدوء.

سار على الطّريق الرّملية في سكينة، كانت الشّوارع مُقفرة والدّور مظلمة في تلك الآونة، وحدهم الصيّادون يسعون قبيل الفجر، تفصل عن الميناء مسيرة كيلومترين ربّما، وقد كانت فسحة مطلوبة ومريحة للأعين رغم إرهاق القدمين. كان قد تعوّد -خلال الأيّام السّابقة- المشيَ حافيًا على غرار السّكان الذين يفعلون ذلك منذ الأزل، يتسلّل إحساس بالبرودة عبر حبّات الرّمال الفضيّة ليدغدغ باطن قدميه وهو يرفع هامته ويمدّ أطرافه متخيّلًا ملمس السّماء القريب.

لم تكن الظلّة منخفضة إلى تلك الدّرجة في نهاية الأمر ومهما تقزّم بكى ينجح في لمسها، داهمه خاطر محذّر: إنّها ليست سُحبًا بل إفرازات إشعاعيّة ما! لم يكن واثقًا من ماهيّتها، لعلّها لا تقلّ خطورة عن الأبخرة التي تطلقها المفاعلات النّوويّة! فكيف لا يتضرّر منها السّكان الذين يعيشون في ظلّها؟ بل كيف يستمدّون منها قوّة وقدرة لم تكن متاحة دونها؟

تناهى إليه نعيب بومة ما فابتسم وهو يستحضر أسطورة أخرى قصَّتها عليه ريحان خلال الأمسية، البومة نذير شؤم في الحكايات الشعبيّة التي سمعها في الدّيار إلّا أنّ البومة السّوداء كائن نادر على جزيرة «آرا»، إنّها تخبر بقدوم الغرباء، أو الشياطين في الأسطورة، بإمكان السّكان المحليين تمييز صوتها عن غيرها من البوم، وقد أقسمت ريحان أنّها سمعت صوت البومة السّوداء قبل مجيئه بيومين! تساءل إن كانت تلك بومة سوداء، وإن كانت قد ترصّدت اقترابه من مهجعها؟

تتداعى الأفكار في وعيه تدريجيًّا حتّى تصل إلى النّقطة الفاصلة: سيكون عليه أن يسرق! إنّ السّرقة ليست فعلًا فاحشًا فحسب في عُرف أهل القرية بل هي من كبائر الذّنوب في تعاليم الإسلام وتفرّع من الخطايا الكاردينالية السّبع، فهي تجمع بين خطيئتي الجشع والحسد، في القديم كان السّارق يُعاقَب بقطع يده! وفي هذه الجزيرة يطرد المواطن وينفى لارتكابه الذّنب، فماذا عن الـ«أيتورا»؟ هل يمارسون عليه العقاب الجسديّ مثل أيّ حضارة قديمة أخرى؟ اقشعرّ جسده لتلك الفكرة!

لكنّ العقاب وحده ليس كلّ ما يردعه، لقد كان يأنف طفلًا أن يمدّ يده إلى ما لا يخصّه ويطلب الإذن من والديه قبل أن يقبل هدّية من أيّ غريب أو قريب، كان مترفّعًا عن أشياء الآخرين مكتفيًا بما يخصّه مدركًا في وقت مبكّر فضل القناعة.

لكنّ السّرقة رغم ذلك كانت محلّ تعظيم واحتفاء في الأعمال الدّراميّة الكلاسيكيّة منها والمعاصرة: من روبن هود وعلاء الدّين مرورًا بأرسين لوبين وصولًا إلى سلسلة أفلام «أوشن» وعصابته والمهمّة المستحيلة. الأبطال يسرقون من الأثرياء الجشعين ويوزّعون على الفقراء أو يستحوذون على ممتلكات منظّمة فاسدة ما فيهلّل لهم العالم. كان من اليسير جعل المتفرّج

يتعاطف مع اللّص ويتماهى معه، يحزن حين تتعثّر المهمّة ويتشنّج حين يكاد يُلقى القبض عليه، كان هناك دائمًا مسوِّغ مقنع للسّرقة، حتّى حين يكون الغرض مجرّد الاحتيال على الكازينوهات، فمؤسّسات القمار تلك تلتهم أموال النّاس باستمرار، فماذا لو استطاع أحدهم استرجاع نصيب منها؟

كان بإمكانه أن يصوغ دوافعه الدّراميّة ويرسم قصّته المقنعة.. كان يحتاج إلى العلاج من أجل والدته المريضة، أليس هذا دافعًا نبيلًا وغيريًّا بقدر مؤثّر؟ لكنّ خروج «حجر الشّمس» من الجزيرة واستعماله خارجها -لأيّ غرض كان- قد يجعل أمره ينتشر عبر العالم، سوف يأتي آخرون وآخرون للحصول على الدّواء المعجز! ستتزاحم السّفن والطّائرات في محيط الجزيرة المختفية خلف السّحب والضّباب وسيجد بعضها طريقه إليها حتمًا، وبعد وقت يسير قد ينفد مخزون «حجر الشّمس» ويفقد السّكان وسيلتهم الوحيدة للعلاج في ظلّ غياب الطبّ الحديث وربّما يحدث ما هو أسوأ! لا يعرف ما الذي قد يحدث لو رفض السّكان الاستسلام وتعنّت الوافدون.. هل يفضي ذلك إلى قتال وصدام؟ ارتجف عند ذلك الخاطر!

كلّما أمعن في التّفكير ازداد يقينًا بأنّ والده كان محقًّا حين كتم هدف رحلته منذ البداية، لقد كان بوسعه أن يلومه كما يشاء، لكنّه لا يفعل بعد الآن، إنّه يتفهّم نظرته الثّاقبة والحكيمة للأمور، لكنّ هذا لا يغيّر من طبيعة مهمّته على الإطلاق! سيكون مضطرًا للسّرقة في نهاية المطاف!

حين بلغ الميناء كانت المراكب قد انزلقت على الشّاطئ وأخذت تتأرجح على الماء وسط نداء البحّارة الذين يستعدّون للانطلاق، حدّق آدم في الماء برهة وقد انتابه التردّد.. إنّ السّفر على متن «الأسطورة» يختلف عن ركوب الأمواج، لكنّه لا يرهب شبر الماء هذا، لم يكن في وضع خطر بعد يمكنه أن يفعلها. هرول ناحيتهم وخاض خلال الماء في فوضى وصخب

أخذ يتخيّل كيف يكون البحث في اتّساع المحيط عن جزيرة خفيّة، وبدا أنّه لا يختلف في شيء عن تفتيشه عن بقايا المروحيّة المترسّبة في القاع، يتطلّب الأمر ثباتًا وصمودًا وكثيرًا من الحظّ! لعلّه يختبر اليوم بخته، لقد كان محظوظًا حظًا لا يُصدَّق حين نجا من حادث التحطّم الشّنيع دون إصابات تذكر! ولعلّه قد استنفد كلّ حظّه آنذاك!

ما احتمال أن يمرّ القارب فوق حطام الطّائرة تمامًا في مساحة بحريّة تبلغ مئات الأميال المربّعة؟ كان يحتاج إلى استراتيجيّة أكثر دقّة، تطلّع إلى الأفق حيث اختفت الجزيرة وحاول أن يميّز الغابة التي وصل إليها حين رمت به الأمواج إلى الشّاطئ، عبرت صورة ضبابيّة ذهنه عبورًا حادًا وسريعًا مثل ومضة برق تضرب سماء وعيه في زمن متناهي الصّغر، فلا يكاد يدرك إن كان قد أبصرها حقًّا أم أنّها كانت وهمًا، رأى جسده ينطلق في خطّ مستقيم باتّجاه اليابسة مثل صاروخ يدفعه محرّك نفّاث ليستقرّ على الحافّة الرّمليّة.

رمش في عصبيّة ثمّ استعاد إحساسه بالزّمان والمكان، لقد شعر في تلك اللّمحة الخاطفة بموقع المروحيّة، كان إحساسًا غامضًا لا يعرف كيف يفسّره لكنّه قويّ وساطع مثل الحقيقة، ارتجفت أطرافه وتأرجح بين التّوهان التّام والإيمان العميق الرّاسخ، أشار فجأة بيقين في اتّجاه الغرب وصرخ بثبات:

- في هذا الاتّجاه!

تململ البحّارة في استغراب أمام النّداء الذي عكّر صفو لحظات الانتظار المعتادة، حدّقوا في آدم متسائلين، كانت أنفاسه متسارعة تسارعًا مقلقًا وملامحه متشنّجة بقدر لا يترك مجالًا للتردّد، تبادلوا نظرات متشاورة ثمّ اتّخذوا مواقعهم وشرعوا في التّجذيف ببطء أوّلًا ثمّ بحركة نشطة ومتفانية وآدم يتحرّك بحماس حول محيط القارب ليلقي كاشف المعادن

أبعد وأبعد ثمّ يسحبه ببطء إليه وعيناه تتقدان بريق غموض ثم يعيد موقعه وتجاهه ليكرّر المحاولة، كان واثقًا أنّه يقترب من شيء ما بدا أصله كان يجره بأنّه على وشك الوصول ولم يكن يعرف ماهيته ولا يقدر على رفضه ومقاومته!

مضت السّاعات والمركب تتحرّك جيئة وذهابًا حول الرّقعة التي حدّدها آدم دون جدوى، أخذ البحّارة يتذمّرون لكنّه حثّهم بلا هوادة، فاقترب منه والده ياسر وقال:

نحتاج إلى أن نرفع شباك الصّيد، يبدو أنّها قد امتلأت.

أومأ آدم في تفهّم رغم خيبته وتابع بعينين منطفئتين الصيّادين وهم يشمّرون في سحب الشّباك بعنفوان ومشقّة، كانوا يطلقون صيحات طويلة مع امتداد الأنفاس التي تتسرّب من رئاتهم فيما تتصلّب عضلات سواعدهم وتنفر عروقها وهم يشدّون على النّسيج المتباعد والمتماسك وعيونهم تلمع في ابتهاج وقد أنبأ الوزن الكبير بصيد وفير فيما تسرّب اليأس إلى قلب آدم وهو الذي حسب نفسه قاب قوسين من بلوغ مرامه، إنّ البحّارة سيقفلون راجعين حالما يرفعون الشّباك فالمركب المثقلة لن تضيع وقتًا في التّجوال قبل أن تفرغ حمولتها.

شمر بالحبل يشتدّ بين كفّيه كأنّما يسحب شيئًا ما طرفه الآخر، كان هناك احتمالان لا ثالث لهما: إمّا أنّ الحبل قد التصق بشيء معدنيّ وإما أنّ سمكة كبيرة ما قد ابتلعت المغناطيس وقد حسبته طعمًا! سارع يلفّ الحبل حول القاعدة المعدنيّة الثقيلة الملقاة على سطح المركب واستمرّ الحبل مشدودًا إلى الأعماق، أخذ يسحب بدوره كما يسحبون على نسق صيحاتهم وقد انتقلت إليه عدوى الحماس، لم يكن يدري ما ينبغي له أن يتوقّع لكنّه

وسحب هو بدوره كان سيارته لو وقف على الشاطئ لم يكن ليتحمل تجارة المغناطيس التي جاء بصعوبة وعناء لم ألقه بعد.

بعد دقائق بانت بكرة الحبل مبتلة بقدر ثم هي بالاقتراب حولها من السطح قبل أن ترتفع فجأة من تحت المتبادين الذراعة وهم يقاومون شباكهم التي في الماء من جديد. كانوا صوتي وحدثا بحريا يشدون مطولين استبشار آدم في لمسة عاطفة لكنها كانت كافية ليبصر السطح المبلل المتصل في حركة متموجة تراك الحبل الذي يتعلق به المغناطيس الضخم وقفز ليمساك طرف الشباك في استماتة وهو يهتف بالبحارة طالبًا المساعدة.

إنها المركبة! لقد عادت المركبة في الشباك!

لم يتطلب الأمر سوى ثوان قليلة ليستوعب الرجال النداء فسارعوا إلى مواقعهم يؤ امساون السحب، في هذه الأثناء كان ضوء النهار قد انتشر وعم ضياء الصباح، وكانت الإنارة الفضية الخجول ميز آدم جزءًا من السطح المبتل والشعرات النوارة التي التصق المغناطيس بأحدها وسط الأسماك المتخبطة. كانت الشباك قد حافظت بالجزء العلوي من المروحية والتقطته من مكانه، امتلأت عيناه دهشة وذهولًا، يجب أن تكون الشبكة مصنعة من مادة صلبة جدًا حتى تفصل المروحة عن الطائرة دون أن يصيبها ضرر! لقد كانت المروحية خفيفة، هذا مؤكد، مقارنة بحمولاتها من الطائرات لكنها حتمًا أثقل من أن يسحبها نصف دستة من البحارة من أعماق المحيط بسواعدهم العارية!

التبه، لا تزال المركبة في الأسفل لكنه بات يعرف موقعها الآن، حلل في الماء عاولًا استشفاف ما يتوارى في الأعماق، سأله أبو ياسر:

- هل هي مركبتك؟

أوماً آدم بحرارة فأشار الرّجل إلى أحد البّحارة، قفز الشّاب في الماء دون تردّد ليغطس إلى الأعماق، اختفى لدقيقتين طويلتين قبل أن يظهر رأسه على السّطح وهو يصيح بكلمات ما، ردّد أبو ياسر مترجمًا:

- إنّها تحتنا مباشرة!

لم يكن آدم ليجرؤ على الغوص، لا تزال خشية وحش الماء تسيطر عليه، ودّ لو يتمكّن من الوصول إلى المروحيّة لاستخراج جهاز الإرسال على الأقلّ لكنّه امتنع عن المجازفة، تساءل إن كان الغطّاس سيتعرّف عليه إن هو وصفه بدقّة كافية! بين كلّ الأجهزة غير المألوفة بداخل المركبة هل يهتدي الرّجل إلى المطلوب منه؟

من ناحية أخرى لا يظنّ أنّ القارب مهما كانت قوّته سيكون قادرًا على سحب الطّائرة إلى اليابسة بالنّظر إلى ثقلها ومقاومة الماء ثمّ إنّ جرّ مركبة على امتداد الشّعاب المرجانيّة سيضرّ النّظام البيئيّ البحريّ بقدر لن يجده سكّان الجزيرة مقبولًا، كان يحتاج إلى رافعة ما، وهي آلة معقّدة لا يعتقد أنّ سكّان الجزيرة يدركون ماهيتها فضلًا عن صنعها.

سمع أبو ياسر يعلن فجأة:

- إن كنت تريد رفعها ستحتاج إلى «بندار»!

***

إنّهم لا يحتاجون إلى شيء من العالم الخارجيّ!

لازمه ذلك الخاطر طوال اليوم، لقد شهد صباحًا معجزة أخرى وعرف فجأةً أنّ العلم الذي يتبجّح به أمامهم لا يساوي شيئًا أمام قدراتهم الخارقة! هناك كثير ليحكيه حين يرجع إلى الدّيار! لكن لا أحد سيصدّق! يؤلمه ذلك ويثير جنونه، يا للهول! لذلك لم ينطق والده بكلمة واحدة عن رحلته الأولى، لم يكن أحد ليأبه أو يتأثّر، حتّى الصّور التي التقطها آدم بهاتفه خفية سيعتبرونها مجرّد خدع تكنولوجيّ في زمن أصبح فيه التّزييف الإلكترونيّ عملة رائجة، هذا العالم خفيّ وسيبقى كذلك، ولن ينفع إلا لكتابة روايات فانتازيا خياليّة إن حالفه الحظّ فقد تكون الأكثر مبيعًا لسنة أو اثنتين.

على المركب تناول أبو ياسر البوق -البوق الذي تحدّثت عنه ريحان كآلة اتّصال عن بُعد- ونفخ فيه نفخة واحدة، لم يصدر عنه الصّوت المدوّي الذي توقّعه والذي قد يكون كفيلًا بإيقاظ كلّ أهل القرية عن بكرة أبيهم فزعين، كان صوتًا مكتومًا ومختنقًا كأنّما ينتقل عبر موجة مختلفة عن تلك الخاصّة بنقل الصّوت والكلمات، مرّت ثوانٍ ثمّ لا شيء، استمرّ الصّمت قبل أن يعلن أبو ياسر بثقة:

- الـ«بندار» في طريقه إلينا.

كان ذلك إعلانًا متفائلًا وغير مقنع بالنّسبة إلى آدم، قبل أن يظهر المُسخِّر في الأفق، مثل صاروخ بمحرّك نفّاث يطير فوق الماء ويعبر المسافة التي تفصله عن المركب في سرعة الضّوء! اتّسعت عينا آدم وهو يحدّق، يحدّق ولا يرفّ له جفن، يملأ عينيه من المشهد المُربك الذي لا يصدّقه عقله ولا تتقبله خلاياه العصبيّة، فيما تهتزّ صورة المُسخِّر، هبوطًا ونزولًا في موجات متكرّرة دون أن يغيّبه الماء، رمش آدم في توتّر ثمّ استعاد ذكرى بعيدة.

لقد طار، ذلك اليوم، من المروحيّة حتّى الشّاطئ! لقد عرف أنّ ذلك حدث، منذ ساعات حين استحضر الحادثة من ذاكرة مواربة ثمّ نسي الأمر برمّته، تلك الصّورة العقليّة كانت بلا معنى منذ حين لكنّه بات واثقًا الآن.. لقد أنقذهما مُسخِّر. كان هناك مُسخِّر ليلتها أخرجهما من الطّائرة ونقلهما إلى اليابسة مثل صاروخ بمحرّك نفّاث!

حين اقترب الـ«بندار» من القارب اتّضح المشهد أكثر، كان يمتطي بأريحيّة حوتًا فضيًّا من فصيلة الأوركا! ربّما لم يطر الرّجل بمحرّك عجيب لكنّ قدرته على ترويض الحوت القاتل كانت لا تقلّ إبهارًا، لا يعرف عن فئة من البشر في أيّ من نواحي الكوكب تصادق الحيتان الشّرسة.. باستثناء تلك التي تعيش في الأَسر.

تأمّل الـ«بندار» الذي وصل بعد نداء البوق غير المسموع، كان كهلًا في منتصف العمر، قدّر آدم أنّه «بندار» متمرّس وليس شابًّا متمرّنًا مثل أوران، واحد من أولئك الذين يتدخّلون في المواقف الحاسمة ولا يهتمّون بصنع العروض الفائقة بغرض الإبهار، رآه يربّت رأس الحوت المساعد برفق ثمّ يقفز عن ظهره الأملس بحركة مرنة ورشيقة ليقف إزاءهما، لوّح الحوت بذيله العريض ليضرب صفحة الماء بمزاج لعوب ثمّ استدار ليغوص ويختفي في الأعماق.

شرح أبو ياسر الوضع بكلمات قليلة فأومأ المُسخِّر علامة الفهم ثمّ غطس دون تفكير، بعد لحظات أخذ المركب يهتزّ بذبذبات سريعة ومحدودة الامتداد، كانت رجّة أرضيّة خفيفة تحدث بالأسفل مثل انفجار بركانيّ وشيك، ثمّ انشقّ سطح الماء عن حطام المركبة! تأرجح في الهواء لوقت وجيز حتّى خيّل إليه أنّ المحرّك قد عاد إلى العمل قبل أن يندفع في اتّجاه الشّاطئ الرّمليّ. أعلن أبو ياسر بعد أن اختفى المُسخِّر:

- يمكننا العودة الآن!

حدّق آدم ثانية بقوّة حتّى كادت عيناه تغادران محجريهما، لقد اختفت المروحيّة بمثل سرعة ظهورها، لم يميّز هذه المرّة إن كان المسخَّر يطير بأجنحته الخاصّة أم أنّ حوته تولّى مهمّة السّحب، حين انتبه من دهشته عبس في غيظ، ألم يكن بوسع المُسخَّر سحب المركب أيضًا؟ لماذا يتركهم يجذّفون كلّ هذه المسافة وهو قادر على نقلهم في لمح البصر؟ لكنّ أحدًا غيره لم يبد أدنى امتعاض، استأنف البحّارة التجذيف الجادّ ورفعوا أصواتهم بغناء شعبيّ ذي وقع بطيء، لم يكن أحد غيره يستعجل الوصول إلى الجزيرة فقد كانت تلك هي الوتيرة الطّبيعيّة لحياتهم أمّا اللّجوء لخدمات المُسخَّر فاستثناء.

حين سكنتْ فورة المشاعر الجيّاشة التي أصابته تحت وطأة الحدث استرخت ملامح آدم وهو يستلقي على الألواح الخشبيّة متطلّعًا نحو الجزيرة التي يجدّون في اتّجاهها، تساءل فجأة: كيف دلّه حدسه على موقع الحطام؟ لم يكن هناك تفسير منطقيّ لأحداث المغامرة باستثناء أنّه لم يستنفد كلّ حظّه بعد وقد كان يحتاج إلى مزيد منه.

***

حين وصل القارب إلى الميناء كان الـ«بندار» قد اختفى في حين تجمّع الأطفال وكوكبة من الأهالي حول المركبة الرّابضة على الشّاطئ منذ أمدٍ وقد سبقته في الوصول بسرعة مكّوكيّة، لم يكن يوم إجازة لكنّ نداء البوق الطارئ ورحلة الـ«بندار» العاجلة ربّما جعلت الخبر ينتشر، لا شيء يظلّ مجهولًا لأحد على الجزيرة! لقد بات يدرك هذا!

قفز آدم في الماء وخاض الخطوات التي تفصله عن الشّاطئ في لهفة، ها هي المروحيّة أخيرًا، آلة حديثة في قرية من القرون الوسطى سكّانها يتمتّعون بقوى خارقة! شعر بشيء من الاعتزاز وهو يلحظ نظراتهم الفضوليّة، لقد جاء دورهم ليصابوا بالدّهشة، فقد نال نصيبًا كافيًا من الذّهول هذا الصّباح ويودّ أن يراهم فاغري الأفواه مفتوحي الأعين على اتّساعها.

كان الأطفال يتقافزون حولها فيما حافظ الكبار على مسافة حذر كافية دون أن يجرؤ أحدهم على الاقتراب من الوحش السّاكن على الرّمال الفضيّة، وحش من وحوش «مهافيا دياما» التي يخشونها، كان هناك تآلف عجيب بين المعدن الصّقيل اللّامع بلون رماديّ ودرجات الفضيّ التي تحيط به، سارعت ريحان تقول في إثارة:

- هذه مركبتك؟ هل تطير حقًّا؟ يمكنك تشغيلها؟

كان يودّ أن يجيب كلّ الأسئلة ويشرح كيف تعمل الطّائرة -وإن لم يكن خبيرًا بحقّ- لكنّه متلهّف للوصول إلى جهاز الإرسال قبل كلّ شيء، قال مخاطبًا المجموعة التي تحلّقت حوله شارحًا:

- هذه طائرة! آلة تطير فوق السّحاب، لكنّها محطّمة كما ترون، سقطت في المحيط منذ أيّام، أفترض أن لا أحد هنا يعرف كيف يصلحها؟

ران صمت على الحضور فهزّ آدم كتفيه وقال في حرج:

- حسنًا، ولا أنا! إنّها مجرّد كتلة من المعدن الصّدئ الآن!

تفرّق الفضوليّون خلال دقائق قليلة ولبث الأطفال يرقبونه، أشار إلى الصّغار بلا كلمات فتباعدوا ليسمحوا له بالمرور. كانت البوّابة شبه مفكوكة المفاصل وما إن لمسها حتّى انهارت مشرعة وتهاوى المعدن على الأرض، تجاهل الأمر وخطا إلى الدّاخل في رهبة، كان كلّ شيء بقطر ما

ما عدا ذلك بدت الأجهزة في أماكنها على حسب ما يذكر -رغم خبرته القليلة بشأن المروحيات- بحث بعينيه عن جهاز الإرسال، هذا شيء ليس في مكانه.

نقل عينيه بين الأجهزة في جزع، إنّ انتشال المروحيّة سيكون بلا فائدة إن كان جهاز الإرسال قد اختفى، لكنّ العلبة السّوداء لا تظهر في أيّ مكان من قُمرة القيادة. فتّش بعصبيّة تحت المقاعد ووراءها، خلف الدّواسات وداخل الجراب الجانبيّ والخلفيّ، دون جدوى، تتقلّص ملامحه مقاومًا رغبة في الغثيان وتتشنّج أصابعه التي تواصل تحرّكها المحموم، ترفع كلّ نطعة وتعيدها مكانها، مرّات ومرّات. هل يذهب كلّ الجهد المبذول سدى؟ وهل ينهار أمله في العودة إلى السّفينة؟ حاول ألّا ينفعل ويحافظ على هدوء نبضاته، لقد صار يهلع بنسق متزايد في الأيّام الأخيرة، إنّه يفقد السّيطرة على نفسه، تختنق أنفاسه في صدره ويجنّ جنون الطّبول التي تقرع في أذنيه، سنوات من العمل المضني وحصص الصّحة النّفسيّة تذهب هباءً في هذا المكان اللّعين! لعلّه لم يتعرّض لهذا القدر من الضّغط قطّ وهو ينهار تحت العبء النّفسي الذي لا قِبَل له به!

دفن رأسه بين ركبتيه واعتصر جفنيه حتّى تناثرت الدّموع، إنّه يحتاج إلى أن يبكي أكثر من أيّ شيء آخر، شعر بكفّ صغيرة تستقرّ على كتفه، تذكّر أين يكون، تذكّر الأطفال من حوله، ففتح عينيه، تنفّس، توسّل سكينةً من الفراغ الذي يغمر عقله، استوت الصّورة المهتزّة أمام عينيه واختفى الضباب، ميّز وجه ريحان بالقرب، كانت تقول في قلق:

- أنت بخير؟ هل أطلب الـ«ماغداخا»؟

هزّ رأسه علامة النّفي، لا شيء قد تفعله المعالجة سيحسّن من الوضع.

كانت الوجوه الصّغيرة تحدّق فيه وفي مركبته الهامدة باهتمام، غير أنّه لم يعد في مزاج يسمح بجولة استكشافيّة أو حصّة تعريف بالتكنولوجيا الحديثة، لكنّ عيون الأطفال الزّاجية لا تقاوم وهو يكره أن يكسر بخاطرهم، فيقول معتذرًا بصوت واهن:

- أحتاج إلى بعض الوقت.. أريد أن أكون وحيدًا الآن.

قدّرت ريحان مشاعره بنضج فساقت الأولاد بعيدًا دون أن تطرح سؤالًا واحدًا، تنهّد بحرارة حين صار بمفرده على الشّاطئ المقفر بداخل المروحيّة التي لا فائدة منها، حاول أن يهوّن على نفسه: لقد كان جهاز الإرسال حلًا غير مضمون في نهاية الأمر، كان احتمال تأثر دارته بمياه البحر واردًا أيضًا حتّى لو عثر عليه فقد ينتهي به الأمر خائب الأمل.

أرسل بصره إلى الأفق البعيد المختفي خلف ستار الضّباب وتساءل في يأس: ماذا الآن؟ لم تعد لديه خطّة! لقد مضى حتّى النّهاية ووقف عند طريق مسدودة، ربّما صار عليه أن ينفتح أكثر تجاه البروفيسور أشرف، لقد كانت لديه خطّته الخاصّة منذ البداية: سرقة «حجر الشّمس»، لا شكّ أنّ لديه تدبيرًا ما بشأن المغادرة.

سيكون عليه أن يرجع صاغرًا ويعلن انقياده للحكم الأبويّ.

***

- فعلتَ ماذا؟

صرخ أشرف في انفعال حين أنهى آدم سرد تفاصيل الأعمال التي أقدم عليها في الأيّام الماضية: البحث عن المعدن، عرض المغناطيس، الإبحار بحثًا عن المروحيّة، استخراج الهيكل الذي يربض على الشّاطئ الآن ظاهرًا للعيان على مرأى من جميع أهل الجزيرة، أضاف في حدّة:

- هل هذا ما تسمّيه أن تكون غير مرئيّ؟

طأطأ آدم رأسه في خجل، إنّه يكره هذا الموقف ويكره كلمات والده التي توقعها ويكره أكثر أن يخيّب أمله في الوقت الذي أراد فيه أن يدهشه، إنّه يفشل باطّراد في أن يكون مفيدًا، هذا يحدث باستمرار منذ وضعا أقدامهما على الجزيرة، لكنّه لا يتعلّم من أخطائه! يواصل الاعتداد بذاته والانتصار لرأيه والنّتيجة لا تختلف!

- منذ الآن سوف تنصت لما أقول! ستفعل كلّ شيء بطريقتي.

وهل بقي بيده شيء غير ذلك؟ استمع في سكون.

- سنكتفي بالمراقبة، راقب الـ«ماغداخا» جيّدًا، إنّ موقعك في السّوق مناسب، النّاس يتردّدون على المتاجر ويتحدّثون، أصغ أكثر ممّا تتكلّم وانتظر اللّحظة المناسبة، يجب أن تعرف كلّ شيء ممكن عن «حجر الشّمس»، أيّ نوع من المعرفة سيكون مفيدًا في المرحلة القادمة.

تململ آدم في ضيق، كم سينتظر؟ يومًا أم اثنين؟ أسبوعًا؟ هذا النّوع من المراقبة والتقصّي طويل الأجل، لن تنتظر السّفينة في المحيط كلّ هذا الوقت، لكنّ هذا لا يشغل البروفيسور أشرف على الإطلاق، قال بتردّد:

- وماذا بعد الحصول على الحجر؟ هل لديك خطّة بشأن الاتّصال بالسّفينة؟

ابتسم أشرف متهكّمًا وقال:

- لن نتّصل بالسّفينة! السّفينة لم تكن قطّ جزءًا من الخطّة، لقد كانت وسيلتنا للوصول إلى الموقع لكنّ دورها ينتهي عند ذلك الحدّ!

تقرّحت شفتا آدم، وهمهم بشكل متقطّع:

- ولكن... ولكن...

- مايك راسل رجل أعمال متمرّس، لن يضيّع وقتًا في انتظارنا بعد تحطّم المروحيّة، إنّه يفكّر في نفعه وحسب، لقد غامر بمرافقتنا بسبب الطّمع، لقد لوّحت بالجزرة عند طرف الخيط فتبعها الحمارا

- الطّمع؟ الطّمع في ماذا؟

- الـ«مادرا» طبعًا!

امتعضت ملامح أشرف وهو يلقي تلك الكلمات، لم يكن فخورًا بما ارتكبه لكنّه لم يملك خيارات كثيرة، كان مضطرًا لبعض التّجاوزات الأخلاقيّة للوصول إلى هدفه!

- إذا كنّا نحن لصوصًا صغارًا فمايك راسل لصّ كبير! لقد عرف بشأن الحجر كمصدر طاقة استثنائيّ، اضطررتُ إلى ذلك لإقناعه، لكنّني لن أسمح له أبدًا بوطء أرض الجزيرة، لن أسامح نفسي أبدًا إذا سمحت له بالمجيء! لن يكتفي بحجر أو اثنين.. سوف يعتبر المصدر ملكًا له، ويهدم عالم السّكان الأصليين!

- المصدر؟

- المنجم أو الكهف أو البركان، لست أدري ماهيته بدقة، إنّه المصدر الذي تتدفّق عبره المادّة الفضيّة من باطن الأرض، تندفع كسائل مائع ثمّ تتشكّل حجارة صلبة مثل الصّخور البركانيّة.. «حجارة الشّمس»، لقد ارتكب المستكشفون القدامى مذابح في كلّ البلاد البعيدة التي وصلوا إليها، استرقّوا السكّان وسخّروهم للخدمة واستولوا على ثروات أراضيهم من معادن وأحجار كريمة، هذا ديدنهم منذ القدم، ولا أشكّ لحظة واحدة أنّ وصول المستثمرين إلى هذه الأرض سيكون نهايتها ونحن لسنا هنا لنتسبّب في هذا.

هل سمعتني؟

أرما آدم بملامح جادّة ثمّ قال في شكّ:

- وماذا لو أصرّ مايك راسل؟ إنّه قريب من الموقع وقد يصل مصادفة ببعض المحاولة، لقد أريته «حجر الشّمس».. أليس كذلك؟ إنّه يعرف بوجوده!

ضمّ أشرف ذراعيه إلى صدره ثمّ قال:

- سوف يدرك بعد وقت قصير أنّه قد خُدع، يجب أن يفعل، فما بحوزته مجرّد حجر لا ينفع ولا يضرّ.

- كيف؟

- ذلك الحجر، لقد غادر الجزيرة وابتعد عن المصدر لخمس وعشرين سنة، بعد كلّ هذا الوقت لم يعد يحتفظ بخصائصه الأصليّة، إنّه عديم النّفع الآن، صار مجرّد حجر لامع للزّينة، لا طاقة فيه ولا روح.

صمت وهلة ثمّ أضاف:

- حتّى لو احتفظ الحجر ببعض خصائصه، فمايك راسل لا يمتلك المعرفة اللّازمة لاستغلاله، هذه معرفة لا يمتلكها العلم الحديث..

ضيّق آدم عينيه ثمّ أطلق السّؤال الذي يلحّ عليه منذ بعض الوقت:

- ولكن كيف وصلتَ إلى الحجر في ذلك الوقت؟

التمعت عينا أشرف وهو يقول بحزم:

- بفضل معالِجة! ألم أقل لك؟ المعالِجة هي المفتاح.

***

مشى آدم عبر الشّارع الطويل بخطى بطيئة وهو يعدّ البيوت على الجانب الأيمن من الطّريق، توقّف عند المنزل الخامس، منزل «كوتانا» عمّار، تأمّل الواجهة البسيطة التي تشبه باقي الواجهات المجاورة، لم تكن هناك أيّ إشارة خارجيّة تدلّ على إقامة حكيمٍ ومعالجةٍ ومتدرّبٍ على التّسخير في المكان، تردّد برهة ثمّ همّ بالاستدارة راجعًا على عقبيه.

فُتح الباب فجأة وتعالت أصوات حادّة من الدّاخل باللّغة المحليّة، كان أحدهم غاضبًا، برز بعد حين رجل فارع الطّول ذو لحية بيضاء كثّة وهو يوليه ظهره. باعتبار شكله المميّز قدّر آدم أنّه قد يكون أحد الحكماء، كان الصّوت السّاخط لا يزال يتدفّق من الغرفة ثمّ تراءى وجه «كوتانا» عمّار في الإطار، توقّفت عيناه على وجه الزّائر غير المتوقّع وأُلجم لسانه على الفور.

تسمّر آدم مكانه في حرج، بدا أنّه يقاطع نقاشًا ما؛ نقاشًا هادرًا وصاخبًا أكثر من أيّ محادثة تناهت إلى مسامعه منذ وصوله إلى الجزيرة، وكان ذلك مربكًا. التفت الرّجل الأول حين لاحظ نظرات عمّار، استعادت القسمات هدوءها ولاحت ابتسامة وقور، فكّر آدم أنّه لم يكن عليهما قطع النّقاش المحتدم بسببه فهو لم يكن يفقه منه كلمة واحدة! غير أنّ حضوره أفسد الحوار الملتهب، قال عمّار بتأنّ بعربيّة واضحة:

– «كوتانا» تافي كان على وِشك المغادرة، تفضّل يا بنيّ.

أومأ الرّجل الذي يقف بالباب مؤكّدًا قول صاحبه ثمّ حيّا آدم بهزّة رأس وابتعد بخطى جادّة. وقف آدم متردّدًا عند العتبة بعد أن تراجع عمّار إلى الدّاخل، لقد قادته قدماه إلى المكان متتبّعًا وصف ريحان دون خطة واضحة، لا يعرف بعد كيف يبرّر زيارته، دعوة من الصّغيرة ريحان؟

اجتاز العتبة وتبع مضيّفه إلى الغرفة البسيطة التي يُفضي إليها المدخل الرّئيسي. كان هناك عدد من البُسُط على الأرض وطاولة خشبيّة منخفضة

فوقها رقعة لعب وحجارة مصقولة من لونين؛ أبيض وأسود، ووسائد وثيرة للجلوس والاتكاء، ما عدا ذلك كانت الغرفة خالية من أيّ زخرفة أو أثاث باستثناء لوحة جداريّة عليها كتابة بالخطّ العربيّ الأنيق، كانت هناك أبواب أخرى تؤدّي إلى غرف داخليّة للنّوم والطّبخ.

كان الوقت مساءً لكنّه لم يلمح أحدًا من أفراد العائلة، تساءل إن كانوا يختفون داخل الغرف أم انصرفوا لبعض الشّؤون التي تخصّ روتين الجزيرة والتي لم يكن يعرفها بعد، كان تصوّره عن الحياة بسيطًا حتّى اللّحظة: الذّهاب إلى العمل، تناول الوجبات، الجلوس على الشّاطئ.. لم يكن يعرف إن كانوا يفعلون أشياء أخرى بقيّة النّهار عدا المكوث في البيت والاعتناء بالحدائق.

بادره عمّار بابتسامة مرحّبة:

- أنت آدم أليس كذلك؟ ريحان ابنتي تتحدّث عنك كثيرًا.

ابتسم آدم في حرج فيما واصل الحكيم:

- هل حدّثك والدك عنّي وعن صداقتنا القديمة؟

أومأ آدم بسرعة وقد سرّه أن يدير الحكيم دفّة الحديث بما يكفيه مؤنة التّبرير والتّفسير، كان يقول متابعًا:

- كيف هو العالم في الخارج؟

قبل أن يردّ آدم كان عمّار يقاطعه من جديد:

- انسَ الأمر، لا تقل شيئًا، لا شكّ أنّ العالم يتغيّر بسرعة، الأمور تتغيّر هنا أيضًا لكن ليس بالقدر نفسه، التطّورات بطيئة على الجزيرة، لا يحدث شيء كثير في عالمنا الصّغير، أنت مهندس حاسب آلي.. أليس كذلك؟ لم يكن هذا التخصّص رائجًا في زمننا، كان «الحاسب الآليّ» آنذاك جهازًا مستحدثًا ونادرًا...

سرح الرّجل للحظات فاحترم آدم صمته، بدا كمن يحدّث نفسه ولا يحتاج إلى ردود، لعلّه يستمرّ في صراع داخليّ لا نهاية له، يعتريه فضول تجاه قومه وعائلته الذين خلّفهم ثمّ تسحبه قيود الواجب والحاضر والمصائر التي ارتبطت به، ولم يكن حضور آدم إلّا حجرًا سقط في بحيرة أفكاره فعكّرها.

تأمّل آدم الرّقعة على الطاولة، بدا أنّ الرّجلين ربّما كانا يلعبان ثمّ تشاجرا في منتصف الجولة، لا تزال القطع السّوداء والبيضاء متناثرة على الرّقعة الخشبيّة التي تشبه الـ«داما» أو ربّما الـ«غو»، إلا أنّ القطع لا تشغل فضاء المربّعات ولا العقد التي تتقاطع عندها خطوط الطول والعرض، لم تكن هناك خطوط واضحة على كلّ حال، بدت مثل آثار باهتة لما كان في وقت ما أخاديد على وجه الخشب إلا أنّ الأبيض كان يفوز لا محالة، قال عمّار مبتسمًا:

- إنّها لعبة محليّة قواعدها مختلفة عن الشطرنج وألعاب الطاولة التي نعرفها.

أبدى آدم اهتمامًا وهو يحدّق محاولًا التّحليل والاستنتاج، تابع عمّار:

- إنّها ليست لعبة كما يبدو لأوّل وهلة، إنّه حوار إذا شئت، تبادل أفكار.

- وهل كان الأبيض أكثر إقناعًا؟

- الأبيض دائمًا أكثر إقناعًا في أيّ صراع بين الخير والشرّ، يفوز الخير دائمًا، والأبيض هو الخير.. دائمًا.

رمش آدم في استغراب، هل يرمز الأبيض إلى سكّان الجزيرة والأسود للغرباء؟ الأسود محاصر أو منبوذ على الحاشية، ربّما يرمز إلى شياطين الـ«مهافيا دياما» التي يخشاها الـ«آم» أكثر من الطاعون.

سأل عمّار فجأة بابتسامة ساخرة:

- لقد استخرجت الطّائرة من الماء.. هل هي صالحة للطّيران؟

غمغم آدم في ارتباك وقد انتشله السّؤال من تأملاته:

- لقد باتت مجرّد نفايات! فقدت المروحة والمحرّك لا أمل فيها!

ضحك عمّار في صخب ثمّ قال:

- يمكنني تخيّل هذا، لم أر واحدة عن قرب منذ زمن بعيد، ربّما ألقي نظرة على مروحيّتك إن كنت لا تمانع؟

- بالتّأكيد.

- هل تعتقد أنّ قطعًا منها قد تكون صالحة بشكل ما؟

هزّ آدم كتفيه فتنهّد الحكيم قبل أن يستأنف في شيء من الحنين:

- من الجميل لقاء أحد من الدّيار.. أنت تعرف، حين تكون غريبًا فإنّك تتوق إلى الحديث مع شخص يفهمك، لقد عشت هنا خمسة وعشرين عامًا، أنا «كوتانا» هنا، واحد من أكثر الشخصيّات أهميّة في مجتمع الجزيرة.. لكن هناك أفكار لا يمكنني أن أشاركها مع الآخرين.. لأنّ أحدًا هنا لن يستوعبها.. هل تفهمني؟

هزّ آدم رأسه في تصديق..

- والدك كان صديقي في القديم.. لكن وقعت أشياء فرّقت بيننا، لا يمكنني أن أتحدّث إليه في الوقت الحاضر كما كنّا نفعل في الماضي، لقد تغيّرنا، لقد أصبح أستاذًا في الجامعة.. أليس كذلك؟

ثمّ أطلق ضحكة قصيرة قبل أن يقول:

- لقد أصبحنا شخصين مهمّين أنا وهو! «كوتانا» وأستاذ جامعة!

واصل الضّحك بشكل بدا مبالغًا فيه لآدم، كانت ضحكته المضطربة تعبّر مرارة وحسرة!

- لا شكّ أنّ لديك أسئلة كثيرة عن الحياة هنا.. لا تتردّد في طرح أيّ منها! حين وصلتُ منذ ربع قرن وجدت المكان آسرًا.. رغم أنّه يختلف بقدر كبير عمّا يبدو عليه الآن، لقد تطوّرت الأشياء إلى الأفضل بالتّأكيد!

استمع آدم وهو يهزّ رأسه باستمرار مدّعيًا الاهتمام، لم يكن يودّ طرح أسئلة بعينها، باستثناء الحجر وكلّ ما يتعلّق به، لكنّ الحكيم لن يفشي سرّه بالتّأكيد.

- في القديم، كانت هذه الأرض مجرّد أرض مقفرة يعيش أهلها ببدائية على صيد البر والبحر وقطف الثمار.. قبل أن تكون هناك حضارة حقيقيّة! يعتقد السّكان بالنّظر إلى المعلومات المتوافرة لدينا أنّ الكنعانيين هم أسلافهم الأوائل، ويُقال إنّ الجزيرة ظهرت بعد أن غمر الطّوفان العظيم الأرض، وحين انحسر الماء كُشف هذا الجزء من اليابسة ثمّ جاء البشر للاستقرار هنا..

قاطعه آدم فجأة دون أن يشعر:

- لكنّ الأسطورة...

- بالتأكيد، الأساطير تقول أشياء مختلفة لكنّها مجرّد حكايات شعبيّة تُروَى للأطفال.

- إذًا.. كيف اكتشف البشر «حجر الشّمس»؟ وكيف أدركوا قدرتهم على التحكّم فيه؟ هل كان هنا على الدّوام؟ أم أنّه ظهر في ظروف معيّنة؟

حدّق فيه عمّار بدهشة وقد فاجأه سيل الأسئلة إلّا أنّه لم يراوغ أو ينغلق، بدا مستعدًّا للحديث على غير توقّع، تريّث قليلًا قبل أن يقول مبتسمًا:

- إذًا لقد لاحظتَ الهبات التي تمنحها الـ«مادرا» للمحظوظين من أبناء «آم»، من العسير ألا تفعل وهذه المعجزات تعلن عن نفسها ببساطة تبدو مستحيلة! في الحقيقة ليس هناك تسجيل للتاريخ المحليّ باستثناء بعض الرّسوم المحفورة داخل الكهف والحكايات التي تتناقل شفهيًّا.. لذلك لا يمكن الجزم بصدد متى وكيف ظهرت الـ«مادرا»، لكنّني فكّرت في الأمر وبنيتُ نظريّة خاصّة بي إن كان يهمّك أن تعرف..

أومأ آدم بحماس، فاستطرد الـ«كوتانا»:

- إمّا أن تكون الـ«مادرا» -المادّة الفضيّة- قد وُجدت منذ القدم ثمّ جاء البشر واستنبطوا طريقة ما للتعايش معها واستغلالها وهو ما يوحي بأنّ البشر القدامى كانت لديهم معارف علميّة وروحانيّة متقدّمة صاروا يتوارثونها جيلًا بعد جيل لكن من العسير على الغرباء أن يتقنوها في وقتنا دون أن تكون الـ«مادرا» قد تغلغلت في دمائهم وبنيتهم الجينيّة! انظر إليّ، لقد جئت بهذه البشرة الدّاكنة ولم يتغيّر لوني إلى البياض الشّاحب بعد كلّ هذا الوقت! أعني، ربّما أكون قد فقدت درجة أو اثنتين لكنّني لم أتحوّل إلى لون مختلف تمامًا..

كان آدم يصغي في تركيز شديد فتابع الـ«كوتانا»:

- وإما أن يكون البشر قد وصلوا أوّلًا إلى الجزيرة ثمّ بعد بعض الوقت انفجر بركان حاملًا الـ«مادرا» إلى السّطح فحدثت مجموعة من الطّفرات في أوقات متتابعة حتّى تأقلم البشر مع المادّة وصارت جزءًا منهم، ربّما لم يكن تركيزها في الهواء والطّبيعة عاليًا في البداية ولم تحجب الشّمس كليًّا إلا بعد مضيّ عقود أو قرون حتّى، وأنا أميل إلى هذا الافتراض.. أعتقد أنّ الانتقاء الطبيعي عبر أجيال

متعاقبة أنتج جنسًا من البشر في هذا المكان مهيّئين تمامًا للتعامل مع الـ«مادرا» وغرباء تمامًا عن عالم تشرق فيه الشّمس كلّ يوم!

فغر آدم فاه في دهشة وقال:

- ماذا تعني بـ«غرباء عن عالم تشرق فيه الشّمس»؟

- آه! أنت لا تعرف! سكّان الجزيرة لا يمكنهم التعرّض للشّمس على الإطلاق، جلودهم تحترق تحت أشعّتها المباشرة! تركيبة الجلد والخصائص الجينيّة للجسم البشري تتحوّل بعد تعرّض طويل للمادّة، لا يمكن لأحد مغادرة هذه الأرض!

الآن بات يعرف.. «العالم الخارجيّ خطر على شعبنا»، «لا يمكننا الإبحار خارج غطاء الظلة»، صارت تلك الكلمات ذات معانٍ واضحة الآن.

انتبه لحركة الحكيم حين فكّ رباط قلادة حول عنقه كان طرفها المتدلّي يستتر تحت ثوبه ووضعها برفق على المائدة أمامه، توقّفت عينا آدم عند الحجر اللّامع، لقد رأى قلادة مماثلة من قبل حول عنق الـ«ماغداخا»، تساءل إن كان كلّ فرد من سكّان الجزيرة يحتفظ بواحدة؟ أم أنّها حكر على الفئات التي تستمدّ من الحجر هِباتها الخاصّة؟

كان الحكيم يبتسم وهو يحرّك الحجر بين أصابعه ويقول:

- من المسلّي أن أتحدّث إلى شخص مثلي، لا يعني له هذا الحجر شيئًا.

تنهّد ثمّ أضاف متضاحكًا:

- يجدر بي أن أجرّب التعرّض لأشعّة الشّمس لأرى، هل تغيّر شيء بعد كلّ هذا العمر؟ هل يمكن أن أكون قد صرت واحدًا منهم قلبًا وقالبًا؟

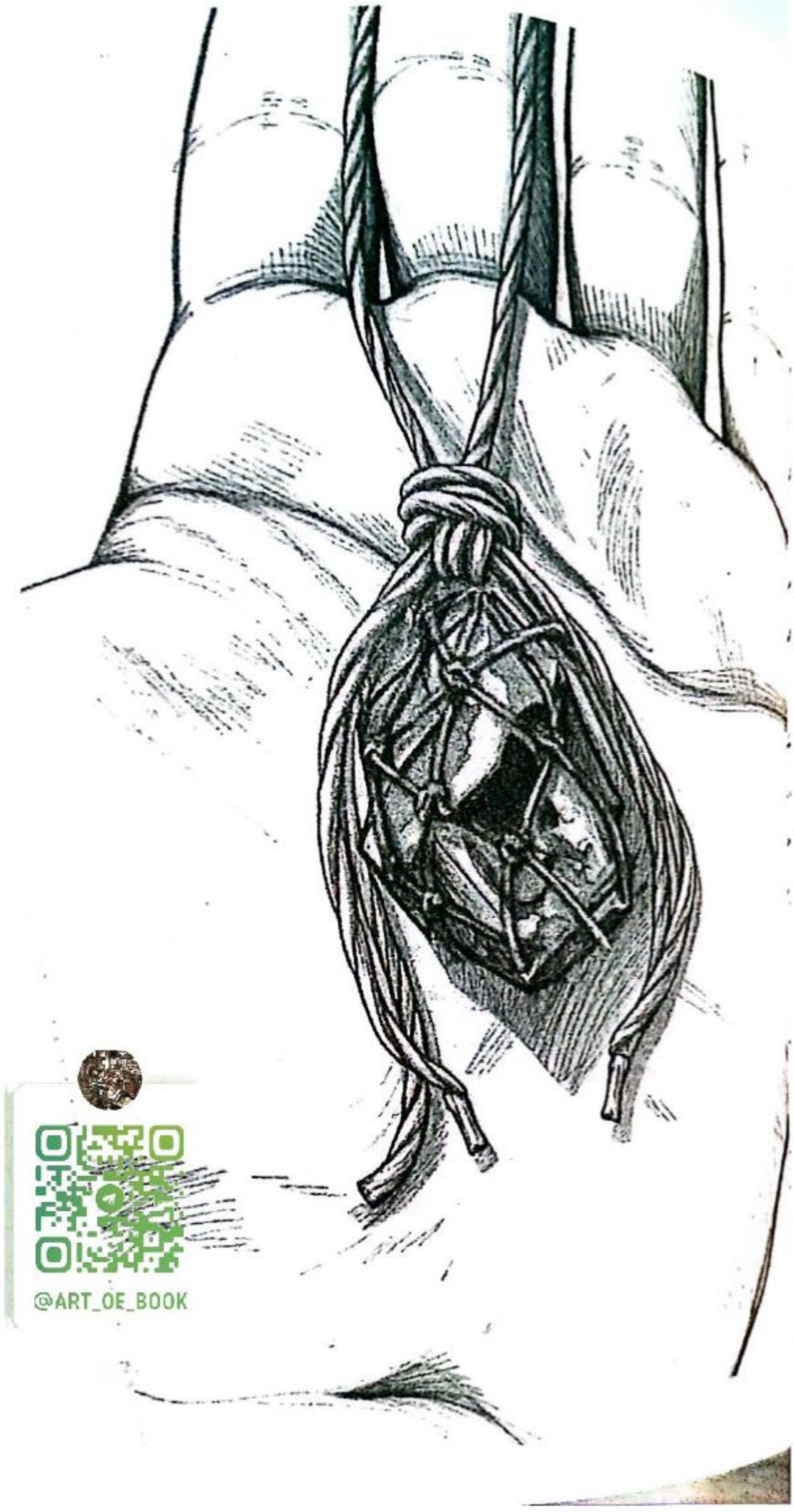

@ART_OE_BOOK

سأله آدم في فضول:

- هل تفكّر في المغادرة؟ أقصد، هل خطر ذلك ببالك مرّة واحدة خلال السّنوات الخمس والعشرين الماضية؟
- لقد فعلت! هناك أوقات يضيق فيها المرء ذرعًا بكلّ شيء ويحتاج إلى الانسحاب.. لقد كنت أشتاق إلى «عالمي» وإلى الفضاء والمدن والسيّارات! لكنّني ارتبطت بهذا العالم للأبد، تزوّجت منهم وأنجبت أطفالًا ينتمون إلى هذا المكان.

ثمّ أضاف بفخر:

- روان معالجة! ومروان يتدرّب على التّسخير! إنّهما ينتميان إلى هذه الأرض، وإذا اخترت الرّحيل فلن يقدر أحدهم على مرافقتي، وإذا أقدمت على الإبحار فقد لا أرجع أبدًا، وصول والدك إلى الجزيرة مرّة ثانية معجزة! لا أحد يأتي إلى هذه الجزيرة متعمّدًا، لا أحد يصل إلى سواحلها مرّتين!

كان يتأمّل وجه آدم في فضول وتفكير وكأنّ خاطرًا ما يعتمل في ذهنه، قال فجأة مغيّرًا مجرى الحديث:

- منذ زمن بعيد جاء رجل إلى الجزيرة.. كانت بشرته داكنة ومع ذلك فقد استطاع تطويع الـ«مادرا»، لقد كانت تلك هي المعجزة الأولى فاعتبره النّاس معلّمًا روحيًا مثل بوذا جديد واتّبعوه!

رفع آدم حاجبيه في دهشة، المعلم الرّوحيّ، هذا الذي تحدّثت ريحان!

تلفّت الحكيم حوله في حذر ثمّ قال موشوشًا:

- هذه أفكار لا أستطيع البوح بها أمام أحد حتّى لا أتّهم بالهرطقة! إنّ الأمر يخصّ الدّيانة المقدّسة ولا يمكنني المساس بها علنًا أو الطّعن في الطّقوس التي يمارسونها منذ أجيال نقلًا عن المعلم الرّوحيّ! إنّ هذا شيء سخيف أن تعلم أنّ النّاس يعتقدون بشيء خاطئ لكّنك لا تملك التّصريح وتضطرّ إلى مجاراتهم!

أحنى آدم رأسه وأنصت إلى الاعتراف الخطير الذي كان الحكيم على وشك البوح به..

- لقد كان رجلًا عاديًّا مثلي ومثلك، لا ليس رجلًا عاديًّا تمامًا لكنّه ليس معلّمًا روحيًّا، لقد كان رجلًا مسلمًا من بلاد قريبة من جزر المحيط الهنديّ ربّما.. كان يتكلّم العربيّة ويعرف النّزر اليسير من القرآن والقواعد الفقهيّة، فعظّمه سكّان الجزيرة وأحاطوا به وبذلوا له فروض الولاء والطّاعة.. فاستغلّ الأمر! أو بصيغة أخرى، بافتراض حسن النيّة، أراد أن يكسب ثواب هدايتهم إلى الإسلام -رغم علمه القليل- فعلّمهم الصّلاة والصّوم واللّغة العربيّة، ولمّا كان الأسلاف من نسل كنعان بن حام بن نوح موحّدين فإنّهم لم يجدوا في دعوته تعارضًا مع مبادئهم، فصدّقوه. منذ ذلك الوقت يتعلّم الأطفال العربيّة في المدرسة ويتكلّمها معظمهم بطلاقة مع لغتهم الأصليّة -الآرامية القديمة- ويحفظون قصار السّور التي لم يكن الـ«نافيا» المزعوم يحفظ غيرها! إنّها منقوشة على ألواح طينيّة في دار العبادة إن شئت أن تلقي عليها نظرة.. أمّا الصّلاة والصّوم فذلك أمر شائك، نحن لا نرى الشّمس ولا القمر ولا تتغيّر الفصول كثيرًا فصار النّاس يؤدّون صلاتين في اليوم؛ واحدة قبل

شروق الشّمس وأخرى بعد غروبها! وفي موسم الأمطار، حين
يتعذّر الخروج للصّيد ويقلّ الزّاد، يصومون ثلاثين يومًا.

ابتسم آدم وقد تبدّدت حيرته الآنفة، يبدو الوضع أكثر وضوحًا الآن.
ليس الخلل في سمعه أو تركيزه، لكنّ الأذان يُرفع مرّتين فحسب بالفعل!

- لم أكن متديّنًا في السّابق، والدك لم يكن أيضًا.. لا أدري إن كان قد
تغيّر بهذا الشّأن لكنّني أعرف أنّ المسلمين يصلّون خمس مرّات في
اليوم.. هذه بديهيّات، يعرفها كلّ مسلم في العالم، حتّى لو لم يصلّ
يومًا في حياته! ربّما أعرف عن الفقه الإسلاميّ أكثر من أيّ فرد على
الجزيرة لكنّني لا أملك أن أجاهر بما أعرف حتّى بعد أن صرتُ
«كوتانا»!

ضحك ثمّ استطرد:

- سأكون كمن يأتي بدين جديد! والنّاس متديّنون جدًا في هذا الجزء
من العالم. إنّ العامل الرّوحانيّ يُبقيهم متماسكين، لا تستطيع أن
تكون لا مباليًا هنا، هذا مجتمع مصغّر والإيمان الجماعيّ مهمّ بقدر
الحياة ذاتها، إن كنت تريد الاندماج والانتماء فيجب عليك أن
تمارس الطّقوس وتتقمّص الدّور! مع الوقت، يصعب التّمييز بين
الإيمان الزّائف واليقين الحقيقيّ!

تنهّد وهو يستقيم واقفًا..

- معذرة، لم أضيّفك بشيء.

كان يبدو عليه التأثّر وهو يغادر موقعه، ربّما فضفض أكثر مما يجدر
برجل حكيم أن يفعل! فتح أحد الأبواب وتوارى وراءه، عادت نظرات
آدم لتحدّق في الحجر الذي بقي مستقرًّا على المائدة بإهمال، كان به شيء
يشبه المغناطيس، يجذب عينيه إليه باستمرار، بحذر مدّ ذراعه ليمسك

الحجر وما إن لامست أطراف أصابعه السّطح المصقول حتّى أصابته صاعقة كهربائيّة جعلته يرتدّ إلى الوراء في عنف ليسقط على ظهره.

تسارعت أنفاسه في صدمة، ما الذي حدث للتوّ؟ تلفّت حين انتبه إلى زوج العيون التي تراقبه، كانت روان المعالجة تقف أمام باب داخليّ نصف مفتوح وعيناها تتفحصّان شيئًا على الأرض.. إلى جواره، كانت محتويات جرابه قد تبعثرت على البساط مع سقوطه: المغناطيس، قطع معدنيّة صغيرة، حبّتا دوائه لليوم، لقد نسي أن يخفيها تحت الحشيّة مع صاحباتها، للم متاعه بسرعة وقد أصابه الارتباك.

ما لبث الحكيم أن خرج من الباب المقابل وهو يقول مبتسمًا:

- عليك أن تجرّب هذا الشّراب المحليّ إنّه حلو المذاق!

كان يحمل طبقًا يحوي كوبين من الزّجاج الملوّن، وضعهما على المائدة، ثمّ خاطب ابنته بكلمات مبهمة -من اللغة الآرامية القديمة التي بات يدرك أنّها لغتهم- فهزّت رأسها وغادرت المنزل دون أن تنطق بكلمة واحدة، جلس آدم في ضيق، تساءل إن كانت قد لمحت حبّات الدّواء، ثمّ هزّ كتفيه في استهانة.. ولماذا يكترث إن فعلت؟!

- ماذا كنّا نقول إذًا؟ نعم، لا يمكنك المساس بمقدّسات النّاس هنا، لكنّني سعيت خلال عقدين من الزّمن إلى زرع بذور الانفتاح تجاه العالم الخارجيّ، الشّعب أشدّ وعيًا اليوم عمّا كانوا عليه منذ عقود.. إنّهم يتعلّمون الفنون والتّاريخ والجغرافيا والعلوم الطّبيعيّة والفيزياء! نحن نستقي المعرفة من الطّبيعة والملاحظة والتّجربة.. لكنّ لقاء الغرباء يختصر سنوات كثيرة من الجهد، نتمسّك بالعلماء منهم ونحاول الاستفادة من حضورهم الوجيز قدر المستطاع، ستجد في المدرسة اليوم كتبًا ومجلّدات تلخّص المعرفة التي توصّلنا

إليها.. إنّها لا تقارن بما يمتلكه العالم الواسع من معارف ولا حتى بما كان عليه المسلمون من تقدّم حضاريّ منذ قرون، لكنّه إنجاز أفخر به وأثر أرجو أن يدوم.

كان صوته مفعمًا بالاعتزاز والأنفة، وقد بدا في عيني آدم مثل رجل دولة نجح في تحقيق أهداف فترته الانتخابيّة، لم يكن واثقًا من شروط الترشّح لعضويّة مجلس الحكماء لكن يبدو أنّه ليس من ضمنها صفاء السّلالة العرقيّة للمُرشَّح!

تجرّأ على سؤاله:

- سيّدي، كيف أصبحتَ واحدًا من الـ«كوتانا»؟

ابتسم عمّار بغموض ثمّ أشار إلى الكوب على المائدة فالتقطه آدم وارتشف من السّائل المائع ذي اللّون الأحمر، أحسّ بطعم لاذع ومالح على طرف لسانه، كان شراب التّوت البريّ الذي أكله في يومه الأوّل على الجزيرة! تذكّر المغص والتقيّؤ فوضع الكوب مكانه على الفور.

- أنجب المعلّم الرّوحي سبعة من الأبناء.. بعد وفاته انقسم سكّان الجزيرة إلى سبع فرق أو أسباط وأوكلوا أمرهم لمجلس الـ«كوتانا» الذي يشارك كلّ سبط فيه بممثّل عنه، لقد دأب الأسباط على انتخاب الحكيم الذي يمثّلهم بخصائص مثل القوّة والحكمة والخبرة، وغالبًا ما انتزع ابن الحكيم المنصب لنفسه بعد رحيل والده..

لم تشف تلك الإجابة غليل آدم، لا يزال أمر انتماء الغريب للمجلس ملتبسًا، لم يكن عمّار ابنًا لأحد الحكماء السّابقين ولا أوفر الرّجال بنية جسديّة وحنكة.

- لقد آلت عضويّة الـ«كوتانا» إليَّ بالمصاهرة، تزوّجت ابنة حكيم سابق ولمّا لم يكن لديه أبناء ذكور فقد أوصى صهري العزيز لي كي أرث منصبه!

هزّ آدم رأسه ببطء، كان صوت عمّار قد ارتفع بغتة في وضعيّة دفاع فحين هربت عيناه لتتعلّقا بالكوب بين كفّيه، لم يكن فخورًا بالطّريقة التي أدّت إلى تقلّده رداء الحكيم إلّا أنّ أيّ طريقة أخرى لم تكن لتمنح شابًا غريبًا تلك المكانة بصفة شرعيّة، ولعلّه قد اضطرّ كثيرًا لإثبات أحقيّته بالمنصب عبر السّنين.

- من بين كلّ الحكماء الحاليين وحده «كوتانا» تافي يمتدّ نسبه إلى المعلّم الرّوحانيّ، لقد أنجب الـ«نافيا» سبعة من الأبناء لكنّ نسله كان يتقلّص عبر الأجيال فاضطرّ الأسباط إلى انتخاب ممثّلين عنهم بطرق أخرى غير صلة الدّم، لستُ الوحيد الذي منحته المصاهرة هذه المكانة!

شعر آدم بثقل الهواء في الغرفة فتجاسر على تغيير مجرى الحديث:

- لقد رأيت أكوام النّفايات المعدنيّة التي يدفنها السّكان في باطن الأرض.. هل تعلم لماذا لا يستغلون المعدن الذي يستخرجه البحارة من المحيط؟

ابتسم عمّار وقد استعاد وقاره:

- قد يدهشك هذا بالنظر إلى عقلية العالم الحديث: إنّهم يترّفعون عن استغلال المواد التي لا تنتجها تربتهم ولا تستوطن أرضهم، كل تلك المعادن الرّخيصة لم يمنحها لهم الخالق بل ميّزهم بمادة أهم هي الـ«مادرا».. لذلك يكتفون ويستغنون!

تأمل آدم كلماته في إعجاب: الاكتفاء والاستغناء، لو تعلمت كل شعوب العالم ذلك لما كانت الحروب والغارات! لعلّهم يحظون بالصّفاء النفسيّ الذي تتوق إليه البشرية، فمعانٍ مثل الملكيّة والأنانيّة والشّجار والطمع لا وجود لها في هذا المجتمع!

عاد عمّار ليدير دفّة الحوار وقد التمعت عيناه ببريق الإثارة:

- لديّ نظريّتي الخاصّة بشأن المعلم الرّوحيّ.. وأودّ أن أشاركك إياها إن كنت مهتمّا..

وشوش عمّار من جديد:

- أعتقد أنّ المعلم الرّوحيّ هجين!

رمش آدم وقد استعاد انتباهه.. هجين؟ مثل روان وريحان؟

- لعلّه وُلد لرجل من الجزيرة غامر بالتّرحال منذ زمن وتمكّن بشكل ما من الوصول إلى بعض البلاد المجاورة واحتمى بطريقة ما من الشّمس أو وجد وسيلة للتّأقلم ثمّ تزوّج في تلك البلاد التي كان أهلها مسلمين فتعلّم منهم الدّين.. ثمّ وبعد عقود وجد الابن طريقه إلى الجزيرة! هذا أمر نادر، هل تعلم؟ أن يجد المرء هذه الجزيرة متعمّدًا! لا تحدث مصادفة كهذه -على حدّ علمي، باعتبارات إحصائيّة بحتة- إلا مرّة كلّ ألف عام! لقد كان الـ«نافيا» المعجزة الأولى.. وصولك مع أبيك يعتبر المعجزة الثّانية!

شعر آدم بنظرات الحكيم تتفحّصه باهتمام متزايد وهو يقول:

- قد تكون هناك مناسبات أخرى لا يذكرها أحد أو مرّت دون ملاحظة لسبب أو لآخر، فلا أحد -غيري- قد تعرّف على والدك حتّى اللّحظة، لذلك فإنّ الحدث لم يسجّل رسميًا بعد إن شئت الدّقة! لكن بالنّظر إلى المعطيات المتاحة لي فهي المعجزة الثّانية..

صمت قليلًا ثمّ قال ببطء وابتسامة غريبة تعلو شفتيه:

- وهلا يجعلني أضع نظريّة أخرى.. ربّما أشاركك إيّاها في مناسبة قادمة!

بدت كلماته كأنّها هي إيذان بنهاية الجلسة، قال آدم معتذرًا وهو يتململ ليترك مجلسه:

- لقد أخذت من وقتك كثيرًا!

- لا بأس.. لقد كان حديثًا مشوّقًا!

بالنظر إلى أنّ الحكيم كان المتحدّث الوحيد طيلة الجلسة لم يجد آدم من اللباقة أن يعترض، وقف الحكيم ليرافقه حتّى المدخل وربّت كتفه قبل أن يغادرا وهو يقول بلهجة جادّة:

- من يدري، لعلّ وصولكما في هذا الوقت بالذّات يعني شيئًا.. نحن على مشارف تحوّل عظيم، من يدري ما الذي تخبّئه الأيّام!

لم يدر آدم ما الذي يفترض به أن يستخلص من تلك الكلمات، كانت مبهمة وغامضة، كما لو أنّه قد تكلّم باللّغة المحليّة التي أتقنها مثل أهلها خلال عقود من الممارسة، غير أنّ الحروف كانت عربيّة فصيحة! فيما لم ينبه الحكيم ليستفسر وسأله فجأة:

- آدم.. هل تحفظ شيئًا من كتاب الله؟

***

مشى آدم على الطّريق الرّمليّة وهو يشعر بالتّشتّت. تذكّر الشّجار الذي دار بين الحكيمين -بطريقة تتعارض مع كلّ سمات أهل الجزيرة!- ووجوم الحاضرين التي غادرت دون أن تنطق وكلمات الحكيم عمّار الأخيرة التي تحتمل ألف معنى، وماذا عن لسعة الكهرباء التي أصابته عند لمسه

الحجر؟ لقد بدا كأنّ الحجر قد تفاعل مع شيء ما.. المعدن أم المغناطيس؟ لا يزال يجهل كيف تُستخلَص طاقة الحجر وكيف يكون تطويعها! لا شكّ أنّ والده يعرف هذا على الأقلّ.. ألم يأت قاصدًا سرقة واحد؟ إذًا فهو يملك خطّة لاستغلاله.

وما إن استقرّ بين جدران الكوخ حتّى تعالت طرقات صاخبة على بابه قبل أن يظهر فتى معمّم في الخامسة عشرة قال بعربيّة فصيحة:

- سيّدي.. الشّيخ يدعوك إلى دار العبادة.

ارتفع حاجبا آدم في دهشة إلا أنّه لم يملك إلا أن يستجيب للدّعوة.

تبدّى المبنى الفسيح شبه مقفر وهو يزوره في غير وقت صلاة أو اجتماع مجلس، في زاوية على يمين الدّاخل كان الشّيخ الذي يؤمّ المصلّين يتربّع على السجّاد وإلى جواره الحكيم عمّار الذي فارقه آدم منذ أقلّ من ساعة.

لم يعرف آدم للشيخ اسمًا فالجميع يشير إليه بلقبه الذي يجعل منه شخصيّة فريدة: «الشيخ»، وأحيانًا يرافقها وصف «الجليل»، ولم يعزّ الرّجل بنفسه صراحة فحيّاه آدم بـ«سيدي الشيخ»، جلسا متقابلين على السّجاد يحفّهما يمينًا وشمالًا عمّار والفتى المعمّم ثمّ أشار إليه الرّجل المسنّ:

- اقرأ!

ألقى آدم نظرة حيرة على عمّار وتذكّر سؤاله منذ ساعة على عتبة منزل الحكيم. هزّ عمّار رأسه يشجعه فسحب آدم نفسًا عميقًا ثمّ أخذ يرتّل مطلع سورة البقرة: ﴿الم (1) ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ...﴾، واستمرّ يقرأ حتّى شارف على الانتهاء من الرّبع الأوّل، انتبه على نشيج الشّيخ الذي بكى حتّى اهتزّت كتفاه واخضّلت لحيته وأخذ يردّد:

- كلام الله! كلام الله!

ثمّ انحنى ليقبّل رأس آدم وكتفيه! امتلأت عينا آدم بالدّمع تأثّرًا وحرجًا وقد داخله الاضطراب لردّة الفعل شديدة الحماس فيما تأمّلهما عمّار برضا واستحسان وقد نجح آدم في اختبار الأصالة.

علم آدم أنّ الشّيخ لم يكن يحفظ كثيرًا من القرآن -مثل كلّ سكّان الجزيرة- لكنه تعرّف على كلام الله بيسر لتفرّده من ناحية البيان والبلاغة فلا يسع أيّ مدّع أن يضاهيه أو يقلّده، أولم يكن أهل قريش يدخلون الإسلام زرافات ووحدانًا بعد استماعهم لذكر الله الحكيم؟ تلك المعجزة البليغة التي جاء بها رسول الله محمد ابن عبد الله منذ قرون وها هي ذي تستمرّ في أسر قلوب المؤمنين على مرّ العصور ولا ينكرها إلا جاحد. استشعر آدم فخرًا وعزّة وهو يُبلّغ عنه -صلى الله عليه وسلم- آية بل آيات!

لم يكن البروفيسور أشرف متديّنًا إلّا أنّ والدة آدم كانت -ولا تزال- حريصة على توثيق صلة ولدها بالدّين، كان الزّوجان قطبين متقابلين من ناحية المبادئ والطّباع، بقدر ما كان والده شغوفًا بالعلم متعلّقًا بالمنطق بقدر ما كانت والدته روحانيّة مؤمنة، ولعلّ إيمانها العميق هو ما يُبقيها متماسكة في وجه ابتلائها وعلّتها!

بترتيب منها حفظ آدم نصيبًا لا بأس به من القرآن الكريم طفلًا مع شيخ محفّظ، كان يزوره بالبيت في نهايات الأسبوع لمدة سنوات، ربّما تفلّت منه محفوظه بعد زمن من التّرك والتقصير في التعهّد بالمراجعة لكن نصيبه من الحفظ كان أوفر من أيّ شخص آخر زار الجزيرة بما في ذلك «المعلّم الرّوحي»! كانت مصادر الوحي قد انقطعت عن الجزيرة في وقت مبكّر فلم يصلهم من تعاليم الإسلام إلا الفتات ولم تكتمل الرّسالة في أفهامهم، وبذلك كان آدم مؤهلًا -بمفارقة عجيبة- ليتقلّد مهمّة الشيخ المحفّظ!

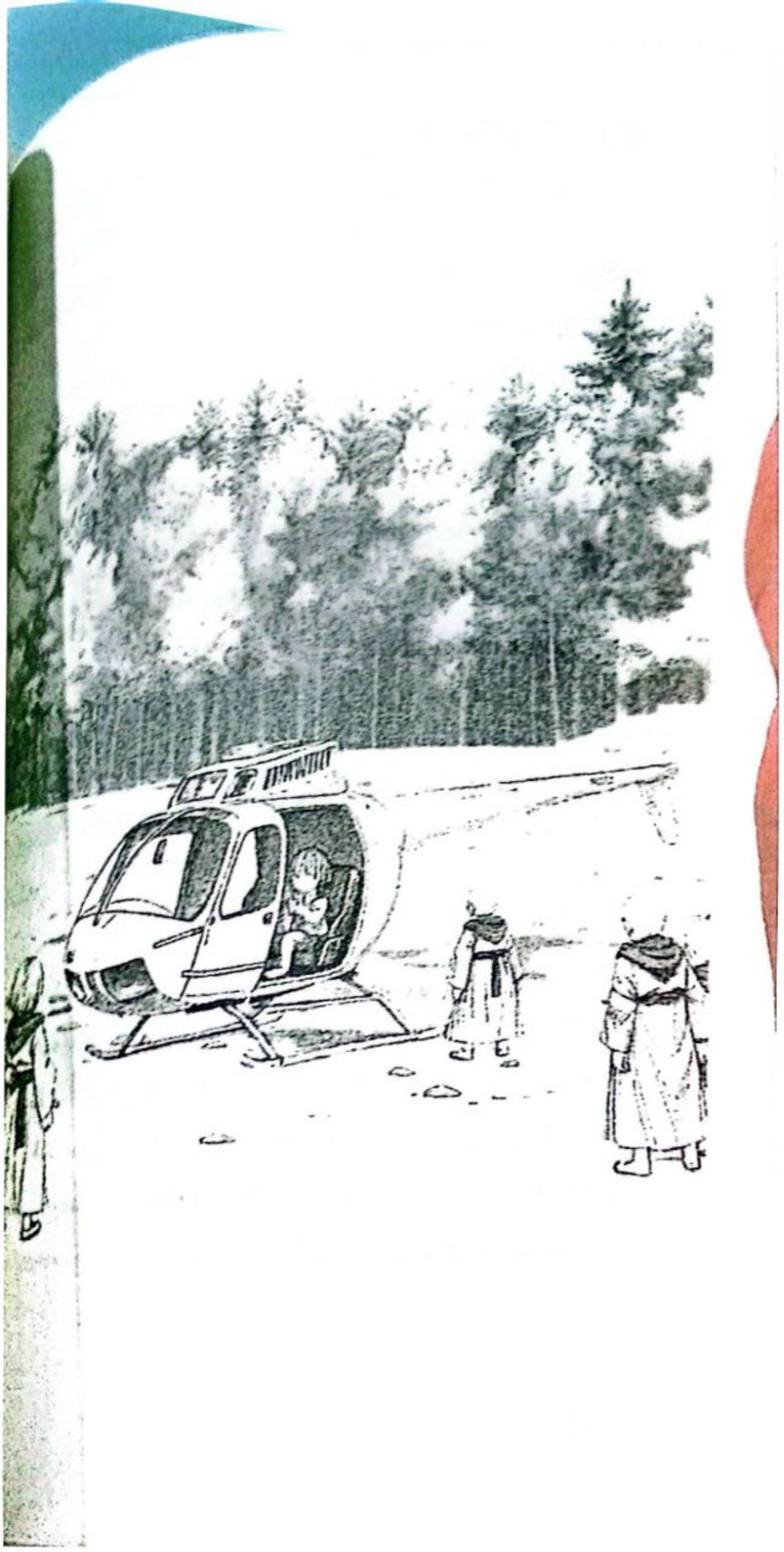

بعد تلك الجلسة العجيبة سيضطلع آدم بمهمّة التّحفيظ، سيكون عليه أن يخصّص بعض الوقت لتلقين الصّبية ما علق في ذاكرته من حفظ قديم، في حضور الشّيخ وتلاميذه -حماة الدّين ومشاريع شيوخ المستقبل- فقد كان أحرص النّاس على تلقي العلم الرّبانيّ، وفي لحظات تمّ الاتّفاق على أن يبدأ مجلس القرآن منذ الغد.

بعد مغادرته دار العبادة لم يرغب آدم في العودة إلى الكوخ على الفور، فقادته قدماه إلى الشّاطئ حيث خلّف المركبة صباحًا.

وحين أشرف على السّاحل كان الليل يُرخي سدوله على الجزيرة بظلمة باهتة غير معتمة، فاجأه المشهد الذي ينتظره: كان الأطفال قد اتّخذوا المروحيّة المحطّمة مدينة ألعاب! يتسلّق بعضهم ذيلها ثمّ يتزحلق على السّطح المعدني الصّقيل ويتعلّق آخرون بالشّفرات الدّوارة للمروحة الخلفيّة في نهايته ثمّ يقفزون إلى الأرض بعد دورة أو اثنتين، في الدّاخل كان بعض الصّغار يختبؤون تحت المقاعد أو خلفها أو يضغطون الأزرار الكثيرة بنسق عشوائيّ دون توقّعات، كانوا يلهون وحسب في حطام مروحيّة مقتلعة السّقف.

ابتسم آدم وهو يتقدّم تجاههم، لقد باتت الطّائرة بلا فائدة تُذكَر وهو لا يمانع اتّخاذهم لها وسيلة للمرح، هي ليست «طائرته» في الحقيقة لكنّها كذلك في نظرهم باعتبار الجهد الذي بذله من أجل استخراجها، حين أبصروه مقبلًا تجمّعوا حوله على الفور، جاءت ريحان أوّلًا وقالت وهي تلمح تحسّن مزاجه عن الصّباح:

- هل الوقت مناسب لجولة استكشافية؟

أومأ برحابة صدر وقد أورثه لقاء الشيخ منذ حين بهجة وارتياحًا، سبقهم إلى الدّاخل واستقرّ على مقعد القيادة وأنشأ يشرح:

- الطيّار يجلس في هذا المقعد ويربط حزام الأمان ثمّ يضع السّماعات هكذا، بعد ذلك نجهّز المركبة للإقلاع، هذه الأزرار تشغّل المحرّك وهذه تفعّل خاصّية الطيران التّلقائيّ وهذه.. حسنًا.. أعتقد أنّها تشغّل جهاز الملاحة الجويّة..

لم يكن الأطفال يجدون معنى لكلماته الغامضة لكنّهم يتابعون بعيون مفتوحة عن آخرها وبحماس منقطع النّظير فيما كان آدم يتظاهر بالمعرفة! بدا مثل ساحر يُخرج من جرابه العجائب غير أنّه لم يكن يعرف عن قيادة الطّائرات أكثر ممّا يعرفون باستثناء أنّه قد ركب واحدة بالفعل.

أمضى بعض الوقت وهو يساعدهم واحدًا إثر الآخر على الجلوس في المقعد الرّئيسي ويحرّك المقبض يمينًا ويسارًا فيما يُصدر بفمه أصواتًا تحاكي هدير المحرّك ولفّات المروحة ثمّ يهزّ جسم الطّائرة ليقلّد الاضطرابات الجويّة، شعر بالتحسّن بعد جولات من اللّهو البريء ثمّ ترك لهم السّيطرة الكاملة وجلس يسترخي على الشّاطئ.

لاحظ مجموعة الفتيات اللاّتي أتين في وقت ما ليجلسن على الجانب الآخر من الشاطئ دون أن ينتبه إليهنّ، احتلّت بعضهنّ الأراجيح الشّبكيّة وتربّعت أخريات على الرّمل، ميّز على الفور المعالجة روان، حسنًا، فكّر ساخرًا: كان يفترض به أن يراقبها.. بداية جيدّة!

لعلّه حدّق أكثر من اللاّزم فقد استدارت فجأة لتواجهه ممّا جعله يسحب نظراته مضطربًا، لماذا يشعر باستمرار بأنّها على وشك أن تضبطه متلبّسًا بجرم مجهول؟! إنّه يعرف بشأن «الجُرم» الذي ضبطته عليه منذ حين عندما سقطت حبّات الدّواء! بيد أنّه لم يكن «جُرمًا» في نظره، لكنّ

بات يخشى نظراتها الثّابتة كأنّها ستعرف ما يزمع القيام به في أيّ لحظة! تناهت إليه ضحكات الفتيات، لعلّهنّ يتندّرن بشأنه الآن.. عبس في ضيق.

جاءت ريحان لتجلس إلى جواره فيما عاد ليلقي نظرات مختلسة على الفتيات، كانت إحداهنّ تبتسم في اتّجاهه دون مواربة، همست ريحان:

- هذه خلود!

تذكّر آدم الوجه الذي لمحه في سهرة العُرس من وراء الغلالة الشّفافة، لقد كانت هي من طلب منه تقديم العرض! بدت واثقة وجريئة بدرجة لافتة للنّظر في حين حافظت باقي الفتيات على مسافة احترام وتباعد تجاه الغرباء، سأل آدم في اهتمام:

- هل هي معالجة؟

ضحكت ريحان ثمّ قالت:

- لا.. إنّها تعمل في قطاع النّسيج.

شعر بالخيبة، كان يفضّل التّعامل مع معالجة «أخرى» ألطف معشرًا وأيسر مراسًا، سأل مرّة أخرى:

- هل هناك معالجات أخريات؟

- في الوقت الحاليّ يوجد ثلاث منهنّ.

تهلّلت أسارير آدم..

- أيّهنّ؟

- لسن هنا، باستثناء شقيقتي روان، المعالجتان الأخريان متقدّمتان في السّنّ بعض الشيء.

- لم أر أيًّا منهنّ في المشفى؟

- السّيّدة مارتا ضعيفة النّظر، إنّها لا تغادر المنزل بل يذهب إليها المرضى.. والسيّدة قمر تهتمّ غالبًا بعمليّات الوضع وأمراض النّساء والرّضّع.

- آها...

ابتسم آدم في ظفر، لقد عرف أيّ المعالجات ضالّته، سألها في اهتمام:

- هل تعرفين أين يقع منزل السيّدة مارتا؟

قاطعته خلود وهي تقترب من مجلسه، كانت تتبختر مثل الأميرة ومن ورائها وصيفاتها، وقفت قبالته وقالت بدلال:

- أيّها الـ«أيتورا».. هل أنت «بندار» حقًّا؟

رفع حاجبيه في دهشة وكتم ضحكته، إنّها تتحدّث لا ريب عن عرض المغناطيس. لقد أراد أن يبدو مثل صاحب هِبة ما وقد نجح في خداع الجميع. همّ أن ينفي بشكل قاطع، إنّها مجرّد حيلة من العالم الخارجيّ، لكنّه توقّف فجأة.. ماذا لو تظاهر بأنّه كذلك؟ أليس مسموحًا للمُستَخرين بدخول الكهف؟ ربّما تتاح له فرصة الاقتراب من المصدر!

غمغم في غموض:

- ربّما.

سرت همهمات متحمّسة بين الفتيات فيما تسارعت نبضات آدم في عصبيّة، إنّه يلعب لعبة خطرة، يُصبح مرئيًّا أكثر من أيّ وقت مضى ويتجاهل تعليمات والده مرّة أخرى، وفيما يبتعدن كان يتساءل في قلق واضطراب عن تبعات ادّعائه ذاك!

(8)

اليوم الثّامن

«منذ زمن بعيد عاش رجل شغوف بالمغامرة، كان يسأل كثيرًا ويبحث غزيرًا، وقد تعلّق قلبه بالشّمس، لقد حدّثه الأسلاف عن الشّمس البعيدة التي تدفّئ الأرض لكنّ أبصارنا لا تقع عليها أبدًا فأحبّ أن يراها بعينيه رغم تحذير الحكماء وتعليمات الشّيوخ، جرّب أن يصعد التّلال ويجوب البحار دون أن يصله خيط واحد من أشعّتها، وفيما يسير في الغابات الكثيفة على غير هدى عثر ذات يوم على شجرة «سانترا» معمّرة ضخمة الجذع. كانت «السانترا الأصليّة»، الشجرة التي نمت قبل أيّ شيء آخر على الجزيرة. تطلّع إلى الأعلى وقدّر أنّ أغصانها التي تعانق الظلّة ممتدّة ومتينة، فكّر أنّها ربّما قد تصل إلى ما وراء الضّباب فقرّر أن يتسلّقها ليرى الشّمس. انطلق يتسلّق ويتسلّق واستمرّ يصعّد في السّماء، يجتاز طبقات من الضّباب فيما يضيق صدره وتلهث أنفاسه غير أنّه لم يستسلم. بعد وقت طويل شعر بالحرارة ترتفع من حوله، كانت الأغصان قد صارت أرقّ وسريعة الكسر لكنّه كان قد اقترب، تكاد بشرته تعانق شعاع الشّمس، كان يجب أن يواصل لأنّ قلبه كان قد تعلّق بالهدف القريب، وفي لحظة سحريّة انقشع الضّباب الذي يحجب الرؤية ليجد نفسه وجهًا لوجه مع القرص الأصفر المشعّ. رفع ذراعه ليغطّي عينيه المتألّمتين ودمعت حدقتاه

[illegible]

***

[illegible] يوم حافل بالمشاعر أعطى هذا من الشهرة على الشاطئ حيث تجمع الأطفال حول المصور الشاب بإعجاب وتعلق عليهم أسطورة الرجل الذي قابله فضوله تجاه الكاميرا أثناء يوم وبعد هادئة في أثناء العودة تلك الليلة زاره الكوابيس وهو يتابع صورة تلك صورة العيون المحمرة الرعبة التي في ذهنه.

أصر هاشم من جرأته في صغره، لم يكن يظهر بعرضه جهازًا أمام العيون الفضولية، حين يأمن الفرائد كان يلتقط بعض الصور للموجودات من حوله، يصبح ماكرة للشهد على تجربته الفريدة في الجزيرة المجهولة أو يدوّن بعض الملاحظات والخواطر. أشاهد الشاشة بعد أن ضغط زر التشغيل وإذا بي، يشير شعور الحيرة إلى نحو سبعين بالمئة، إنه يفقد الطاقة سريعًا، تمنى لو كان يملك مهارات «ماكجيفر»، بطل سلسلة المغامرات التليفزيونية في الثمانينيات، كان ليتمكن من صنع مولّد كهرباء بعمل بالطاقة الشمسية بمكوّنات كومة الخردة! لكنه مجرّد مبرمج حاسب آلي يحتفظ بقدر يسير من الذكريات البعيدة لدروس الفيزياء.

تأمّل الصور التي التقطها لبعض الوقت قبل أن يتوقف عند صورة بعينها تظهر المعالجة روان في ركن المشهد، رغم حرصه على تجنّب توجه عدسته إلى الأشخاص فإنّه لم يقاوم فضوله تجاه المعالجة الشابة ذات السنة

الصّارمة. حرّك أصابعه على الشّاشة ليقرّب صورتها أكثر، كانت ملامحها النائية غامضة وضبابيّة لكنّ عينيه توقّفتا طويلًا على «حجر الشّمس» الذي بلمع على جيدها. تتنافس صورتان في ذهنه؛ صورة العيون المتحجّرة في الأسطورة والحجارة البركانيّة المتدفّقة من مركز الأرض في حكاية عمّار، تنهّد ثم أطفأ الجهاز وأعاده إلى جرابه.

طيلة النّهار، شعر آدم بأنّه مراقب.

كان يدرك أنّ سكّان الجزيرة يراقبونهما على الدّوام منذ لحظاتهما الأولى على أرضهم وربّما قبل ذلك، منذ اقتراب المروحيّة من منطقة الضّباب، غير أنه بات يشعر بزوج من العيون تحدّقان فيه دائمًا تحديقًا سافرًا ومبالغًا فيه، هل تحسّن حسّه الأمنيّ مع التّجربة أم أنّه بات مرتابًا أكثر من اللّازم؟ لم يكن واثقًا!

أمضى ساعتين في السّوق يتظاهر بمعاينة الآلات وتقليبها في حين كان يترقّب اللّحظة المناسبة لينسحب. حين اطمأنّ إلى أنّ العمّال قد انهمكوا في مهامّهم وأقفرت الطّرقات أو كادت من العابرين، تسلّل إلى وجهته، تلفّت في شكّ وهو يعبر الطّريق في اتّجاه منزل الـ«ماغداخا».

مرّة أخرى كان قد حصل على التّعليمات من ريحان.. عدّ البيوت المتشابهة على الجانب الأيسر من الطّريق، وتساءل في حيرة كيف يميّزون الدّور في ما بينهم دون أرقام أو علامات؟ كان يهمّ بالطّرق على الباب حين نُبح فجأة، تراجع خطوة في حذر.. كان المشهد يتكرّر للمرّة الثانية، لقد غادر «كوتانا» تافي منزل «كوتانا» عمّار حين وصل عنده بالأمس، والآن تقف «ماغداخا» روان عند مدخل منزل «ماغداخا» مارتا!

إنّه نمط! هل يجب عليه أن يشعر بالقلق؟

بادرته روان في اهتمام:

- هل أنت بخير؟ هل تشعر بالغثيان أو الحكّة؟

تردّد للحظة، هل يفترض به أن يكون مصابًا؟ يا للغباء، بالتأكيد لا يقف عند باب معالجة، يجب أن يكون به خطبٌ ما، تذكّر: هل لاحظت شراب التّوت الذي قدّمه له والدها أمس؟ لقد سبّب له مغصًا في السّابق وتسمّمًا لأبيه رغم أنّه تذوّق قليلًا منه وحسب، وهي قد بانت تعرف أنّه لا يتناول الدّواء بانتظام، لكنّه بخير تمامًا، حتّى الدّوخة التي كانت تصيبه صباحًا صارت شيئًا من الماضي إلّا أنّه يحتاج إلى سبب وجيه لزيارة الـ«ماغداخا» العجوز، جاء صوتها منقذًا له من الدّاخل:

- روان.. من بالباب؟ هل هو الشّاب الـ«أيتورا»؟ دعيه يدخل!

ابتعدت روان عن الفتحة لتسمح له بالمرور فتقدّم آدم في اضطراب ألقى نظرة أخيرة على الشّارع حيث تتوارى العيون المراقبة ثمّ دلف إلى المنزل. وجد نفسه في غرفة متواضعة لا تختلف عن قاعة الاستقبال منزل الـ«كوتانا» لكنّها أصغر حجمًا، في الزّاوية البعيدة كانت هناك حنفية بيضاء، ربّما يستخدمها الزوّار من أجل الفحص، وكانت سيّدة تتربّع على الأرض قبالته فوق سجّاد بسيط دون زخرفة.

ضيّقت المعالجة مارتا عينيها وهي تحدّق في اتّجاهه مدقّقة، تساءل إن كانت تقنيات العلاج لديهم لا تستطيع التغلّب على أعراض التقدّم السنّ مثل مشكلات البصر.

- اقترب يا بنيّ.. دعني أنظر إليك.

جلس آدم على ركبتيه قبالتها متوجّسًا، لقد وضع خطّة مختلفة سيحاول التّظاهر بالمرض واختلاق أعراض وهميّة ثمّ يكتشف المنزل في غفلة من العجوز، لكنّه محاصر الآن بزوج من العيون تكاد ظهره وتُشعره بعدم الارتياح!

- شكرًا لمجيئك.. لقد هرمتُ ولم أعد أستطيع الخروج والمشاركة في التّجمعات، لقد أردت أن ألقي التحيّة بعد أن عرفت بوصولك، يسرّني أنّك قد أتيت!

لوهلة أُشكل عليه الأمر، هيّئ إليه أنّها تتحدّث إلى شخص غيره وتعني بكلماتها سواه! ألقى نظرة متسائلة على روان فأشارت برأسها، إنّها تطلب منه أن يجاريها.

- لكن لماذا لم تأتِ معك؟ كنت أنتظرها؟

- من؟

- هاجر!

نتح آدم شفتيه في صدمة ثمّ أطبقهما.

- قالت إنّها سوف تأتي.

تمتم معتذرًا:

- لعلّ أمرًا منعها.

- نعم، لكنّك أتيت.. وهذا حسن.

مدّت أصابعها المتغضّنة لتضغط على كفّه في حنوّ، تساءل آدم في حيرة: من نعتقده؟! استسلم لأناملها تتلمّسه تعويضًا عن ضعف حاسّة البصر لديها، خلال دقائق كان قد نسي غرضه الأصليّ من الزّيارة، كانت هناك عاطفة جميلة وصادقة في ملامحها ولمستها وقد شعر أمامها بدفء جدّة لم يعرفها! ميّز رائحة بخور عميقة تفوح من أرجاء الغرفة، أمّا جسد السيّدة فقد تضوّع بالزّيوت العطرية التي تتداخل مع عبير الأعشاب المهروسة التي تضمّخ بها خصلاتها وتحكم ربط منديل عليها تاركة جديلة هزيلة تستريح على كتفها.

@ART_OF_BOOK

حين غادر الكوخ سارت روان إلى جواره صامتة، كانت تقبض طيلة الوقت على لفافة قماشية بحرص، سألها بعد حين:

- مَن هاجر؟

- إنّها ابنتها، لقد فقدتها منذ زمن بعيد.. رحلت ذات يوم عن الجزيرة، ومَن يرحل عن هذا المكان لا يرجع أبدًا، منذ ذلك الحين وهي تبحث عنها في حكايات الغرباء.

استمرّ السّكون بعض الوقت قبل أن يسألها آدم مجدّدًا:

- ألا يمكنك علاجها؟ أقصد ضعف البصر.

تمتمت في ضيق:

- أنا أفعل ما بوسعي لكنني لست ماهرة جدًّا.

أطلق آدم ضحكة صغيرة ثمّ قال مستغربًا:

- ماذا تقولين؟ أنت مذهلة! لقد رأيتُ ما فعلته بجرح الصغير!

هزّت روان كتفيها:

- هذا شيء بسيط، نحن نفقد مهارة العلاج بمرور الأجيال، أستطيع القيام بالأشياء الصّغيرة مثل الجروح الظّاهرة لكنني لست بمهارة السّيدة مارتا، وهي لا تستطيع علاج نفسها، أحتاج إلى مزيد التّدريب والتّعلم.

رفع آدم حاجبيه في اهتمام:

- هل تتلقين تدريبًا على يديها؟

أومأت في صمت، ذلك يفسّر ظهورها في منزل الـ«ماغداخا» الـ وربّما اللّفافة التي تحملها في يدها.

- إذًا.. هي ليست هبة جينيّة؟ العلاج...

- جزء منها فطريّ يظهر عند عدد محدود من الأفراد والجزء الثاني تدريب مستمرّ!

- لكنّك الـ«ماغداخا» الوحيدة في جيل الشباب، أليس كذلك؟ وهذا يعني أنّك أفضل منهنّ جميعًا!

ظهر عليها الحرج، قالت بوجنتين ملتهبتين:

- أنا أحاول، الأخريات يتدرّبن أيضًا، لكنّهن لسن جاهزات بعد، هذا أفضل ما لدينا في الوقت الحاليّ..

بدت محبطة، تلك الصغيرة العشرينية كانت تضع حملًا ثقيلًا على كتفيها، لم يكن من العدل أن تكون الـ«ماغداخا» الوحيدة المتوافرة لمئات -وربّما آلاف- المواطنين على الجزيرة.. بدت مثل طبيب أريافٍ في محافظة نائية حيث لا تتوافر أيّ مساعدة بديلة وحتّى إرسال المرضى أصحاب الحالات المتقدمة إلى مشفى المدينة المتطوّر ذي المعدّات الحديثة لم يكن أمرًا واردًا.

قالت فجأة:

- أعتقد أن عليَّ تعلّم طبّ العالم الخارجيّ في وقت ما، أليس كذلك؟ ربما لا أكون مفيدة بعد الآن إن لم أفعل.

كانت في صوتها مرارة وحسرة، أضافت على الفور:

- أنت «بندار»! لم يسبق لي أن التقيت «بندار» من العالم الخارجيّ.. هل تمانع إن قمتُ ببعض الفحوصات؟

لم يُجب وإن تسارع وجيب قلبه في قلق.. هل يكون بوسعها اكتشاف كلبه من خلال الفحص؟ وهل يملك الامتناع ورفض طلبها؟ سيثير مزيدًا من الشّكوك لديها حينئذٍ وربّما تكون فرصة مواتية للمراقبة. توقّف تفكيره

عند تلك النّقطة: يراقب مَن؟ لقد استيقظ هذا الصّباح وهو ينوي التقرّب من المعالجة مارتا فكيف عاد إلى مراقبة روان؟ تنهّد، كلتاهما معالجة وأيّ فرصة متاحة عليه أن يستغلّها.

تأخّرت إجابته فيما كانت روان ترقبه عن كثب، حين استدار التقت عيناه بعينيها الثّاقبتين فسحب نظراته مرتبكًا، كانت من النّوع الذي يهابه الرجال رغم الضّعف العابر الذي ظهر في صوتها منذ حين بدت صارمة وواثقة وممسكة بزمام الأمور رغم كلّ شيء. كانت تعرف ماذا تفعل حتّى وهي خائفة من المجهول ومتوجّسة من المستقبل ومقتنعة بأنّ قدراتها مهما كانت خارقة فإنها محدودة في نهاية المطاف، لم تكن أمامه فرصة لتقييمها فطّ إن كانت جميلة أم غير ذلك فأوّل ما يتوقف عليه البصر فيها هو عيناها ولا يستطيع أن يتخلّص من سطوتها ليكتشف سواهما؛ نظرتها ثابتة وسابرة لا تردّد فيها تُخبرك عن طبع صاحبتها المباشر والصّريح.

- إذًا، هل ستأتي؟

أومأ مستسلمًا وتبعها حتّى المشفى، قالت وهي تسبقه بخطوة:

- هل تعلم أنّك محظوظ بحفظك كتاب الله؟

شعر آدم بالحرارة تصعد إلى وجنتيه، الأخبار تنتشر بسرعة في الجزيرة، من المريح أنّها لم تستدر واستمرّت تسير أمامه فلم تعاين علامات حرجه، نعم، كان محظوظًا فقد نشأ في بلد حيث ينتشر الإسلام وتعاليمه وحيث الثقافة الإسلامية غالبة وحيث يعرف الناس أن الصّلاة تقام خمس مرّات في اليوم والليلة، لكنّ تلك الميزة التي تنبع من بيئته ومنشئه لا تجعله أفضل مِن أيٍّ مِن هؤلاء القوم، فهو لا يملك شغفهم وشوقهم لكلمات الله رغم أنه يحفظها وهو مثل عمّار لا يملك الشجاعة ليعلن أمام أيّ منهم أنّ المسلمين يصلّون خمس صلوات في اليوم واللّيلة. ربّما، في وقت لاحق،

قبل أن يقفل راجعًا إلى الدّيار قد يلقي حجرًا في البحيرة السّاكنة ليعكّر صفوها، ثمّ يترك لهم حلّ أحجية مواعيد الصّلاة دون شمس أو ظلال.

التفتت روان فجأة لتقول بنبرة حسرة:

- ليتك تبقى لوقت كافٍ لنأخذ عنك علمك بالكتاب المقدس!

حبس آدم أنفاسه وهو ينظر مباشرة إلى عينيها حيث يلمح رجاء خفيًّا، قال مقترحًا:

- يمكنني أن أدوّن ما أحفظه إذا أمددتني بالورق والمداد!

اتّسعت ابتسامتها وهي تومئ موافقة فيما تسارعت نبضات آدم في اضطراب وقد تناسى لبعض الوقت حديثهما السّابق غير أنّ وصولهما إلى المبنى أعاد إليه إحساسه بالخطر.

دلفا إلى غرفة الفحص وطلبت منه أن يستلقي على ظهره فوق السّرير الشّاغر، سألت فيما تضع كفّها على صدره تتحسّسه:

- متى شعرت بقدرتك على التّسخير لأوّل مرّة؟

تساءل إن كان الفحص مجرّد خدعة! لعلّها تعرضه على جهاز كشف الكذب الخاصّ بها: نبضاته المستعرة ستكشفه، حاول أن يكون هادئًا وهو يسألها بدوره:

- هل تصدّقين أنّني «بندار»؟

كان مستعدًّا للجدال إن هي قرّرت التّشكيك في ادّعائه: هناك أنواع مختلفة من التّسخير، المُسخِّرون في العالم الخارجيّ يختلفون عنهم على الجزيرة، بوسعه اختلاق قصص وسرد حكايات، إذا كان غيره يُسخِّر الطّاقة أو أيّ شيء آخر فإنّه يُسخِّر المعادن! الطّائرة الرّابضة على الشّاطئ مثال حيّ على ما يمكن لمُسخِّر المعادن فعله لكنّها لا تعمل على هذه الأرض

بسبب الـ«مادرا» والضّباب الذي تفرزه، لقد أوصلته الطّائرة إلى هنا.. ألم تفعل؟ كان يملك عددًا من المحجج ويمكنه تجهيز بعض الحيل الصّغيرة.

فاجأته حين أجابت دون تردّد:

- السّيدة مارتا لديها حدس بشأنك وأنا أصدّقها، إنّها ليست عجوزًا مخرّفة إن كنت تتساءل.

تابع حركتها بعينين زائغتين فأضافت ببساطة:

- لقد شعرتُ بأنّك واحد منّا، لقد كنتَ بخير حين عثرنا عليك في الغابة.

سأل وهو يطلق ضحكة متشنّجة:

- وكيف كان يفترض بي أن أكون؟

- النّظام البيئيّ في الجزيرة عدائيّ، يهاجم جهاز المناعة لدى الغرباء منذ لحظة وصولهم، هواؤنا وماؤنا وكلّ مكوّنات المحيط مشبعة بإفرازات الـ«مادرا» السّامة، لا أحد يستطيع تحمّلها إلّا إذا كان نظامه الجينيّ مستعدًّا ومُكيّفًا وراثيًا.. يبدأ الأمر بالتّقيّؤ والحمّى وظهور الطّفح الجلديّ الحارق ثمّ تنهار وظائف الجسم تباعًا حتّى الموت خلال ساعات قليلة!

كانت تشرح بهدوء إلّا أنّ صوتها كان يبثّ رجفة في جسده لا يقدر على السّيطرة عليها!

- لقد طوّر أسلافنا حبّات الدّواء التي تُصنَع من دمائنا -الـ«بندار» والـ«ماغداخا»- وهي قادرة على دفع الأعراض، لكنّك لا تتناول حبّات الدّواء.. أليس كذلك؟

ازدرد لعابه في عصبيّة فيما أضافت وهي تأخذ كفّه وتقرّب قطعة صدف مسنّنة:

- اسمح لي بأخذ عيّنة من دمك، سوف نعرف قريبًا إذا كنت «بندار» حقًّا.

أغمض عينيه حين قطع الطّرف الحادّ سبّابته وأخذت القطرات القانية تتساقط في الوعاء الحجريّ الأبيض المنحوت بدقّة، في تلك اللّحظة لم يكن يفكّر في انكشاف كذبته السّخيفة الوشيك بقدر ما شغلته كلماتها الصّادمة ثمّ سيطرت فكرة واحدة على وعيه.

لقد كان اسم والدته.. هاجر.

***

حين غادر المشفى كان يترنّح، لم يفقد دمًا كثيرًا لكنّ ذهنه مشوّش وأفكاره مبعثرة، كان هناك مجموعة من الشّباب يقفون خارج المبنى، ميّز أوران الـ«بندار»، كانت هيئته قد غدت عدائيّة أكثر من أيّ وقت مضى، لم يكن عرض المغناطيس قد أكسبه عداوته لكنّ شيئًا آخر قد فعل.. تساءل إن كان الأمر يتعلّق بادّعائه التّسخير بالأمس أم بتجوّله ذلك الصّباح برفقة فتاته روان؟ قالت ريحان إنّه المرشّح الأفضل لشقيقتها، يتوقّع الجميع لهما الارتباط قريبًا، أصحاب الدّماء الشّافية الـ«بندار» والـ«ماغداخا».

فاجأه عدم اكتفائه بالتّحديق هذه المرّة، تقدّم خطوتين ليعترض طريقه، نثبت آدم مكانه.

- أيّها الـ«أيتورا».. أنا أتحدّاك!

رفع آدم حاجبيه في دهشة، طالع الشّاب الأشقر عريض الكتفين فارع الطّول بتوجّس، أي نوع من التّحدّيات هذا؟! ثمّ لم يكن هذا هو الوقت المناسب ليتحدّى أحدًا، كان في رأسه كمّ كافٍ من التّحدّيات الخاصّة به والتي تحتاج إلى أن يفكّ ألغازها، يودّ أن يصل بأقصر طريق ممكن إلى

المدرسة حيث يتوقّع أن يكون والده، كان يحتاج إلى أن يستجوبه مطوّلًا عن كلّ الأسرار التي ما زال يُخفيها عنه وهذا الولد خالي البال لا يجد شيئًا يملأ فراغ وقته غير قطع طريقه!

- شكرًا لعرضك لكّنني غير مهتمّ!

حاول أن يتجاوزه بحركة مناورة لكنّ أوران مدّ ذراعًا صلبة وصارمة:

- لا يمكنك أن ترفض.. أنا أتحدّاك أمام الجميع!

رفع صوته بالصّراخ ما استدعى انتباه كلّ المارّة في السّاحة ومن على تخومها. استدارت الرّؤوس وتحلّق النّاس حولهما بسرعة، علِم آدم أنّه واقع في مأزق لا محالة، تذكّر كلمات والده: لقد قتل واحدًا منهم! تحدّاه أمام الجميع لكنّه فاز عليه، قتله! لم يكن قد استوضح أكثر في ذلك الوقت.. هل هو تحدّ حتّى الموت؟ إن كان الأمر كذلك فلا شكّ لديه أنّ الوضع سينعكس هذه المرّة، أيقن في جزع أنّه سيفقد حياته لا محالة إن واجه المُسخِّر!

جذبته ذراع قويّة من الخلف، استدار ليجد «كوتانا» عمّار إزاءه، قال بنبرة جادّة:

- بنيّ.. هل نعامل ضيوفنا بهذه الأخلاق؟ لقد أفزعت الرَّجل!

ثمّ أشار إلى آدم:

- اذهب لشأنك.

تباعد النّاس مفسحين أمامه الطّريق فخطا سريعًا دون أن يلتفت، لم يلمح سحنة أوران التي اشتعلت غضبًا وغيظًا ولم يكن أمره يعنيه في تلك الآونة.

سار باتّجاه المدرسة وهو يضغط على قبضته بشدّة، لقد غدا مرئيًا، مرئيًا جدًّا، إنّه يجلب الانتباه إليه أكثر في كلّ لحظة تمضي! يتوقّع تقريع والده الحتميّ لكنّ العجلة تتدحرج في اتّجاهها وهو لا يستطيع إيقاف دوران الأحداث وتعاقبها بعد الآن، إنّ أكثر ما يحتاج إليه حالًا هو الإجابات.

حين خطا داخل السّاحة التي تفتح نحوها قاعات الدّرس ميّز صوت والده الجهوريّ قادمًا من غرفة إلى يمينه، اقترب من الباب نصف المفتوح وأنصت، كان يلقي محاضرة تاريخيّة على أسماع طلّابه النّجباء كأنّه يقف أمام مدّرجات الجامعة في الدّيار وكان الطّلبة الشّبان يصغون في انتباه ويدوّنون كلّ كلمة تقال.

«السكّان الأصليّون في كلّ أنحاء العالم يفقدون سيطرتهم على أراضيهم مع مدّ الاحتلال الأبيض. لا أقصد الإهانة لكنّ لفظ (الأبيض) له معنى مختلف في العالم الخارجيّ إذ يسكن البيض شمال الكرة الأرضيّة بعد أن أخلوا الأرض من أصحابها، ويُحاصر أصحاب البشرة الملوّنة جنوبها ويسعى البيض باستمرار لسرقة ثروات الجنوب...»

كان «البياض» في الماضي يعني شيئًا مختلفًا بالنّسبة إلى آدم، لقد كانت والدته «مختلفة»، كانت بشرتها شاحبة وبيضاء جدًّا لكنّه لم يقارب بينها وبين سكّان الجزيرة ولو لوهلة واحدة قبل اليوم! لقد عرف طيلة حياته أنّها مصابة بتحوّر جيني يجعلها من «أعداء الشّمس»، كان ذلك اللّفظ يُطلق على المصابين بالمهق أو «الألبينو» وهو نقص الميلامين؛ المادّة التي تمنح الجلد والشّعر والعيون لونها الطّبيعيّ، لم تكن تستطيع التعرّض مباشرة لأشعّة الشّمس، وترتدي بدلة واقية كلّما غامرت بالخروج في النّهار حمايةً من الحروق والالتهابات.

لقد تعرّض للسّخرية طفلًا حين كانت تصحبه إلى المدرسة أو حديقة الألعاب، كان الأولاد يؤذونه بتعليقات سمجة وجارحة، بعضهم وصفه بالطّفل المتبنّى لأنّه لا يشبه والدته، لكنّه بقي صامتًا ثابتًا وتعامل مع مرض والدته بنضج ووعي. كان يتحمّل الكلمات القاسية ويخفيها عنها حتّى لا تكون علّتها سببًا في أذى أكبر.

ثمّ حين تدهورت حالتها في السّنوات الأخيرة عرف أنّها أصيبت بسرطان الجلد، أو بالأحرى كان ذلك ما قيل له! لقد تبيّن له بعد كلّ هذه السّنوات أنّه لا يعرف شيئًا عن والدته!

لطالما اعتقد أنّه لا عائلة لها لأنّها لاجئة من بلد لم يعد له وجود بعد أن وقع احتلاله! هكذا.. طُمس من وجه الخريطة! وهي أشياء تحدث، حسب ما يلقّن في التّاريخ والجغرافيا وإن كانت خريطة العالم الحديث ثابتة منا عقود.. كانت تلك القصّة التي تُروى على مسامعه طفلًا، لم يسأل في ذلا الوقت عن موقع البلد القديم أو اسمه السّابق أو المعاصر، كان حديثًا ب عواطف والدته وشجنها فتبكي في كلّ مرّة، لذلك كان يتجنّب السّؤا لقد تعلّم في تلك السّنّ الصّغيرة أنّ والدته في حاجة إلى حمايته، فهي مر وبلا أهل أو وطن فقرّر أن يكون لها كلّ شيء تحتاج إليه، ثمّ كبر ولم الأمر مهمًّا لقد كان ثلاثتهم عائلة وهذا كلّ ما يهمّ.

فكّر، لو أنّها أشارت يومًا إلى مساحة ما من المحيط الهنديّ وقالت وطني! هل كان ليترك كلّ شيء وراءه ويهبّ ساعيًا للعثور عليه؟ فعل، امتلأت عينا آدم بالدّمع وهو يراقب البروفيسور أشرف عبر الموارب وهو يواصل المحاضرة.

«... تثبت الأدلة أن السّكان الأصليين يفهمون بيئتهم ويديرون من أيّ شخص آخر، فنسبة ثمانين بالمئة من التنوّع البيولوجي على تختصّ به الأراضي القبلية.. وعندما يتمتع السّكان الأصليون بحق

على أراضيهم فإنّهم يحققون نتائج في مجال الحفاظ على البيئة على الأقل مساوية أو أفضل مقارنة ببرامج حماية البيئة التقليدية في العالم الذي يُعتبر متحضّرًا مقابل جزء بسيط من تكلفة هذه البرامج...»

ثمّ حانت من الكهل التفاتة فلمح ولده على تلك الهيئة الغريبة، عبر إطار الباب وطالعه بنظرات قلقة، نظر آدم في عينيه وقال بصوت مرتجف:

- أريد أن تخبرني كلّ شيء! كلّ شيء! لا مزيد من الأسرار! من أمّي؟ وكيف التقيتَ بها؟ وما علاقتها بهذه الجزيرة؟

نظر أشرف فاه في دهشة ثمّ همس في حذر:

- إلى من تحدّثت؟ ماذا قالوا لك؟

ابتسم آدم ساخرًا وقال:

- أظنّني لقيت جدّتي!

عبس أشرف وظهر على ملامحه الضّيق:

- هل تعلم أنّني هنا؟ هل أخبرتها شيئًا عنّا؟ ما الذي تحدّثتما فيه؟

سرت رعدة باردة عبر جسد آدم، إذًا.. لقد كان محقًّا! لقد كانت جدّته!

لم يحاول البروفيسور أشرف الجدال أو النّفي أو حتّى المراوغة، لقد اعترف ضمنيًّا، وهكذا يصبح الشكّ حقيقة ناصعة في ذهنه فجأة.

أمام استمرار صمته المرتبك جذبه أشرف من ذراعه وهو يوشوش مجدّدًا:

- المكان ليس آمنًا، سنتحدّث في الكوخ.

عبرا المسافة التي تفصلهما عن الكوخ بخطى واسعة سريعة، كان مشهد الغريبين يهرولان في طرقات الجزيرة مثيرًا للعجب لكنّه لم يكن أكثر إدهاشًا من إعلان التحدّي الذي سبقه بدقائق، بوسع المراقب أن يربط بين المشهدين بسلاسة!

حين انغلق عليهما الباب وقف أشرف أمام ابنه واضعًا كفّيه عند وسطه وقال بلهجة آمرة:

- ستخبرني بكلّ شيء حدث معك اليوم!

لم يتردّد آدم في قصّ تفاصيل زيارته للمعالجة مارتا وما تلاها من حديث مع المعالجة روان فهو يستعجل الوصول إلى الحقائق المخفيّة، سأله أشرف في دهشة:

- لم تكن تتناول الدّواء؟ لماذا؟

- لم أعتقد أنّني أحتاج إليه!

أزاح آدم الحشيّة ليكشف عن حبّات الدّواء التي تراكمت يومًا بعد يوم، قال أشرف ببطء:

- لم أعرف أنّك لن تكون بحاجة إليها، لقد وُلدتَ خارج الجزيرة وكبرتَ في محيط طبيعيّ في العالم الخارجيّ، لقد كنت طفلًا طبيعيًّا كان عليك أن تأخذ الدّواء على كلّ حال.. حتّى لو تبيّن عدم حاجتك إليه! لم يكن يفترض بك أن تجذب الانتباه، لم يكن يفترض بأحد أن يتعرّف عليك!

لقد وضع البروفيسور أشرف خطّة واضحة، لكنّها لم تشمل الخطر الأكثر تأثيرًا: ابنه! وهو يستمرّ في بث البلبلة من حوله عبر كلّ خطوة.

قال آدم بجمود:

- والآن.. أريد أن أعرف كلّ شيء!

***

حين وصلت «الأميرة» إلى ضفاف الشّاطئ الفضيّ استولت الدّهشة على الشّابين المسافرين على متنها. لقد أحبّا جزر المالديف ذات الرّمال البيضاء الخلابة وكانا يستعدّان لخوض مزيد من المغامرات عبر شواطئ جديدة ومغايرة إلا أنّ المشهد فاق كلّ توقعاتهما!

تأرجح اليخت وقد أنزل الربّان الأشرعة حتّى توقّف أخيرًا على مقربة من الميناء. كانت هناك قوارب خشبيّة راسية وبحّارة يتسامرون على سطحها. لقد كانا محظوظين للغاية إذ إنّهما وجدا السّكان مباشرة وعُرضا على مجلس الحكماء على الفور.

أحبّ عمّار المكان، كان يبحث عن تسلية تُنسيه مصيبته وقد وجد ضالّته في تلك الجزيرة المغمورة وسط الضباب، أمّا أشرف فقد كان يستفسر عن موقعهم في المحيط وعن أقرب أرض متحضّرة، كان يستعجل الإبحار مجدّدًا لكنّه لم يحصل على إجابات شافية. كان الموقع مجهولًا، فلا اسم معروف للجزيرة ولا حدود ترابيّة أو بحريّة لها ولا علاقات ديبلوماسيّة أو تجاريّة مع البلاد القريبة أو البعيدة، كان العالم بالنسبة إليهم ينقسم إلى البابسة؛ «آرا»، وما وراء البحار؛ «مهافيا دياما».

أصابه الإحباط بعد أيّام من الاستطلاع ومحاولة تشغيل محرّك اليخت الخامد. كان يمضي يومه في الميناء يستجوب الصيّادين -أكثر النّاس تنقّلًا وإلمامًا بأحوال المحيط- ويعالج أجهزة الإرسال وتحديد المواقع على السّفينة وينظّف المحرّك وقنوات التّهوية. .

في هذه الأثناء وجد عمّار لنفسه وظيفة في التحطيب، كان ينطلق صباحًا إلى الغابة مع الحطّابين، يهوي بفأس حجريّة -شحذها المُسخّرون بهمّتهم الفريدة- على الجذوع الفارعة التي تختفي قممها وسط السّحاب ويناثل القامات الفارعة وهي تنهار على الأرض في اندهاش متكرّر، لقد أحبّ أن يكون منشغلًا ومنغمسًا في أعمال يدويّة وبدائيّة وكانت تلك المحطّة أفضل ما حدث له في رحلة العودة إلى الطّبيعة التي حلم بها، لم يكن يرجع إلى الطّبيعة الخام وحسب بل إلى عصور قديمة حيث الحياة الرّتيبة والخاملة.

بعد أسبوع أفضى بقراره إلى صاحبه:

- سوف أبقى هنا، لا شيء ينتظرني في الدّيار!

واعتقد أشرف أنّ صديقه يتّخذ قرارًا متهوّرًا بسبب صدمته الفريدة فلم يجادله لكنّه قرّر أن يمنحه بعض الوقت فربّما يُغيّر رأيه، قال بهدوء:

- وماذا عنّي؟ أريد العودة إلى الدّيار لكنّني لا أجيد الإبحار! عليك أن تعلّمني وسآخذ اليخت.

فكّر عمّار قليلًا ثمّ وافق وخلال الشّهر التالي أخذ يدرّب صاحبه على الإبحار على متن «الأميرة» غير أنّه لم يتزحزح عن رأيه في نهاية الفترة، كان ما زال على يقينه بأنّه يريد تلك الحياة.

قبل أيّام من رحيله انتبه أشرف إلى الفتاة الشّابة التي كانت تجلس على الشّاطئ لأوقات طويلة تراقب القوارب في سكون وعبوس، كان شابًا عابثًا لكنّه لم يقترب من بنات القرية على الإطلاق، كان يدرك أنّ المجتمع محافظ وتقليديّ وهو لم يرغب في التورّط مع الأهالي بأيّ شكل، لذا تجاهل وجودها واستمرّ في استعداداته للإبحار.

خلال ليلته الأخيرة كانت القرية تحتفل بزفافٍ ما وأمام إلحاح عمّار استجاب أشرف للدّعوة وانضمّ إلى الوليمة والسّهرة ونال نصيبًا وفيرًا من

العشاء الدّسم تحسّبًا لأيّام الحرمان من الطّعام السّاخن في عرض البحر وفي اللّحظة التي كان يفترض فيها بالعروس أن تخرج إلى الحضور في ثوبها المميّز وسط وصيفاتها ساد الفزع وعمّت الفوضى.. كانت العروس قد اختفت!

انطلق أهل الجزيرة في كلّ الاتّجاهات يفتّشون عن الفتاة المفقودة، وفي خضمّ الأحداث عرف من بعض المتربّصين أنّها كانت مجبرة على زوج لم ترتضه، بحكم المجلس. في ذلك الوقت كان الحكماء يتّخذون قرارات الزّواج مثل المجتمعات القديمة التي لا رأي للبنت فيها ولعلّ الفتاة رأت غير ذلك فعبّرت عن تمرّدها إلّا أنّ رقعة الجزيرة المحدودة وغياب أيّ سبل للفرار مع استنفار الحشود جعلت مهمّة البحث يسيرة.

خلال وقت قصير عُثِر على الشابّة.. داخل يخت «الأميرة»!

كانت تراقب الميناء منذ أيّام، ربّما على سبيل الفضول أو التأمّل أو تنفيسًا عن حرقة قلبها، ولعلّها عرفت أنّ أشرف سوف يُبحر صباح غد، هل اعتقدت أنّه سيأخذها بعيدًا عن أهلها الظّالمين وينقذها من زوج لا تحبّه؟ هل تصوّرت أنّ السكّان سيعجزون عن إيجادها؟ أم أنّ مركب الغرباء سيكون في مأمن من التّفتيش؟

ولعلّها لم تعتقد في أيّ من ذلك لكنّ اليأس حملها على اتّخاذ خطوة ساذجة وبلا جدوى! جيء بها باكية فجثت على ركبتيها أمام الحكماء وتناثر شعرها الأشقر على بشرتها البيضاء.. تجمهر النّاس بسحنات غاضبة وعيون مشتعلة لإدانتها. لا أحد تجرّأ من قبل على عصيانٍ علنيّ، كان تحدّيًا سافرًا لكلّ التقاليد وكسرًا لاحترام المجلس وإهانة للعريس وأهله وتمريغًا لسمعة أهل العروس في التّراب!

وسط المشهد المهيب تقدّم العريس جريح الكرامة وأشار إلى أشرف بين الحشود وقال:

- أيّها الـ«أيتورا»، أنا أتحدّاك!

تراجع أشرف في دهشة.. لماذا يفترض به أن يتحدّاه؟ لأنّ الفتاة اختارته في مركبه فيما كان هو يشارك في الاحتفال؟! كيف يكون ذلك ذنبه؟!

بسرعة تطوّرت الأحداث في نسق تصاعديّ فقد تقدّم شهود عيان أعلنوا أنّ العروس كانت تتردّد على الميناء وتقضي ساعات هناك تُبادل الغريب النّظرات! أسقط في يد أشرف وقد حوصر من كلّ جانب في حين لم تنطق البنت كلمة واحدة واستمرّت شهقاتها تتعالى في نحيب متصل تطلب نجدةً لن تأتي.

وأمام الضغط العام استسلم أشرف لمصيره المحتوم. في ساحة القرية وتحت عيون الجموع المليئة بالاتّهام كان عليه أن يصارع الشابّ الغاضب كان العريس في نظر الجمهور بطلًا ينتقم لعرضه في حين كان أشرف غريبًا قد انتهك آداب الضّيافة!

لكنّ من حسن حظّه لم يكن خصمه مُسخَّرًا، لم يمتلك هبات خارقة يستحقّ أن يخشاه من أجلها، لكنّه رجل مفتول العضلات ذو بناء جسديّ متين مثل معظم أهل البلاد الذين يمارسون نشاطًا بدنيًّا كثيفًا، لم يكن عليه أن يستهين به.

تقابلا بأيدٍ عارية وتصارعا، تدافعا إلى الأمام وإلى الخلف، تلقّى أشرف ضربات شديدة كادت تكسر ضلوعه، كان يخسر، ولم يعتقد أنّ الشابّ ينوي التوقّف في أيّ وقت قبل القضاء عليه، كان في عينيه هوس الانتقام وغسيل العار. وفي مرحلة ما قذف أحد الحضور حجرًا كبيرًا تدحرج حتّى استقرّ بين أقدامهما فرأى النّظرة التي التمعت في عيني غريمه، أحنى

كلاهما في اللّحظة ذاتها لالتقاط الحجر لكنّ أشرف كان أسرع بجزء يسير من الثانية، انقضّ في استماتة وشجّ رأس خصمه بالحجر دون تردّد.

انهمرت العَبَرات على وجهه في يأس حين انهار الرّجل على الأرض.. لقد كان يدافع عن نفسه، كان في موقف ضعف وكاد يفقد حياته على أرض المعركة دون ذنب اقترفه، لو تأخّر لحظة واحدة فقد يكون هو الصريع الآن لكنّه انتهى قاتلًا! لم ينهض الرّجل قطّ، أسلم روحه فورًا وتحوّل العُرس لجنازة واستولى على الأهالي صمت ألم وغضب.

همس له عمّار وهو يسحبه جانبًا فيما انشغل النّاس بفقيدهم:

- خذ الفتاة وارحل.. الآن، سوف يقتلونكما!

تسلّل مبتعدًا وسط الهرج، على الشّاطئ كانت الفتاة تنتظره مع والدتها؛ المعالجة مارتا، نظرت في عينيه وقالت برجاء:

- أعرف أنه لا ذنب لك في ما حدث، لقد تحمّلتَ عبئًا لا يعنيك لكنّني أطمع في مزيد من كرمك.. خذها معك، فلا مكان لها هنا بعد الآن، سيكون مصيرها النّفي لا محالة لتموت في عرض البحر!

نقل بصره بين الأمّ الصّامدة رغم المصاب الذي ألمّ بعائلتها، والفتاة المنهارة على الأرض، ثمّ أومأ إليها حتّى تصعد على متن اليخت.

وفي تلك السّاعة المتأخّرة من الليل انطلقت «الأميرة» في رحلة مظلمة وكئيبة.

***

استمرّ أشرف يقول في تأثر:

- كرهتها في تلك اللّيلة، لقد تحوّلت حياتي بسببها، اضطررتُ الى قتل رجل، فقدتُ احترامي لنفسي وطمأنينتي لكنّني لم أملك أن أطردها، كان يفترض بنا أن نترافق لبعض الوقت حتّى نصل الى اوّل أرض يابسة فأسلمها لمصيرها وأمضي في سبيلي..

أنصت آدم في انتباه، سأله:

- ما الذي جعلك تغيّر رأيك؟

تنهّد أشرف ثمّ استطرد:

- لقد عشنا تجربة مضنية على متن اليخت، استمرّ إبحارنا أيّامًا طو بلا وجهة، كنّا قد فقدنا الاتّجاه والرّياح تأخذنا يمنة ويسرة، لم أ أجيد التحكّم بعد في المركب ولا قراءة الخرائط فضللنا طر وكان الزّاد ضئيلًا، تقاسمناه بكميّات قليلة، ثمّ مرضتُ وأص الحمّى وبقيتُ طريح الفراش أيّامًا فاعتنت بي بتفانٍ. في تلك ا لم أعد أنظر إليها بالقسوة نفسها وبدأت أتفهّم دوافعها رغم إليه الأمور. لقد كانت فتاة في العشرين ضحيّة مجتمع متز يرحم وقد أُرسلت إلى العالم الخارجيّ الآن لتموت! و قتلتُ شخصًا وأمامي خيار قتل الثاني.. أو إنقاذه.

تحرّك أشرف عبر الغرفة وهو يقاوم إحساس الضيق الذ الذّكريات القديمة فتابعه آدم بنظرات قلقة ثم تساءل إن كان قد في الحديث لكنّ القصّة لم تنته بعد.

قال أشرف أخيرًا بتعجل:

لم نكن نحمل أوراق هويّة لذا لم نستطع دخول أيّ بلد رسميًّا، حين وصلنا إلى الشّواطئ الإفريقيّة ادّعينا أنّنا زوجان يبحران منذ شهرين انطلاقًا من البحر الأحمر لكنّ عاصفة هاجمتنا فقدنا خلالها جواز سفرها ضمن أشياء أخرى، تعرّضنا للتحقيق والحبس على ذمّة حرس الحدود ثمّ تمكنّا من الحصول على التموين لنواصل إبحارنا حتّى الدّيار، وهناك تقدّمت بطلب اللّجوء الإنسانيّ.

سأل آدم في فضول:

- إذًا تزوّجتها لتحصل على هويّة؟ هل هذه هي الحكاية؟

ابتسم أشرف في حرج وهو يقول:

- لقد تصادقنا في أثناء رحلة العبور الطّويلة فوجدتها بريئة ونقيّة، مختلفة عن كلّ النّساء اللاتي عرفتهنّ في الماضي، وكنتُ في تلك الآونة مستعدًا للالتزام والارتباط.. ربّما كان التّوقيت مناسبًا وحسب!

بادله آدم الابتسامة الهادئة، ما زال والده يشعر بالحرج من الاعتراف لقد وقع في حبّ الفتاة التي قلبت حياته رأسًا على عقب منذ لقائهما إلى ، فبسببها، أصبح مولعًا بالجزر حتّى تخصّص فيها، وها هو بعد كلّ لسّنوات يأتي ليحصل على الحجر الذي من شأنه أن يشفيها، تذكّر

إذا، الحجر...؟

نعم، جدّتك مارتا، الـ«ماغداخا»، حصلت لابنتها على الحجر لحمايتها في مغامرتها عبر العالم الخارجيّ، وقد فعل طيلة عشرين سنة، ثمّ بدأت تلحظ خبوّ لمعانه وتناقص فاعليّته، لم يعد يملك ناصيّة الحماية الآنفة ممّا جعلها تصبح طريحة الفراش...

(9)

اليوم التّاسع

منزل الشّاطئ كان لا شكّ ملاذها، لقد أرادت هاجر أن تظلّ قريبة من قومها -على طريقتها- فتحدّق في الأفق الذي يحدّقون تجاهه كلّ صباح، ولعلّها ترسل إليهم التحايا الصّامتة كلّما وقعت عيناها على البحر إلا أنّ حادثة غرقه كانت إيذانًا بالرّحيل إلى المدينة وقطع آخر الخيوط التي تربطها بحياتها القديمة.

آلمه أن يدرك متأخّرًا أنّه حرمها مصدرَ طمأنينتها وأنّه سبب الحزن الذي سكن مقلتيها سنوات طويلة، لقد كان تشبّثها بالإيمان وسيلتها الوحيدة لتحافظ على ثبات جَنانِها في غربتها المضاعفة!

لذلك أقبل آدم على مهمّة التّدوين بتفانٍ، أحضرت الصّغيرة ريحان في المساء أوراقًا مصنوعة من عجين الورق المجفف ودواة حبر سائل داكن اللّون، بناءً على طلب شقيقتها، وسينكبّ آدم منذ ذلك اليوم في سهراته بدلًا من حفظه مستحضرًا قصص الأوّلين حين كان صحابة رسول الله صلّى الله عليه وسلم يجمعون الصّحائف حتى لا تُنسَى كلمات الله أو تُحرّف فيملؤه الفخر لكونه جزءًا من هذا المشروع العظيم الذي بدأه الخليفة عثمان بن عفان منذ 1400 عام.

حين طلع النّهار انتظر آدم ظهور روان أمام مبنى المشفى، كان الوقت مبكّرًا لكنّه كان متلهّفًا حين رآها تعبر البوّابة، تبعها إلى الدّاخل، استدارت مع جموع الفتيات اللاتي يرافقنها فقال موضّحًا:

- أشعر بمغص.. هل يمكنك فحصي؟

أومأت روان أمام نظرته الرّاجية وأشارت إليه كي يسبقها إلى غرفة داخليّة، بادرها آدم في قلق حال ظهورها:

- هل أخبرتِ أحدًا؟

- عن...؟

- عنّي؟

تريّثت قبل أن تردّ ثمّ قالت وهي تتشاغل عنه:

- هل يفترض بي أن أفعل؟

أصرّ:

- هل فعلتِ؟

- سأفعل إذا وجدتُ ذلك مفيدًا.

تنهّد في ارتياح.

- إذًا لم تفعلي! هل يمكنك الاحتفاظ بالأمر لبعض الوقت؟

- هل تفكّر بتوقيتٍ معيّن؟

بدا مشتّتًا وهو يقول:

- أحتاج إلى بعض الوقت حتّى أتعوّد الأمر، لقد كنت مجرّد غر
زائر بالأمس.. أنت تفهمين؟

أومأت ببطء، قالت بنبرة لطفٍ مفاجئة:

- لن أفعل، إلا إذا رغبتَ في ذلك.

@ART_OF_BOOK

شكرها بابتسامة صغيرة، لم يُشر إلى عيّنة الدّم التي أخذتها منه وعمّ فعلته بها. كان يعرف ألّا خير سيأتي من استفساره، وعلى أيّ حال إن كانت قد توصّلت إلى شيء فالأغلب أنّها كانت لتواجهه.

سألته روان في فضول:

- إذًا، هل عرفت مَن هاجر؟

زفر بعمق ثمّ اعترف:

- إنّها والدتي!

قالت في تعاطف:

- آه! لم أعرف هاجر، لكنني أعرف قصّتها.

- بالتّأكيد لم تكوني قد ولدتِ بعد حين رحلت عن الجزيرة!

- لقد شعرتُ بالحزن من أجلها لكن تغيّرت الأمور لحسن الحظ ولم يعد المجلس يُجبر الفتيات على الزّواج..

- والدك أدى عملًا جيدًا لتغيير النّظام.

أومأت بلطف ثم قالت:

- إنه يريد أن يكون عالمنا أفضل.

سكتا برهة قبل أن تسأل روان:

- إذًا لقد ذهبتْ إلى العالم الخارجيّ بالفعل؟ وهل..؟

- ما زالتْ على قيد الحياة؟ نعم، بعد خمسة وعشرين عامًا.. ما زالت تعيش وإن كانت بحال مزرية!

- يا إلهي!

شهقت روان، لا شكّ لديه أنّ الجواب كان غير متوقّع بالنّسبة إليها وعند أهل الجزيرة قاطبة، إنّهم يعتبرون مَن يغادر مِن شعبهم مفقودًا إلى الأبد.. لعلّ الإدراك يكون صادمًا لديهم أكثر ممّا كان لديه، قال في شرود:

- لقد عانت طيلة حياتها، من الصّعب أن تكون مختلفًا في العالم الخارجي.

نظر إليها وهو يضيف:

- أنت أيضًا مختلفة هنا..

أراد أن يضيف: «أنت تعرفين بالتّأكيد كيف يبدو الأمر»، قالت بهدوء:

- أنت على حق، أحيانًا ترغب في الاختفاء داخل المجموعة، أن تكون مثل كلّ شخصٍ آخر لكن حين تكون مرئيًا بوضوح فيجب أن تكون مميّزًا حتى تصبح رؤيتك مرتبطة بشخصك لا بشكلك فقط!

فكّر برهة قبل أن يسألها مجدّدًا:

- هل أردتِ أن تكوني معالجة؟

قالت في تأكيد:

- كان يجب أن أكون معالجة!

كان في صوتها قوّة وتصميم، أيّدت كلماتُها انطباعه المسبق عنها، إنها من النّوع الذي يحقّق ما يريده ويسعى إليه بكلّ السّبل الممكنة، كانت تكرر في ذهول:

- لكنها كانت قادرة على العيش في «مهافيا دياما»!

- أعتقد أنها كانت لتستمتع بالحياة أكثر تحت ظلة المادّة المؤهّجة الحامية. لقد كانت تبكي كل يوم، ظننتُ أنها تفعل بسبب المرض أو تنمّر الآخرين لكنني أعتقد الآن أنها كانت تشتاق إلى أهلها ووطنها.

سكتت متأمّلة في كلماته، فيما تساءل إن كانت فكرة مغادرة الجزيرة تراودها أيضًا، إنّ الأحلام المستحيلة تبدو مناسبة للأشخاص الطّموحين

امتلأها، غير أنها قد تظلّ مجرّد أحلام إلى الأبد! فكّر أنه لم يكن في وضع يسمح له بالتأمّل في تحدّيات الآخرين، كان لديه ما يكفيه في الوقت الحاليّ، ثم وهو ينزل عن السّرير:

- شكرًا لاحتفاظك بالسّرّ.. يمكنني الثّقة بك، أليس كذلك؟

قالت بلهجة قاطعة:

- أنا ألي دائمًا بوعودي.

قاطعته قبل أن يتجاوز عتبة الغرفة:

- في المقابل.. هل يمكنني أن أطلب منك شيئًا؟

استدار بنظرة متسائلة فتابعت:

- هل يمكنني أن أراك غدًا مساءً عند الشّاطئ؟ أحتاج إلى أن أعرف أكثر عن طبيعة الحياة في «مهالفيا دياما» وتخاطرها على شعبنا.

انتبه أنها قالت «شعبنا» فشعر فجأة أنها شملته بعبارتها، هل قالت ذلك بفعل التعوّد أم أنها تعدّه فعلًا واحدًا منهم؟ لعلّه بات يولي اهتمامًا زائدًا للكلمات ويلمس لها معاني جديدة بسبب هويّته المُكتشَفة حديثًا، سألها في شك:

- هل تفكرين في مغادرة الجزيرة؟

قالت روان في غموض:

- ماذا لو اضطررتُ يومًا إلى ذلك؟

نظر إليها طويلًا لكن لم يبد أنها راغبة في مزيدٍ من الشرح، فكر أنها معالجة ربما تودّ أن تكون أكثر إلمامًا بالحياة بصفة عامة، مجرّد فضول علميّ، ألم تُعرب بالأمس عن رغبتها في اكتشاف طبّ العالم الخارجيّ؟ أومأ موافقًا، لقد كان ذلك يخدم مهمّته أيضًا: مراقبة الـ«ماغداخا»، سيكون والده مسرورًا بالتّطوّرات.

فاجأته حين قالت على حين غرّة:

- آدم.. يمكنني أن أثق بك، أليس كذلك؟

تسمّر مكانه في ذعر وتوقّفت الأنفاس عن التردّد في صدره، لم يستطع أن يكون قاطعًا وثابتًا كما كانت حين وعدته.. هل كان جديرًا بثقتها حقًّا؟

يا إلهي، إنّه يفكّر في سرقتها! كلّ ما يفعله هدفه الأوحد أن يخدعها ويأخذ منها الـ«مادرا» الثّمينة! إنّه آخر شخص يستحقّ أن تضع ثقتها فيه!

أجبر نفسه على الابتسام وهو يهزّ رأسه هزّة خفيفة قبل أن ينسحب بسرعة دون أن ينطق.

(10)

اليوم العاشر

تغيّرت الحياة على الجزيرة حين اختلفت وجهة نظره.

لقد اعتبر آدم نفسه في الأيام الماضية سائحًا يستكشف موقعًا أجنبيًّا وينعرّف إلى ثقافة غريبة لكنّه قد غدا منذ يومين هجينًا يعود إلى الدّيار، يفتح عينيه على ثقافة والدته وينهل من مصدرها، لم تكن «الرّحلة إلى الجذور» في الحسبان منذ أسابيع قليلة حين ترك السّاحل على الجانب الآخر من العالم وهي لم تصبح بعد جزءًا من إدراكه الواعي لكنّه ألفى نفسه بين عشيّة وضحاها قد غدا عنصرًا في قصّة عجيبة تُحاك تفاصيلها على جزيرة نائية!

مثل كلّ شيء آخر يفعله أصبحتْ حصّة القرآن الخاصّة به نشاطًا استثنائيًا يجلب المشاهدين، لا يعرف إن كان هؤلاء المتفرّجون يأتون من أجله أم من أجل الاستماع إلى آيات من ذكر الله الحكيم إلّا أنّهم كانوا يجتمعون حوله في باحة المدرسة ويقفون في مواقع نائية بداية ثمّ يقتربون أكثر ويصغون باهتمام لينتهي بهم الأمر جلوسًا كجزء من الحلقة.

وقد أحبّ آدم كلّ ذلك؛ تجربة التعليم والاهتمام الذي يحظى به والأثر الذي يخلّفه عبوره في حياة أهل الجزيرة، ملأه يقين بأنّ والدته التي نشأت وشبّت في بيئة روحانيّة فحرصت على تعليمه ما لم تتعلّمه وهي طفلة ويافعة فقط من أجل هذه اللّحظة، لقد أرادت -بطريقة ما- أن تنقل تلك المعرفة إلى أهلها عن طريقه!

لم يعتقد أنّه قد يملك سعة الصّدر الضرورية للمُحفِّظين، كان يكره أن يكرّر نفسه لذا عدّ نفسه محظوظًا بطلابه النّجباء، إذ وجد أطفال الجزيرة نبهاء وسريعي البديهة، ولعلّ الصبيّ ماهر كان أكثرهم إتقانًا وأسرعهم حفظًا إذ سرعان ما تسترسل الآيات على لسانه فيصحّح لأقرانه ويساعد آدم على أداء مهمّته بعد ذلك.

كان الـ«آم» متعطّشين للتعليم الدّيني، توّاقين لتشرُّب كلماته، وخلال وقت قصير كان قد حظي بلقب جديد إلى جانب الـ«أيتوار» فقد أصبح على لسان الأطفال يسمّى «المُعلِّم».

انتظر ظهورها عند الميناء قبل مغيب الشّمس.

كانت روان أوّل من عرف وصدّق اكتشافه، ربّما لم يكن ليعرف أبدًا لو أنّها لم تنتبه، وبطريقة ما كان الحديث إليها يُشعره بالطمأنينة رغم القلق المستعرّ داخله. كانت في تلك اللّحظة الشّخص الذي يقدّر ما يمرّ به، ربما ليس تمامًا، فهناك بقيّة للقصّة يُبقيها سرًّا عنها، لكنّها تفهمه أكثر من أيّ شخص آخر في الجزيرة على الأقلّ، ربّما أكثر من والده الذي دائمًا ما يجد مصارحته ضربًا من التحدّيات المستعصية، كان الحديث إليها محفوفًا بالمطبّات غير المتوقّعة، وكلّما فكّر بأنّهما قد أخذا يتقاربان انتهى الأ الاصطدام بجدار أصمّ من الثّقة الهشّة.

حين جاءت روان كان يرافقها أشقّاؤها؛ مروان وريحان، ابتسم ا سخرية وهو يطلق في داخله على اجتماعهم اسمًا حركيًا: العصبة السّر للهُجناء! لقد كان أربعتهم مختلفين عن باقي السّكان المحلّيين والغرباء حدّ سواء، كانوا فريدين من نوعهم، متماثلين من ناحية تركيبتهم الج ومتباعدين رغم ذلك باعتبار الخلفيّة الثّقافية والحضاريّة.

بادلته ريحان ابتسامة صديقة، كان مجلس القرآن الخاصّ به وطلابه قد انقضى منذ وقت يسير وها هما يلتقيان مجدّدًا، كان يعيش نوعًا مدهشًا من اكتشاف الذّات أخيرًا، وأيضًا قدرًا من الإحساس بالتّقدير والرّغبة في الإنجاز. انتبه إلى اللّفافة التي كانت روان تقبض عليها، كان قد لمحها بين كفّيها عند زيارته للمعالجة المسنّة، وقد كان يمسك بواحدة شبيهة هي نتاج تدوينه لليالي الماضية، كان ينوي تسليمها ليثبت اهتمامه بطلبها وتقدّمه في المهمّة. قبل أن يهمّ بالجلوس على الرّمال أشارت روان إلى مسار فرعيّ يتلوّى داخل الغابة الكثيفة وقالت:

- من هنا.

أطاع آدم دون نقاش وكذلك فعل شقيقاها، كانت لديها تلك القدرة على التحكّم والقيادة التي تجعل من يستمع إليها يستجيب بلا تردّد. حين وصلوا إلى موقع تغمره الظّلال اتّخذوا مجلسًا على الأرض العشبيّة، قالت تُعرِّف أحدهما إلى الآخر:

- هذا شقيقي مروان.. لا أظنّ أنّكما قد التقيتما؟

كان آدم يسترق نظرات إلى الشّاب منذ وصولهم، لقد انتبه في وقت سابق إلى بشرته الأقرب إلى بياض أهل الجزيرة وازداد يقينًا بأنّه لا يختلف عنهم في شيء على عكس شقيقتيه اللتين تشبهان أباهما. كانت نظرات مروان متوجّسة، لمح في عينيه نبذة من العداء السّافر الذي جاهر به أوران، إنّهما ينتميان إلى الدّائرة المصغّرة نفسها الخاصّة بالمُسخِّرين، لم يدر في تلك اللّحظة إن كان حضوره على سبيل التجسّس لصالح أوران أم بوصفه شقيقًا للمعالجة المهتمّة بالعالم الخارجيّ!

أدارت روان الحديث:

- لقد أردتُ أن نتحدّث بهدوء دون مقاطعة.

أوما آدم، إنها تقصد «بأمان دون مراقبة»، لكنّه سيقبل كلماتها دون تشكيك.

- إنّ الاهتمام بالمهاليا دياماه يعدّ عند أهالينا فضولًا غير معهود، لكنّه ضرورة في نظري، نحن ننتمي لكل «أراه»، لكنّنا جزءٌ من العالم الكبير وقد نضطرّ يومًا لكل التّعامل معه..

بقيت كلماتها معلّقة في الهواء فيما ساد الصّمت للحظات، سأل آدم في حيرة:

- ما الذي تودّين معرفته بالضّبط؟

استدارت فجأة لتفرد الألفافات القماشيّة التي يحوزتها على الأرض، طالعها آدم في اهتمام، كانت صورًا بيانيّة لأجهزة الجسم البشري، بكل دقيقة ومفصّلة تفصيلًا يثير الإعجاب، قال في دهشة:

- لستُ طبيبًا لكّنها تبدو رائعة حقًّا! أنت واثقة أنك لم تمارسي التّشريح؟

خجلت للإطراء وقالت في تواضع:

- لقد حصلتُ على بعض المساعدة.

- طبيب من العالم الخارجي؟

أومأت، ثمّ أخذت تشرح:

- والسيّدة مارتا أيضًا، لقد راكمت سنوات من الخبرة والتعامل مع الغرباء، إنّها تعلّمني كلّ ما تعرفه، ثمّ مارستُ بعض التّشريح..

- على الجثث؟

- ليس على البشر.

قال آدم بلهجة جادّة ومتعالية بعض الشّيء:

- حيوانات إذًا؟ الأطبّاء في العالم الخارجيّ يشرّحون الجثث في المستشفيات، العلم يحاول أن يكون دقيقًا جدًا.

لمح الضّيق على ملامحها فأضاف على الفور:

- لكنّ التّجارب على الحيوانات أمر دارج أيضًا، معظم المختبرات تستخدم الفئران..

- والأرانب!

قالت بثبات، ابتسم، لقد رأى الأرانب في المراعي، هذا يبدو مناسبًا، لا شكّ أنّ زوجة الحكيم لن تمانع أن تلهو ابنتها قليلًا بجثة الأرنب قبل أن تطهوه على الغداء.

- إنّني أتوق إلى ممارسة الجراحة في وقت ما! لم يسبق لي أن شققتُ الجسم البشريّ باستثناء عدد من الولادات القيصريّة.

حدث ذلك منذ سنتين، حين جاء ذلك الطّبيب النّرويجي، أمضى شهرين على الجزيرة، تعلّمت خلالها روان كثيرًا من خبراته النّظريّة والعمليّة، وحين تعرّضت إحدى السّيدات لولادة متعسّرة ساعدها على إجراء العمليّة القيصريّة. كانت تجربة ملهمة وحاسمة في مسيرتها كمعالجة وقد تغيّرت منذ ذلك اليوم نظرتها لطبّ العالم الخارجيّ.

كانت روان متحمّسة، تحدّثت أكثر ممّا فعل وكانت مثيرة للإعجاب وهي تشرح طبيعة عملها وحدود ممارستها وما ترجو إنجازه، في حين التزم الأشقّاء الصّمت طيلة الجلسة، وفيما تتكلّم انتبه آدم إلى حقيقة أنّها لا تحتاج منه إلى أيّ معرفة تجهلها، كانت ملمّة بدرجة عالية بالعلم الذي سخّرت حياتها من أجله، تأمّل ملامح مروان القلقة ووضعيّته المتململة وهو يصل إلى الإدراك، لقد أرادت هذا الاجتماع لهدفين: إنّها مثل والدها لا تجد أحدًا في محيطها تحدّثه بشغفها وتتوق إلى مشاركة اهتمامها مع من

أعلنت بصوت حازم لتنهي التردّد:

- سوف نذهب عند منتصف الليل.

سأل آدم متجاهلًا ما يدور بين الأشقّاء من صراع صامت:

- منتصف الليل؟ كيف نعرف متى ينتصف الليل؟

كانت ملامح مروان تنضح بعدم الرّضا فيما واصلت هي بعدم اكتراث:

- حين تنطفئ الأنوار في الطّرقات نلتقي عند المفترق قرب مدخل الكهف.

لم يكن يشكّ في قدرتها على تعرّف الطّريق في الظلام، يمكنه أن يتدبّر امره أيضًا بقليل من العناء، سيكون غبيًّا لو رفض فرصة مماثلة لكنّ هاجسًا آخر لازمه.

ماذا لو كانت تخدعه؟

***

حين رجع إلى الكوخ وجد والده في انتظاره، كان يقضي سحابة يومه في المدرسة يمارس النّشاط الأحبّ إلى قلبه: توعية أجيال المستقبل، وهو لا يدعو نفسه «أشرف» أمام الآخرين أبدًا، يشيرون إليه بالأستاذ صافي، يستخدم كنيته خلال هذه الزّيارة عكس اسمه الأوّل الذي عُرف به في زيارته السابقة، لعلّه يتجنّب كلّ سبل المقاربة بين الزّائر القديم الشّاب والكهل الملتحي الذي لا تفارقه قبّعته.

جلسا متقابلين يناقشان تفاصيل يومهما، تحدّث آدم عن مجلس القرآن والزّخم الذي يصاحبه ثمّ عن لقائه المعالجة وأشقّاءها وفضولها تجاه العالم الخارجيّ، غير أنّه أغفل الجزء الأخير من اللّقاء، لم يرغب في إخباره بالموعد الذي ضربته له عند منتصف الليل.. هل خشي أن يشتمّ رائحة الفخّ فيحاول إثناءه عن الذّهاب؟

وعشرين عامًا بعد أن سرقت حجرًا من أجل ابنتها، لذلك هي محلّ شك، المجلس لا يثق بها وكل مَن يتردّد عليها يعرّض نفسه للمساءلة، لذلك لن تزورها أبدًا مرّة أخرى، أنت لا تريد أن تجلب الانتباه أكثر!

تقبّل آدم تلميحات والده في سكون، لم يكن بوسعه أن يعترض، إنه مرئيّ جدًا وبقدر لا يصدّق، تمدّد على السّرير طلبًا للنّعاس وقد غمر الظلام الحجرة ثم رفع صوته وقد فاجأه خاطر:

- هذا الحجر، لماذا تعتقد أنه لا يوجد إلا في كهف هذه الجزيرة؟ ألا يمكن العثور عليه في مواقع أخرى من العالم؟

جاءه صوت أشرف عميقًا وساخرًا:

- هل تظنّ أنّني لم أحاول خلال السّنوات الخمس والعشرين الماضية؟ لقد عرضتُ الحجر على بعض علماء الجيولوجيا الذين وثقت فيهم وجمعتني بهم صداقات عميقة في الجامعات التي حاضرتُ فيها، لكنّ أيًا منهم لم يتعرّف ماهيته! إنّه مميّز عن كلّ الحجارة الطّبيعية والكتل البركانيّة والموادّ المعروفة المكوّنة للجدول الدوري للعناصر الكيميائيّة! لقد حاول كلّ عالم عرضته عليه الاستحواذ عليه من أجل إجراء أبحاث مكثّفة، لكنّني كنت أدرك.. ربّما يسجّل أحدهم إنجازًا علميًا باكتشافه العنصر التّاسع عشر بعد المئة.. لكنّه لن ينفعنا في إيجاد مصدر جديد! ثم إنّ اكتشافًا من هذا النوع كان ليجلب انتباه المخابرات ومخابر الأدوية المسيطرة على السوق وقد يعرّضنا لتحقيقات ومساءلات.. كان يجب أن أستمرّ في البحث، ولكن بحذر وروية.

تقلّب آدم في سريره ثمّ أغمض عينيه وفكّر في دعوة روان لزيارة الكهف منتصف الليل، هل تكون أمله الوحيد في الحصول على الـ«مادرا»؟

(11)

اليوم الحادي عشر

لم يعرف النّعاس طريقًا إلى جفنيه!

كان يستمع إلى غطيط والده الذي راح في سبات عميق فيما يرقب بعين نلفة إضاءة الشّارع المتوهّجة ثمّ في لحظة ما غرقت الطّرقات في الظلمة، استفام جالسًا على سريره وتطلّع إلى جسد الكهل الذي يهتزّ بحركة رتيبة مع استرسال تنفّسه المنتظم، تسلّل برفق على أطراف أصابعه ثمّ أفضى إلى الشّارع السّاكن.

مشى بخطى هادئة حتّى اقترب من حدود القرية النّائمة. كان الجميع قد أووا إلى أسرّتهم منذ ساعات، الجميع باستثناء العيون الحارسة وفريق الهجناء المتسلّلين. لمح ظلّين عند المفترق يترقّبان وصوله فتعجّل، لم تكن ملامح مروان قد لانت كأنّما حافظ على مسحة التجهّم ثابتة فيما كانت نظرة جادّة تعلو سحنة روان.

حال وصوله تحرّكا بصمتٍ في اتّجاه التّجويف الحجري الذي يفغر فاه مثل تنّين يستعدّ لينفث اللّهب، استقبلتهم رائحة نحاسيّة حامضة تنبعث من أعماق الكهف البارد والرّطب، تبعهما إلى الداخل بخطوات حذرة. كان المسار المتعرّج يتّجه هبوطًا داخل المغارة الضيقة بانحدار خفيف لمسافة ممتدّة والجدران من الدّاخل مغطاة بطبقة من الصّخور الجيريّة التي تلمع ببريق فضيّ وتنعكس الإضاءة الفاترة في بعض البقع بألوان أخرى.

توقّف مروان فجأة وأشار إلى شقيقته بنظرة متّفق عليها فأومأت متفهّمة، حزّر آدم أنّه سيبقى قرب المدخل للحراسة فيما ينسحب ظلّ المُسخِّر الشابّ ويتمدّد حتّى يتلاشى، استأنف آدم وروان المسير. انتبه آدم إلى أغصان الأشجار المتضافرة والمتلاحمة في خطّ مستقيم مثل مسار مستمرّ يصل باطن الكهف بخارجه، كانت شبيهة بقنوات نقل المياه التي رآها بالخارج، تصل مجرى النّهر ببيوت القرية، لكنّها أقلّ سمكًا وربّما ليست مجوّفة بقدرها. أشار إلى روان مستفهمًا، فشرحت:

- هذه أغصان أشجار الـ«سانترا»، إنّها لها قدرة خاصّة على امتصاص الـ«مادرا» السّائلة ونقلها مثلما تنقل الأوعية الدّموية الدّماء، فتوصّل المسخّرون إلى طريقة تجعلها تغذي حجارة الشّمس الصّلبة فيتواصل توهّجها بنقاء وقوّة لتضيء الشّوارع والبيوت.. إنّ الحجارة تفقد ألقها حين تبتعد عن المصدر، وبقاؤها متّصلة بالمجرى السائل يمنحها توهّجًا أكبر...

تفكّر آدم في دهشة: مثلما تنقل المعادن التيّار الكهربائيّ! لقد تساءل في حيرة بخصوص نظام الإنارة لديهم، ولم يكن يجد تفسيرًا لهذا النّوع المتقدّم من التكنولوجيا في قرية بدائية، لعلّ اكتشاف مادّة «ناقلة» للـ«مادرا» بـ ثورة صناعيّة في حدّ ذاته بالنسبة للسكّان. ربّما كانت المادّة المتوهّجة متأثّ بذاتها، لكنّ اتّصالها بالمصدر يهبها مزيدًا من السّطوع، مثل شموس صغ متناثرة، لا ظلال لها.

تابعت روان وهي تشير إلى رافعات ميكانيكية عند مجرى جانبيّ تنا عبره الـ«مادرا» السّائلة:

- أغصان الـ«سانترا» تفسد وتتلف إذا وصلت إلى درجة عالية التشبّع بالـ«مادرا»، وقد تحترق أيضًا، لذلك نحتاج إلى فصلها توقيت يوميّ

- ما يتعارف عليه هنا بمنتصف الليل- حتّى تجفّ وتتعافى، فتبقى صالحة لوقت أطول...

أوما آدم في اهتمام، أغصان الـ«سانترا» قد تحترق مثل المصابيح الكهربائية التي تبقى مضاءة لوقت طويل! منذ ذلك الوقت سينظر إلى الإضاءة داخل الكوخ نظرة مختلفة، ولعلّه سيعاين باهتمام الرّافعة الصّغيرة في تجويف الجدار، ويتخيّل كيف تصل أغصان الـ«سانترا» بمجرى الـ«مادرا» ثمّ تفصلها عنه بحركة بسيطة، تمامًا كما تتحكّم المفاتيح في توصيل التيار الكهربائيّ وفصله. تأمّل جدران الكهف الدّاخلية، كانت تتوهّج تلقائيا بفضل طبقات الـ«مادرا» التي تكسبوها، فلم يحتج إلى مشعل يضيء طريقه. وفجأة أطلق آدم صرخة فزع مكتومة وهو يتراجع حتّى كاد يلتصق بالجدار، استدارت روان في حدّة لتزجره فأشار بأصابع مرتجفة إلى الأشباح البيضاء التي تراءت عبر تجاويف في جدار الكهف، قالت في خفوت:

- شياطين ممسوخة!

نطقت بها مثل حقيقة بسيطة وساذجة فساعد هدوؤها على طمأنته، لم يكن هناك ما يستدعي الذعر، تمالك آدم نفسه وخطا في حذر باتّجاه التّماثيل الباهتة بعيون واسعة وتحت نظرات روان الزّائغة تجاسر ولمس «الشيطان» الأقرب إليه فترك الجسد الحجريّ أثرًا أبيض على أصابعه وشعر بلسعة خفيفة، همست روان في انزعاج:

- ما الذي تفعله؟

قال برفق:

- إنها تماثيل!

لكنّها أصرّت:

- إنّها «شياطين» حاولت التسلّل إلى الجزيرة فمسخها الـ«نافيا».

حاول أن يطرد رغبة في الضحك وهو يعاود التّدقيق في التّماثيل أمامه، يبدو واضحًا لديه أنّها تماثيل جصّية، ربّما تكون محميّة بطبقة يسيرة من الـ«مادرا» ترسّبت بمرور الزّمن إلا أنّه يعترف بيسر: إنّها صناعة ماهرة ومحترفة، لم تكن في جمال منحوتات «مايكل أنجلو» لكنّها مدهشة من ناحية اقترابها الشّديد من الهيئة البشريّة، كانت الملامح تعكس ألمًا صرفًا كأنّها تسجّل اللّحظات الأخيرة لشياطين بشريّة قبل أن تصيبها صاعقة عادٍ أو ثمود، وعند ذلك الخاطر رمش بحدّة ثمّ تراجع في توتّر، ما مدى إمكانيّة وصول بقايا الأقوام الملعونين في الكتب المقدّسة إلى أرض «آرا»؟

لم يشأ أن يطيل التّفكير في الأمر فنفض كفّيه واستأنف المسير مهرولًا.

قالت روان بصوت أقرب إلى الهمس فيما يسيران:

- الـ«مادرا» في كلّ مكان إنها تتغلغل في الماء والهواء والكائنات الحية، إنها جزء من التركيبة الطبيعيّة للبيئة!

استمرّ سعيهما عبر ممرّات متعرّجة ذات سقفٍ منخفض وروان تقدّم شروحًا مقتضبة بين الحين والحين ومن بعيد تصلهما همهمة مكتومة لنهر ما يتدفّق في موقع ما داخل تجاويف الكهف وتُردّد صداه الحوائط المتموّجة مثل متاهة بلا نهاية ثمّ اتّسعت الطّريق حين ولجا مساحة واسعة منفرجة يرتفع سقفها شاهقًا، وهناك ارتفعت الهمهمة لتغدو زمجرة عالية لا ينفع في حضورها همس، كانت عين تنبع من مكان ما على المنبسط تحت الأرضيّ وتتفجّر في غليان محتدم أمتارًا في الهواء وتلقي بسيل من المادّة السّائلة مثل شلال فضيّ لتتكوّن بركة مائجة أسفله ومن العين المتفجّرة يتصاعد بخارٌ كثيفٌ يحجب فوّهة البركان العالية.

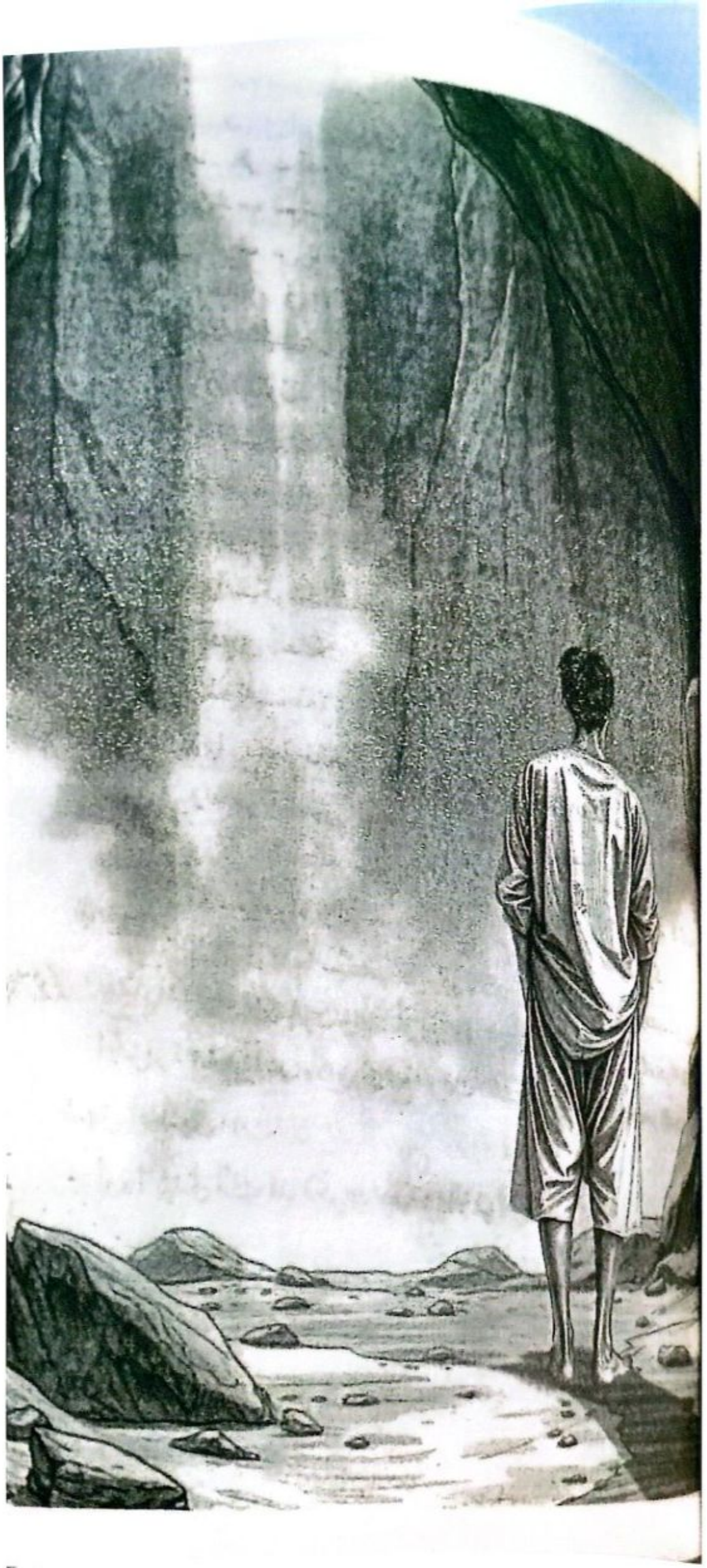

شردت نظرات آدم صوب العين الفوّارة التي تتدفّق من باطن الأرض بلون فضيّ لامع ثم تسيل أنهارًا داخل مغارات ومسارات خفيّة، لم يدر لل أيّهما هي أقرب من ناحية طبيعتها: الحمم الحارقة أم الماء العذب! كانت تأتي من مكان ما في الأعماق مثل المياه الجوفيّة أو الصّخور المنصهرة، لقد كانت معجزة أن تستمرّ في الغليان طوال الوقت!

سأل في فضول:

- ماذا سيحدث لو توقّفت الـ«مادرا» عن التّدفق يومًا؟

بدت نظرة روان غاضبة لثوانٍ ثم اكتست ملامحها لمحة حزن وهي تقول في عبوس:

- ربما سيكون ذلك نهاية الحياة على «آرا»!

تمتم آدم في دهشة:

- بهذه البساطة؟

- ربما يستمرّ مفعول الـ«مادرا» فترة ما لكنّ الظلة ستبدّد في النها وتظهر الشّمس السّاطعة فوقنا وسيكون علينا الاحتماء في الظلا وربّما الاختباء نهارًا والخروج ليلًا، بعد ذلك سنأخذ تركي الماء والهواء والتّربة وكلّ شيء من حولنا في فقدان تركيزها الـ«مادرا» ما سيُسفر عن تحوّلات، ربّما تظهر أمراض جديدة و يفقد المعالجون والمُسخِّرون قدراتهم! سيكون مخزون الـ«مادرا» الجزيرة محدودًا وربّما مع الوقت تفقد فاعليتها لغياب المصدر المنتج

شهق آدم:

- أوه! يبدو أنّك قد فكّرتِ مليًا في الأمر!

أومأت روان ببطء، إنّ الأمر لا يختلف كثيرًا عمّا يعرفه العالم الخارجيّ عن تخطيط لحقبة «ما بعد النّفط» مع تضاؤل المخزون العالميّ، المصادر البديلة غير المتجدّدة ستنفد في وقت ما لكنّ إنسان العالم الحديث يفكّر باستمرار في مصادر متجدّدة للطاقة، تساءل آدم في حيرة إن كان سكّان الجزيرة قادرين على مواجهة هذه الأزمة!

لا، كان من الإجحاف تشبيه «المادّة المتوهّجة» على الجزيرة بالنّفط في باقي العالم! لعلّها أقرب إلى الماء العذب من ناحية أهميّتها لديهم! تنشأ حروب وصراعات بين بلدان العالم المتحضّر بسبب السّدود والرغبة في الاستحواذ على مصادر الماء العذب وتلجأ بلدان الصّحراء إلى تحلية مياه البحر!

حتّى هذا لا يبدو عادلًا تمامًا، إذا انتهى مخزون المادّة المتوهّجة في وقت ما فقد يعني ذلك نهاية حياة سكّان الجزيرة بشكل كامل ودون حلول أو بدائل!

شعر آدم فجأة بألم في صدره، لقد كان التّفكير في تلك الأزمة الافتراضيّة ولو بشكل لا يُحتمل حتّى بالنّسبة إليه كغريب -«أيتورا»- أو هجين يجد في العالم الكبير فسحة من الأمل! تمنّى في تلك اللّحظة امتلاك مجلس الحكماء خطّة ما للمستقبل!

زفر بعمق محاولًا تبديد الضّيق الذي ألمّ به بسبب الموضوع الكئيب ثمّ سأل بخفّة:

- لكنّ هذا لن يحدث في القريب، أليس كذلك؟

هل كان يتساءل عن صلاحيّة الحياة فوق كوكب الأرض مع استمرار الاحتباس الحراريّ وإنتاج الغازات السّامة، إنّ الخطر لا يبدو داهمًا، ما دامت هناك فرصة عيش لأجيال قادمة، لم يكن يحمل بشكل شخصيّ همَّ

مصير الأرض إذ لا تزال البشريّة قادرة على التكيّف والاستعداد لمواجهة الأسوأ في مستقبل بعيد -رغم تشاؤم أفلام الخيال العلميّ السّائدة- وقد أراد أن يهوّن على روان بالمنطق ذاته إلّا أنّ تجهّمها أنبأه بمقدار اهتمامها الشخصيّ بالأمر.

تنهّدت ثمّ قالت:

- لا أحد يعرف تمامًا لكنّ توقّف الفوران سيكون بداية النّهاية..

كانت عيناها شاخصتين باتّجاه السّائل المتدفّق كأنّها تتوسّل إليه أن يستمرّ بلا هوادة، لقد كانت حياتها وحياة أهلها معلّقة بذلك الفوران، حرفيًّا.

تذكّر آدم لمحات من أنباء مرّت به في أوقات متفرّقة عن انطفاء أنواع من الكائنات الحيّة.. والجهود البشريّة لحماية آخر الأفراد المتبقّين منها، لقد نفق آخر ذكر لوحيد القرن الأبيض منذ سنوات وصار من المستحيل تجديد النّسل لتنقرض الفصيلة فعليًّا، لقد حزن العالم وتفاعلت جمعيّات الرّفق بالحيوان في كل مكان، تساءل إن كان أحدٌ ما سيشعر أو يهتمّ بانقراض جنس السّكان الأصليّين للجزيرة المخفيّة تحت الضّباب حين تصبح موقعًا مكشوفًا أخيرًا؟

أضافت روان بصوت مثقل بالحزن:

- ربّما لن تكون أمامنا بعد ذلك سوى سنواتٍ معدودة أو عقود أحسن الأحوال!

أعلن آدم في ثقة:

- عقدان ونصف!

حوّلت بصرها إليه في شك فتلاشت ثقته الآنفة على الفور، لم يكن عليه أن ينطق بتلك الكلمات المغرورة والمتحذلقة مثل حكم بالإعدام مؤجّل التنفيذ.

أعلنت روان بصوت حازم:

- يجب أن نغادر!

تبعها في وجوم وقد استولى عليه الضّيق، كان تحوّل مزاجها مفاجئًا.. تساءل في ارتباك إن كانت قد ربطت بين تصريحه وهدفه من الرّجوع إلى الجزيرة! إنّها تعرف أنّ هاجر غادرت منذ عقدين ونصف وبحوزتها حجر، وهو لم يعد صالحًا تمامًا، هل كشف كل شيء بعبارته الطائشة؟

إلّا أنّ خشيته انكشاف أمره لم يكن كلّ ما يضايقه، لقد شعر بحملها الثّقيل وعرف أنّه قد أضاف إلى همومها همًّا آخر، لعلّها لن تنام أبدًا اللّيلة وستضيف إلى معادلاتها ثابتًا جديدًا وستضع في رأسها خططًا قريبة وبعيدة المدى لمستقبل عالمها.

مشى متعثّرًا وهو يتأمّل قطع الحجارة التي تترسّب على جوانب الممرّات، كانت المادّة الفضيّة السّائلة تتشكّل صخورًا صلبة تتراكم بعيدًا عن المصدر في التّجاويف المتعرّجة، تشتّت انتباهه بعض الوقت، تساءل كيف تكون حرارة السّائل عند المنبع.. هل هو حارق أم دافئ أم قارس البرودة؟ كان يقاوم رغبة في الانحناء نحو الجدول وغمس أصابعه في التيّار، لكنه لا يزال يذكر الصّدمة التي أصابته حين لمس واحدًا منذ أيام، سوف يحتاج إلى المساعدة لالتقاط حجر واحد وحمله خارجًا! نظر إلى ظهر روان التي تسبقه بخطوتين، لعلّها قد باتت تدرك ما يريد وهي لا تنوي مساعدته لكنّها لا تراقبه أيضًا بعيون متشكّكة، كانت أمامه فرصة سانحة

في غفلة منها أخرج آدم هاتفه المحمول وضغط زرّ التّشغيل، تلفّت في توتّر بتبع حركتها بعينيه وقد ولّته ظهرها ويستعجل الهاتف حتّى يعمل وحالما أضاءت الشاشة أخذ يلتقط صورًا سريعة للألواح ووجيب قلبه يصدح في أذنيه بحرارة وإثارة ثمّ هرول ليلاحق خطواتها السّريعة بعد أن أخفى الجهاز في مكمنه.

عبرا الطّريق ذاتها حتّى المخرج في صمت، كان مروان يقف عند الفتحة يترقّب عودتهما بنفاد صبر، لقد رضي بمرافقتهما على مضض ولبث خارجًا يراقب الطّريق. حدج آدم بنظرة متوعّدة ثمّ تحدّث إلى شقيقته بصوت هامس كالحسيس.

صار آدم يجد من المسلّي الاستماع إلى نغمة اللّغة التي يجهل مفرداتها لكنّه بات يميّز بعض المعاني المتكرّرة، في حديث مروان الهامس تكرّر اسم أوران وقد كان ذلك نذير شؤم بالنّسبة إلى آدم، قال معتذرًا وهو يهمّ بالفرار:

- أعتقد أنّ عليّ الرّحيل الآن!

قبل أن يفارق موقعه قبضت كفّ روان القاسية على كمّه بحدّة وهمست:

- يجب ألا يراك أحد.. الحرّاس يتحرّكون في الأرجاء، اتبعني!

الحرّاس الذين من بينهم أوران، بدا ذلك مؤكّدًا لديه، تسلّل خلفها إلى مبنى المشفى القريب في حين ابتعد مروان في اتّجاه آخر، ربّما في محاولة استطلاع أو تمويه.

كان المبنى مظلمًا بقدر لا بأس به مثل باقي معالم البلدة.. ينحدر شعاع ضوئي إلى الدّاخل من خلال فتحات السّقف العارية من الزّجاج أو السّتائر، أشارت روان إلى غرفة الفحص وهمست:

- سوف تنتظر هنا.

استلقى في إذعان على المشيّة النّاعمة وراقب خفية السّماء من الفتحة التي تعلو رأسه، اختفت روان بعد أن بدّلت ثيابه وحيدًا، مضت الدّقائق لكنّها لم تعد، توقّف بعد حين عن عدّ الثّواني وأسبل جفنيه ولمّا فتحهما كان القمر قد انتشر خارج البناء وداخله فاستوى جالسًا حين تناهت إليه ضحكات الفتيات في الخارج.

خطى بحذر محاولًا الانسحاب دون أن يجلب انتباه أحد، لكنّهنّ استدرن فجأة وشهقن لمرآه، كانت روان بينهنّ، طالعته متظاهرة بالدّهشة بدورها فاعتذر بإيماءة.

- آنسات، نهاركنّ سعيدا

ثمّ ابتعد بخطوات واسعة دون أن يلتفت.

(12)

اليوم الثاني عشر

حين استيقظ، كانت ملابسه مبتلّة.

ارتجف آدم وهو يتحسّس جسده الرّطب في جزع. ما الذي حدث؟ لم يكن متعرّقًا، لا يكون العرق بتلك الكثافة ولا يغطّي رقعة ثيابه بذلك الامتداد، تساءل إن كان والده قد حاول إيقاظه بوسائل غير كلاسيكيّة -دلو ماء- حين استنفد كلّ الطرق الأخرى؟

لقد انتصف النّهار لا محالة وهو قد استيقظ على تلك الحال الغريبة من البلل!

تذكر مهمّته الموكلة إليه من طرف والده وهو يسير في طرقات القرية شبه المقفرة: كان عليه أن يراقبها، في الحقيقة لم يكن هناك كثير ليراقبه باستثناء الرّحلة القصيرة إلى شاطئ البحر منذ يومين وزيارة الكهف التي تلتها، كانت الـ«ماغداخا» تتردّد بين المشفى والمنزل ترددًا روتينيًا لكنّه لم يكن يتبعها طيلة ساعات الليل والنّهار، ربّما كانت تفعل أشياء أخرى حين يحلّ الليل لكنّه لا يعتقد أنّ والده يقصد هذا النّوع من المراقبة.

مقارنة بساعات العمل في العالم الحديث لم يكن الـ«آم» يعملون كثيرًا، كانت هناك ساعات طويلة بعد انتهاء الدّوام يقضونها في السّمر واللّهو [illegible] وحتى الاسترخاء وعمل اللا شيء -أو التأمّل- على [illegible] في ساحة القرية ودار العبادة أو في حدائقهم الخاصّة، وكان آدم

@ART_OF_BOOK

يتحرّك بحريّة ويتلقى الدّعوات من هنا وهناك فيستمع إلى الحكايات ويصغي إلى الأغنيات الشعبيّة التي يترنّمون بها باستمرار، ورغم أنه لم يكن يفقه حرفًا من لغتهم فإنه يبتهج للترانيم ذات الإيقاع البطيء ويتمايل مبتسمًا كما يتمايلون مستسلمًا للرتابة والسّكينة مترقبًا أن يحدث شيء ما.

وقد كانوا في أوقات أخرى يطلبون منه أن يرتّل أيضًا رغم أنّ حالهم منهم لا يتقن العربيّة فقد كانوا يستمعون في خشوع ويهزّون رؤوسهم وغالبًا ما تدمع أعينهم فيباركونه بكلمات مبهمة ثمّ يعودون إلى مشاغلهم.

هو في الغالب لا يدرك ما الذي ينتظر وقوعه تحديدًا، كان يتساءل إن كانت هناك أوقات محدّدة تتخلّى فيها الـ«ماغداخا» عن حذرها أو تهمل قلادتها حتّى تتسنّى له سرقتها! هل كان الـ«آم» يُحسنون به الظنّ حقًّا ويفتحون له أبواب قلوبهم كما يوسعون له محلًّا في مجالسهم أم أنهم يرمقونه خلسة بعين الحذر والرّيبة؟ لعلّ مكانته الحديثة حاملًا لكتاب الله قد أكسبته مصداقيّة وجعلته محلًّا للثقة ويؤلمه أن يُقدم على عمل يخالف تلك الصّورة التي صاروا يحملونها عنه!

لكنّه يستمرّ مراقبًا في صبر دون هدف واضح غير أنّه عاد يفكّر في عيّنة الدّم التي أخذتها المعالجة منذ أيّام، هل كانت تحتاج إلى كلّ هذا الوقت من أجل الكشف والتّحليل؟ وهل كانت لتعرف شيئًا عن حقيقته من خلالها؟

لكنّ غياب أيّ ردّ فعل من طرفها كان نوعًا ما مطمئنًا، لو كانت قد وقفت على خلل في العيّنة فلا شكّ أنّها كانت لتحاصره بتلك النّظرات السّابرة التي تجيدها حتّى تسري الرّعدة في جذعه، ربّما كان دمه مختلفًا في تركيبته عن الدّماء التي تعوّدت معاينتها فلم تقدر على اتّخاذ قرار حاسم وقد أشعره ذلك الخاطر بنوع من الارتياح، لا بدّ أنّ الأمر كان كذلك.

في أثناء ساعات الصّباح الأولى يجد بعض المتعة في محاولة اختراع الأعذار الّتي تُعفيه بقطع الطّريق! كانت تلك مهمّته اليوميّة في السّوق فيما يلقي والده محاضرات طويلة عن تاريخ الحضارات والجغرافيا السياسيّة، غير أنّه لم يأس بعدُ ويأسه مع بعض الحظّ، سيؤهّل لأن يصنع شيئًا مفيدًا.

إلا أنّه قد تأخّر هذا اليوم، فعجّل بالّلهاث المدرسة وألقى نظرة متفحّصة على باحتها المفتوحة، لم يكن أحد من الصّغار في انتظاره من أجل حصّة حفظ القرآن ولا أيّ من البالغين الذين يتسلّلون للاستماع بين حين وآخر فيعاد أدراجه إلى موقعه في السّوق الذي خلا من مرتاديه كذلك، تساءل في حيرة: أين ذهب الجميع؟

- أيها «المعلّم»، هل ستأتي من أجل اختبار التخرّج؟

حدّق في الرّأس الصّغير الذي ظهر خلف كومة الطّرفة، كانت ريحان مصحوبة بالولدين ماهر وياسر؛ تابعيها الدّائمين، تذكّر فجأة: إنّه يوم الجمعة!

هزّ رأسه ببطء ولم يردّ، لم يكن متحمّسًا للحضور، بعد العرض الذي تورّط به يوم حفل الزّفاف، قرّر أن يستمع إلى والده قدر المستطاع، لم يكن يريد أن يجلب الانتباه مجدّدًا وهو لا يعدم أن يتورّط في تحدّ أو استعراض مواهب إن هو ظهر في المكان الخطأ في التّوقيت الخطأ، قال محاولًا التهرّب:

- لديّ مزيد من العمل.. ألا ترين؟

أشار إلى الآلة المتداعية التي يجتهد ليبقيها متماسكة، عبست الفتاة ثمّ انعطفت متبوعة برفيقيها فتنهّد آدم ثمّ تأمّل صناعته في شرود.

- هل تظنّ أنّها ستعمل؟

قفز قلبه إلى حلقه، حين باغته صوت المعالجة، كانت في عيني روان لمحة سخرية مواربة، هرش مؤخّرة رأسه في حرج وقال:

- لعلّي لم أجد التّوازن المطلوب بعد بين المعدن.. والخشب!

كان يتفوّه بترّهات لا تقنعه أساسًا لكنّه أمِل أنّها لن تلحّ كثيرًا فالحديث يخصّ المعدن وهو شيء خارج نطاق اختصاصها، لحسن حظّه أومأت قبل أن تغيّر مسار الحديث:

- يمكنك أخذ استراحة الآن.. اختبارات التخرّج ستبدأ.

تململ في مكانه، لقد عرف كيف يصرف ريحان لكن روان شأن آخر، قال متظاهرًا بالاستهانة:

- وما المهمّ في حفنة من الشّبّان يجتازون اختبارات القدرات؟ أنتِ تودّين تشجيع شقيقك.. أليس كذلك؟ يمكنك الذّهاب، بالنّسبة لي أفضّل البقاء.

ضيّقت عينيها وهي تقول:

- ألا تشعر بالفضول؟

- تجاه ماذا؟

- تجاه اختبار المُسخِّرين!

ازدرد لعابه في عصبيّة، حسنًا.. هل تفكّر في تعريضه للاختبار أيضًا؟

لوّح بكفّه وقال في لا مبالاة مصطنعة:

- ألم أقل لك.. التّسخير في العالم الخارجيّ مختلف...

قاطعته في إصرار:

- لكنّك قد تكتشف شيئًا مفيدًا.. أعتقد أنّ عليك الحضور.

خطا آدم بحذر داخل فناء دار العبادة وهو يتلفّت حوله، كان البناء قد غدا مألوفًا لديه، حيث تقام الصّلوات مرّتين في اليوم.

بعد دقائق خفتت الأصوات وعمّ السّكون. كان الاختبار على وشك البدء، قبل ذلك صعد إلى منصّة الحكماء رجل يحمل بين ذراعيه لفافة بيضاء بدت من ناحية وقوف آدم كأنّها طفل رضيع، عرضه على الحكماء فمسّد كلّ منهم رأسه وجبينه بلطف ثمّ أخذوا يتهامسون، قالت روان:

- إنّهم يختارون له اسمًا.

- آه!

لم يكن يدرك أنّ للحكماء سلطة تصل إلى انتقاء أسماء المواليد الجدد! لقد لاحظ تداول الأسماء العربيّة بكثرة، تساءل في السّابق عن كيفيّة وصولها إليهم وانتشارها بهذه الوفرة، كان من المنطقيّ أنّ تأثير «المعلّم الرّوحيّ» المزعوم سيظهر من خلال قصص التّراث الإسلاميّ والأبطال من السّلف والشّخصيّات التّاريخيّة كما يحدث في معظم البلاد غير النّاطقة بالعربيّة ذات الأغلبيّة المسلمة، لكنّ الأسماء الحديثة التي ظهرت في العقود الأخيرة من المؤكّد أنّ لعمّار يدًا في انتشارها، أضافت روان كأنّها تقرأ أفكاره:

- بعضهم يفضّل الأسماء القديمة لأسلافنا.. لكنّ الآباء الشّباب يريدون أسماء جديدة غير دارجة لم يسمّها أحد من قبل! ولدى والدي كثير منها ليقترحها.. لذلك يأتون إليه غالبًا للحصول على مزيد من الأسماء المميّزة!

ابتسم آدم، لا يختلف الأمر كثيرًا عمّا يحدث في باقي أنحاء العالم، تظهر كلّ يوم أسماء مبتكرة ومقتبسة عن حضارات أخرى في سبيل التفرّد والخروج عن المألوف.

يرى والد الطفل الحكيم لفافة صغيرة ثمّ انسحب برفقة طفله بعد ان
على الاسم الذي يرضيه، ضيّق آدم عينيه في شكّ وهو يتابع المشهد
هل يدفع ثمنًا لقاء الاسم؟ وإلا ما تكون تلك اللفافة؟
بعت روان كأنّها تقرأ أفكاره:
- عند الولادة يُدفن الحبل السّري تحت جذع شجرة «سانترا» لتصبح
تلك الشجرة «شجرة الولادة» الخاصة بالمولود الجديد ويتولّى
الحكماء مهمّة اختيار الشجرة والدّفن في طقس عائليّ خاصّ، تصبح
للطفل علاقة روحيّة خاصّة تربطه بالشجرة وبالأرض ويُمنع قطع
شجر الـ«سانترا» بتاتًا لأنّ قطعها يوازي جريمة قتل تجاه الشخص
الذي يرتبط بها.. وحين يموت فرد أو يُنفى تقطع شجرته ويصنع
منها تابوته..
استمع آدم في انتباه، ربّما عليه أن يتعرّف على أشجار الـ«سانترا» هذه
حتى لا يمين أحدًا على سبيل الخطأ بكسر أحد أغصانها! . سألها في اهتمام:
- كيف تبدو.. أشجار الـ«سانترا»؟
- أوراقها عريضة مسطّحة، معظم الأشجار في الغابة دائمة الخضرة،
إلا أنّ لون أوراق الـ«سانترا» يتغيّر حسب المواسم من الأخضر إلى
الأصفر ثمّ الرّمادي، لكنها لا تسقط أبدًا.. ثمارها صغيرة ومستديرة
مثل حبّات الجوز، وهي جزء من تركيبة حبّات الدّواء العلاجيّة!
تذكّر آدم أوراق الشجر العريضة والمسطحة التي استخدمها لصنع
قارب حمل فيه الماء إلى والده في يومه الأوّل على الجزيرة، تساءل إن كانت
أحد أشجار الـ«سانترا».

بعد ابتعاد الأب سعيد الحفظ وولديه استعدّ الكلّ لبدء الاختبار، وحين استدار آدم لم يجد روان في الجوار، كانت قد اختفت وسط الزّحام.. ربّما انضمّت إلى عائلتها لمشاهدة شقيقها من مسافة قريبة، كان قد لمح مروان ضمن الطّلاب، بدا هذه المرّة متوتّرًا ومرتبكًا مثل أيّ طالب آخر، عاد ولذّا بسيطًا وعاديًّا بلا غرور أو تمرّد.

وبينما أخذ الطلاب يُمتحنون تباعًا قلّب آدم عينيه بين الحشود، كان يبحث عن شخص معيّن، ربّما ادّعى منذ حين أنّه لا يبالي بأوران لكنّ لقاءه لم يكن من دواعي سروره إلّا أنّه فشل في تحديد موقعه وسط الميدان الفسيح الغاصّ بالخلق، ربّما كان يرقب المشهد من موقع مميّز. لم يعثر على والده أيضًا، لعلّه يحرص على البقاء بعيدًا عن العيون باعتبار مبدئه في التخفي.

حين عاد تركيزه إلى المنصّة كان دور مروان قد حان، تابع حركاته في يقظة مثل الجميع، كان هناك حجر على المنضدة أمامه، وقف مروان في جدّيّة ثمّ مدّ كفّه ليلامس سطح الحجر بحذر، ثمّ ما لبث أن تراجع مصعوقًا وقد انتشرت شرارات حول أصابعه، سرت رعدة باردة في جسد آدم وهو يتذكّر لقاءه السّابق بالحجر فيما ارتفعت همهمات مشفقة بين الحضور.

بعد ثوانٍ أعاد مروان المحاولة، كان أثبت جَنانًا وأشدّ ثقة فتطايرت الشّرارات مرّة أخرى غير أنّه لم يتراجع.. استمرّ يمسك الحجر كأنّه يقبض على الجمر ثمّ رفع يده أخيرًا وأشار بحركة خاطفة إلى قطعة الخشب التي أمامه فانقسمت نصفين متساويين كأنّما بأشعّة ليزر دقيقة القطع، كتم آدم شهقته في حين تعالت هتافات الجماهير المحتفية، رفع مروان عينيه لبحر النّاس وقد تلألأت قطرات العرق على جبينه.

- لقد نجح!

استدار آدم في دهشة حين تناهى إليه صوت روان التي تسلّلت إلى جواره مجدّدًا قبل أن يدرك حضورها، أومأ مصدّقًا كلماتها.. فأضافت تشرح:

- الـ«بندار» يستخدم جسده وعاءً للطاقة التي تفرزها الـ«مادرا»، إنّها تتدفّق من خلال بشرته وتملأ جسده فينقلها ويحوّلها ثمّ يستخدمها بأشكال شتّى..

تمتم آدم في حيرة:

- هل التّسخير عمليّة مؤلمة؟

لم تبد كذلك حين أضاء أوران السّماء ليلة الزّفاف ولا حين طار المُسخِّر الكهل لاستخراج حطام الطّائرة من قاع المحيط، أومأت روان وهي تقول:

- إنّها كذلك.. خاصّة بالنّسبة إلى المبتدئين، إنّه نوع من الألم الذي يجب أن يتعوّده ويروّضه ويعيش به..

فغر فاه ثمّ أقفل شفتيه ولم ينطق لكنّها استطردت كأنّها تتلصّص على أفكاره مرّة أخرى:

- بالنّسبة إلى عامّة النّاس «حجر الشّمس» ليس إلا حجرًا أصمّ بلا تأثير، وحدهم المسخّرون والمعالجون يشعرون بطاقة الحجر.. الألم، إنّه دليل الاصطفاء!

ردّد في صدمة:

- الاصطفاء!

سكتت برهة ثمّ قالت:

- أنت لم تتدرّب على التّسخير قطّ.. أليس كذلك؟

اتّسعت عينا آدم والإدراك يغمر ذهنه بسرعة وتتابع، لقد ترك الحكيم القلادة على الطّاولة أمامه متعمّدًا، كان يمتحنه.. تركه وحيدًا وجهًا لوجه مع الحجر واختبأ ليرقب نتائج الاختبار وهي كانت هناك حين خرجن من الغرفة كان ملقى على ظهره، مصعوقًا.. لقد كانت تعرف طيلة الوقت، والدها طلب منها التكتّم، تحدّثا بلغتهما المجهولة قبل أن ترحل عنهما.

همهم في يقين:

- أنتِ.. كنتِ تعرفين!

ظهرت في عينيها نظرة استمتاع.. لقد سخِرت منه! كان يدّعي، لكنّها عرفت الحقيقة، كانت تسبقه بخطوة دائمًا.. «كوتانا» عمّار كان يعرف أيضًا، قال كلامًا غامضًا لا يستحضر تفاصيله الآن لكنّه يتعلّق به ويكونه مُسخِّرًا! ثمّ ماذا أرادت من أخذه إلى الكهف؟ لقد أبدت تكتّمًا وحيطة لكنّها لم تكن لتغامر بتحدّي قوانين قومها فقط من أجل فضول رجل غريب! إنّها لم تفعل بالتّأكيد! لعلّها طلبت الإذن من الـ«كوتانا» بل لعلّه من أشار عليها باصطحابه إلى هناك! كم كان مغفّلًا! لم يكن شقيقها راضيًا عن الزّيارة لكنّها أفحمته بعبارة واحدة من قبيل: هذا قرار الـ«كوتانا»! لم يكن هناك أي اختراق أو تجاوز على الإطلاق، سألها في حدّة:

- لماذا أخذتِ عيّنة الدّم إذًا؟

هزّت كتفيها وهي تقول ببساطة:

- دماء الـ«بندار» ذات فائدة علاجيّة كما تعلم، كانت أمامي فرصة للحصول على بعضها دون عناء وقد فعلت!

لم تكن تنوي تحليلها أو اختبارها، جعلته يشعر بالقلق والتوتّر، بقي مشدود الأعصاب لأيّام مترقّبًا ما سيكشف عنه دمه، لكنّ أيًا من ذلك لم

بكن حقيقيًّا، لقد كان غبيًّا! هذه الحضارة لا تملك مجهرًا أو مختبر تحاليل طبيّة لمعاينة دمه لكنّها جعلته يبدو مغفّلًا، وهو فوق ذلك مُسخِّر حقيقيّ! «بندار»!

ملأ صدره إحساس غريب بالانتشاء والعظمة والخوف والتوتر.

هناك فرق شاسع بين الادّعاء والتّحقّق وهو يبدو أخرق تمامًا في عينيها في تلك اللّحظة، ألم تخبره عن نفسه في الأيّام الماضية أكثر ممّا فعل؟ لقد خشي أن تعرف بشأن كذبه وحسب ألف حساب لردّة فعلها، كان ليخسر حليفًا استراتيجيًّا وصداقة مهمة، خاف أن تتغيّر تجاهه إذا أيقنت ألا موهبة لديه، لكنّه لم يعد يستطيع أن يحزر فيم تفكّر بالضّبط! نعم إنّه يعرف: لقد كانت تسخر منه طيلة الوقت!

قاطع تزاحم أفكاره صوت جهوري لشابّ تصدّر المنصّة وأخذ يعلن باللّغة العربيّة:

- بما أنّنا نحتفل بالخرّيجين فإنّني أرجو من الأستاذ الزّائر أن يتفضّل بإلقاء كلمة على أسماع الحاضرين حتّى يستفيد الجميع من حكمته ومعرفته! أستاذ صافي، لو سمحت، هلّا تفضّلت إلى هنا؟

ميّز آدم أحد معلّمي المدرسة الذين كانوا يصغون باهتمام لمحاضرات والده منذ أيّام، ساد صمت مترقّب بين الجماهير للحظات، تناسى آدم أفكاره السّابقة عن روان والحكيم والتّسخير وعاد إلى بحثه عن والده بإصرار أكبر ثمّ ما لبث أن لمحه ببشرته المميّزة وقد تفرّق الحشد من حوله ليفسح له المجال للتقدّم، لم يكن من اليسير الاختباء وسط الجموع حين تكون على تلك الدّرجة من الاختلاف، حتّى قبعة القماش لن تكفي.. لم يجد البروفيسور أشرف بُدًّا من الإعلان عن نفسه وقد تحوّلت أزواج العيون كلّها باتّجاهه.

ابتسم آدم بسخريّة مريرة، البروفيسور يصبح مرئيًا جدًّا، لقد حافظ على موقعه في الظلال طيلة عشرة أيّام من إقامته على الجزيرة لكنّه اليوم يقف تحت الأضواء السّاطعة مثل نجم الشّهرة، لعلّه استجاب لإلحاح طالبه لحضور حفل التخرّج، حسب أنّه قد يتوارى في الخلفيّة ولا يلفت الانتباه لكن هيهات!

مشى أشرف ببطء حتّى توسّط الميدان، حافظ على رباطة جأشه وهو يهنّئ الطلّاب ومدرّسيهم بكلمات بسيطة ومراعية، قدّر آدم أنّه كان يقدّم عرضًا جيّدًا حتّى اللّحظة وكان من الممكن أن تنتهي الأمسية دون حوادث لولا الصّرخة المروّعة التي ارتفعت من حلق ما بين الجماهير العريضة!

سرت البلبلة وتحوّل الاهتمام العام إلى مصدر الصّرخة، حدّق آدم في اتّجاه التّزاحم المرتبك.. بدا أنّ سيّدة ما أصيبت بصدمة وفقدت وعيها، التفت ليتابع حركة والده عبر السّاحة التي تفصلهما، التقت نظراتهما في ومضة سريعة فأشار إليه أشرف على عجل بالانسحاب، استدار يُمنة ثمّ يُسرة، لم تكن روان في الجوار، الـ«ماغداخا» تمارس دورها بتقديم النّجدة كما يتطلّب منها الموقف، سيتمكّن من المغادرة إذًا دون أن يثير اهتمام أحد، تقريبًا..

حين ارتدّ على عقبيه ألفى أوران يحدجه بنظرة صارمة من الصّفوف الخلفيّة، ازدرد لعابه في توتّر، لقد كان يراقبه خلسة طوال الوقت، تجاهل وجوده واستمرّ في مساره المباشر خارج المبنى ثمّ باتّجاه الكوخ، إنّه يجزر سلفًا كيف سيكون الوضع، لقد حدث ما خشيه البروفيسور منذ يومه الأوّل.. لقد أثار الانتباه.

عبر الباب الخشبيّ وهو يلهث، كان والده في الدّاخل يلدرع الغرفة جيئة وذهابًا بخطوات عصبيّة، وما إن لمحه حتّى سارع إليه، أحكم إقفال الباب بالمناريس ثمّ شدّ على كتفيه بقوّة وهو يقول:

- استمع إليّ جيّدًا.. إنّهم قادمون من أجلي!

- مَن؟

- الحرّاس.. لقد انكشف أمري.

- هل سيلقون القبض عليك؟ ماذا سيفعلون بك؟

- لا أعرف تحديدًا، أعتقد أنّهم سيبقونني تحت الحراسة ريثما تقام المحاكمة.

سأل آدم في قلق:

- ماذا بعد ذلك؟

- حسنًا.. سيصدرون حُكمًا، لا أعرف ماذا سيكون.. لكنّني قتلت رجلًا، أنت تعلم!

صرخ آدم محتجًا:

- لقد كانت حادثة! منذ خمسة وعشرين عامًا! ألا تسقط الجريمة بالتّقادم؟

- أشكّ في هذا!

ابتسم أشرف في مرارة ثمّ أضاف:

- ستكون هناك محاكمة، حسنًا؟ دعنا نضع ثقتنا في عدالة مجلس الحكماء.

في تلك اللّحظة ارتفعت طرقات عنيفة على الباب وراءهما، همس أشرف:

- لقد وصلوا، ستكون بمفردك من الآن فصاعدًا، لكنّني أضع ثقتي بك!

تبادلا نظرة طويلة صارمة، كانت العَبَرات تحرق جفني آدم لكنّه حبسها بما أوتي من الثّبات وضبط النّفس، أومأ بحزم، أراد أن يلفظ الكلمات التي تختنق في حلقه لكنّ والده سبقه بالتحوّل في اتّجاه الباب، وما إن رفع المتاريس وأشرع الدّفّة حتى أحاط به الحرّاس من كلّ جانب، قال قائدهم بلهجة باردة:

- سيّد صافي، اتبعنا رجاءً.

تحرّك أشرف في إذعان دون أن يعترض بكلمة واحدة.

بقي آدم وحيدًا في الغرفة في استسلام وقلّة حيلة.. لقد أراد أن يخبره قبل رحيله،

كلمتان بقيتا عالقتين في جوفه وقد فقدتا فجأة كلّ بريقهما السّابق الذي أثار داخله حماسًا منقطع النّظير.

«أنا مُسخَّر!»

(13)

اليوم الثالث عشر

استبدّ به القلق حين أسلمته الوحدة إلى الهواجس، اجتمع في وجدانه إشفاقه من المصير الذي يترصّد والده والكشف المدهش عن هويّته الخارقة، حين فارق النّعاس جفنيه في سديم الليل تذكّر الصّور التي التقطها للألواح الطينية داخل الكهف فتربّع على سريره وأخرج هاتفه، لم يكن قد أولاها اهتمامه في السّابق لضنّه بطاقة بطّاريته على تلك المهمّة المستهلكة لشحنها! ومع ذلك فقد أمضى تلك اللّيلة ساعات طويلة يفكّ شيفرة الكتابة اللاتينيّة على الألواح.

لقد حزر منذ اللّحظات الأولى أنّها كتابة برتغالية! إلّا أنّ اللغة قديمة ومفرداتها عسيرة ولعلّ معرفته باللغة كانت سطحيّة أيضًا.

كان حديث عهد بتعلّم البرتغاليّة، تقفز إلى ذهنه صورة مانويلا فجأة، كلّ ذلك حدث بسببها -أو بفضلها!- فهو لم يكن ليهتمّ بتعلّم اللّغة قبل أن تدخل حياته، كانت تراسله بالبرتغالية في أثناء رحلاتها.. لغة أجدادها! وقد كانت واحدة من عاداتها الغريبة أن تستفزّ اعتداده بنفسه وكان من السّهل استفزازه فهو لم يكتف بفكّ شيفرة رسائلها باستخدام قاموس إلكتروني بل أصرّ على الردّ على رسائلها باللّغة ذاتها إمعانًا في التّحدّي! لم يعتقد للحظة واحدة أن تكون اللّغة البرتغالية ذات فائدة في أيّ مرحلة من حياته فهو لم يكن يزمع الرّحيل يومًا إلى البرتغال أو إلى بلدان أمريكا

اللاتينية لكن ها هو يقف أمام خربشات رحّالة قديم وقد تملّكته روح التحدّي من جديد.

توقّف عند اللوح الأوّل، ميّز كلمات كانت واضحة المعالم وذات دلالة: (سليمان بن إبراهيم - أربعون يومًا - 1865 - جزر القمر - آرا - إبراهيم بن مسيا). دوّنها جانبًا في ملفّات هاتفه ثمّ أخذ يتأمّلها في تفكير، كان عليه أن يستحضر بعض الخيال ليربط الكلمات المتفرّقة حتّى تستقيم عبارات ذات معنى.

أمضى دقائق يضع احتمالات ثمّ يعود إلى الألواح ليدقّق أكثر باعتبار المعنى العام الذي يفترضه علّه يميّز كلمات إضافيّة يضمّها إلى سابقاتها، في الجولة الثانية أضاف قائمة جديدة من المفردات: (شهادتي، طفل، أب، أرض، خصب، ظل، غطاء، عيون).

بات من الواضح أنّ سليمان بن إبراهيم يكتب شهادته ربّما بعد أن أمضى أربعين يومًا في الجزيرة، أو بعد إبحاره أربعين يومًا نحو الجزيرة، يودّ آدم الاعتقاد أنّه قد سافر انطلاقًا من جزر القمر سنة 1865، وأنّ إبراهيم بن مسيا والده الذي حدّثه عن الجزيرة طفلًا ثمّ بعد وصوله إلى «آرا» وجدها أرضًا خصبة وارفة الظلال يحفظها غطاءُ الضباب عن العيون.

عاد مرّة ثالثة ليستنطق اللّوح، يُمعن في فحصه مكبّرًا الصّور ما أمكنه ويلتقط أطراف الخيوط من هنا وهناك ويعود ليصوغ الجمل أفضل، ثمّ انتقل إلى اللّوح الثاني ليكرّر العمل ساعات طويلة حتّى أدركه التعب.

***

اللّوح الأوّل:

«هذه شهادتي، أنا سليمان بن إبراهيم، أدوّنها بعد وصولي إلى جزيرة أسلافي بأربعين يومًا، سنة 1865. لقد خضت البحر وابتعدت فرارًا من مسقط رأسي؛ جزر القمر، لأنجو بحياتي، ولم أحسب أنّني سأصل فعلًا إلى الأرض التي حدّثني عنها والدي حين كنتُ طفلًا وحسبتها ضربًا من الخيال. لقد وقفت على الحقيقة ورأيت بعيني أنّ هذه الأرض -أرض «آرا»- تمامًا كما وصفها إبراهيم بن مسيا: أرض خصبة وارفة الظلال تملؤها الينابيع والجداول العذبة ويحميها غطاء كثيف من العيون الخبيثة».

اللّوح الثاني:

«جعلني سُكّان الجزيرة أستحمّ في العين السّاخنة وقتًا طويلًا! ربّما حسبوا أنّ السُّخام الأسود قد أصاب بشرتي فأرادوا إزالته بالماء الحارّ.. بلا فائدة، وحين أدركوا أنّه لوني الطبيعيّ خرّوا عند قدمي راكعين، وفيما كان لون بشرتي يجعلني مُعرّضًا للخطر في موطني ومهدّدًا بالعبوديّة فإنّ القوم هنا يمجّدونني ويقدّسونني، رغم بياضهم الشّفاف الباهر. لقد كان والدي أبيض مثلهم وعاش عمره في الظلال بعد أن عثر عليه بحّارة عمانيّون واصطحبوه في رحلتهم إلى «جزر العطور» كما يعرفونها، إنّه لا يتحمّل أشعّة الشّمس ولا يقدر على البقاء طويلًا في العراء لكنّ والدتي فتنت ببياضه وتزوّجته ثمّ صارت له عائلًا وحاميًا. عاش إبراهيم بن مسيا مختبئًا في ظلّ زوجته إلا أنّه مات بطلًا وهو يدافع عن أهله السّود».

اللّوح الثالث:

«لطالما كان العالم مفتوناً بالبياض، سود البشرة من أمثالي يعدّون أقلّ منزلة من البشر، في السّنوات الأخيرة بدأ المحاربون الملغاش مداهمة جزر القمر، دُمرت الجزر إذ جرى إفساد المحاصيل وذبح الناس أو أسرهم، يقال إنّ جزيرة «موالي» لم يبق فيها سوى رجل واحد وقد تحوّل نصف سكان الجزر إلى عبيد. حين اشتدّ بنا الأذى وكثرت الغارات.. هربت، رأيت أبي وأمّي وإخوتي وهم يدفنون في مقبرة جماعيّة ويهال عليهم التّراب وهم أحياء فسرقتُ مركبًا ولذتُ بالفرار مع زوجتي وأبنائي ومن تبقّى من أهلي إلّا أنّهم ماتوا جميعًا بعد وصولنا هذه الأرض، لم يتحمّلوا مناخها وهواءها الغريبين فصُرعوا خلال ساعات وحين صعدت التلّ بعد أن دفنت أقربائي أصبحتُ رجلًا مقدّسًا يستمع إليه الجميع».

اللّوح الرّابع:

«تقول الحكاية إنّ سكان جزر القمر أرسلوا مبعوثًا إلى مكة في القرن السّابع عند سماعهم بالإسلام لكن بحلول الوقت الذي وصل فيه إلى هناك كان النبي الإسلامي محمد قد توفي، مع ذلك، بعد إقامته في مكة عاد المبعوث ليبني مسجدًا في مسقط رأسه وقاد التحوّل التّدريجي لسكان الجزيرة إلى الإسلام، وبعد قرون ما زال الإسلام الدّين الأوّل في موطني، بعد ذلك زار المسلمون السّاحل والجزر زيارات متكررة بحثًا عن المرجان والعنبر والعاج وأصداف السلحفاة والذهب وقد تعلّمت الإسلام صغيرًا ونشأت عليه وكذلك كانت زوجتي وأبنائي، رحمهم الله جميعًا. مثل مبعوث القدر سأُكمل رسالة أجدادي وعلى هذه الأرض سوف أبني مسجدي».

اللّوح الخامس:

«قبل بدء الغارات الملغاشيّة عملتُ في التّجارة مع البرتغاليين، تعلّمت القراءة والكتابة على يد تاجر جاء للإقامة في بلدتنا منذ عقود، وصل البرتغاليون إلى المحيط الهندي في نهاية القرن الخامس عشر ويبدو أن أوّل زيارة برتغالية للجزر كانت تلك التي نفذها أسطول «فاسكو دا جاما» الثاني، قدّمت الجزر المؤن للحصن البرتغالي في الموزمبيق وعلى الرغم من عدم وجود محاولة رسمية من التاج البرتغالي للاستيلاء عليها.. استقرّ عددٌ من التّجار البرتغاليين وتزوّجوا نساء محليات ولقد تعلّمتُ اللّغة نطقًا وكتابة مثل كثيرين لأشتغل بالتّجارة».

اللّوح السّادس:

«لا أحبّ أن أكون مدّعيًا، لقد اطمأننتُ إلى سكّان الجزيرة واستأنستُ بهم، أشعر بالأمان في موطني الجديد بعد أن فقدت الأمل في العودة إلى مسقط رأسي المحتلّ حيث لا ينتظرني إلا الدّمار والعبوديّة ولا يسعني أن أعود لأنقذ مزيدًا من أبناء جلدتي لأنّهم سيموتون لا محالة بعد وصولهم إلى الجزيرة لذلك قرّرت الاستسلام لقدري وقبول هذا التّكليف العظيم، سأحاول أن أكون قائدًا لهم، مرشدًا لصغيرهم وكبيرهم، وسأعلّمهم الدّين واللّغة العربيّة كما تعلمتهما على يد شيخي».

اللّوح السّابع:

«لطالما اقتات سكّان «آرا» على ما تصيده شباكهم من سمك البحر وما يقطفونه من ثمار أشجار الغاب، كانوا يعتقدون أنّ حراثة الأرض «خدش صدر الطبيعة الأم»، الله خلق الطبيعة لتوفير كلّ ما يحتاج إليه البشر ومنح شعب «آم» الحكمة للعثور عليها، فقط الأشخاص الذين لا يملكون هذه الحكمة يزرعون من أجل البقاء، كنت قد احتفظت بكميات من الأرز والبقوليات التي كانت زاد رحلتي فعلّمتهم زراعتها وجعلتهم يجرّبون أطعمة كانت مجهولة لديهم، لقد احتجت إلى بعض الوقت حتّى اعتادوا وجودَ المزارع من حولهم وربّما تأتينا مزيد من البذور ضمن بقايا السفن الغارقة، أحبّ أن أرى أشجار الموز وجوز الهند والمانجو من جديد فهي تذكرني بالدّيار».

***

تذكّر آدم الأسطورة التي حكاها «صاحب الحكاية» وكرّرتها الصّغيرة ريحان على مسامعه وهي تقصّ عليه النّبوءة التي يتوارثها قومها، كانت مزيجًا عجيبًا من قصّة النبيّ سليمان الذي يخاطب الجنّ وملحمة المعلّم الرّوحيّ سليمان -الذي بقي أصله مجهولًا للجميع عداه- ليصبح الرّجلان واحدًا في أسطورة «الأصل» التي تقصّ بداية عالمهم.

ومع أنّ نشأة الجزيرة واستيطانها يسبقان بزمن بعيد مَقدِم المعلّم الذي تؤرّخ له الألواح الطينية لمئة وخمسين عامًا وحسب فإنّ النّاس يختارون ما يصدّقونه وينسجون تاريخهم بأنفسهم مع إضفاء لمسة فانتازيا فاتنة.

@ART_OF_BOOK

حين انتصف النّهار احتشد النّاس مرّة أخرى في الميدان العامّ. لم تكن المناسبات التي تستدعي التجمّع كثيرة في روتين القرية الهادئ لكنّ محاكمة علنيّة كانت أكثر من مجرّد حدث هامشيّ، إنّها مناسبة نادرة سيتفرّغ كلّ فرد لحضورها وسيتحدّث عنها المجتمع لوقت طويل بعد ذلك.

جاء الحكماء في لباسهم السّابغ وهيئتهم المهيبة فاتّخذوا مقاعدهم في صدر المجلس وتبعهم النّاس إلى داخل البناء في سيلٍ متدفّق لا يتوقّف حتّى لم يبق في الفضاء موضع قدم. تسلّل آدم بين الجموع الغفيرة واقترب قدر الإمكان من المنصّة، كان يريد أن يرى أباه عن كثب حين يُحضره الحرس للمحاكمة.

لم يحظ بقدر وفير من النّوم، شغل نفسه بالألواح عن التّفكير في وضعه وأبيه والتردّي نحو الاحتمالات الأسوأ، شعر بالنّظرات التي ترقبه بعواطف متباينة تتراوح بين الشّفقة والازدراء والتعاطف والغضب، لقد كان غريبًا منذ اليوم الأوّل يثير حضوره الفضول والدّهشة والحذر، تلك العواطف الثلاث تصنع هالته الخاصة، لكنّه اليوم قد غدا غريبًا وابن مجرم، لم يحاول أحد الاعتداء عليه أو تحميله ذنب أبيه لكنّ الحشد كان يتفرّق من حوله ويُفسح له مساحة من الحريّة أو الأمان.

تزايدت البلبلة حين دخل الحرّاس يقودون أشرف أمامهم، لم يكن معصوبًا مقيّدين بأيّ نوع من الأغلال لكنّه كان يسير في استسلام وإذعان، كان آدم يتساءل منذ أمس عن موقع احتجازه، إنّهم لا يقيمون في القرية سجنًا بالمعنى المألوف، يحكمون على المذنبين من مواطنيهم بالإقامة الجبريّة أو النّفي، لعلّ مدّة العزلة تتغيّر حسب فداحة الذّنب وربّما كانت هناك غرف احتجاز مؤقّت في انتظار النّطق بالحكم.

بعد حين، دخلت سيّدة طاعنة في السنّ يساعدها رجلان على المشي، بمسكان ذراعيها ويسيران إلى جوارها مترفّقين، خمّن آدم أنّها صاحبة الصّرخة التي أفزعت الجموع أمس، باعتبار سنّها لعلّها تكون والدة الشّاب الذي قتله أبوه.

تنحنح أحد الحكماء فسيطر الصّمت على الحضور، تعرّف آدم على «كوتانا» تافي، تمنّى في سرّه أن يكون للرّجل نصيب من اسمه -ومعناه صالح حسب ترجمة ريحان- والصلاح من شيمه!

- لدينا وضع استثنائيّ اليوم، هذا الـ«أيتورا» الذي جاءنا منذ أيّام، لقد تعرّف عليه بعض الأهالي.. يقولون إنّه كان هنا منذ خمسة وعشرين عامًا..

تكلّم الـ«كوتانا» باللغة العربيّة بالنّظر إلى كون أهمّ طرفٍ في المحاكمة لا يفهم اللّغة المحليّة، سرت همهمة حادّة بين النّاس وقد أثار الإعلان حالة من الهرج، رجل يعود إلى الجزيرة مرّة ثانية! كانت تلك سابقة لا عهد لهم بها، تنحنح الـ«كوتانا» مرّة أخرى ثمّ أضاف:

- وأيضًا.. هناك ادّعاء بكونه قتل شخصًا ما من شعب «آم»!

احتدّت الأصوات وارتفع اللّغط ولم تقدر نحنحة الـ«كوتانا» الثالثة على فرض الهدوء من جديد، أن يكون الغريب قد اهتدى إلى الجزيرة فتلك معجزة أمّا أن يكون قد قتل واحدًا منهم فتلك جريمة لا تغتفر ولن تشفع الأولى للثانية أبدًا.

صعد أحد الحرّاس إلى المنصّة ورفع كفّيه في الهواء ثمّ صفّق ليجذب انتباه الحاضرين، بعد زمن يسير استعادت الجلسة هدوءها السّالف إلا من وشوشات خافتة استمرّت هنا وهناك، استعاد الـ«كوتانا» السّيطرة على المحاكمة فقال:

- فلنقدم صاحبة الاتّهام!

القرعت السيّدة المسنّة من المنصّة فأشار إليها الدكتاتاه:

- تكلّمي!

- حين رأيت الدكتاتور اه أمس تذكّرته على الفور، لقد مرّ زمن بعيد لكنّني لا أنسى قاتل ابني مهما تباعدت الأزمان.

- أنت واثقة أنّه هو؟

- أنا واثقة!

استدار الحكيم تجاه أشرف وأشار إلى حارسه بجعله يتقدّم.

- أيّها الغريب.. لقد استمعتَ إلى الادّعاء فماذا تقول في تهمتك؟

انحنى أشرف رأسه في خضوع وقال بصوت منكسر:

- أنا مذنب يا سيّدي!

شهق آدم وارتفعت الهتافات بين الجماهير وساد المرج مرّة أخرى، كان من العسير إعادة السّكون إلى الجموع الثائرة هذه المرّة، زمجر حمّار فجأة:

- من سيُحدث الفوضى سيغادر المبنى على الفور!

استجاب المتفرّجون للتّهديد ولزموا الصّمت، عاد «كوتانا» ثانية يقول:

- أنت تعترف بأنّك قتلتَ ابن السيّدة الماثلة هنا؟

أومأ أشرف وهو يقول:

- سيكون من الجبن أن أنكر وأنا الذي حملت هذا الذّنب على عاتقي منذ ذلك الحين وتمنّيت أن أجد الفرصة للاعتذار لعائلة الفقيد، لقد أزهقت روحه بيدي هاتين.. لكنّها كانت حادثة يا سيّدي! لم أتعمّد قتله.. لكنّ هذا ما حدث.

مرت المهمات خافتة مثل أزيز منخفض لكنّ صوت والدة المقتول ارتفع فوقها جميعًا:

- أطالب بالقصاص!

على الفور ارتفعت هتافات متفرّقة بين الجماهير تطالب بالقصاص بدورها فاقتاد الحرّاس أصحابها خارج القاعة دون تردّد، في هذه الأثناء انحنى الحكماء يهمسون لبعضهم ويتشاورون في الأمر، بعد ذلك أعلن «كوتانا» تافي:

- إن كان هناك شهودٌ يتذكّرون الواقعة فليتقدّموا للمثول بين يدي المحكمة!

مضت بضع دقائق من الانتظار ثمّ برز رجلان من بين الجموع وتقدّما في اتّجاه المنصّة، كانا كهلين في منتصف العمر، ربّما كان كلاهما في مثل سنّ آدم وقت الحادثة، عرَّف كلاهما بنفسه أمام الحكماء ثمّ أشار تافي إلى الأوّل أن يتكلّم.

- سيّدي الـ«كوتانا».. ما سأقصّه عليكم لن يمثّل أيّ جديد، الجميع يعرف القصّة التي «لا يريد أحد ذكرها»: لقد جاء «أيتورا» وحاول اختطاف عروس ليلة زفافها؛ تلك العروس في القصّة هي عروس القتيل! ولقد أراد القتيل الثأر لشرفه فتحدّى الـ«أيتورا» للنّزال!

حدّق آدم في ذهول، تلك القصّة التي «لا يريد أحد ذكرها» والتي تسبّبت في حذر الـ«آم» من الغرباء كانت تخصّ والده!

أومأ الـ«كوتانا» في اهتمام.

- إذًا لقد كان نزالًا مشروعًا.. تقاتلا ثمّ مات أحدهما على أرض المعركة؟

- نعم، أعتقد أنّ ذلك ما حدث.

لم يحاول أشرف المقاطعة والدّفاع عن نفسه باعتبار أنّ الفتاة احتمت بمركبته، غير أنّه لم يعتزم إطلاقًا مساعدتها على الهرب فضلًا عن اختطافها، إلا أنّه لا يحاكم اليوم بتهمة الاختطاف والشّاهد يؤيد حقّه في الدّفاع عن نفسه خلال نزال علنيّ وهذا ينفع موقفه ولا يضرّه فلا داعي للاعتراض على التّفاصيل التي لم تعد ذات أهميّة.

استدار الحكيم ناحية الشّاهد الثّاني وأشار إليه، فقال:

- أنا أذكر الواقعة بوضوح شديد فقد كنت قريبًا من المتقاتلين ورأيت كلّ شيء عن كثب. سيّدي الـ«كوتانا» لا أعتقد أنّ النّزال كان شريفًا على الإطلاق، لقد نزل الـ«أيتورا» إلى الميدان وبحوزته حجر حادّ أخفاه في ثيابه، وحين سنحت الفرصة أخرجه وشجّ به رأس القتيل فأرداه جثّة هامدة!

انفعل أشرف وصرخ في احتجاج:

- هذا ليس صحيحًا! لقد كان الحجر على الأرض! أحدهم دفع به إلى الميدان! لم تكن نيّتي القتل على الإطلاق!

رفع الحكيم كفّا صارمة ليدعوه إلى السّكون ثمّ استدار إلى بقيّة الحكماء وقال بتأنٍّ:

- أمامنا شهادتان متناقضتان.. لكنّ الشاهد الأوّل متردّد والثاني واثق من ذاكرته!

قال عمّار بتريّث:

- أظنّ أنّ على المجلس عدم الاستعجال في إصدار الحكم، القصّة معروفة لدى شعبنا وقد يكون هناك شهود آخرون، يمكننا استدعاء

مزيد من الشهود قد يذكر الصورة تفاصيل الواقعة لكنهم ليسوا حاضرين معنا اليوم.

تصدى تالي في وجوم:

لكن الحكاية الشعبية التي نعرفها كلنا تقول أن نوايا العفاريت لم تكن طيبة وقد تسبب في ألم عميق للأم استمر أثره إلى اليوم!

قال عمار في إصرار:

لا شك أن الفقد سيترك أثرًا البتة حتى لو تألمت من معاناة مفقودة والعاطفة تميل إلى مواساة الأم الثكلى.. لكنك لا أو بد الإيمان المطلق بالحكاية الشعبية بل تقصي الوقائع والحقائق!

أومأ الحكماء في استحسان وقد وجدوا الاقتراح منطقيًا ورصينًا ثم أعلن تالي انقضاض المجلس حتى موعد لاحق.

جرّ آدم قدميه إلى خارج الفناء وقد استولى عليه اليأس، تلك الشهادة الوحيدة مدفونة لم تكن مجرّد شهادة فردية بل استشهاد للذاكرة الشعبية حالفت بين ثناياها مرارة التعرّض للأذى من طرف الغرباء وتسبّبت في تشكيل أسلوب تعاملهم مع العالم الخارجي.

إلا أنه يتشبث بالأمل.. لعلّ آخرين يتقدّمون لمساندة موقف والده، توقف فجأة حين اصطدم بحائط بشريّ يسدّ الطريق، كان أوران يقف قبالته عاقدًا ذراعيه أمام صدره وعلى شفتيه ابتسامة مستهزئة، رفع آدم عينيه إلى السماء في استياء، ليس ثانية!

قال أوران بالصلابة والمباشرة الأنفتين نفسيهما:

- أيها العفاريت.. أنا أتحداك!

ابتسم آدم في سخرية وقال:

- ألم تكن معنا بالدّاخل؟ هذا التحدّي لا يأتي من ورائه خير أبدًا، يموت النّاس بسبب هذه المواجهات الحمقاء، أنت لا تريد لهذا أن يحدث.. أليس كذلك؟

التهبت عينا المُسخِّر في ضراوة وقد أخذ كلمات آدم على أنّها تهديد سافر وقال:

- لن أتراجع هذه المرّة! و الـ«كوتانا» لن يتدخّل لإنقاذك!

تلفّت آدم حوله، كانت هناك جموع محتشدة من حولهما غادرت المحاكمة وجاءت لتشهد حدثًا مثيرًا آخر، لكن لا أثر للحكماء في مجال بصره، كانت لديهم محاكمة مستعصية تشغلهم ولا شكّ أنّهم يتداولون بشأنها في مكان ما، قال في ضيق:

- لستُ متفرّغًا لهذه التّرهات.. اسمح لي بالمرور!

حاول شقّ طريقه بين الواقفين لكنّ الشبّان تكتّلوا لمنعه، قال مروان بلهجة حازمة:

- هذه تقاليد شعبنا.. عليك أن تقبل التحدّي!

حدجه آدم بنظرة منزعجة، ما الذي يريده هذا الصّغير أيضًا؟ هل يعتقد أنّه قد غدا ضمن الكبار بمجرّد اجتيازه اختبار التخرّج؟

- دعه يذهب!

كان صوتها ما حطَّم السدّ الذي تصنعه أجسامهم، تباعدوا في إذعان حين جاء أمر الـ«ماغداخا»، لم يلتفت آدم ليلُقي عليها ولو نظرة واحدة بل اندفع عبر المجال المفتوح بسرعة وانفعال وابتعد على الفور بخطوات واسعة، ابتعد ما وسعته قدماه أن يفعل.

***

حين جنّ الليل كان آدم محاطًا بالأشجار الدّاكنة، توغّل داخل الغابة بإصرار، لن يأتي أوران لملاحقته داخل الغابة، مشى حتّى تورّمت قدماه بفعل الأغصان الشّائكة والحصى.. في الحقيقة لم يكن أوران يطارده على الإطلاق. كان يفرّ من عجزه ويأسه وخوفه وجبنه وكلّ الأحاسيس المباغتة التي تعجن روحه وترهقها!

لم يكن يُفترض أن تسير الأحداث في هذا المنحى!

لقد اكتشف أنّه مُسخَّر! إنّ حياته على وشك التحوّل تحولًا باهرًا، هذا ما اعتقده أمس فقط وهو يقف بين الحضور يشاهد اختبارات التخرّج في يوم البومة! غير أنّ الوهم تلاشى بسرعة كما ظهر، تناهى إليه نعيب البوم المختبئ بين أغصان شجرة ما، لقد كانت البومة شؤمًا عليه! لم يكن يتطيّر ولا يتشاءم بالحيوانات الأسود منها والأبيض لكن صوتها تلك اللّيلة لا يعدّه بأيّ عزاء. استند إلى جذع شجرة وهو يلهث، كان يحتاج إلى البكاء بشدّة لكنّه لم يفعل وإنّما استمر في الفرار بلا وجهة حتّى لا ينهار.

ربّما يكون الحرّاس بالقرب، وربّما كان مُرَاقبًا هنا أيضًا، لن يكون أشدّ عزلة في الغابة عنه داخل الكوخ، لم يأتِ أحد لطرده أو تهديده أمس ولن يفعل أحد اليوم لكنّه لم يعد يحتمل رؤية الوجوه المزيّفة! لا يريد أن يرى أحدًا منهم؛ الحكماء والـ«ماغداخا» والـ«بندار» وكلّ الآخرين الذين تظاهروا خلال الأيّام الماضية بالودّ تجاهه، لقد انتهى من هذا المكان، لم يعد إليهم في الماضي ولن يفعل أبدًا! لم يعتبروه واحدًا منهم في أيّ وقت، عمّار وروان.. لقد سخرا منه وهو لن يسمح لهما بالشّفقة عليه أو التّظاهر بالتعاطف!

لكنّ أشدّ ما يؤلمه هو أنه فعلًا في أشدّ أوقات الحاجة لم يجد أحدًا غيرهما، لقد وقف عمّار أمام الحكماء واقترح البحث عن شهود إضافيين! وتدخّلت روان لتنقذه من تحدّي أوران كما فعل والدها في السّابق، لقد كانا دائمًا حليفيه الوحيدين وهذا ما يزيد من إحساسه بالقهر!

لم يكن يريد أن يطرق بابهما لأنّ هذا هو الخيار المنطقيّ الوحيد المتاح أمامه، ومن أجل ذلك يستمرّ في الابتعاد حتّى يتوقّف عن التّفكير، اليوم لا يريد منطقًا ولا حلولًا، يودّ أن يختلي بنفسه ولا يسمع شيئًا غير لهاثه ولا تقف نظراته على بشر، ربّما إذا حالفه الحظّ قد يعثر على شجرة «السانترا الأصليّة» من الأسطورة فيتسلّقها ليبلغ قرص الشّمس!

انحنى عند جدول الماء، اكتشف في ذهول الصّورة التي عكستها صفحة الماء الرقراق، لم تكن صورة آدم الذي يعرفه: لقد استطال شعره ونبتت لحيته بشدة لأوّل مرة! كان وجهه حليقًا منذ أسبوعين ويكسوه زغب قصير حين عثر عليه سكان الجزيرة، لكنه لم يطالع وجهه في مرآة منذ غادر «الأسطورة».. هل يبالغ إذا تخيّل نفسه شبيهًا لروبنسون كروزو؟ إنّه كذلك في هذه اللّحظات بالذّات: وحيد وشريد!

شرب بنهم كأنّما ركض إلى نهاية العالم، امتلأ بطنه لكنّه لم يرتو، ظلّ طعم المرارة عالقًا في حلقه حين رفع رأسه منقطع الأنفاس، استلقى على العشب وحدّق في السّماء الملبّدة بالسّحب ثمّ بكى في صمت.

(14)

اليوم الرّابع عشر

حين استيقظ صباحًا، كان يشعر بالضّعف والخواء، لم يأكل شيئًا يوم أمس، قرقر بطنه بشدّة مثل برميل يقرع جدرانه الهواء، لم يفكّر هذه المرّة في نطف الفاكهة البريّة، غسل أطرافه عند الجدول وشرب مرّة أخرى بتمهّل ودون إفراط ثمّ استأنف المسير.

توقّف عند شجرة تعلوها خليّة نحل، فكّر أنّ العسل سيكون آمنًا للاستهلاك، لقد أمضى الأيّام الماضية يُفطر على العسل والسّمن الذي تقدّمه زوجة الحكيم، كان يهمّ بتسلّق الشجرة حين انتبه إلى الوعاء الخشبيّ أسفلها، أحدهم ترك قدرًا صغيرة من العسل في متناول اليد، تلفّت آدم في حذر.. ربّما يكون جامعو العسل قد عبروا من هناك منذ وقت قريب. حين لم يبصر أحدًا تناول الوعاء بحرص، تشمّم السائل المائع فغمرت الرّائحة الطازجة حواسه ثمّ غمس أصبعه داخله ولعقه بنهم، كان حلوًا وثخينًا، سرت في جسده متعة الاكتفاء بعد بضع رشفات، منحه العسل الطاقة التي يحتاج إليها.

أعاد الوعاء نصف فارغ إلى مكانه وقد تملّكه الانتعاش.. يشكّ أنّ أحدهم قد ترك العسل من أجله، الرّاجح لديه هو أنّ الـ«آم» المتآلفين مع الطّبيعة حين يجنون العسل يتركون نصيبًا من المحصول لحيوانات الغابة التي تقاسمهم الأرض ومواردها.

فكّر تاليًا في تسلّق الجبل، أراد فجأة أن ينغمس وسط الظلة الكثيفة، انتابه فضول لا يمكنه تفسيره تجاه الإحساس الذي قد يصاحب تجربة كهذه، ثمّ سيكون من المفيد أن يلقي نظرة على الجزيرة كلّها من مكان مرتفع.. عدل عن الفكرة حين قدّر أنّ النتيجة لن تستحقّ المشقّة ثم فكّر في مغامرات أخرى ينفق عليها بعض ساعات النّهار إمعانًا في الهرب مما ينخر داخله من ألم.. ثمّ، حين استنفد أفكار التّشتيت أخذ يتتبّع الجدول في اتّجاه القرية.

مكث خلف الأحراش على حدود المساكن المأهولة.. كان الهدوء مسيطرًا في تلك الآونة من الصّباح فأقدم على عمل متهوّر وبلا معنى، تسلّل إلى أقرب منزل، اقتحم المدخل الذي لم يكن موصدًا ومضى باتّجاه المطبخ، أحدث فوضى عارمة وهو يبحث بين العلب عن شيء يشبه الدّقيق! حين حصل على شيء يشابه القوام المنشود -ربّما دقيق الأرز- أخذ ينثر الغبار الأبيض على ذراعيه ووجهه! هل حسب أنّه سيكون خفيًّا هكذا؟! هل سيندمج في المشهد ويصبح غير مرئيّ أخيرًا؟ ألن يتوقّف النّاس في الطّرقات للتّحديق فيه والتّهامس بشأنه؟

تسلّل إلى الخارج في حذر بعد أن أنهى تنكّره، مشى بهدوء حتّى الشّارع الذي يقع فيه منزل المعالجة مارتا، تلفّت في ريبة وهو يقف على رأس الشّارع.. لقد شعر بالمراقبة الشّديدة في السّابق، إن كانت تخضع للإقامة الجبريّة فستكون مراقَبَة بالتّأكيد، لكنّه رغم ذلك لا يرى أحدًا في الجوار.. هؤلاء الحرّاس خبراء في التخفيّ!

أخذ نفسًا عميقًا ثمّ تقدّم بخطى ثابتة، كان عليه أن يبدو مثل زائر عاديّ يحتاج إلى خدمات المعالجة، أمِل -بسذاجة- أنّ تنكّره المرتجل سيُبعد

العون المتطفّلة عنه. قبل أن يطرق الباب انفرجت الدّفّة فجأة وظهرت السيّدة مارتا أمامه مبتسمة وهي تقول:

- كنت في انتظارك! لماذا تأخّرتَ؟

أفسحت له المجال حتّى يدلف إلى الدّاخل فانصاع دون تفكير. على المائدة كانت هناك وجبة سمك دسمة، لم يكن موعد إحدى الوجبتين اللّتين يحرص عليهما سكّان الجزيرة، خمّن أنّها ربّما تتناول إفطارًا متأخّرًا، قالت في انزعاج:

- هل ألقى عليك أحدهم كيس دقيق أرز؟ اذهب واغتسل بسرعة!

أشارت إلى طِست مليء بالماء في زاوية الغرفة فأطاعها في خجل، غسل وجهه وذراعيه حتّى تساقط كلّ العجين الأبيض ثمّ جفّف نفسه بقطعة قماش نظيفة، عاد ليجلس قبالتها وهو يشعر بالإحراج فأشارت إلى الطّبق أمامه وأمرته:

- كُل! أنت لم تحصل على وجبة منذ يومين، لا شكّ أنّك تتضوّر جوعًا، كان يجب أن تأتيني أبكر.. لقد برد الطّعام.

أطاعها مرّة أخرى في إذعان، تساءل في حيرة: التّحكم، هل هي هبة تأتي تلقائيًا مع قدرة العلاج؟ المعالجات ذوات مزاج حادّ ويحببن إلقاء الأوامر باستمرار فلا يجد المرء بدًّا من الطّاعة. تناول إفطاره بهدوء، كان جائعًا وقد احتاج إلى تلك الوجبة بشدّة، حين انتهى نظر إليها في رجاء وقال:

- أنت تعرفين مَن أكون، أليس كذلك؟ وتعرفين أبي؟

تنهّدت وهي تقول:

- لم يكن عليه المجيء! كان يدرك أنّه يعرّض حياته للخطر..

أردف آدم في لهفة:

- نعم، حياته في خطر الآن، لقد كان هناك شاهد قال إنّه يذكر ما حدث.. لكنّه لا يقول الحقيقة، أنتِ يمكنك المساعدة.. أليس كذلك؟

هزّت رأسها في أسى ثمّ قالت:

- ليتني أستطيع، لكنّني لم أكن هناك!

اتّسعت عينا آدم حين أدرك ما ترمي إليه، بالتّأكيد لم تحضر النّزال لأنّها كانت في مكان آخر، لقد ذهبت إلى الكهف لتسرق حجرًا من أجل ابنتها في الوقت الذي انشغل فيه الآخرون بالقتال بين الرّجلين، انخفض كتفاه في استسلام، لقد كانت أمله الأخير، إن لم يظهر شاهد آخر يقول شيئًا في صالح والده فلن ينجو.

قالت مارتا في شرود:

- من يذكر الحادثة بكلّ وضوح.. لا يمكن إلا أن يكون طرفًا فيها!

- ماذا تقصدين؟ لقد قال الشّاهد إنّ والدي أخرج الحجر من جرابه.. لكنّ أحدًا ما ألقى الحجر على الأرض بينهما، لم يلحظ أحد الحركة لكنّ الحجر ظهر فجأة أمامهما..

بتر آدم عبارته وشهق حين أدرك حقيقة الأمر، لا يمكن لمواطن على الجزيرة أن يرتكب جريمة دون أن يواجه خطر النّفي وإن أراد أحدهم أن يتخلّص من شخص آخر فإنّه سيجد فرصة خفيّة لتنفيذ مراده دون أن يورّط نفسه.. مثل استغلال حضور رجل غريب ووضع سلاح الجريمة أمامه، لن يعرف أحد تفاصيل الحادثة الدّقيقة باستثناء القاتل والضحيّة والخطّط للعمليّة كلّها.

وقف آدم على الفور وهتف في امتنان:

- شكرًا لك!

لم يدر ما الذي يمكنه عمله بتلك الفرضيّة التي تفتقر إلى الأدلة لكنّه خيط سيسعى إلى تتبّعه بشكل ما. حين صار خارج البيت انتبه إلى الشّخص الذي وقف في انتظاره، تسمّر فجأة في جزع ثمّ ما لبث أن تنفس في ارتياح، لم يكن أوران، لم يكن مطارَدًا.. كانت روان، لعلّها أدركت أنّ جدّته هي الشّخص الوحيد الذي سيحاول اللّجوء إليه في هذا الظّرف الحرج، لم يستطع أن يتجاهلها هذه المرّة، وقف متردّدًا إزاءها حتّى قالت بلهجة محايدة:

- أبي يريد أن يراك.

***

تبعها آدم عبر الطّرقات الخالية في صمت حتّى داخل البيت وهو يشعر بالانقباض والنّفور، لم يكن غضبه قد تبدّد لكنّه استطاع أن يضبط انفعاله ويتحلّى ببعض الموضوعيّة، مهما كانت السّبيل التي ينوي سلوكها فإنّه لن يصل إلى أيّ نتيجة بمفرده، سيحتاج إلى مساعدة حليفيه الاستراتيجيين: الـ«ماغداخا» والـ«كوتانا».

استقبله عمّار بابتسامة سمحة وأشار إليه بالجلوس قبالته، كانت هناك بعض قطع الفاكهة على المائدة وشراب التّوت مرّة أخرى. تحامل آدم على نفسه واستقرّ جالسًا على البساط كأنّما سخطه وثورته لكنّه لم يقدر على منع فرائصه من الارتعاد بحركة لا إراديّة وقد أضاف ذلك غيظًا إلى غيظه، لم يرد أن يعتقد الحكيم أنّه يخشاه لكنّه كان كذلك! إنّه خالق ووجد ومطارد، لم يكن يملك خيارًا عدا الاستماع إلى ما يريده الـ«كوتانا».

أشار عمّار إلى كوب العصير أمامه في دعوة لضيفه غير أنّ آدم لم يحرّك كفّه في اتّجاهه هذه المرّة، حافظ على تباعده وترفّعه وثبّت نظرة العداء بين عينيه.

- كيف حالك يا بنيّ؟ أعرف أنّك تمرّ بأوقات صعبة لكنّنا لا نأخذ المرء بجريرة ما اقترفه أبوه، أنت في أمان ولست مضطرًا إلى الاختباء.. هل تحتاج إلى الحماية؟ إن كنت لا تشعر بالطمأنينة فسنوفّر لك حراسة خاصّة!

رفع آدم حاجبيه في صمت، ليست حياته وحدها على المحكّ، إنّه يخشى على والده لكنّ الحكيم يتغاضى عن ذكر هذا ثمّ إنّ فشل مهمّته يعني تهديدًا لحياة والدته التي بقيت في الدّيار، باختصار كانت عائلته كلّها معرّضة لخطر مميت وهو يشعر بأنّ أقدامه تغوص أكثر مع كلّ خطوة ولا مهرب!

أمام صمته أضاف الحكيم في لهجة جادّة وقد قرأ على ملامحه ما يشغله:

- أنت تفكّر بوالدك.. ووالدتك أيضًا، لكنّ أهمّ شخص يحتاج إلى تركيزك في الوقت الحاليّ هو أنت! حياتك في خطر يا بنيّ!

- ماذا تقصد؟

كانت عينا آدم متّقدتين حيرة وخشية..

- لقد سمعت طلب الأمّ المكلومة.. إنّها تريد القصاص! لقد حاولت أن أكسب بعض الوقت من أجلك بتوجيه النّداء للشهود المحتملين.. لكنّني أعرف أكثر من أيّ شخص آخر في أيّ اتّجاه سيمضي المجلس، سوف يكون هناك نزال حتّى الموت! سيطلب المجلس من والدك ترشيح «بطل» يقاتل باسمه لكنّ والدك لن يرضى وسيختار القتال بنفسه، لكنّك بطبيعة الحال لن تقف متفرّجًا

ولن تسمح بتعريض حياة والدك الكهل للخطر.. اليوم، كالأيام
أمّا أهل القتيل فسيرشحون طرفًا يمثّلهم.. ولست أشك لحظة
واحدة أنّه سيكون «بندار»!

شحبت سحنة آدم حتّى صارت تحاكي وجوه السّكان الأصليين للجزيرة في بياضها وزاغت عيناه حتّى كادتا تغادران محجريهما، بما أنّه لا مهرب له من مواجهة الـ«بندار» الذي ما زال يصرّ على قتاله علنًا!

- لا تخف.. سأساعدك.

- تساعدني؟ كيف؟

قال عمّار بهدوء:

- أعرف أنّك تملك هبة التّسخير أيضًا!

ارتجفت أطراف آدم ثمّ قال بمرارة:

- ربّما أمتلك الهبة لكنّني لا أجيد استخدامها!

ابتسم عمّار في ثقة وهو يقول:

- بلى أنت تفعل، أنت لم تتدرّب على التّسخير بعد لكنّك تُبلي بلاءً حسنًا.

قال آدم في انزعاج:

- لا أعتقد أن موهبتي تقارن بقدرات أيّ مُسخِّر -مهما كان مبتدئًا- على الجزيرة!

اتّسعت ابتسامة الحكيم قبل أن يضيف:

- لقد سبق أن قدّمتَ عرضًا مدهشًا على مرأى من جموع غفيرة!

قال آدم في حدّة:

- لقد كانت مجرّد خدعة باستخدام مغناطيس.. أنت تدرك هذا على الأقل: لم يكن تسخيرًا من أيّ نوع!
- آه، وهذا أيضًا، في الحقيقة، لقد أدهشت الجماهير في مناسبتين حتّى الآن، لدينا إذًا أرضيّة خصبة صالحة للاستثمار..

قاطعه آدم في دهشة وهو يقول مؤكّدًا:

- لقد كانت مرّة واحدة في حفل الزّفاف!
- أنت مخطئ.. لقد قدّمتَ عرضك الأوّل قبل ذلك بأيّام، لقد شهد كثيرون الوميض المضيء الذي انفجر في عرض البحر ليلة وصولك!
- أيّ وميض؟
- كنتُ في المعتزل في ذلك الوقت لكن حين عودتي كان كثيرون يتناقلون الخبر في حيرة.. لقد كان تركيز الطاقة مذهلًا.. أضاء السّماء في لمحة خاطفة مثل لمعان البرق، لكن لزمن أطول وببريق أكثر سطوعا!
- ربّما كان برقًا فعلًا؟

ضحك عمّار، ثمّ قال:

- أنت تستهين بقدرة الحرّاس على تمييز البرق الطّبيعيّ من صنيع المُسخِّرين؟
- إذًا.. أنت تقول...
- نعم.. أقول إنّك في وقت الخطر وأنت محتجز داخل الحوّامة الغارقة تمكّنتَ من التّسخير! رغم أنّك لم تنل تدريبًا حقيقيًّا، أليس هذا مدهشًا؟

ضحك آدم وقال في حيرة:

- لم يكن بحوزتي حجر حتّى!
- بالضّبط! لقد سحبتَ الطّاقة من جزئيات الماء المشبعة بالمادّة المتوهّجة وحوّلتها لانفجار ضوئيّ مكّنك من خلع بوّابة الطّائرة من مكانها والطّيران حتّى الشّاطئ! هل تعرف كم مُسخّرًا سيكون قادرًا على الإتيان بالعمل ذاته؟ عددهم ضئيل جدًّا.. جدًّا، لقد كان حدثًا استثنائيًّا وقد رآه كثيرون من مسافة بعيدة!

اضطربت أنفاس آدم، لم يعد يستمع بعد ذلك، غاص في بئر أفكاره المرتبكة.. هل كان هو حقًّا مَن فعل ذلك؟ لقد ظهرتْ الصّور في رأسه ظهورًا مشوّشًا حين طار المُسخّر أمام عينيه، ظنّ أنّ ذكرياته كانت تخصّ مُسخّرًا آخر ظهر في اللحظة الحاسمة وسط المحيط لينقذه وأباه، وهو يُمعن التأمّل في الأمر.. لم يعد يجد التّفسير منطقيًّا، ما الذي قد يأتي بالمُسخّر إلى عرض البحر في الظلمة من أجل مهمّة إنقاذ عاجلة.. ثمّ يختفي على الفور؟ إن كان قد أراد إنقاذهما فلماذا لم يأخذهما مباشرة إلى القرية؟

هل كان هو حقًّا؟ هل فعلها؟ حين كان يستلقي على الشاطئ وساقاه مغمورتان بالماء شعر باحتراق طفيف في أطرافه كأنّ الماء المالح يؤذيه، يحدث ذلك حين يكون الجلد متقرّحًا أو به خدوش أو جروح مكشوفة، لكّن ساقيه كانتا سليمتين حتّى تلك اللّحظة.. هل كانت المادّة المتوهّجة في الماء تلسعه؟ لقد شعر بلسعات مشابهة لاحقًا.. لكنّ قدميه كانتا قد خُدشتا كثيرًا بسبب المشي حافيًا.

لقد رأى باب الطّائرة المتداعي وأيقن أنّ قوّة شديدة قد تسبّبت في تحطيمه.. لا يمكن أن تكون تلك قوّته هو! لكنّه لا يستوعب، لماذا قد يكذب عليه الحكيم بهذا الصّدد؟ لماذا قد يوهمه بأنّه يمتلك موهبة خارقة

عبر حفيفة؟ لكنّه «بندار» فعلًا -يدرك هذا على الأقلّ- إذ تفاعل الحجر مع لمسته!

- أنت لا تصدّقني الآن، الصّدمة أنستك التّفاصيل لكنّها ستعود إليك حين تبدأ التّدريب، ستذكر تفاصيل عمليّات التّسخير السّابقة تدريجيًّا.. وأنا واثق أنّها أكثر من مناسبة واحدة!

تمتم آدم في شكّ:

- لكنّني لستُ جاهزًا.. لن أتمكّن من التغلّب على «بندار» أبدًا!!

- أنت بحاجة إلى تدريب قبل أن يحين موعد النّزال، المجلس سيحدّد موعدًا.. خلال أسبوع واحد كأقصى تقدير، وستتدرّب في هذه الأثناء.

أسبوع! إنّ المُسخِّرين الشبّان يمضون سنوات في تدريبهم قبل أن يصبحوا قادرين على التحكّم في موهبتهم تحكّمًا كاملًا، إنّها عمليّة انتحاريّة! ابتسم آدم في إشفاق من المهمّة المستحيلة لكنّه في الوقت الحاليّ لا يملك إلا أن يجاري الحكيم، في نهاية الأمر سيكون من المفيد أن يتدرّب على التّسخير.. تلك هبة لن يرفضها، سيحرص على إتقانها ما أمكنه ولعلّها فرصته الوحيدة للنجاة بحياته وإنقاذ والديه.

تساءل في سرّه عن سبب مساعدة الحكيم له، عمّار بات ينتمي إلى تلك الجزيرة وأهلها، ابنته هي الـ«ماغداخا» وولده «بندار» ثمّ إنّه لم يبد على وفاق مع أشرف حين التقيا، غير أنّه حليفه الوحيد الآن، ربّما يمدّ يد العون إكرامًا لعلاقتهما الآنفة وذكرى الأيّام الخوالي، تمتم في تأثّر:

- لا أدري كيف أشكرك على مساعدتك الجليلة!

- سوف تشكرني في الوقت المناسب حين تنتهي من هذا كله وتكون والدتك في أمان وأنت كالملك.. سأطلب منك رد الخدمة!

هتف آدم على الفور:

- أي شيء! إذا نجحت في التسخير وتغلبت على الأشرار سأفعل أي شيء تطلبه مني!

رمقه عمّار كتفه موازنًا:

- أنا واثق أنك ستفعل.

سأل آدم فجأة:

- إذًا لقد عرفت منذ البداية بشأن قدرتي على التسخير.. لكنك رغم ذلك وضعت القلادة أمامي لتختبرني حين زرتك..

ابتسم عمّار وقال:

- نعم، لقد عرفت، لكنّ التأكد واجب، إنها هبة عظيمة ولا يمكنني أعتمد في توثيقها على الاستنتاج وحده، كان يجب أن أرى بعيني ماذا لو كان المُسخّر شخصًا ثالثًا رافقكما في الطائرة؟!

ابتسم آدم بدوره وأطرق ساكتًا، تابع الحكيم:

- لقد طلبتُ إلى روان أن تأخذك في زيارة إلى الكهف، فلتتذكر أن ذكريات التسخير قد تعود إليك مع بعض التحفيز!

رفع آدم حاجبيه في دهشة وحانت منه التفاتة عابرة إلى ركن الغرفة حيث وقفت روان في سكون تتابع الحوار دون أن تشارك فيه ثم عاد بانتباهه إلى محدّثه، لقد تساءل عن هدفها من أخذه إلى هناك وانتابه الارتياب ثم أدرك متأخرًا أنها قد فعلت بإيعاز من الـ«كوتانا» وموافقة منه وليس تحقيقًا لقوانين قومها كما كانت توهمه، لكنّ أيًا مما أراده الحكيم لم يحدث!

فاجأه عمّار حين سأله فجأة:

- حين كنتَ في الكهف.. هل رأيت شيئًا مميّزًا؟

***

شعر بخطوات روان تتبعه بهدوء، كانت قد لزمت الصّمت طيلة الجلسة مع والدها، قال في سخرية دون أن يلتفت إليها:

- أعرف الطّريق جيّدًا لستِ مضطرّة إلى مرافقتي!

قالت في وجوم وهي تقترب حتّى تحاذيه:

- قالت ريحان إنّك لم تلمس طعام أمس حين أوصلتَ طبق الإفطار.

- آه، يا للرّحمة! أما زال الطّعام يُرسل إلى منزل الـ«أيتورا» المتّهم بالقتل؟

تجاهلت تهكّمه وهي تسأل في اهتمام:

- أين كنتَ بالأمس؟

استمرّ باللّهجة الحادّة نفسها:

- لا تجعليني أصدّق أنّ الحرّاس كانوا عاجزين عن تحديد موقعي؟ سأصاب بالغرور هكذا!

عبست ولم تعلّق، لم يكن في مزاج حسن.. وهل يمكنها أن تلومه في ظلّ الظّروف القاتمة التي تحيق به؟ هدأت حدّته بعد حين، لم تكن الملامة في أيّ ممّا حدث ولم يكن عليه التّنفيس عن غضبه في وجهها، أخذ نفسًا طويلًا ثمّ زفر بهدوء، كان عليه أن يستعيد ثباته ويفكّر باتّزان، ألقى عليها نظرة جانبيّة ثمّ سألها بلهجة ليّنة في شبه اعتذار:

- هل سبق لوالدك زيارة الكهف؟

قالت روان مستنكرة:

- بالتأكيد لم يفعل! إنّه ليس «بندار» أو معالجًا.

- ألا تعتقدين أنّ الفضول قد غلبه مرّة على الأقلّ خلال خمسة وعشرين عامًا؟

عبست وهي تقول في استعلاء:

- أبي يحترم قوانين قومنا.

ابتسم آدم في إشفاق، لعلّه لا يملك إيمانها بوالدها، إنّ ما عرفه عن الرّجل عبر لقاءات قليلة يجعله يعتقد العكس تمامًا، لقد زار عمّار الكهف ولمح الألواح، تلك حقيقة ثابتة بالنّسبة إلى آدم! ولعلّه أوحى إلى ابنته بأخذ آدم في تلك الجولة لا من باب الكرم بل على سبيل الاختبار، ربّما يعتقد عمّار أنّ آدم قادر على قراءة الألواح وترجمتها، أو يرجو ذلك على الأقل. لمعت في ذهنه تلك الفكرة وتنامى بداخله الفضول تجاه ما تخفيه الألواح المتبقية.

اليوم الخامس عشر

- إن لم تكن مهتمًا فلديّ أعمال أكثر أهمّية أؤديها!

ارتبك آدم وتراجع خطوة ليسمح للرّجل بالمرور إلى داخل الكوخ، لم يكن يريد أن يضيّع الفرصة الثّمينة قبل أن تبدأ وقد كان المسخّر ذا هالة طاغية أثارت في نفسه الرّهبة، وقف في وجوم منتظرًا التّعليمات، قال الـ«بندار» أخيرًا:

- اجلس!

امتثل آدم في تململ وترقّب أن تبدأ الأشياء الجادّة.

- متى يبدأ التّدريب؟

- يجب أن نتحدّث أوّلًا حتّى أضع خطّة من أجلك.. لقد فهمت أنك لم تتدرّب على التّسخير من قبل؟

أومأ آدم بسرعة، سأله المسخّر ثانية:

- هل اجتزت الاختبار؟

- تقصد التّفاعل مع «حجر الشّمس»؟ لقد حدث ذلك في حضور «كوتانا» عمّار و«ماغداخا» روان.

كانت نظرات نوح تتفحّصه بإمعان كأنّما يجد شيئًا غريبًا بشأنه، قال فجأة بلهجة آمرة:

- ابسط كفّيك!

فتح آدم راحتيه ومدّهما أمامه دون تفكير، مرّر المُسخِّر كفّه فوقهما ببطء وقد بدا عليه التّركيز، ثمّ رفع حاجبيه في دهشة وسأل في اهتمام:

- متى تعرّضتَ آخر مرّة لتأثير الـ«مادرا»؟ أقصد عن قرب وبتركيز؟

حاول آدم أن يتذكّر أيّ مناسبة تنطبق عليها المواصفات، قال في تردّد:

- حين لمست قلادة الـ«كوتانا»!

- متى كان هذا؟

- منذ أسبوع..

- وغير ذلك؟

قال في تردّد:

- زرتُ الكهف منذ ثلاثة أيّام!

- هل لمستَ شيئًا هناك؟

- لا!

باستثناء الشياطين الممسوخة؟ لكنّه عدل عن الاعتراف بذلك خشية إثارة حفيظة الـ«بندار» الصّارم، لقد كانت لمسة عابرة ويشكّ أنّها قد تصنع أيّ فرق، لم تكن التماثيل مصنوعة من «حجر الشّمس»، بل من الجصّ!

لم تتلاش الدّهشة من ملامح نوح وهو يتأمّله في صمت ثم تمتم في شرود:

- هذا.. مذهل!

- ما هو؟ ما المذهل؟

كان آدم متلهّفًا للتّوضيح وقد أخذ الـ«بندار» يتكلّم أخيرًا:

- سأشرح لك عمليّة التّسخير.. إنّها عبارة عن استخدام جسد الـ«بندار» كناقل أو محوّل لطاقة الحجر لتظهر في شكل جديد مثل النّور أو القطع أو الرّياح..

أومأ آدم وهو يستحضر شرح روان في وقت سابق، لقد تحدّثت عن الألم الذي يلازم العمليّة ويتعوّده المُسخِّر بالممارسة، تابع نوح:

- بعض المُسخِّرين يحتاج إلى وجود الـ«مادرا» إلى جواره باستمرار، إنه يمتصّ الطّاقة ثمّ يسخّرها على الفور، جسده لا يحتمل تخزينها

إلا لثوانٍ قليلة أو دقائق على أقصى تقدير، قبل ذلك يكون التّدريب على التّسخير داخل الكهف حيث الـ«مادرا» متاحة بكميّات هائلة، تلك الطّاقة كفيلة بتحرير الهبة لدى أغلب المُسخِّرين المبتدئين، بعضهم لا يتمكّن من التّسخير باستخدام طاقة حجر صغير في البداية وقد لا يعرف لوقت طويل امتلاكه الهبة قبل أن يشرع في التّدريب، المُسخِّرون الأكثر مهارة يتمكّنون من الاحتفاظ بالطّاقة لوقت طويل نسبيًّا، لكن هذا...

استعجله آدم في نفاد صبر:

- هذا ماذا؟

- جسدك وعاء ممتاز للطّاقة! إنّه يحتفظ بما يمتصّه منها لوقت طويل، وهذا.. هذا أمر رائع حقًّا، قليل من المُسخِّرين من يملك هذه الهبة!

التهبت وجنتا آدم فخرًا وحماسًا، استطرد المُسخِّر:

- حين مرّرت كفّي على يديك شعرتُ بالطّاقة التي لا تزال مخزّنة في داخلك، إنّها أكثر من مجرّد بقايا لتعرّضك السّابق للـ«مادرا» داخل الكهف أو لقلادة الـ«كوتانا»...

- ماذا تعني؟

تأمّله المُسخِّر قبل أن يقول:

- حين قال أحد المُسخِّرين إنّك ربّما تكون قد امتصصتَ الـ«مادرا» من ذرّات الماء في المحيط حين سقطتْ مركبتُك وجدتُ هذا استنتاجًا متسرِّعًا وغير منطقيّ.. لكنّني الآن أجد هذه النّظرية ممكنة! أنت تمتصّ الـ«مادرا» باستمرار.. من الرّمال والهواء والأشياء التي تلمسها!

أطلق آدم ضحكة قصيرة منفعلة، كان قد بدأ يجد النّظريّات التي يضعها أهل الجزيرة بشأنه مسلّية، في البداية كانت نظريّة الـ«كوتانا».. والآن يضع الـ«بندار» نظريّة تهمّ قدراته الجسديّة، بدا أنّ جسده -الذي لا يدرك بعد مدى خرقه للعادة- يشكّل مصدر إلهام لدى كثيرين، غير أنّه لا يشعر بأيّ إلهام بعد، ضرب كفّيه معًا بقوّة ثمّ أشار بيده إلى السّقف في حركة دراميّة مفاجئة ثمّ باتّجاه الأرض كما شاهد أوران ومروان يفعلان لكنّ شيئًا لم يحدث، قال في مرارة:

- هل ترى، مهما كانت الطّاقة التي أختزنها فإنّها غير صالحة لشيء!

ابتسم نوح لأوّل مرّة ثمّ قال في اهتمام:

- القدرات الاستثنائيّة تحتاج إلى تدريب استثنائي، ربّما لن يُجدي معك التّدريب التقليديّ، قد أحتاج إلى بعض الوقت حتّى أتشاور مع مُسخِّرين آخرين بشأن الطّرق الممكنة لتحرير قدراتك.

زفر آدم متأفّفًا في خيبة:

- لن نذهب إلى الكهف إذًا؟

عبس المسخّر في استياء وقال يزجره:

- التسرّع والاستعجال ليست صّفات مثاليّة لمتدرّبي التّسخير، قد تكون نموذجًا استثنائيًّا لكنّك قد لا تكون شيئًا على الإطلاق إذا لم تتحلّ بالصّبر والمثابرة!

نكس آدم رأسه مثل طالب بليد فأضاف نوح بعد قليل بلهجة أكثر لينًا:

- لن نذهب إلى الكهف في الوقت الحاليّ، لأنّنا لا نريد أن نجذب الانتباه إليك.

أضاف بعد برهة بلهجة جادّة:

- ثمّ.. إذا كان الاستنتاج المتعلّق بطاقتك صحيحًا سيكون وجودك داخل الكهف خطرًا حقيقيًّا عليك وعلى الآخرين، تخيّل لو أنّ جسدك يقدر على امتصاص كميّة هائلة من الطّاقة دفعة واحدة.. لا يسعني التّفكير في تبعات ذلك!

غاص قلب آدم في صدره وقد تملّكه مزيج من الفزع والإثارة، هل يمكن أن يصاب بصعقة كهربائيّة إذا لامس المصدر، مثل ضربة برق مباشرة مثلًا؟ من حسن حظّه أنّه لم يحاول الإقدام على أي شي طائش حين رافق روان إلى هناك، كانت نظريّة المُسخِّر نوح تُشعره بالتململ وعدم الارتياح، لن يعود أيّ شيء في حياته إلى سابق عهده بعد الآن، وماذا لو امتصّ بطريقة عابرة دُفعة فائقة من الطّاقة.. هل يتحوّل جسده لقنبلة موقوتة؟ ارتجف للفكرة المرعبة!

كان يتطلّع إلى حصّة التّدريب الأولى لكنّها لم تحمل إليه سوى النظريات والوعود غير أنّها وعود كبيرة بحجم السّماء وخطيرة حدّ الموت! تمنّى في سرّه أن يعرف كيف يُطلق الشّحنات الحارقة قبل أن يحلّ موعد مواجهته لأوران، تمنّى أن يتوقّف جسده عن تخزين الطّاقة ويشرع في استخدامها على الوجه الصّحيح!

***

كان يوم عطلة بالنّسبة إلى سكّان الجزيرة وفرصة مرح عند الأطفال، لكنّ مزاج آدم لم يكن على أيّ قدر من البهجة. بعد أن غادر «بندار» نوح ظهرت ريحان والأطفال عند بابه ورغم رغبته في العزلة استسلم لرجائهم بمرافقتهم إلى الخارج، في نهاية المطاف كان الصّغار الصّحبة الوحيدة

الساحة في ذلك الوقت وقد سرّه ألا يتغيّر فضولهم تجاهه بعد الأحداث التي لمس والده ثمّ إنه كان يحتاج إلى تلقيّ بعض الأمور في الخارج أيضًا.

هل تريد المجيء إلى الصّخرة؟

سألت ريحان وهي تسير إلى جواره باتّجاه الشّاطئ.

الصّخرة؟ ما الصّخرة؟

إنّه مكان على الشّاطئ البعيد وراء الجبال.

ثمّ أضافت بهمس:

إنّه المخبأ السّريّ!

ابتسم آدم، كان يتساءل إن كانت هناك أماكن سريّة حقًّا على أرض الجزيرة؛ أماكن لا تصل إليها أعين الـ«كوتانا» وحرّاسهم، بحكم المساحة المحدودة والقدرات الخارقة كان يشكّ في الأمر لغير أنّه قال في لهجة جادّة لمجاراتها:

لا بأس.. لكنّني أحتاج منك إلى خدمة أوّلًا.

أومأت في اهتمام وقد سرّها أن يعاملها مثل الكبار، وشوش بصوت خافت:

هل رأيت الشّاهد الثاني الذي ظهر في المحاكمة؟ أين يمكن أن أجده؟

سوف أجده من أجلك!

كانت ريحان مفيدة جدًّا حين يتعلّق الأمر بالمواقع والإرشادات على سطح الجزيرة وكان على يقين أنّ المهمّة لن تشكّل أيّ صعوبة بالنّسبة إليها، همست بأسماء الأولاد المتجمّعين في ناصية الشّارع وأعلنت عن اجتماع طارئ

في انتظارها راقب آدم من موقعه الحركة المستمرّة من حوله، كان اليوم عطلة والسكّان يعودون إلى نسق حياتهم الطّبيعية بعد أسبوع مليء بالأحداث؛ عرض «بنّار» غريب، مركبة عجيبة تحطّ على الشّاطئ، محاكمة «أبتورا» عائدا انحسر مدّ اللّغط بعد أيّام من انتشار الشّائعات وعاد النّاس إلى مشاغلهم الصّغيرة الخاصّة لكنّه يتوقّع مزيدًا من الإثارة في القريب.. لم تنته العروض بعد!

عادت ريحان بعد دقائق قليلة وقد التمعت في عينيها نظرة انتصار ظافرة:

– لقد وجدت المكان! لكنّك سترافقنا إلى الصّخرة أوّلا؟

اتّسعت ابتسامته، لم يكن يمانع في اكتشاف المكان الخفيّ الذي لا يعرفه أحد، فلم يكن ينوي لقاء الرّجل قبل المساء على أي حال، إنه لا يريد شهودًا على اللّقاء أبدًا.

سار الأطفال إلى خارج القرية يتقافزون عبر الطّرقات الرّمليّة، يجمعون الأصداف اللّامعة ويلهون في مرح مثل كلّ الأطفال خاليي البال فتوهم آدم محاولًا أن يتناسى ما ينتظره في الأيّام المقبلة من تحدٍّ مع أوران وتحبس أمر الشّهود في محاكمة والده، إنه لا يريد أن يفكّر البتّة في مسألة القصاص!

سأل ريحان في استخفاف بعد أن استمرّ المشي بعض الوقت:

– هل هناك حقًّا مكان في الجزيرة لا يعرف الحرّاس بشأنه؟

قالت ريحان بلهجة جادّة:

– ليس الأمر أنّهم يجهلون أمره لكنّهم لا يكلّفون أنفسهم عناء تفقّده باستمرار..

– لأنّهم يتسكّعون في أثناء الحراسة؟

- بل لأنّ الوصول إلى ما وراء الصّخرة ينطوي على بعض المشقّة، سنرى بنفسك!

- وهل يعسُر على الحرّاس و الـ«بندار» اجتياز الصّخرة؟

- العبور يسير بالنّسبة إلى الـ«بندار» بالتّأكيد لكنّهم لا يضطلعون بمهمّة سطحيّة مثل الحراسة، إنّهم يوفّرون جهدهم وطاقتهم من أجل مهامّ أجلّ! الحرّاس.. إنّهم غالبًا أشخاص عاديّون، لا أقول إنّ الصّخرة قد تستعصي عليهم إلّا أنّها تحتاج إلى وقت وجهد فيغفلونها غالبًا، لا خطر قد يأتي من الجانب الآخر فهي تمثّل حاجزًا منيعًا أمام الغرباء.. مثلك.

قالت ذلك وهي تبتسم في شبه اعتذار.

بالتّأكيد، المُسخِّرون يوفّرون طاقتهم للأعمال الخارقة النّافعة، هل يُحسب من ضمنها إخراج حطام طائرة غريبة من قاع المحيط؟ لقد تعاون البحّارة و«بندار» نوح بكرم مثير للدّهشة، لم يُثر الأمر استغرابه في وقت سابق لكن مع استمرار تحليله للمواقف التي تعرّض لها بات يدرك ألا مصادفات مجانيّة تحدث، إن كان «بندار» نوح قد استجاب للنّداء فذلك لأنّه تلقّى أمرًا مباشرًا بالتّعاون من المجلس.. أو من «كوتانا» عمّار، لقد أراد عمّار له أن يستخرج المروحيّة لكنّه لا يدرك دوافعه بعد.

واصلت ريحان:

- حين يستدعي الأمر.. يتسلّق الحرّاس الصخرة لتفقّد الجانب الآخر.. إلا أنّنا نحرص على ألا نعطيهم أيّ مبرر لذلك.

كانت تبتسم في مزيج من الزّهوّ والمكر، هؤلاء الصّغار يعرفون كيف تسير الأمور ويستغلّون ثغرات النّظام، مع ذلك لازم آدم إحساسٌ بأنّ الحرّاس يعرفون بشأن لقاءات الصّغار على الجانب الآخر من الصّخرة

لكنّهم يغمضون أعينهم عن ذلك بإرادتهم، لقد بات يشعر أنّ «كوتانا» نوع من «الأخ الأكبر» الذي يستطيع بعيونه المبثوثة في كلّ مساحة من الجزيرة مراقبة الجميع رغم غياب التكنولوجيا التي تخيّلها «جورج أورويل»!

حين وصلوا إلى الموقع رفع آدم عينيه في ذهول أمام «الصّخرة»، كانت عبارة عن جدار حجريّ أصمّ من كتلة واحدة تكاد تلامس قمّته السّحاب في حين تحاذيه من الجانبين سلسلة من التّلال الأكثر ارتفاعًا، ربّما كانت الصّخرة النّقطة الأوطأ في الحاجز الجبليّ الذي يحمي الجزيرة من جهة الشّمال ولعلّ ذلك ما جعلها ملجأ الصّغار المنتقى.

بسرعة انتشر الصّغار على الجدار الحجريّ يتتبّعون علامات خفيّة حفظوها بفعل الممارسة، نتوءات تسند أقدامهم وتجاويف تستقبل أكفّهم الصّغيرة ليرتقوا إلى أعلى برشاقة ومهارة وخلال دقائق قليلة كانوا جميعًا قد أصبحوا على القمّة في حين وقف آدم يحدّق في الحجارة الملساء بارتباك المبتدئين، لم يكن يعرف من أيّ اتّجاه يبدأ!

تشجّع أخيرًا، مرّر كفّه على الجدار يبحث عن نقطة ارتكاز تسمح له ببدء الصّعود، تشبّث بالنّتوء الأوّل ورفع قدمه لتعانق السّطح الأملس وخلال ثوانٍ كان ينزلق إلى نقطة البداية وقد أصابت كفّيه الخدوش، تحامل على نفسه وانتقل إلى نقطة أخرى في إصرار، حاول ثانية وثالثة، لكنه لا يكاد يقطع خطوتين أو ثلاث حتّى يفقد توازنه ويهوي إلى الأسفل، كانت المهمّة مستحيلة.. بالنّسبة له على الأقل! كانت ريحان محقّة في توقعها بشأن الغرباء أمثاله.

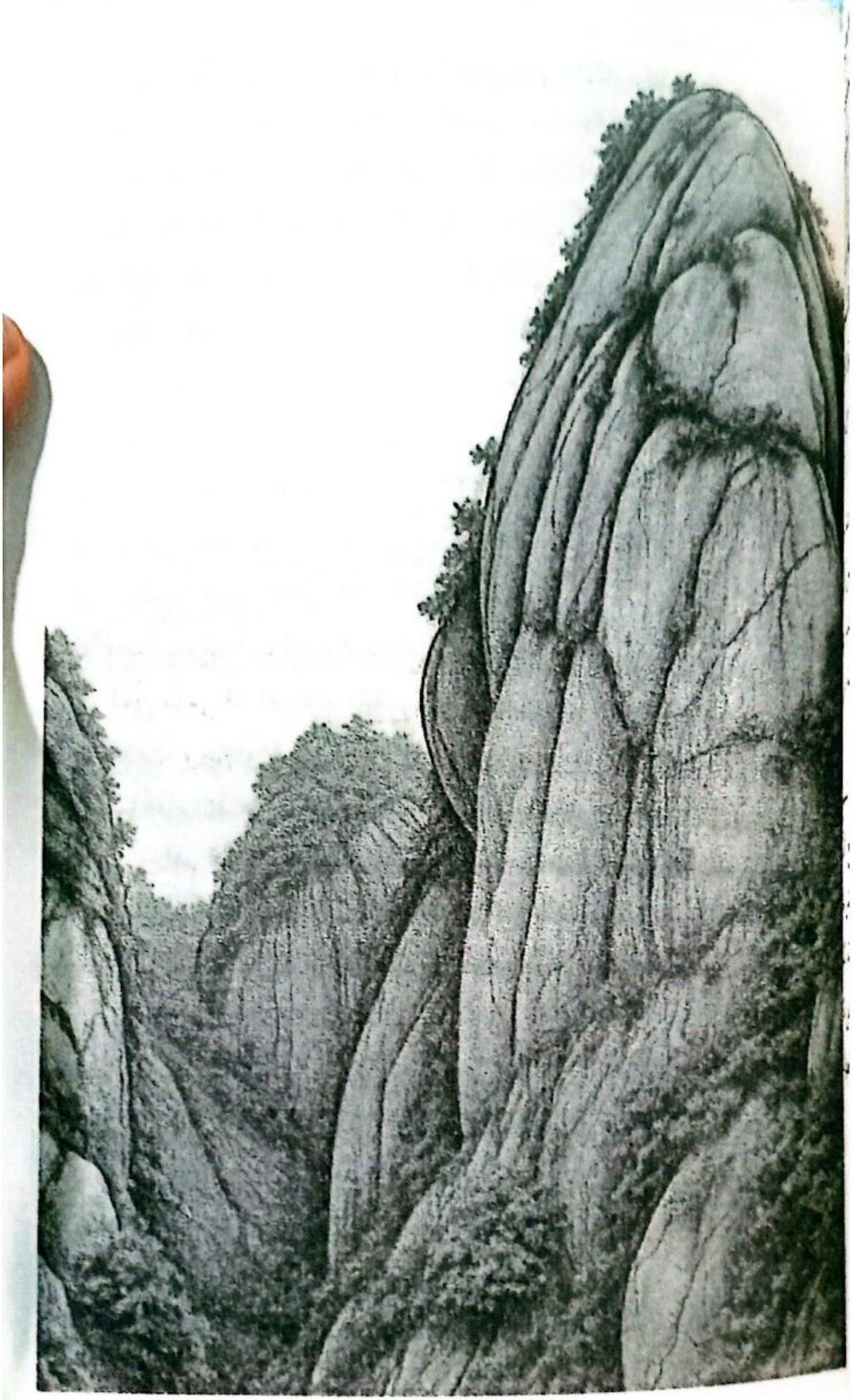

وضع كفّيه عند خاصرته في انزعاج وهو يلهث والعرق يتناثر على وجهه فيما كان الأطفال بالأعلى يكتمون ضحكات ساخرة مستمتعة، لعلّ أطراف الصّغار الضئيلة كانت عاملًا مساعدًا على التسلّق وربّما يكون للحجم علاقة وطيدة بالمهارة أو ربّما هو التعوّد والمران كثيرًا وربّما -وهو الأرجح- افتقاره إلى اللياقة البدنيّة المطلوبة!

هتف ماهر ذو الأربعة عشر ربيعًا من الجانب الآخر:

- انتظر.. لديّ فكرة!

بعد دقيقتين تدلّى حبل سميك من الأعلى؛ حبل احتفظ به الأطفال لأسباب يجهلها لكنّه كان متاحًا من أجله، ابتسم آدم بعد أن شدّ الطّرف وتأكّد من متانته ثمّ أخذ يرتقي ببطء متعلّقًا بالحبل وباطن قدميه يستند إلى سطح الحجر محاذرًا الانزلاق. مرّت دقائق أرِقّة من التعرّق وشدّ الأعصاب وتصلّب العضلات قبل أن يسحبه الأطفال إلى القمّة.

لعلّ ماهر قد اضطلع بالقسم الأكبر من المهمّة فقد انتفخت أوداجه واحتقنت وجنتاه بفعل الجهد المبذول. تنفّس آدم بعمق بعد أن استقرّ جالسًا أعلى الصّخرة، قاوم إحساسه بالخزي ليشدّ على كفّ الفتى بامتنان، قدّر أنّ ماهر قد يصير مُسخِّرًا يومًا ما، كانت مهاراته واضحة للعيان منذ الآن إذ يتمتّع بالقوّة الجسدّية وكذا ملكة حفظ وفهم وافرة لحظها آدم خلال حصص تحفيظ القرآن الكريم. كان «ماهرًا»، وله نصيب من اسمه وبوسعه أن يتنبّأ له بمستقبل زاهر.

ابتسم آدم أخيرًا وهو يلقي نظرة شاملة على المناطق المحيطة من كلّ الاتّجاهات ثمّ استدار ليواجه المنحدر باتّجاه الشّاطئ.

كان هناك شاطئ بالفعل على الجانب الآخر؛ شاطئ ضيّق وقليل الامتداد تحفّه الصّخور النّاتئة من الجهات الثلاث مثل ملاذ آمن، تتدلّى أغصان كثيفة تنبت مثل خميلة متشابكة خلال الحجارة وفوق الرّمال حتّى تلامس سطح الماء تُخفية تمامًا المساحة الرّملية الضئيلة عن القادم من جهة البحر، كان موقعًا منعزلًا لا يمكن بلوغه إلّا سباحة تحت حاجز الغطاء النّباتي أو من الأعلى بعد عبور حاجز الصّخرة، فكّر آدم أنّ المكان -عمليًّا- قد يكون خفيًّا بالفعل.

كانت رحلة النّزول أيسر بكثير رغم الخدوش التي خلّفتها الحجارة على باطن كفّيه وقدميه، بالنّسبة إلى أجساد الصّغار المرنة والمتمرّسة فقد كانت مغامرة اعتيادية لم تكلفهم إلا قدرًا معتدلًا من الإجهاد، لعلّ عمليّة سحبه كانت الجزئية الأكثر إرهاقًا، كانوا يتطلّعون إليه بعيون مبتهجة كأنّ مشاركة سرّهم مع الغريب يضفي عليه نوعًا جديدًا من الإثارة، فكّر آدم بامتنان أنّه قد كسب ثقتهم بالقدر الكافي حتّى يأخذوه إلى ما وراء الصّخرة وقد وجد في ذلك عزاءً في خضم الأسى الذي يغمره.

أسفل الصّخرة كان هناك مخبأ صغير يناسب أحجامهم؛ كهف مجوّف قليل العمق لا يزيد ارتفاع مدخله على المتر الواحد، يدلف الأطفال واحدًا إثر الآخر محنيي الظّهور ثمّ يجلسون في حلقة بالظلّ وقد تزايد حماسهم. بالدّاخل كانت هناك مجموعة من «الكنوز» الصغيرة التي عثر عليها بعضهم في البحر أو على الشّاطئ؛ حجارة ملوّنة مختلفة الأحجام -لم يكن أيّ منها ينتمي إلى الكهف والمادّة المتوهّجة- وأدوات قديمة بالإضافة إلى بقايا خشبيّة لآلات محطّمة.

حدّق آدم في الكومة بدهشة وهو يتقدّم على أربع داخل التّجويف، كان أطول من الاستمرار على قدمين داخل الكهف، للحظة راوده حلم مستحيل.. ماذا لو كان جهاز الإرسال وسط تلك الكومة؟

كان قد حرص على متابعة ما يُلقي به البحّارة في كومة الخردة كلّ يوم منذ رحلة الاستكشاف البحريّة آملًا التقاطهم الجهاز الضّائع في أيّ يوم. لم يكن يحتفظ بآمال عريضة لكنّه واظب على عمليّة البحث الروتينيّة لمجرّد منع نفسه من الاستسلام للهلع لكنّه لم يفكّر في وجود مخزن آخر للقطع الغارقة! انحنى في لهفة تحت العيون الصّغيرة المستغربة وأخذ يقلّب الأشياء في اهتمام لكنّ حماسه ما لبث أن خبا بعد دقائق حين أيقن من غياب الجهاز وسطها.

جلس على الأرض في إعياء وقد أثّر في مزاجه الارتفاع المفاجئ للأدرينالين ثمّ الهبوط الفوريّ مع خيبة الأمل، قالت ريحان في قلق:

- هل تشعر بالسّوء؟

همس في ضيق:

- لقد حسبت.. أنّني قد أجد شيئًا قيّمًا هنا.

- لا تقلق، سوف نجده.

ابتسم في فتور ثمّ أخذ يتابع بنظراته الأطفال الذين استسلموا للهو بريء على شاطئهم الفضيّ الخفيّ مستمتعين بحريّة وبهجة، إنّه لا يستطيع التّفكير باتّزان، يشعر أنّه يفقد البوصلة، ذهنه مشتّت باستمرار، باعتبا سيل المعطيات العجيبة التي تتدفّق داخل رأسه وجهاز الإرسال قد يحقّق أدنى فرق في ظلّ التغيّر الجذريّ في ظروفه!

لكنّه يتعلّق بأيّ شيء، أيّ شيء قد يعيد إليه اتّصاله بالعالم الخارجيّ. يضيع في تلك الجزيرة وقد بات يخشى ألا يرى والدته وعالمه مرّة أخرى

(16)

اليوم السّادس عشر

اللّوح الثّامن:

«احتجت إلى بعض الوقت قبل أن أتمكّن من التّواصل مع سكّان الجزيرة ثم فهمت بعد ذلك أنّهم يعتبرون الغرباء «شياطين»، وربّما بشبر لون البشرة إلى فصيلة مختلفة فهم لا يعرفون بشرًا غير شعبهم، إنهم يراقبون الغرقى الذين تلقي بهم الأمواج على شواطئهم دون أن يجرؤوا على الاقتراب منهم فيرونهم يختنقون وتغمر أجسامهم البضة حتّى توافيهم المنيّة، يموت الشياطين دائمًا بفضل صلوات الأسلاف ونعاويذهم الحامية، لقد كسبت تقديسهم واحترامهم لأنّني نجوت من لعنة الشياطين فسجدوا لي رهبة وتعظيمًا».

اللّوح التاسع:

«أسجل هنا مذكراتي بعد مرور سنتين ونصف من وصولي إلى الجزيرة تعلّمت خلالها لغة السّكان وعلّمتهم العربيّة فيما احتفظتُ بالبرتغالية لنفسي، لتدوين مذكّراتي السرية. جاء إلى هذه الأرض في هذا الزمن ثمانية غرباء ماتوا جميعًا بلا استثناء، طلبت من الـ«ماغداخا» إجراء بعض التجارب لتطوير عقار مقاوم لمفعول الـ«مادرا»، السّكان

الأسباب يمتلكون قدرة جسدية تمكنهم من التأقلم وقد تحدت دماؤهم المادة المقاومة، بامتلاك كل المحاولات بالفشل حتى الآن.

اللوح العاشر:

«خمس سنوات وشهران بعد الوصول، لأول مرة ينجح العقار في إبقاء ضوء على قيد الحياة، لم أكن يومًا معالجًا أو مسيانيا لكنني أشعر بأنني ساعدت هؤلاء القوم على التواصل مع العالم الخارجي بعد إنقاذ رجل من القارة الشمراء تحدثت إليه بالشواحلية وسألته عن أحوال العالم الذي هجرته، شعرت بالحنين والشوق إلى موطني مجرد القمر لكنني صرت أدين بالولاء لموطني الجديد «أرا» الذي منحني الكرامة والعزة اللتين فصل عليّ الأول بهما».

اللوح الحادي عشر:

«العلم يمنحك القوة، العقار يصير أفضل وأقوى باستمرار التجارب والوصفة الحالية تسمح بالحفاظ على مظهر طبيعي دون أي أعراض ضعف أو تأثر بـ الـ«مادرا»، وهو سلاح نحمي به أنفسنا وأرضنا فنحجبه عمّن يشكل خطرًا على أمننا ونقدّمه للمسالمين من الغرباء، لكننا نحتاج إلى حماية أقوى، هذه الأرض يجب أن تبقى مجهولة للعالم الخارجي، لذلك طلبت من الـ«ماغداخا» العمل على عقار جديد؛ عقار من شأنه أن يمحو الذاكرة الحديثة فينسى الزائر كل شيء عن زيارته إلى هنا..».

***

حدّق آدم في الشّاشة لوقت طويل بعد أن فرغ من فكّ رموز اللّوح الطّيني عشر في وقت متأخّر من ليلته الوحيدة في ظلام الكوخ، كان شحن البطّاريّة يشير إلى خمسة بالمئة! لقد جازف باستهلاك قدر هائل من طاقة حاسوبه، لكنّه يشعر أنّ الأمر كان يستحق المخاطرة، تساءل في دهشة إن كان سليمان بن إبراهيم قد نجح في تطوير العقار الماسح للذاكرة!

بدأت قطع الأحجية تتّخذ مواقعها الصحيحة في رأسه: لقد غادر والده هاربًا بمساعدة «ماغداخا» مارتا لذلك لم يتناول عقار النّسيان، لكنّه عاد بعد سنوات بحثه الخمس عشرة لم يلتق مغامرًا أو بحّارًا واحدًا يعرف شيئًا عن جزيرته المفقودة! وهو أمر غير معقول في زمن الشّبكة العنكبوتية ومواقع التّواصل الاجتماعيّ، لو كان أيّ مسافر آخر قد وصل إلى موقع جزيرة كان ليحكي عنها حال عودته! غير أنّ أحدًا غير والده لم يفعل، يصبح كلّ هذا متناسقًا إذا كان عقار النّسيان حقيقة!

مشى بخطوات سريعة واسعة متتبّعًا توجيهات ريحان التي ترشده غيبيًا عبر طرقات القرية، كان قد وصل إلى مسار ضيّق على أطراف المساحة الشّاسعة، رغم تشابه البيوت في تلك المنطقة مع باقي الدّور فإن الأجواء بدت مقبضة وأدعى إلى القلق، هناك، لم يكن يخشى العيون المراقبة، لم يعد يشعر بها البتّة.

وقف على الباب المنزوي الذي يُفتح على طُرقة مقفرة وانتظر في توتّر، ظلام المساء قد حلّ وخبت الإضاءة الطّبيعيّة فزادت من إحساسه بالوحشة. بعد انتظار قصير فُتح الباب وظهر أمامه الرّجل المنشود، ميّز في ملامحه الشّاهد الذي وقف أمام المحكمة وادّعى أنّه قد رأى أشرف يُخرج حجرًا من جرابه يقتل خصمه متعمّدًا.

تبادلا نظرات مرتبكة، بدا الرّجل متوجّسًا وقد حقّ له أن يحذر من زيارة ابن الرّجل الذي تُدينه شهادته، تنحنح آدم ليجلو صوته ثمّ قال بلهجة حازمة:

- سيّدي، أحتاج إلى أن أتحدّث إليك، إذا سمحت.

خطا الرّجل إلى خارج بيته وأقفل الباب خلفه بحذر، أشار إليه كي يبتعدا باتّجاه حدود القرية التي تمتدّ خلفها الغابة، سار آدم وراءه بضع خطوات ثمّ وقفا متقابلين، لاحظ آدم التوتّر على الشّاهد وتلفّته القلق كأنّما يخشى أن يلمحهما أحد. قال متعجّلًا:

- ماذا تريد؟

- أريد الحقيقة!

- اسمع يا ولد، أنت تضيّع وقتك هنا.

قال آدم في إصرار:

- هل تذكر حقًّا ما رأيت؟ ألا تخدعك ذاكرتك؟

- لقد قلتُ ما عندي.. ارحل الآن!

كان لا يزال يتلفّت في جزع لكنّ آدم واصل استجوابه:

- هل تذكر كيف كان طقس يوم الحادثة؟ هل كان موسم أمطار أم جفاف؟ هل تذكر حتّى ما ارتداه الرّجل الذي تتّهمه من ثياب؟ هل تذكر أيّ شيء آخر عن ذلك اليوم؟

غمغم الرّجل في ضيق:

- ما أهميّة أيّ من هذا؟ لقد حسم الأمر!

هتف آدم في حرارة:

- إنّ حياة رجل تعتمد على شهادتك!

ثم التفت الرجل فجأة في غضب:

- هل تعتقد أنّ حياتي لا تعتمد على هذا؟! هل تعلم ما يعنيه لي
هذا؟! يعني الناس هذا لأسباب أخرى!

ارتبك آدم ولم يدر ما يقوله الرجل:

- ماذا تعني؟ ما علاقة هذا بالمساعدة؟

نفس الرجل بصعوبة ثم قال من بين أسنانه:

- اسمع، هذا ليس من شأنك ليست هذه أيضًا من شأن ابنك و الذي
لقد فعلت ما وجب عليّ فعله ولا يعنيني التراجع الآن عنه، إما
أن تساعدني أو ستكون حياتي مقابل حياته..

ثم ترك الرجل مبتعدًا قبل أن يتمكن آدم من فعل أي شيء في
الظلام

***

حين رجع آدم إلى الكوخ وجد زائرًا بانتظاره، كان فتى لا يتجاوز
الخامسة عشر، يرتدي عباءة سابغة و يلف على رأسه القماش على هيئة عمامة
تزيد من أقرانه. قبل أن ينطق الفتى أدرك آدم من يكون.

سيدي الشيخ يودّ رؤيتك!

تلك العمامة المميّزة كانت تخص الشيخ الجليل و تلاميذه وهذا الفتى
واحد من أتباعه الذين كانوا يحضرون مجلس القرآن برفقته، لم يكن بالشيء
لقاء الرجل أو يرهب حضرته وقد ألفت لقاءاتهما السابقة بالهدوء
والدعة، لا يعلم إن كان الشيخ يملك شيئًا من أجله، بعد أن تعامل
مع العائلة والحكماء والمسخّرين بات على يقين بأنّ هؤلاء هم من يصنع

القانون ويستحوذ على السّلطة الحقيقيّة فيما يحتفظ الشّيخ بمكانة اجتماعيّة وروحيّة لا أكثر.

مشى خلف الولد في صمت حتّى أشرفا على منزل صغير على حدود القرية، دسّ الفتى رأسه في الدّاخل ثمّ عاد ليقول:

- سيّدي الشيخ يصلي، انتظر حتّى يفرغ.

وقف آدم في تململ يترقّب دعوة الشّيخ إلى الدّاخل، كانت صلاة المساء قد انقضت ولم يُرفع الأذان بعد ذلك، تساءل في سرّه إن كان الشّيخ بدوره يدرك حقيقة الصّلوات الخمس ولا يجرؤ على الجهر بشأنها؟

بعد حين جاءه الصّوت المنشود:

- تفضّل يا بنيّ.

دلف آدم إلى الغرفة الصّغيرة ذات الصّبغة المتقشّفة، لم تكن الدّور القليلة التي زارها تحظى بشيء من الزخارف والتزويق إلّا أنّ الزّهد كان يتجلّى في الألوان الباهتة لكلّ ما يحيط به، حتى البساط الوحيد الذي افترشه الشّيخ لم يكن يحمل أيًّا من النّقوش والأصباغ التي لحظها في منزل الحكيم والجدّة.

- لا شكّ أنّ الأيّام الأخيرة كانت شديدة على فؤادك.

أحنى آدم رأسه احترامًا لشيبة الرّجل الطّاعن في السنّ، كان حضوره ذا هيبة ووقار وقد تأثّر آدم لتعاطفه.

- لم أعرف أباك في الماضي فلستُ أشهد هذا النّوع من القتال السّخيف!

كان الاحمرار قد اعتلى سحنته البيضاء مع تصاعد الغضب في صوته، هذا الرّجل لا يرضى بالنّزال حتّى الموت حُكمًا غير أنّه لا يملك سطوة ولا مقدرة، ولعلّه -هو الآخر- يفضفض لغريب يتفهّم موقفه ولا يسعه إلا الحديث تنفيسًا عن عجزه.

- هؤلاء الشّباب ما إن يشتدّ عود أحدهم حتّى يعكف على شحذ قوّته البدنيّة، لا همّ لهم إلا إثبات الجدارة والتفوّق على الأقران، وبين حين وآخر يتنازل اثنان في الميدان فيهلك أحدهما!

أرما آدم باستمرار مؤيّدًا حتى فاجأه الشّيخ حين قال:

- إنّ والدك رجل صالح.. لقد اعترف بذنبه وهذا عمل شجاع وإنّي أميل إلى الاعتقاد ببراءته إلّا أنّ أعراف الجزيرة لن تنصفه لكن إذا اتّبعت نصيحتي فسيكون بوسعك إنقاذه!

رفع آدم رأسه وأصغى بانتباه وأمام عينيه الذّاهلتين تناول الشّيخ لفافة بيضاء وضعها بينهما على البساط ثم رفع ببطء أطرافها ليكشف عمّا تخفيه. تأمّل آدم العلبة السوداء المألوفة لديه بأزرارها والهوائيّ المعدنيّ.

جهاز الإرسال والاستقبال!

@ART_OF_BOOK

(17)

اليوم السّابع عشر

انقضت أربعة أيّام منذ انعقاد جلسة المحاكمة الأولى، اجتمع النّاس مرّة أخرى وتدافعوا داخل مبنى المجلس، ربّما كان أضعافهم يقفون بالخارج وقد تعذّر عليهم إيجاد موطئ قدم في دار العبادة وما حولها من ساحات، استُنفر السّكان عن بكرة أبيهم لحضور الحدث المشهود الذي ربّما لن يكون له مثيل في الأجل القريب أو البعيد، تصدّر الحكماء الجلسة كالعادة ثمّ توافد أصحاب الحاجات لقضاء مآربهم.

تكرّر أمام عيني آدم مشهد مثوله الأوّل أمام المجلس منذ أكثر من أسبوعين، تململ في موضعه مترقّبًا دور والده وقد توالت القضايا التي يُتناول بشأنها باللغة المحليّة، ابتسم حين ظهرت ريحانُ إلى جواره، كان ممتنًّا لتلك الصّغيرة التي تساعده بشتّى السّبل، قالت كعادتها وغمّازتان جميلتان تظهران على وجنتيها:

- هل تحتاج إلى مترجم؟

أخذت تحدّثه بهمس عن خلافات الجيران وشكاوى الحرفيّين وطلبات المعمّرين، كانت مسائل صغيرة ومسلّية في انتظار القضيّة الأهمّ التي يتأهّبُ لها الجميع، ثمّ ظهر فجأة رجل مقيّد المعصمين يجرّه الحرّاس جرًّا وهو يبدي مقاومة وتمرّدًا.

اتّسعت عينا آدم وهو يتابع المشهد غير المعتاد باهتمام، همست ريحان:

- إنّه مذنب، يواجه عقوبة النّفي!

رمش آدم في وجوم، لقد سمع في السّابق عن تنفيذ العقاب على كلّ معتدٍ من السّكان لكنّه لم ير قبل الآن بأمّ عينيه متّهمًا بجريمة تستدعي ذلك الحكم، همس متسائلًا:

- ما جريمته؟

همست ريحان في حزن:

- إنّه يضرب زوجته!

- ماذا؟

ردّد آدم في صدمة، لا يعرف مجتمعًا آخر في العالم الشّاسع يعاقب أفراد بتلك القسوة من أجل جريمة كتلك! لا يودّ التّهوين من شأن العنف الأسريّ غير أنّ المبالغة لا تبدو معقولة، ربّما يكون العقاب الشّديد راد للآخرين إلّا أنّ الموت عقاب لا رجعة فيه! تذكّر كلمات الشّاهد بالأم «يموت النّاس هنا لأسباب أدنى!»

تكلّم أحد الحكماء بحزم وصرامة بما لا يدع مجالًا للمراجعة، ثمّ الرّجل على الأرض متوسّلًا وانطلق في بكاء هستيريّ بركن بعيد بـ بكاء أطفال ونساء في مكان ما، ربّما هم صغاره وشقيقاته، إنّ ا نفسها قد تُشفق عليه من مصيره البشع!

ارتجف فؤاد آدم وهو يدرك مدى قسوة المجلس وشدّته، هذا يتبنّى صيغة صارمة للعدالة لا تدع مجالًا للرّحمة. إنّ بناء نظام آم لا شكّ يستدعي تضحيات من الجميع إلا أنّ النّفي لأسباب ممّا يسهل تقبّله، لعلّ عمّار يكون محقًّا في توقّعه ولعلّه يواجه مـ

حتى الموت! إذا ما كان هذا مصير من يضرب زوجته فلا فرار للقاتل من القصاص!

انتبه حين جاء دور والده بعد أن اقتيد الرّجل المحكوم عليه بالنفي خارج القاعة. وقف عمّار أمام الجميع واستلم الكلمة بالعربيّة:

- لقد طلبنا مهلة للبحث عن شهود آخرين.. فهل من أحدٍ هنا يتذكّر شيئًا عن الحادثة التي وقعت منذ خمسة وعشرين عامًا؟ فليتفضل بتوضيحها أمام المجلس!

ثمّ كرّر نداءه باللّغة المحليّة. مضت دقائق دون أن يتقدّم أحد للشهادة وعادت نظرات آدم إلى المنصّة بوجوم، كان «كوتانا» توماس قد أخذ الكلمة ليقول بلهجة صارمة:

- إنّ «كوتانا» عمّار يحاول أن يجد مخرجًا باعتبار الصّداقة القديمة التي تربطه بالمتّهم لكنّ الـ«أيتورا» قد اعترف بجرمه، ولهذا وجب عدم التأخير في إنزال القصاص!

ارتفع اللّغط في فضاء دار العبادة وبدت علامات الاستياء على ملامح عمّار لكنّه لم ينبس بكلمة اعتراض واحدة، التقت نظراته بنظرات آدم في صمت كأنّه يقول: «ألم أقل لك؟ ما من مهرب من هذا».

كانت الأحداث تتوالى بوتيرة سريعة غير أنّ آدم سرعان ما غاب عن العالم، ارتفعت النّبضات عنيفة تكاد تصمّ أذنيه مثل طبول حرب تُقرَع عاليًا واحتبست الأنفاس في صدره حتى ضاق واختنق، نوبة الهلع تلك كانت الأقوى منذ وصوله إلى الجزيرة ولم يكن من اليسير السّيطرة عليها! استمرّ بصارع الهلاوس السّمعيّة والبصريّة التي تحجب حواسّه عن محيطها لزمن لا يدرك مداه قبل أن يلتقط نفسًا عميقًا في شهيق مفاجئ ردّ إليه وعيه بالعالم والجلبة من حوله.

حين استعاد سمعه فاجأه صوت أوران وقد انفرج عنه الحشد ليحيّي الحكماء باحترام ثم يقول في خشوع مهيب:

- لو سمحتَ لي سيّدي الـ«كوتانا» فإني أتطوّع لتمثيل عائلة القتيل في النّزال!

هزّ «كوتانا» توماس رأسه ببطء علامة الاستحسان ثمّ قال:

- أشكرك لتطوّعك يا بنيّ، سيُحدّد المجلس موعد القصاص في وقت قريب!

كان آدم يتابع المشهد السّرياليّ بنظرات زائغة ونبضات تائهة، لقد كان موضوع الحوار لكنّهم يتداولون في ما بينهم ويقرّرون مصيره ووالده متجاهلين تمامًا وجوده بينهم! حانت منه التفاتة باتّجاه البروفيسور أشرف على الجانب الآخر من الغرفة فطالعه بنظرة بائسة، لم يكن مجرى الأحداث يروقه بأيّ حال، ربّما كان يفضّل حكم الإعدام على ما آلت إليه الأمور.

يعرف أنّه لا يبدو شفافًا أبدًا في تلك اللّحظات.

***

انفضّت الجموع بعد الإعلان المشهود، كانت الرّؤوس تتّجه نحوه في مزيج من الفضول والإشفاق وهو يعبر الشّارع مسرعًا، لقد حاول منذ أيّام التّخفيّ باستخدام دقيق الأرزّ الأبيض خوفًا على حياته واليوم بغتة طَرَقًا في نزال حتّى الموت ستشهده الجزيرة قريبًا!

توقّف أمام منزل «كوتانا» عمّار وأخذ يذرع الشّارع جيئة وذهابًا بخطوات عصبيّة، كانت عشرات الأسئلة تتراقص في ذهنه وأضعافها الهواجس لكنّ أوّل سؤال قفز إلى لسانه حين لمح «كوتانا» عمّار مقبلًا:

- هل سيموت.. ذلك الرّجل؟

احتاج عمّار إلى بضع ثوانٍ ليدرك المقصود بالسّؤال ثم تنهّد وهو يقول:

- تفضّل، ستتحدّث بالدّاخل.

تبعه آدم حتّى استقرّا جالسين على البساط داخل بيت الـ«كوتانا»، لم يكن أحد غيرهما بالدّاخل، وكانت رقعة اللعب الخشبية الشبيهة بطاولة الـ«غو» لا تزال على المائدة حيث لمحها في الزيارات السّابقة إلّا أنّ الأسود كان يفوز هذه المرّة. عقد آدم حاجبيه في استغراب ولم ينطق. لم يعلّمه الحكيم قواعد اللّعبة ولا يعرف إن كانت لعبة فردية تعتمد على بناء استراتيجية ونقيضها أم ثنائية مثل نظيراتها في العالم المتحضّر، غير أنّه يتذكر شيئًا واحدًا: يفترض بالأبيض أن يغلب -حسب كلمات عمّار- فالسّواد المرادف للشرّ يجب أن يحاصر في الزّاوية على الدّوام، أمّا وهو يكتسح الرّقعة كما يرى فلا يجد إلا تفسيرًا واحدًا: أن الشياطين يكسبون الجولة بالفعل!

نبالته، اتّخذ عمّار وضعًا جادًّا ثمّ سحب نفسًا قبل أن يقول:

- نعم، من الأرجح أنّ ذلك هو ما سيحدث، إنّ حكم النّفي يعني الطّرد من الجزيرة، سيأخذه الحرّاس إلى حدود الظلة على متن أحد القوارب ثمّ يتركونه فوق طوف خشبيّ ويراقبونه وهو يبتعد حتّى يبتلعه المحيط وما إن يطلع النّهار حتّى يحترق تحت أشعّة الشّمس المباشرة حتّى الموت! قد يكون محظوظًا إذا وقع على بعض البحّارة قرب محيط الجزيرة فينقذونه.. لكنّ هذه المعجزات غالبًا لا تحدث، ليس الجميع محظوظًا بقدر والدتك! لقد كان اليخت محميًّا جيّدًا بغرفه الدّاخليّة الصّالحة للحياة، إنّه مختلف تمامًا عن الطّوف الخشبيّ المكشوف!

لمعت العَبَرات في عيني آدم وهو يقول بحرارة:

- هل يستحقّ الجرم الذي ارتكبه عقابًا كهذا؟

. لا أعتقد أن جدّتك كانت تستحقّ النّفي بسبب جريمتها منذ ربع قرن.

هز رأسه في صمت، لقد اتّفقوا بالإقامة الجبريّة لأنّها معالجة، إنّها مجرّد ذاكرة لا يجدر بهم التخلّي عنها بتلك البساطة. عاوده الأمل مجدّدًا بأن صاحب هذا الرّيع لو أثبت قدرته على التّسخير في أثناء التّرال، فربّما يتمكّن من صرع غريمه، ربّما يعفو عنه المجلس ويتركه يعيش!

- لعلّ نصيحة الشّيخ هي آخر ما تبقّى له من فرص؟

***

كشف العالم الجليد كان إعلان بدء حقبة زمنيّة مختلفة: عالم من الموت والفرص يفتح ذراعيه لساكني القارّة العجوز إلا أنّه عالم له أهله، يزيد قفرًا مشاعًا بلا أصحاب لكنّ السّكان الأصليين عجزوا عن حماية أنفسهم والحفاظ على أرضهم أمام مدّ المهاجرين الشّرهين والمتدفّقين بلا هوادة. يتخيّل: ماذا كان ليحدث لو أن الهنود الحمر سقوا كولومبس وبقيّة المستكشفين الذين وطئوا أرضهم وعبروا حدودهم- عقار النّسيان؟

لم يحاول أن يفكّر في النّسيان سلاحًا.. إلّا أنّ الـ«نافيا» قد فعل.

يستطيع آدم نسيان أمر الرّجل المحكوم عليه بالنّفي طوال اليوم.. «يموت النّاس هنا لأسباب أدنى»، قال الشّاهد ذلك ثمّ اختفى، كانت تلك الأخيرة بالإضافة إلى اتّهامات فضفاضة أخرى تملأ دماغ آدم الآن.

عاد إلى الشّارع الجانبيّ المنعزل متسلّلًا، كان المكان أشدّ وحشة منه في المرّة الأولى ولم يجد لذلك تفسيرًا عدا انقباضه من الرّجل وسيرته وشبح الموت الذي بات يحوم في الأرجاء لكنّ ضيق صدره كان ملموسًا بشكل يصعب تجاهله!

طرق على باب الرّجل وانتظر، كان الباب مواربًا غير محكم الإغلاق كأنّ شخصًا قد غادر أو وصل للتوّ، لكنّ أحدًا لم يُجب طرقات الزّائر الغريب. انتظر للحظات قبل أن يطرق ثانية بقوّة أكبر، مرّت دقائق طويلة أخرى ولم يبد أنّ أحدًا ما سيظهر عند المدخل، كان البيت صغيرًا من الخارج؛ أصغر من معظم بيوت القرية المتشابهة، ربّما لا تزيد مساحته على غرفة واحدة ومطبخ وحمّام، وكانت واجهته بائسة ومتهالكة من شدّة الإهمال.. تساءل آدم إن كان الرّجل يعيش وحيدًا؟ ربّما يكون منبوذًا من المجتمع الذي يعرف كلّ فرد فيه أفراد العشيرة واحدًا واحدًا.

تجرّأ ودفع الباب برفق ونادى بصوت عالٍ:

- هل هناك أحد؟

انفرج الباب عن غرفة واحدة تكاد تكون خالية من الأثاث، كان بساط باهت متهرئ الأطراف يستقرّ على الأرض وبضع أوانٍ خشبيّة مهملة في ركن قصيّ. لم يبد أنّ عائلة تقيم في المكان، لم يبد أنّ حياة ما تنبض بين جنبات الكوخ المتروك، لكنّه المنزل عينه الذي دلّته عليه ريحانا والباب ذاته الذي غادره الشّاهد حين زاره في المرّة الأولى!

لم يُرد أن يتوغّل داخل البناء أكثر فللبيوت حرماتها حتّى لو كانت مهجورة، ثمّ ماذا لو رآه أحدهم واتّهمه بالاقتحام أو سرقة أملاك الغير؟ «يموت النّاس هنا لأسباب أدنى»، تلك العبارة التي تستمرّ في التردد برأسه وتؤلم صدره بوجع متّصل!

تراجع إلى الشّارع المقفر وهامت عيناه باتّجاه المسرب التّرابيّ المؤدّي إلى الغابة.. هل كان الرّجل يختبئ من أحد ما؟ داخل الدّغل؟ هل يخشى سطوة صاحب نفوذ؟ مُسخِّر أم حكيم؟ لا يمكنه التّفكير في صنف آخر من النّاس قد يخشاه الشّاهد إلى تلك الدّرجة، إنّ الـ«ماغداخا» شخصيّة مؤثرة لكنّها ليست مصدر تهديد لأحد.

حدّق في الغابة المظلمة لدقائق ثمّ تنهّد واستدار مبتعدًا.

***

«أنت مُسخِّر».

يحاول أن يقنع نفسه بذلك الادّعاء، وهو بالفعل يبقى ادّعاءً حتّى يرى بعينيه كيف يكون التّسخير حقيقة وحتّى تصنع يداه المعجزة المزعومة، إنّ ما يزعمه عمّار ونوح بشأن ما قام به في عرض البحر يظلّ مجرّد قصص لا تقنع إلّا طفلًا يستمدّ من حكاية ما قبل النّوم مدادًا لأحلامه، وهو لم يعد طفلًا تقنعه الخيالات الرّاقصة باقتراب الأشباح حتّى ينام!

جاء «بندار» نوح لزيارته للمرّة الثّانية، قال:

- تعال، سآخذك إلى مكان أنسب للتّدريب.

سارا ببطء حتّى تجاوزا حدود القرية ثمّ الكهف. شعر آدم بالخيبة لكنّه أطاع مدرّبه في إذعان، استمرّا في مشي حثيث لينحرفا عن طريق الميناء عبر سهول المرعى ثمّ تدرّجا في مسار مرتفع حتّى صارت التّلال تحيط بهما من كلّ جانب. تأمّل آدم المشهد في دهشة، كان يعدّل خريطة الجزيرة في رأسه كلّما اكتشف موقعًا جديدًا، ولا يفتأ يرفع السّتار عن أماكن أخرى -خفيّة- على الجزيرة. ربّما تكون مساحة الأرض أوسع ممّا تخيّل أو توقّع.

- إنّ اوّل ما يجب أن يفعله الـ«بندار» هو أن يشعر بطاقته.. وربما أنك لا تشعر بها بعد فهذا يدلّ على خلل في قدراتك الرّوحانيّة.

عبس آدم في انزعاج.. ماذا يعنيه ذلك بأيّ حال؟

واصل نوح شارحًا:

- من الواضح أنّك لم تتواصل مع الطّبيعة بالقدر الكافي في الماضي..

قاوم آدم رغبة في الضّحك، حسنًا، إنّه يضع يده على حقيبة لا جمال فيها، كان يعرّف نفسه في السّابق بأنّه إنسان مدنيّ للغاية، متحضّر جدًّا، وينأى بنفسه عن كلّ ما هو طبيعيّ وخام، ليس روحانيًّا أبدًا بالقدر الكافي، إن كان التّسخير عمليّة روحانيّة فهو في مأزق فعليّ.

قال في محاولة بائسة:

- ألا يمكن أن أجرّب الكهف؟ أو حتّى مع حجر صغير ربّما؟

أجاب نوح بصرامة:

- لديك ما يكفي من الطّاقة في جسدك.. لا تحتاج إلى امتصاص مزيد!

زفر آدم في استسلام.. الرّوحانيّة إذًا.

أشار إليه نوح، فجلس على الأرض إلى جواره. كان السّكون يخيّم على الجلسة، باستثناء هبّات الرّياح التي تعوي بين الفجاج التي تتخلّل التّلال التّرابيّة. قال نوح آمرًا:

- أغمض عينيك وركِّز.. حاول أن تُمسك خيوط طاقتك، هل تشعر بها بين أصابعك؟

بدا كل شيء مشوّشًا. حين أغمض آدم عينيه شعر بتنميل في أطراف أصابعه، ربما تخيّل الخيوط البيضاء التي لمعت بين أنامل المعالجة، ما عدا ذلك لم يظهر شيء محدّد في نطاق رؤيته.

... صوت نوح ليشد انتباهه.

- هل ترى لونًا محدّدًا؟

لون؟ لم يكن واثقًا! كانت شبكة من الخيوط الآن تظهر مثل نبضات حيّة تحت جفنيه، يختلط فيها الأبيض بالفضيّ والذهبيّ والنحاسي، هل كانت تلك الخيوط هي التي قصدها نوح؟! أم أنّها مجرّد تهيؤات استدعاها خياله؟!

- لقد تفجّرت طاقتك بضوء ساطع في عرض البحر، يجب أن يظهر لك اللون اللّبني.

إنّا ليست هي! هذه الألوان المتداخلة ربّما لا تعني شيئًا على الإطلاق، وربّما هي ظلال باهتة للخيط الحقيقي الذي لم يظهر بعد! هز آدم رأسه ...لا يرى شيئًا! تنهّد نوح ثمّ قال مُشجّعًا:

- سنحاول لاحقًا حتّى تظهر الخيوط بوضوح وحينها سيكون عليك أن تشدّ الخيط الأقرب برفق.. يجب أن يزداد سُمكًا تدريجيًّا حتّى تُحكم عليه قبضتك ثمّ تدفعه في الاتّجاه الذي تشاء.. لتحرّر طاقة الضّوء.

استمع آدم في انتباه، ربّما إذا اتّضحت الخيوط في القريب يجب أن يعرف ما سيفعله، سأل في فضول:

- هل هناك ألوان أخرى للخيوط؟

أومأ نوح ثمّ أخذ يشرح:

- الأصفر هو اللّون الخاصّ بطاقة القطع، المُسخِّر صاحب الخيط الأصفر تُشكلِّ السّيوف الحادّة الوهميّة امتدادًا لأطرافه، وهي مهارة مفيدة جدًّا في الصّناعة لصقل الحجارة والاحتطاب لكنّها شديدة

تعطر في المواسم الأدافئة من حسن حظك أنّ أوران لا يملك الخيط الأصفر!

ابتسم آدم في سخرية، يعرف على الأقل أنّ مروان يملك الخيط الأصفر، لقد شاهد سرعة القطع الخاصّة به في أثناء اختبار المنشار، كانت سريعة بحقّ أشعّة ليزر بالفعل!

- الخيط الرّمادي، صاحبه يُطلق الصّواعق الطارقة، وهذه ميزة غريبة أوران.

صواعق؟! همتاز، لن يُشكّل ذلك خطرًا على حياته، أليس كذلك؟

يمكنه أن يتجنّب الصّواعق بقفزات رشيقة.. سيحاول على الأقل، سيشكّل لاقطة الصّواعق في العالم المتحضّر درعًا مثالية أمام مُسخّر ذي خيط رماديّ!

- يشعل المُسخّر الرّماديّ النّار ويُحفّز السّحب المنطفئة على الأمطار في مواسم الجفاف..

رفع آدم حاجبيه في اهتمام.. تلقريح صناعيّ للسّحب! في جزيرة بدائية!

- هل هناك غيرها؟

- نعم، آخرها الخيط الترابي وهو يمنح صاحبه قوّة الرّياح وهذا هو لون الخيط الخاصّ بي، المُسخّر الترابيّ يدفع القوارب ويسحبها وينشر البذور ويجمع المحاصيل في لمحة عين!

امتلأ صوت المُسخّر الكهل بالفخر، كان يمدّ على طرف بنانه خيطًا يحرّك الأمواج ويهيّج رمال الشاطئ ويثني جذوع الأشجار ويطيّر الموجودات في الهواء.

- ماذا عن سحب المروحيّة من قعر المحيط؟ هل سمح الخيط الترابيّ بذلك؟

- حسنًا، ما ذكرته للتوّ يمثّل الفروقات بين الحليبي والأصفر والرمادي والترابيّ.. أمّا النقاط المشتركة التي يمتلكها كلّ المُسخِّرين، فهي القوّة الجسديّة الفائقة التي تمدّهم بها الـ «مادرا» لأوقات زمنيّة متفاوتة، باعتبار المخزون الذي يحتفظ به كلٌّ منهم، بالإضافة إلى تعزيز الحواسّ.

- ماذا عن الطّيران؟

ضحك نوح:

- الطيران؟ لا وجود لهذه الهبة.. المُسخِّرون لا يطيرون.

تفكّر آدم برهة ثمّ هزّ رأسه ببطء.

تذكّر فجأة الخيوط المتداخلة التي ظهرت تحت جفنيه منذ حين: الأبيض والفضيّ والذهبيّ والنّحاسيّ، إنّها تبدو مقاربة للألوان التي ذكرها المُسخِّر: اللبني والأصفر والرمادي والترابي! إلا أنّ هؤلاء القوم الذين لا يعرفون المعادن لا يدركون التّسميات الدقيقة للألوان المعدنيّة، لكن ما الذي يعنيه ذلك؟ لماذا ظهرت الألوان كلّها في خياله؟! ربّما لم يتدرّب بعد ولذلك لا يستطيع تمييز لونه بوضوح؟ ربّما يحتاج إلى بعض الوقت ليدرك أيّ الألوان تنتمي إليها طاقته؟

نساءل إن كان عليه إخطار نوح بما رآه، ربّما لن يعني ذلك شيئًا، لا فائدة إذا كان غير قادر أساسًا على الإمساك بأيّ خيط منها!

- الآن، لنجرّب شيئًا آخر لتعزيز تركيزك. أغمض عينيك، واشعر بالهواء.

قلّد آدم جلسة نوح بحذافيرها: عقد ساقيه أمامه، وسوّى ظهره باعتداد، رفع كتفيه وأراح كفّيه على ركبتيه. أخذ نفسًا عميقًا، ثمّ أغمض عينيه. كانت عضلاته متصلّبة رغم محاولات الاسترخاء. تململ في ضيق، فتنحنح نوح يزجره.

- اشعر بالهواء!

أسبل آدم جفنيه واستعدّ للإصغاء، كانت حركة الهواء مستمرّة تحمل إلى بشرته ذرّات الرّمال المتطايرة وأوراق الشّجر المتناثرة بين فينة وأخرى، غير أنّها غالبًا نسيم لطيف يطيّر أطراف قميصه ويحرّك خصلات شعره برفق.

«اشعُر بالهواء».

استنشق نفسًا طويلًا ببطء وشعر بالهواء البارد وهو يتسلّل من منخريه إلى قصبته الهوائيّة، ركّز مع انتفاخ رئتيه وتمدّد الحجاب الحاجز ثمّ تقلّصه تدريجيًّا والنّفس يتراجع خارج مجراه دافئًا. كان بوسعه أن يعدّ الأنفاس، يحصيها، يقدّر عدد الثواني التي يستغرقها كلّ شهيق وزفير لكنّه لم يكن واثقًا إن كانت هذه هي «الرّوحانيّة» التي يفترض به أن يعيشها.

فتح عينًا خلسة، وألقى نظرة على نوح، كان يستقيم في صرامة، ملامحه مطمئنّة وأطرافه ساكنة. مطّ شفتيه في امتعاض ثمّ عاد ليكرّر المحاولة. تنفّس بعمق ثمّ أسكت ضجيج الأشياء الأخرى من حوله.. وأخذ يُصغي إلى الهواء وحده.

استحضر فجأة ملامح أمّه، كانت تبتسم بوداعة كما فعلت في آخر لقاء بينهما وهو يودّعها، سمعها -أو تخيّلها- تقول: «أنت لا تعرف كيف يكون إحساس المرء إذا فَقَد وطنه، لقد تمنّيت كلّ هذه السّنوات أن ألمح الشّاطئ الفضيّ ولو من بعيد، ولو مرّة واحدة، لكنّني ممتنّة لأنّك فعلت».

يعلم أنّها لم تنطق تلك الكلمات في حضوره، إنّها كلمات مُتخيّلة يصنعها ذهنه ويبثّها مثل ذكريات أو رؤى وهو يعي ذلك بوضوح، لكنّ دمعة حارّة سالت في صمت على وجنته، انتبه إلى أنّه قد صار يشعر بالهواء أكثر من ذي قبل، يشعر به يلامس بأنامل رقيقة وجهه الملتهب فيخفّف عنه لسعة الحرارة التي تغمره. تستمرّ حرارة جسده في الارتفاع وتفيض عنه عبر المسامّ كلّها مثل فيضان الحمم!

الهواء صديق وحليف وهو يعانقه بجسده كاملًا، يستقبله في جوفه ويمتلئ به.

ثمّ.. أخذ جسده يتأرجح بلطف مع النّسمات وارتفع عن الأرض، حدث ذلك فجأة! يعلم أنّ ذلك يحدث فقط في رأسه، هو لا يزال راسخًا على الرّمال وأسفل جذعه يلامس الأرض الصّلبة لكنّ جوارحه تحلّق. كان هناك ضباب كثيف من حوله، يكاد يميّز له رائحة كيميائيّة طفيفة، تساءل إن كانت تلك رائحة الـ«مادرا»! تعرّف أنفه تدريجيًا الرّائحة النحاسية التي تشمّمها في زيارته إلى الكهف، إنّها واضحة الآن، تتخلّله برفق وتغمره مثل سحابة عطر حامضة.

يدرك أنّه قد غاص في حالة هلوسة ما، غير أنّها مغايرة لما يصيبه في أثناء نوبات الهلع، إدراكه صافٍ وذهنه متّزن لكنّه يسمع أشياء ويشعر بها؛ أشياء لا يفترض بها أن تكون حقيقيّة لكنّها قريبة وفي متناول يده، والهواء يملأ رئتيه ويهبّ من حوله ويجعله يطير.

شهق وهو يفتح عينيه، كان يغادر «الحالة» مغادرة مفاجئة، يحطّ على الأرض ويعود إلى الواقع. كانت كفّ «بندار» نوح المستقرّة على كتفه ما جذبه من عالم الرّؤى فحدّق في عينيه بتشوّش، سأله نوح:

- هل شعرتَ بالهواء؟

لوما آدم ببطء، يحزر أنّه قد فعل، ذلك التّحليق المجازيّ أو الرّوحيّ.. ربّ الافتراضيّ»، يعتقد أنّ ذلك ما يطلق عليه نوح «الشعور بالهواء»، يمكن أن يكون غير ذلك وإلا سيكون قد فَقَد عقله! ابتسم نوح في صمت ثمّ سأل مجدّدًا:

- وهل شعرتَ بطاقتك؟

لوما آدم مرّة أخرى، يعتقد أنّه قد فعل، تلك الحرارة التي ألهبت بشرته ولمست مسامّه أن تنفجر بها لا يمكن أن تكون شيئًا آخر، كان ممتلئًا بها حتى التّخمة.

- هذا ممتاز.. نحن نقترب.. يمكنك أن تأخذ استراحة الآن.

بعد آدم، كانت عمليّة التّحليق مرهقة بحقّ وكان يشعر بالامتلاء منذ حين لكنّ الخواء هو كلّ ما خلّفته التّجربة في نفسه. قرقرت معدته على حين غرّة، كان يشعر بالجوع إذًا هو هذا النّوع من الخواء.

خرج نوح من جرابه قطعتي جبن ورغيفين ودعاه لمشاركته وجبته. جلس بمحاذاة أحدهما الآخر، يقضمان الأرغفة، ولا يسمع إلا صوت مضغهما تلوك العجين والجبن ذا الرّائحة النفّاذة.

بعد التّحليق في الهواء عادت قدما آدم تلامسان الأرض الصّلبة فينتابه عليه إحساس مرير بالكآبة، لا تزال مسافة شاسعة تفصله عن تحقيق التّسخير والإمساك بناصية هبته المفترضة! لقد شعر بطاقته منذ حين، لم ينتبه لذلك إلّا أنّ الزّمن لن يمهله ليحتفل بانتصاراته الصّغيرة، ما يحتاج إليه قفزة واحدة هائلة إلى خطّ الوصول! إنّ المهلة المتاحة لهذا الإنجاز مستحيلًا، هو يعي ذلك ولعلّ نوح وعمّار يفعلان، لكنّهما يعملان به ليحاول في انتظار معجزة ما.

تعود إليه كلمات الشّيخ الجليل: ربّما عليه أن يحاول الفرار! لقد عرض الرّجل المساعدة في ظلّ عجزه عن إحداث تغيير في أنظمة الجزيرة ولمّم جهاز الإرسال والاستقبال إثباتًا للنّوايا الحسنة، بمرور الوقت يزداد اقتناعه بأنّ الهرب هو الحلّ الأفضل غير أنّه لن يغادر قبل أن يحقّق هدف الرّحلة: الحصول على «حجر الشّمس»!

إنّه بائس ومثير للشفقة لكنّه لم يفقد البوصلة. قبل أن يعرف قصّة والديه كلّ ما كان يفكّر فيه هو إيجاد جهاز الإرسال ثمّ سرقة طوف ما والإبحار ليلًا نحو الأفق حتّى يلتقط إشارة «الأسطورة»! أمّا الآن فهو يطمع في أكثر من ذلك وهذا ما لا يمكنه أن يسرّ به للشّيخ، سيحرص على الكتمان كما أمر والده، سيفعل هذا على الأقلّ بعد أن فشل في البقاء في الظلال.

شعر بكفّ نوح تستقرّ على كتفه في مواساة صامتة، استقبل قربة الماء بامتنان وتجرّع بنهم كأنّما يطفئ نارًا تستعر في جوفه.

ما زال يملك بعض الوقت ليمحّص الفرص المتاحة.

(18)

اليوم الثامن عشر

عاد بمفرده إلى الصّخرة.

تلفّت في حذر، لم يكن هناك أحد في الجوار.. الأطفال منشغلون في مدرستهم، الحرفيّون في مواقعهم، الحكماء في معتزلهم، الحرّاس ربّما نائمون بعد ليلة مراقبة طويلة. فكّر أنّ أحدًا لن يتوقّع منه الظّهور في السّوق اليوم بعد إعلان النّزال المُرتَقب، ربّما لن يُطلب منه شيء في الوقت الحاليّ انتظارًا لتحديد مصيره.

كان قد غادر الكوخ بعد أن طلع النّهار وانصرف السّكان إلى حاجاتهم. مشى بهدوء عبر الطّرقات السّاكنة دون أن يحاول الاختباء، إن كان يريد ألا يثير الانتباه فعليه ألا يتصرّف مثل ملاحَق أو متسلّل، لن يتتبع أحدٌ أثره إلى أطراف الجزيرة إذا حافظ على حضور فاتر دون مبالغة في التخفّي أو إعلان صارخ عن وجوده.

تطلّع إلى الجدار الحجريّ بتحدّ، خلال أيّام سيكون عليه أن يواجه «بندار» أوران. هل سيكون بوسعه أن يهزمه وقد استسلم أمام صخرة؟ تلك الطّاقة التي يقول «بندار» نوح إنّها تتكدّس داخله بدأ يشعر بها بطريقة ما، ربّما تخاتله حوّاسه، ربّما تجعله معرفته بوجودها يتخيّل أمورًا، لكنّه بات على ثقة الوصول.

أخذ نفسًا عميقًا ثمّ انقضّ على الجدار الحجريّ بحماس.. ارتقى بضع خطوات قبل أن ينزلق كلّ المسافة إلى أسفل، ابتسم في تحدٍّ، لم يكن يعتزم الاستسلام بتلك السّرعة، كان عليه أن يضع خطّة.. لا يمكن إنجاز شيء دون وضع خطّة مناسبة، إنّه شخص عمليّ وذو خلفيّة علميّة تدرّب على دراسة الوضع قبل التسرّع وتنفيذ حلول عشوائيّة.

وقف في ثقة يقيّم المعطيات، قدّر أنّ قطع مسافة جيّدة دفعة واحدة سيمنحه نفسًا للانتهاء ممّا تبقّى بجهد أقلّ، ربّما يمنحه الرّكضُ قوّة دفع مثاليّة لتقليص مسافة التسلّق، تراجع إلى الوراء ليكتسب سرعة كافية ثمّ هجم على الجدار برشاقة وخفّة، وثب إلى أعلى بخطى واسعة إلّا أنّ قبضتيه فشلتا في التعلّق بالجدار فانتهى على الأرض خلال ثوانٍ.

استمرّ يحاول، يركض ويقفز إلى أعلى باندفاع ثمّ يجد نفسه حيث بدأ! بعد نصف ساعة كانت رئتاه تحترقان طلبًا للهواء وقد تملّك منه الإجهاد. كان مثل سيزيف المحكوم بالعذاب الأبديّ؛ يدفع صخرته إلى أعلى التلّة فتتدحرج إلى القاع ليدفعها من جديد بلا توقّف! غير أنّ صخرته لا تتزحزح من موقعها فيما يستمرّ جسده في التّدحرج كلّما حاول الارتقاء!

جلس على الرّمال يتمالك أنفاسه ويضع استراتيجيّة مغايرة.. لم يكن الانطلاق على طريقة القفز العالي ملائمًا نظرًا إلى ارتفاع الجدار الحجريّ أمتارًا كثيرة، ربّما كانت عشرة أمتار أو تزيد، تحتاج المسافة إلى ثبات وتوازن، تأمّل الجدار في عبوس ثمّ شرع في وضع خطّة جديدة.

إلّا أنّ كلّ الخطط لم تبد مُجدية قطّ!

بينما يلتقط أنفاسه اللاهثة وقد استقرّ جسده المكدود مستسلمًا على الأرض حانت منه التفاتة إلى المسار الجانبيّ المحاذي لجدار الصخور.. كانت حشائش طفيلية تنبت على الأطراف مثل نتف خُضرة داكنة تتخلّل

مساحات الرّمادي، لمح «زهرة الشمس» الصّفراء المشرقة تلوح مثل بريق أمل في سماء مظلمة، لا يعرف من أين تستمدّ لونها السّاطع المناقض لكلّ الفتور المحيط بها إلا أنّها تتمايل بلطف مع حركة النّسيم كأنّما تلوّح تجاهه مشجعة، ابتسم وهو يستحضر كلمات ريحان، لعلّها تمدّه بشيء من الحظ السعيد.

وقف بعد أن استعاد نشاطه وشحذ همّته.. مرَّر كفّيه على الجدار بأنْ يحاول تحديد مواقع النّتوءات البارزة والتّجاويف الدّقيقة الغائرة في الحجر، تساءل وأنامله تمسح السّطح الأملس إن كان الصّخر يمتلك طاقة ما بمكنه امتصاصها، لم يكن قد تعوّد تلك الفكرة بعد.. «جسده وعاء للطّاقة»، أغمض عينيه وحاول أن يتخيّل كيف يكون الأمر مثلما فعل وهو يشعر بالهواء.

ربما تتسلّل جزيئات المادّة المتوهّجة المترسّبة في الصّخر وتتجمّع تحت راحة يده مثل كتلة مضيئة ثمّ تعبر حاجز بشرته لتواصل مسارها عبر أوعيته الدّموية وتسكن أعماق جسده. تساءل في حيرة.. أين تتجمّع الطّاقة؟ هل تُفضّل موضعًا بعينه، عضوًا محددًا؟ في دماغه مثلًا؟ أم لعلّها تمكث قريبًا من السّطح، مباشرة أسفل الجلد، جاهزة للاستنفار وقت الحاجة؟

إلّا أنّ طاقته لا تغادر مكمنها.. تستمرّ تتراكم بلا هوادة وترفض الإعلان عن نفسها!

فتح عينيه وتنهّد، حين رفع بصره إلى أعلى تملّكه خاطر غريب، كان كمن انتهى من دراسة خارطة الحجر في ذهنه، بشكل ما صار السّطح الأملس مألوفًا لديه، انتابه الشّك.. هل هي النّتيجة الحتميّة لمحاولاته المتكررة؟ كان من المنطقيّ أن يستشعر تلك الألفة بعد تسلّقه مرّة تلو المرّة، لكنّ الإحساس الصّميم بالمعرفة كان يقينيًا يقينًا ساطعًا، لقد راوده إحساس مماثل من قبل حين كان على متن المركب، في لحظة ما، عرف موقع حطام الطّائرة، بدت تلك الحقيقة واضحة في ذهنه بقدر لا يصدّق!

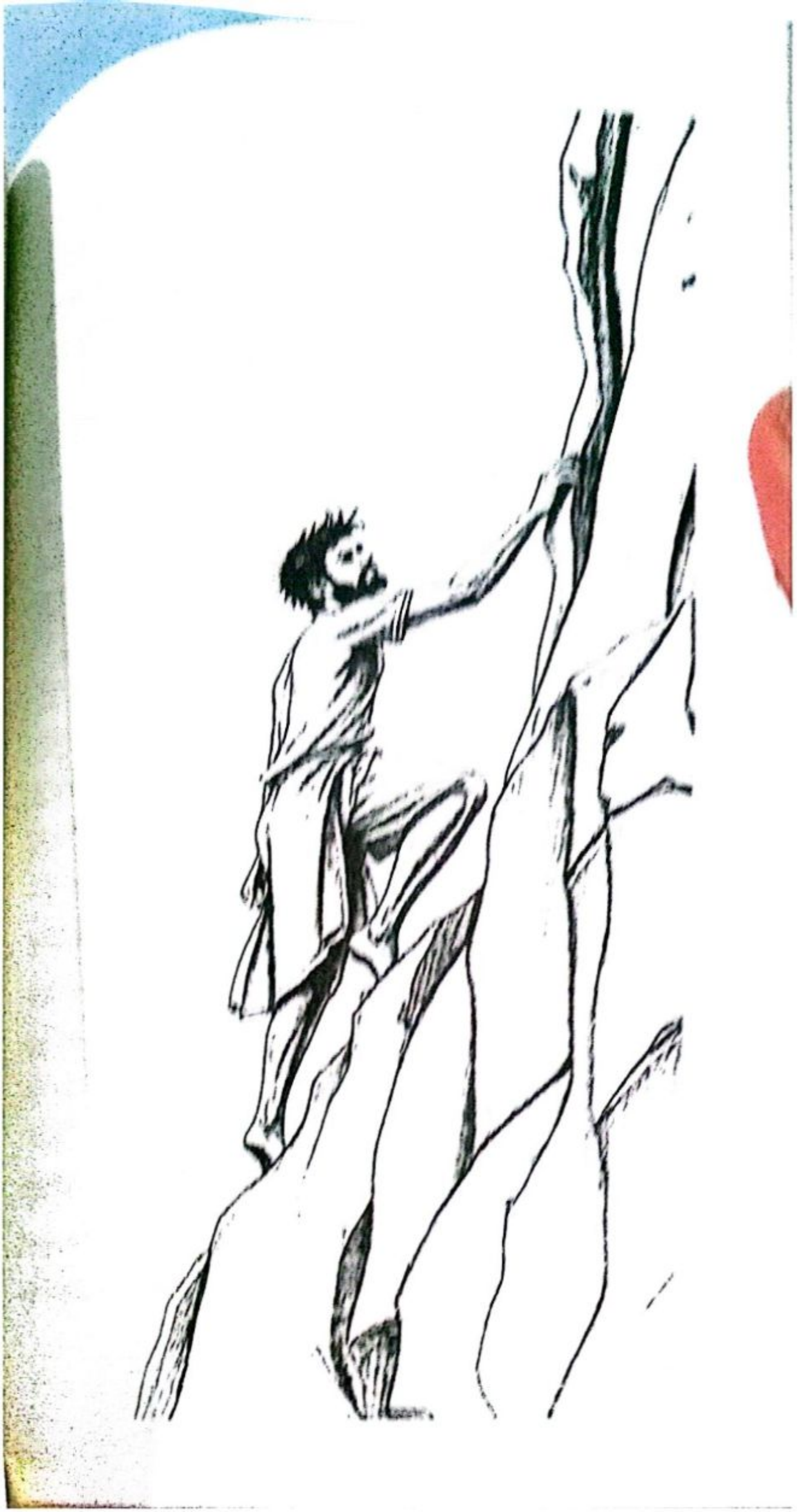

بنزوٌ، اختار موقع البداية، كانت الأطراف الجانبيّة تَعِدُ برحلة سلسة، تساءل إن كان قد لاحظ الأطفال يتّخذون تلك المواقع بالذّات.. هل كان يستحضر ذكرى مشاهدته لهم وهم يتسلّقون؟ سواء كانت ذكرى أم غير ذلك فهي جليّة في رأسه تصدّقها لمسات أصابعه وهي تتبّع الطّريق المرسوم بسلامة ويسر.

توقّف، عند منتصف الارتفاع، يقدّر تقدّمه، ألقى نظرة حذرة إلى أسفل فتملّكه دوار مفاجئ كأنّما يفيق من حلم عجيب، اكتشف أنّه قد أضحى على علوّ شاهق، متسلّقًا بيدين عاريتين وقدمين حافيتين ودون حبل أمان، وهو لم يفعل ذلك قطّ آنفًا! مع سيطرة وعيه على حواسّه فَقَد توازنه على الجدار ليهوي في سقوط حرّ على الأرض الرّمليّة.. تأوّه بشدّة وهو يفرك كاحله الملتوي، كانت وقعة عنيفة!

- أنت بخير؟

رفع رأسه مبغوتًا، لم ينتبه إلى حضورها قبل ذلك، تساءل متى جاءت؟ ولماذا لم تعلن عن نفسها قبل الآن؟ قالت روان في إلحاح:

- دعني ألقي نظرة.

استسلم للمستها الشّافية على مضض، مرّت أناملها برفق على كاحله فاختفى الألم! لقد جرّب أخيرًا لمستها السحريّة، لبث مكانه مقطوع الأنفاس، إثارة ودهشة.. وحرجًا، وقف ببطء وجرّب أن يطأ بساقه المصابة، كانت تبدو سالمة الآن، كان يجب أن يشكرها لكنّه لم يفعل. إنّها مدينة له بكثير وليس الشّكر ممّا يستسيغه كبرياؤه في تلك اللّحظة!

بادرت المعالجة قائلة:

- كنت تُبلي بلاءً حسنًا.

[illegible]

[illegible]

[illegible]

- لم أخن ثقتك في أيّ وقت سابق، لقد طلبتَ ألا أخبر أحدًا ولم أفعل، لكنّك لم تعلم حينها أنّ السرّ كان محلّ اطّلاع آخرين.. هذا ما أخفيته عنك ولا شيء آخر.

أومأ آدم ببطء، لقد شعر بالخيانة واعتبر إخفاءها الحقيقة عنه خداعًا، لقد ظنّ أنّها هزأت به، لكنه لم يعد يتبنّى ذلك الموقف المتحفّز ولا يريد أن يعتبرها عدوًا، لقد كانت -ولا تزال- أكثر شخص يفهم ما يمرّ به، قال بهدوء:

- أريد تأكيدًا منك بأنّك لن تخدعيني مستقبلًا!

هزّت روان رأسها دون كلمات، تنهّد آدم ثمّ قال:

- إذًا، سأحتاج منك إلى بعض المساعدة.

- أيّ شيء! طالما كنت قادرة عليه.

- حسنًا إذًا، أحتاج إلى شيئين اثنين؛ أوّلًا أودّ أن أعرف ماذا حلّ بالشّاهد الذي اختفى فجأة، لقد ذهبت لزيارة بيته لكنّني لم أجد أثرًا له أو لعائلته.

زوت ما بين حاجبيها وهي تستمع في انتباه.

- والشيء الثّاني؟

- أودّ زيارة والدي.

أومأت في تفهّم، ربّما كانت تتوقّع طلبًا مماثلًا، لعلها لم تكن ذات صلاحيات واسعة غير أنّها معالجة؛ واحدة من أصحاب الدّماء الشافية وذات هبة تكاد تكون فريدة من نوعها ضمن بنات جيلها، قالت تعده:

- سأرى ما يمكنني عمله.

@ART_OF_BOOK

سيطر عليها الصّمت بعد ذلك. كان يتحرّق شوقًا لإخبار شخص ما عن مطاقته وعن تجاربه المبتدئة وهي كانت مرشحًا مناسبًا للإصغاء إلا أنه لم يتجاوز حاجز الثقة المكسورة بينهما بعد حتّى بعد ذلك الوعد الضّريح منها، ربّما يحتاج إلى بعض الوقت ليمنحها صداقته من جديد، أكثر مما يحتاج إلى الفضفضة والثرثرة في تلك اللّحظة، ابتلع الكلمات التي تتلاطم على لسانه في حسم.

ربّما، ربّما إذا وفّت بما تعهّدت به وساعدته على زيارة والده، ربّما يصارحها حينها.

***

جاءت روان لاصطحابه بعد المغيب، كان تنفيذها سريعًا، ولعلّ الأمر لم يكبدّها عناءً كبيرًا، إنّها معالجة وهي تستلم زمام الأمور تلقائيًا في غياب الحكماء، ألم تكن من اتّخذ قرار استقباله ووالده حين كان أفراد المجلس معتزلين في الجبل؟

غادرا القرية في هدوء حتّى صارا داخل الغابة، وهناك داخل الأجمات الكثيفة اكتشف بناءً يكاد يتوارى عن العيون، هذا موقع آخر لم يكن يعرف بوجوده، كانت هناك زنازين -غرف طينية بلا منافذ- ذات جدران غليظة صمّاء ومدخل وحيد.

تحدّثت روان إلى الحرّاس ثمّ سُمح له بالدّخول، بدت العمليّة بسيطة، ربّما هي كذلك بالفعل، زيارة المتّهمين حقّ مكتسب في العالم المتحضر، لعلّه قد توقّع صعوبات لا وجود لها وربّما لو تقدّم بالطّلب إلى «كوتانا» عمّار للبّاه دون تردّد.

سفه أحد الحرّاس إلى داخل البناء وأشار إلى غرفة بعينها، كانت هناك نافذة صغيرة في الباب الموصد تسمح بتمرير وجبات الطعام والدواء، انحنى ليلقي نظرة وما إن أبصر أباه في ركن الغرفة حتى هتف في قلق:

- أبي.. أنت بخير؟

انتفض أشرف في لهفة وترك موضعه ليزحف في اتّجاه الباب:

- آدم، كيف وصلتَ إلى هنا؟

كانت نظراته تنمّ عن دهشة وبهجة، قال آدم بشيء من السّخرية:

- بفضل الـ«ماغداخا».. ألم تقل إنها المفتاح؟

لم يستجب أشرف للمزحة فأضاف آدم بعد برهة:

- لا تقلق يا أبي، سأكون بخير!

- ماذا تعني؟ هل ستشارك في النّزال؟ لا تتهوّر يا بنيّ، هذه ليست لعبة!

حاول آدم أن يكون ثابتًا ومقنعًا ولعلّ الظلّام ساعد على إخفاء الرّجفة الخفيفة التي غلبت أطرافه والسّحنة المتألّمة التي علت ملامحه، قال بلهجة واثقة:

- أنا مُسخّر أيضًا يا أبي! لقد اكتشفتُ هذا منذ أيّام.

- مُسخّر؟!

- إنها قصّة طويلة، لقد بدأ الأمر حين تمكّنتُ من إنقاذنا من الغرق، أنت لا تذكر، لقد تحطّمتْ الطّائرة فتمكّنتُ في تلك اللّحظة الفارقة من امتصاص المادّة المتوهّجة من الماء وقذفتُ بنا إلى الشّاطئ.. وإلا كيف نجونا؟

- أنت فعلتَ هذا؟

كان أشرف يرمقه بنظرات دهشة فاغرًا فاه، لعلّ آدم نفسه لا يزال غير واثق من الرّواية التي كرّرها على مسمعه عمّار ونوح لكنّه يتظاهر بالاقتناع ويحاول بدوره إقناع والده.

- لقد حصلتُ على تدريب في الأيّام الماضية وتمكّنتُ من التحكّم في الطّاقة! ثمّ إنّني أنجح أكثر حين أكون في خطر، اللّحظات الحاسمة تفكّ قيود الطّاقة بداخلي وتدفعها إلى الخارج بقوّة هائلة!

- آه!

لم يبد على والده الاستيعاب، هذا كثير لمعالجته دفعة واحدة.

- سوف أعود إلى رؤيتك قريبًا فلا تقلق بشأني، سنكون جميعًا بخير وسنرجع معًا سالمين إلى الوطن!

شعر آدم بوخزة في صدره وهو يتفوّه بالكذبة وراء الكذبة.

ابتعد ببطء عن غرفة الحبس، كانت هناك ثلاث منها، حين مرّ أمام الغرفة التالية لغرفة أبيه سمع أنينًا مكتومًا فجعله الفضول ينحني ليتلصّص عبر الكوّة على ساكنها، كان كهلًا يتكوّر على نفسه في الرّكن البعيد وقد بدا عليه التألّم. تعرّف على ملامح الرّجل المحكوم عليه بالنّفي، همَّ بسؤاله عن سبب شكواه ثمّ تراجع، سيخبر روان، إنّها الـ«ماغداخا»، وهذا أمر من صميم عملها.

حثّ خطواته نحو خارج البناء ليجد روان في انتظاره، هزّت رأسها بإشارة إلى الحرس ثمّ سبقته بخطوتين مبتعدة عن المبنى المنعزل، قال وهو يلحقها بخطى واسعة:

- رأيت الرّجل المحكوم عليه بالنّفي.. إنّه يتألّم!

عبست ولم يتباطأ خطوها، حزر أنّها لا ريب تدرك ما يعانيه، لكنّها لسبب ما لا تتدخّل، مشت بهدوء وشرود، كان آدم يفكّر منذ لقائهما صباحًا بأنّه سيكافئها إذا أخذته لرؤية والده، سيحدّثها عن إنجازاته على طريق التّسخير، كان يبحث عن الصّيغة المناسبة التي قد يستهلّ بها الحديث لكنّ صمتها العميق لم يلهمه، بدا أنّ هذا لم يكن مناسبًا لمزاجها الحاليّ، كان هناك أمر يشغل بالها ويجعلها مهمومة وشاردة غير أنّه لا يجرؤ على سؤالها عن السّبب، ليسا على ذلك القدر من الصّداقة الذي يسمح بالتّطفل على أفكارها وهواجسها بالإضافة إلى أنّه يشكّ في استجابتها لسؤاله إن حاول، إنّها معالجة! إنّها الشخص الذي يهبُّ إليه كلّ فرد على الجزيرة لطلب العون! لن تريه ضعفها بتلك البساطة.

انشغل بأفكاره وتساؤلاته حتّى أصبحا على مشارف الكوخ فقدّر أنّه قد ضيّع فرصة فتح حوار ما، تنهّد في يأس، سوف يمضي ليلة وحيدة أخرى دون أن يتحدّث إلى أحد بما يعتمل في صدره ويشغل ذهنه.

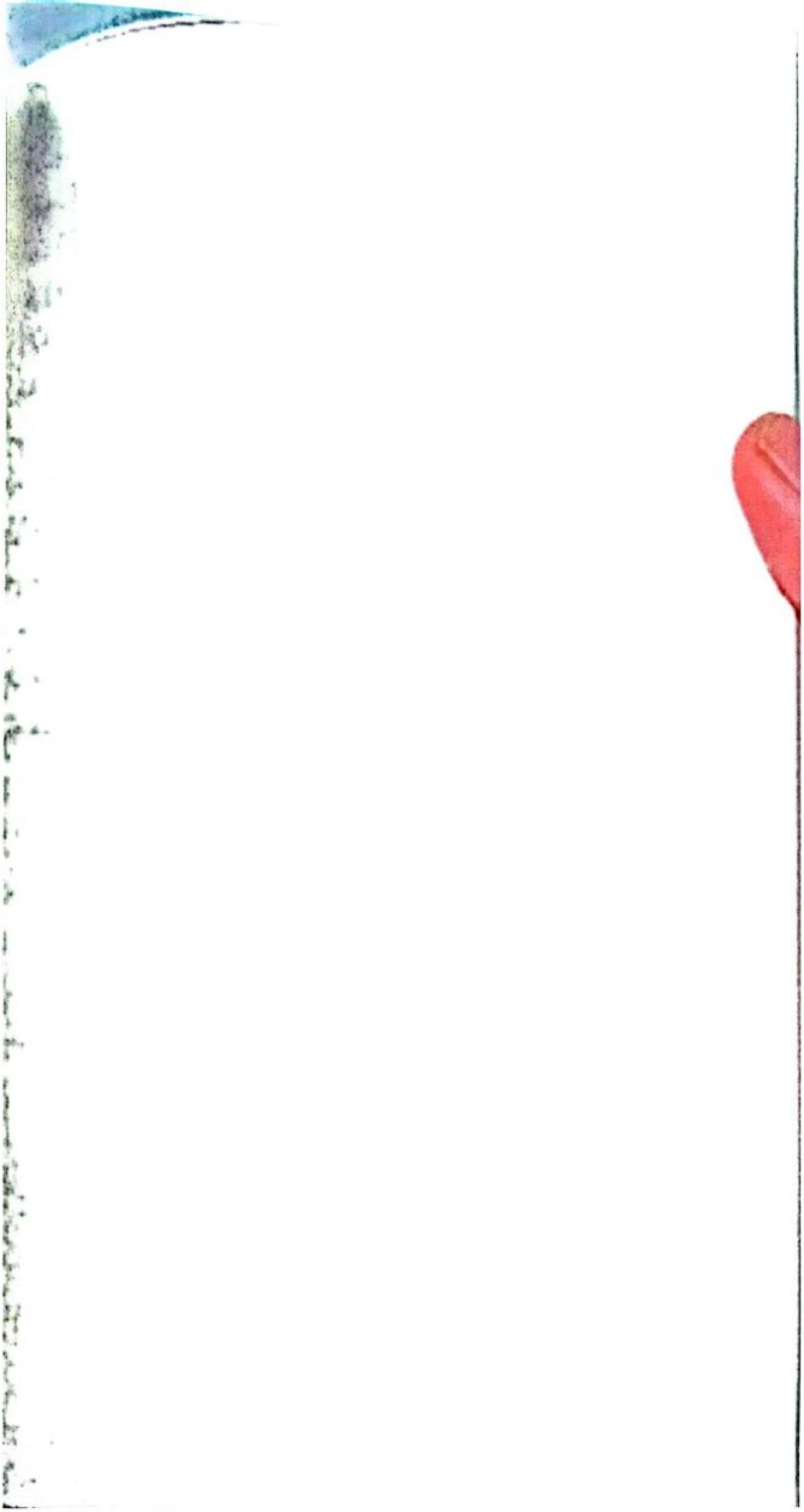

(19)

اليوم التّاسع عشر

تبدو حياته في الوطن، على بعد آلاف الأميال، ضبابيّة مثل حلم بعيد، في اللّحظة الرّاهنة كانت الحياة على الجزيرة هي الحقيقة الوحيدة في وعيه وماعداها وهم. خلال قرابة عشرين يومًا، كان قد اندمج في واقعه الجديد واقع افتراضيّ كأنّه يلبس نظّارات الانغماس!- وينسى كلّ ما وراءه، إنّه لاعب على رقعة الجزيرة وهو مفتون بحياته الخياليّة إلى درجة الهوس ويؤدّي مهمّته بتفانٍ شديد.

كان من السّخافة أن يفكّر في مأزقه الحاليّ مثل «لعبة»! لم يكن أيّ جزء منها مسليًا -باستثناء التّسخير ربّما، فقد بدأ يستمتع بذلك- باعتبار الخطر به والقتال حتّى الموت الذي يضطرّ لخوضه.، إنّها لعبة خطرة، بعض الألعاب في العالم الخارجيّ تنطوي على مخاطر جسديّة جمّة، يموت لاعبون في الحلبة باستمرار وهذه -ربّما- تكون مثلها!

إنّ شخصًا في مثل موقفه لا يمكن أن ينسى أهدافه الأصليّة: الحجر، والدته، العودة. لكنّه يشغل نفسه عن الأشياء التي لا يقدر على حسمها في الوقت الحاليّ. تمنحه التدريبات فرصة إلهاء عن همومه لذلك لا يرفض الاندماج في هذا الجزء من اللّعبة، كان يهتمّ بتحسين لياقته البدنيّة وشحذ حواسّه وإتقان الحيل الصّغيرة التي يعلّمه إيّاها نوح، فتلك مهارات مفيدة في سياق اللّعبة أيضًا!

بعد التّدريب قادته قدماه إلى المشفى، تضغط الوحدة على أعصابه ويضيق به فضاء الكوخ المحدود فيبحث عن أذنٍ تستمع إلى همومه وقلبٍ يشاركه حمله. ما إن خطا عبر المدخل حتّى لمح أوران -غريمه- يقف قبالة روان، تسمّر مكانه على الفور وهمّ بالتّراجع إلّا أنّ التفاتتها كانت أسرع، لمحها تهمهم بكلمات سريعة لأوران فيهزّ هذا الأخير رأسه موافقًا، استمرّ آدم يحدجه بنظرة مستاءة حتّى توارى داخل غرفة الفحص.

كانت خطواتها تقترب فيما تراجع جسد آدم في حركة دفاع غريزيّة، كان حضور الـ«بندار» الشابّ في الجوار مُربكًا لأعصابه. انتبهت روان لتصلّبه فقالت بلهجة مطمئنة:

- إنّه هنا من أجل التّبرع بدمه، الـ«بندار» يفعلون هذا دوريًّا، يمكنك الانتظار بالدّاخل حتّى أفرغ من العمل.

ابتسم آدم لنفسه في تشفٍّ، سرّه أنها لم تطلب منه الانصراف حتى تتفرّغ لخاطبها، طلبت منه الانتظار وقد أشعره ذلك بالأهمية، إنّه «بندار» أيضًا وهجين مثلها. فاجأ نفسه وهو يهتمّ بإثارة إعجابها إلّا أنّ تلك اللّفتة اللطيفة من طرفها لا تُغيّر من الأمر شيئًا: أحدهما سيفقد حياته قريبًا -هو أو أوران- والأرجح أن يكون هو!

عادت روان بعد دقائق قليلة ولفّته نظراتُها باهتمام بالغ، تمتم آدم في ضيق:

- هل تعتقدين أنني قد أتغلّب عليه؟

هل سيكون بوسعه أن يراوغ إذا ما سدّد إليه خصمه ضربة ناريّة صاعقة؟ إنّ أفضل ما يفكّر فيه هو أن يحاول امتصاص طاقة غريمه. تساءل إن كان ذلك ممكنًا عمليًّا؟ إنّ النظرية تقول إنّه قادر على امتصاص طاقة

الأشياء وليس البشر، فكّر أنّ عليه التّجربة، قد ينجح في شلّ حركته إذا فعل ربّما يتأكد قبل ذلك، سيطرح الفكرة على نوح في حصّة التّدريب المقبلة.

قالت روان بهدوء:

- يجب أن تثق في قدراتك أكثر!

ملأ صدره إحساسٌ غريبٌ بالرّضا، تساءل إن كانت ستختاره في أيّ مواجهة بينه وبين أوران؟ لقد كان المُسخّر الأرعن -كما يحلو له أن يطلق عليه- المرشح الأول بالنسبة إليها، ربّما كان القرار -حسب رواية ريحان- محسومًا بالفعل لكنّ المعالجة لم تعبّر في أيّ وقت عن ميلها إلى المُسخّر، لم يجمعها بتحادثان على انفراد كما يفعل العشّاق ولا كانت بينهما نظرات دافئة وابتسامات خجول، لكنّها «ماغداخا» روان! إنّها لن تُظهر عواطفها في العلن على الإطلاق، لديها سمعة وصورة اجتماعيّة تقترن بالصّرامة والحزم. تبدو صورة الـ«ماغداخا» في الوعي الجمعيّ لشعبها مماثلة للمرأة الحنطيّة! تساءل إن كان ذلك طبعها في الحقيقة أم أنّها تتقمّص دورًا كما يحاول هو أن يتقمّص دور البطل الفدائيّ؟

لفت انتباهه أنّها لم تتردّد لحظة واحدة حين طرح السّؤال عليها، لو كان في داخلها أدنى ميل لأوران ربّما كانت لتضع اعتبارًا لمصيره، ربّما حتّى كانت لتردعه عن المضيّ في التحدّي، أم أنّ دورها الاجتماعيّ كمعالجة يفرض عليها الالتزام الحياد وإسباغ عطفها على الجميع دون تمييز؟ ما يدريه! لعلّها كانت تبثّ في خصمه عبارات الثّبات والتّشجيع بالغرفة المجاورة للتو حين؟

قال أخيرًا في قلة حيلة:

- أشك أنني قد أفعل باعتبار الوضع الحاليّ!

لن يتأخّر الحكماء في العودة من عزلتهم وحين يظهرون سيتحدّد موعد النّزال، لن يكون أمامه وقت طويل لإتقان مهارات التّسخير، ليس بالقدر الكافي للتغلّب على خصمه.

قالت روان تشدّ من أزره:

- لقد رأيتُ ما فعلته عند الصّخرة و«بندار» نوح يقول إنّك ستنجح في فكّ أقفال الطاقة قريبًا.. أثق بأنّك ستفعل.

إذًا كانت تتابع تقدّمه سرّا، لم يكن في حاجة إلى إخبارها بإنجازاته، مرّة أخرى شعر بالحرارة تغمره وقد امتلأ خيلاء، ربما تجد من واجبها أن تحرص على نجاح تدريبه، خاصّة في غياب الـ«كوتانا»، إنّه يعي كل تلك الملابسات لكنّه يشعر بسرور أحمق لاهتمامها، إنّها لعبة خطرة.. خطرة جدًّا.

استدارت لتغادر الغرفة مرّة أخرى فاسترق النّظر إليها وهي تحادث رجلًا عند المدخل، تنهّد.. ربّما سيكون عليه الانصراف وتركها لعملها، عليه أن يستمرّ في التّدريب أيضًا فلا وقت يضيّعه.

عادت إلى الغرفة وهي تجتهد لتحافظ على اتّزانها، قالت في همس:

- أرسل أبي ساعيًا.. سيرجع الحكماء هذا المساء.

تقلّصت معدته واجتاحه ألم سرعان ما انتشر عبر الأوردة والأعصاب اللّعبة تزداد خطورة، لقد اقترب من خطّ النهاية والنّزال الأخير غا على الأبواب.

***

لم ينجح آدم في فكّ أقفال طاقته رغم أنّه بات يشعر بها أفضل، كانت تمثل غبر مرئيّة تتجمّع عند أطراف أصابعه مثل شرارات كهربائيّة قابلة للاشتعال في أيّ لحظة.. لكنّها لا تفعل!

قال نوح يُشجّعه:

- لقد أصبحتَ على الأقلّ قادرًا على شحذها وتركيزها في منطقة معيّنة، حين تكون بحاجة ماسّة إليها، سوف تطيعك.

مع ذلك، استمرّ آدم يشعر بعدم الارتياح. إنّ الاعتماد على فرضيّة لم يثبت من صحّتها بأمّ عينيه لا يعدّ خطّة متينة تمامًا، قال يشير إلى الفرضيّة الأخرى التي راودته صباحًا:

- هل تعتقد أن بإمكاني امتصاص طاقة أوران؟

حدّق فيه نوح بشكّ وهو يزن الفكرة في رأسه:

- هل سبق أن فعلتَ هذا؟

- لا أذكر أنني قد قبضتُ على كفّ عارية لأحد السّكان من قبل..

فكر: ربما باستثناء الصّغيرة ريحان، لكنّه لا يعتدّ بها، إنّها طفلة غير بالغة وربّما لا تملك طاقة ذات أهميّة ثم إنها هجينة مثله، هذا قد يجعلها مختلفة عن الآخرين.

- إذًا لنجرّب!

نبض نوح على ذراعه بقوّة مباغتة فتراجع آدم صارخًا:

- ماذا تفعل؟ ماذا لو امتصصتُ طاقتك الآن؟

هزّ نوح كتفيه في استهانة:

- أنت ترى.. لم يحدث شيء!

أطال آدم النّظر إلى كفّ نوح التي لا تزال تلامس ذراعه ثمّ قال متفكّرًا:

ماذا لو اصطدمت إلى إحدى الدّارات مثل دارة كهربائية؟

لم يفهم نوح المقارنة لكنّ آدم سارع إلى التّفسير، لأنّ الكهرباء الانتشار مصدرها نوح ببساطة ثمّ أشار الأرض حولهما بشكل لم يحدث شيئًا مثل في دارة:

هل تشعر بشيء؟

هزّ نوح رأسه نافيًا فتراجع آدم في استسلام، لم يعد أنّه يمتلك القدرة على امتصاص طاقة البشر، ربّما تستجوب الاجتهادات للمستقبل أفضل، قال نوح مطمئنًا:

أنت لا تعرف ما يمكن أن يحدث في حالة الخطر القصوى، اعتقد أن طاقتك سوف تنطلق في الميدان.

تنهّد آدم في حيرة، إنّه يمتصّ المادّة المتوهّجة من الأشياء ومن فتات الماء حتّى دون وعي منه لكنّه قد يحتاج إلى كلّ إرادته حتّى يُطلقها، إنّه يعتمد على حصول معجزة على أرض المعركة، كانت تلك خطته الوحيدة!

استدار نوح واتّجه إلى الشاطئ وهو يقول بابتسامة صغيرة:

- أنت متوتّر، يجب أن تتنفّس عن الضغط بداخلك، تعال، سنجرّب شيئًا آخر.

تبعه آدم في فضول وهما ينطلقان عبر الكثبان الرّمليّة بخطوات واسعة، حين بلغا نقطة مرتفعة نسبيًا تُشرف على المحيط أطلق نوح صفيرًا حادًا أزّ في أذني آدم فعبس وهو يتطلّع إلى الأفق محاذيًا مدربّه، بعد ثوانٍ قليلة انشقّت صفحة الماء عن خطم حوت فضيّ عريض! اقترب الحيوان البحريّ العملاق ليتمرّغ في مياه الشاطئ الضّحلة مثل كلب أليف، قفز نوح على الفور ليعتلي الدّابة، ربّت الجلد الأملس اللامع بودّ ثمّ تشبّث بالزّعنفة قبل أن يشير إلى الحوت بالانطلاق بهمزةٍ من قدميه.

راقب آدم المشهد مأخوذًا فيما ينطلق الخوت براكبه في قفزات حرة خلف الشاطئ وراءه، بعد جولة قصيرة عاد الخوت إلى الشاطئ، لوّح له، ولوّح وهو يرفع صوته هاتفًا:

- اقترب! تريد لقاء «لولا»؟

«لولا»، بدا اسمًا مناسبًا لأنثى الأوركا المرحة إلا أنّ آدم لم يبد متحمسًا للقاء. تصلّبت قدماه على الرّمل الفضيّ ولم يجرؤ على الاقتراب خطوة واحدة، تنفّس بعمق وقاوم موجة الاضطراب التي هاجمت صدره، خرج صوته متهدّجًا وهو يقول قبل أن يولّي مبتعدًا:

- مرحبًا لولا! ربّما نتحدّث في وقت لاحق!

***

عاد الحكماء مساء ذلك اليوم.

تساءل آدم وهو يقف ضمن الحشد عن موقع المعتزل المفترض، هناك مساحة لا بأس بها من الجزيرة لا يزال يجهل أمرها، ربّما يمتلك الوقت والفرصة الكافيين لاستكشاف مزيد في المستقبل، بافتراض بقائه على قيد الحياة!

لا تزال ممارسات الحكماء أمرًا غامضًا لديه، هل أمضى الرّجال العظام الأيام الماضية يتحدّثون؟ يتشاجرون؟ يؤدون طقوسًا محدّدة؟ أم لعلّهم ينامون وينتظرون أن تراودهم رؤى واضحة تخصّ المستقبل؟ إلا أنّ تلك المماطلة كانت في صالحه لا محالة فلا يجرؤ على التذمّر بشأنها.

كانت عودة أفراد المجلس بداية العدّ التّنازليّ نحو النّهاية. ظهر «كوتانا» توماس في عباءة الرّجل الحازم أمام الجموع التي توافدت على مبنى المجلس وقال معلنًا على الملأ:

- لقد أقرّ المجلس موعدًا للتحدّي بعد غدٍ!

دار قلب آدم في صدره، كانت كتفاه هابطتين في وضعيّة انهزاميّة لكنّه يمسك في مواجهة الحماس الجماهيريّ منقطع النّظير المتعطّش لتحقيق العدالة بطريقته الخاصّة!

بعد أن انفضّ المجلس انتظر آدمُ عمّارَ قرب بيته.

بعد تمحيص وفير لخطّة الشّيخ قرّر أنّه سيتصرّف بنفسه، لقد تساءل كثيرًا عن كيفيّة وصول جهاز الإرسال والاستقبال إلى الشيخ! بل كيف تمكّن أهميّته حتّى يحتفظ به دونًا عن باقي الآلات التي حوتها المروحيّة؟ إنّ الشّخص الوحيد القادر على تمييز تلك التّفاصيل هو عمّار، سيكون غبيًّا لو ظنّ أنّ الشيخ قادر على مساعدته في غفلة من عمّار والحكماء الآخرين! لا يدري بعد إن كان الرّجل يتصرّف من تلقاء نفسه أم بإيعاز من جهة تتوارى في الظلّ، هل هو دمية في يد أحدهم أم أنّه لاعب حقيقيّ؟

لم يكن ساذجًا ليضع ثقته في كلّ مَن يدّعي المساعدة لكنّه قد يعقد اتّفاقًا مع الحكماء، كان ذلك خياره الأفضل، قال بلهجة حازمة حين جمعتهما الجلسة:

- لديّ طلب!

- تفضّل.

- أريد أن يُطلق سراح والدي قبل النّزال!

- لا تقلق بشأن والدك.. لن يصيبه مكروه.

قاطعه آدم بقوّة:

- لا أريد له أن يشهد النّزال.. يجب أن يرحل قبل ذلك!

- أنت لن تفشل، ثق بذلك!

صرخ آدم:

- لست أنت من سيواجه الإعدام! أنا من سيفعل ما يوجب ذلك
أم لم أفعل سأكون قد احترمت حكم القصاص وقرارات مجلس
المجلس.. أليس كذلك؟

هزّ عمّار رأسه، فأضاف آدم:

- إذًا.. تُطلق سراح والدي قبل أن أطأ أرض الجليلة! أريد أن أضمن
نجاة أحدنا على الأقل.. وأن لا يُفطر فؤاده بعراق ولده بعد فراق

عبس عمّار واستغرق في التفكير ثمّ ما لبث أن هزّ رأسه في تفهم يوهمه
أن يتنازل ليمنح آدم الطمأنينة التي يحتاج إليها.

- حسنًا.. أعدك، حين تقف في حلبة النّزال.. سيكون والدك قد أبعد
عن الجزيرة بالفعل.

- ومعه «حجر الشّمس» من أجل والدتي!

زمّ عمّار شفتيه، لقد ادّعى في وقت سابق أنّه لا يملك وسيلة للحصول
على الحجر، لقد راوغ أمام أشرف ولم يستجب لطلبه إلّا أنّ حسابات
أخرى تدور في خلده في تلك اللّحظات، شعر آدم بتردده لكنّه حافظ على
نظرته الثابتة يبثّه رجاءً واستماتة.

زفر عمّار أخيرًا:

- أنت تعلم، هذا الأمر يفوق صلاحيّاتي لكنّني سأفعل ما بوسعي
- أحتاج إلى تأكيد، وسأحرص على تسديد الدّين.. إذا نجحتُ
البقاء على قيد الحياة!

لانت ملامح عمّار وهو يقول مترفّقًا:

- بالتّأكيد.. سأحرص على أن يحصل على الحجر.

- ومؤونة كافية لأسبوعين على الأقلّ.

- مؤكّد.. سأفعل، هل أنت راضي الآن؟

نهض آدم، سيكون قد أنقذ والده على الأقلّ، والديه، ثمّ سيستسلم لمصيره أيّاما كان.

(20)

اليوم العشرون

كان يعود إلى الصّخرة كلّ يوم ليشغل نفسه بأشياء يقدر عليها ويمكنه عمل شيء بخصوصها، وقد بات يجيد تسلّق الصّخرة بسلاسة متزايدة. كانت أطرافه تحتضن السّطح الأملس وتلتصق بالفراغات الخفيّة مثل كوب الشّفط ثمّ تستمرّ معانقةً التّجاويف الصّاعدة إلى الأعلى حتّى يلفي نفسه عند القمّة. مرّة بعد مرّة كان يكتسب مهارة التسلّق والخفّة لكنّها ليست شبيهة بأيّ درجة بمهارة الطّيران التي يمارسها «بندار» نوح!

كان من اليسير أن يتذمّر لأنّه لا يُحرز التقدّم المطلوب غير أنّه قرّر أن يمتنع بما أدركه من إنجاز، يتسلّق الصّخرة إلى القمّة ثمّ يجلس في الأعلى «يشعر بالهواء» على طريقة نوح. أمضى ساعات يحاول أن يحادث والدته، لم يعرف قطّ إن كانت «هي» من يخاطبه عن طريق هبة تشبه «التّخاطر» أم أنّها كانت مجرّد هلاوس سمعيّة لا صحّة لها لكنّه كان يجد عزاءً في الحديث إليها، كان خيالها يتعاطف ويُبدي شفقة وحنوًّا كما كانت والدته الحقيقيّة تفعل لكنّ صوتها كان يتباعد ويتلاشى في غضون دقائق ليعود وحيدًا.

كان التّدريب يكشف في كلّ مرّة عن مجموعة أوسع من القدرات التي يتضمّنها التّسخير وتمنّى لو كان يملك الوقت لإتقانها كلّها، سيكون محظوظًا إذا نجا من التحدّي وقد يتاح له أن يتقن مهارة أو اثنتين باعتبار الوقت الذي يفصله عن موعد النّزال -والذي لا يزيد على أربع وعشرين

ساعة- فإنّه بالكاد يتمكّن من مراقبة نوح وهو يستعرض قدراته ويجرّب أن يقلّده بلا نجاح كبير!

باستثناء «الشّعور بالهواء» لم يفلح في السّيطرة على أيّ هبة أخرى رغم المحاولات المتكرّرة وهي للأسف هبة لا تضرّ ولا تنفع حين يتعلّق الأمر بالقتال!

تسلّق الصّخرة في نهاية النّهار، أراد أن ينفرد بأفكاره على الجانب الآخر دون مقاطعة، قفز إلى الأرض الرّمليّة ثمّ مشى في شرود حتّى لامست قدماه الماء، وقف على تلك الشّاكلة بعض الوقت فاستغرقته التأمّلات كأنّ الزّمن قد توقّف من حوله، استمرّ يحدّق إلى الأرض فيما تتابع حركة الموج التمدد والانحسار!

قد يكون هذا يومه الأخير على الجزيرة. في الغد قد تنتهي كلّ الأحلام وهو يتأرجح بين رغبتين: الفرار والمواجهة! إنّ الفرار يبدو خيارًا منطقيًّا باعتبار تفاوت القدرات بينه وبين خصمه لكنّ نتائجه قد تكون وبالًا عليه وعلى عائلته إذا ما قُبِضَ عليه متلبّسًا، قد يفقد كلّ شيء حتّى فرصة نجاة والديه التي فاوض بشأنها بخرقه الاتّفاق مع الحكماء.

والمواجهة.. حسنًا، المواجهة تجعل منه بطلًا، قد تكون غباءً لكنّها غباء محمود في نظر المجتمع وفي تقديره لذاته، سيموت شريفًا وشجاعًا مرفوع الرأس. ارتعدت فرائصه عند تلك الفكرة وتجمّعت العَبَرات في مقلتيه، لا يريد أن يموت! إنّه خائف يرتجف، ليس بطلًا! ولن يجني العالم شيئًا من مقتله على أرض مجهولة في غياهب المحيط، لن يخلّد التّاريخ ذكراه حتّى كفَارسٍ همام من فرسان المجد! سيكون موتًا سخيفًا سرعان ما يُنسى ليصبح مجرّد قبر من قبور «أيتورا» كثيرين منسيين، لن يذكره سوى عدد قليل من السّكان لأجَل قصير؛ روان وريحان وربّما نوح وعمّار.

غير أنّ هذا النّوع من المصائر يملؤه غضبًا، إنّه لا يزال شابًّا ينتظره مستقبل واعد على الضفة الأخرى، في عالمه، ولا يمكنه التّسليم بتلك النهاية الحالية من المعنى!

إلا أنّ هذا ما يحدث على الضفة الأخرى تحديدًا؛ يموت النّاس كلّ يوم بلا مبرّر، بصنع السّاسة الحروب ويديرون دفّتها ليذهب ضحيّتها آلاف الأبرياء الذين لا ناقة لهم ولا جمل في مآلاتها ولا يفيد منها إلا باعثوها ورُعاتها! تنهّد في حسرة.. هل يكون مصيره أن يكون واحدًا من الحيوات عديمة القيمة التي تحصدها آلات القتل العشوائيّة؟

سيكون محظوظًا على الأقلّ لأنّه قد عرف بالسّاعة الحاسمة قبل أوانها، لقد تلقّى تحذيرًا ويوسعه الاستعداد، هذا سؤال كلاسيكي في علم النّفس: لو عرفت أنّه تبقى يوم واحد في حياتك.. فماذا تفعل؟ سيودّ أن يحتضن والديه، ينظر في عيونهما ويبحث عن بعض التقدير، غير أنّ والده محبوس ووالدته على بعد آلاف الأميال!

إن كان عليه أن يموت فسيكون ممتنًّا لأنّه امتلك فرصة زيارة موطن والدته، ولأنّه اكتشف لنفسه هويّة خارقة لم يكن ليعرف بشأنها أبدًا، أنّه عاش حياة رغيدة في الدّيار، سيكون راضيًا بهذا القدر.

عند ذلك القدر من التّفكير شعر بمسحة سكينة تغلّفه، سوف يستسلم لقدره.

لمس زهرة الشّمس الصّغيرة التي ذوت في جرابه، لا يؤمن بالحظ البابل بالأفعال وحدها، لكن تلك الزهرة الصّفراء المشرقة معجزة حقيقية والاحتفاظ بها لا يضرّ، لا ضير من بعض التّفاؤل، وفي هذه الأثناء سوف يدعو إلا أن الدّعاء ثقيل على لسانه لا يعرف كيف يصوغه! لا يعرف كيف يسأل والحال فصاص نصّ عليه الله في كتابه الحكيم ﴿أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ

@ART_OF_BOOK

وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأَنفَ بِالأَنفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ)!

تمتم مبتهلًا:

- يا رب.. إن كان أبي بريئًا فامدُد في عمري وأنت أرحم الراحمين!

بغتة، تناهى إليه نخير حيوانيّ قريب، رفع رأسه بسرعة ليحدّق في المشهد المذهل أمامه.. كانت «لولا» تهزّ خطمها في دلال على قيد خطوات منه، تحرّكت الأوركا برفق في المياه الضّحلة وأطلقت قرقرة رقيقة كأنها تناديه. تلفّت آدم في حذر: لم يكن نوح في الجوار، لم تكن سمعة الأوركا لطيفة جدًّا في عالمه، لا يطلقون عليها اسم «الحوت القاتل» جزافًا! لكنّ «لولا» بدت مختلفة، لم يجرؤ على الاقتراب حين وجّه إليه نوح الدّعوة لكنّها قريبة جدًّا الآن والماء لا يكاد يصل إلى ركبتيه.

أخذ شهيقًا طويلًا ثمّ خطا باتّجاهها.. «هذا جنون!».. حدّث نفسه محذّرًا لكنّ قدميه تحرّكتا بقوّة دفع ذاتيّة متجاهلتين نداء عقله، إنّه يحتاج إلى معجزة للفوز على الـ«بندار» لذا فربّما يجدر به أن يتحلّى بجرأة أكبر إن كان يرجو لقدره أن يتغيّر، وإن كان عليه أن يموت في الغد، فسيكون هذا آخر إنجازاته العظيمة، ربّما عليه لقاء «لولا» إذًا!

كانت الأوركا تعرف بشأن الشاطئ الخفي، غطست تحت حاجز النّبات وظهرت قريبة جدًا من الرّمال! أدهشه ذلك الاكتشاف.

حين صار على مسافة خطوة واحدة من الحوت السّاكن تبيّن له مدى ضآلة جسده أمام جسمها الفضيّ العظيم! ومع ذلك فقد استكانت كأنها تحثّه على الدّنوّ أكثر. مدّ كفّه برفق ولامس خطمها الضخم الذي يفتر عن عشرات الأسنان الفتّاكة الصّغيرة فسَرَت في جسده رعدة باردة على الفور كأنّ اتّصالًا ما نشأ بينه وبين الأوركا الوديعة، في تلك اللّحظا

بض الخيط الأبيض تحت جفنيه باهتزازة طفيفة، كانت الحركة مفاجئة ومدهشة. أغمض عينيه محاولًا أن يستجمع طرف الخيط إلا أنّه تلاشى على الفور، همس ذاهلًا:

- «مادرا»!

كانت طاقة المادّة المتوهّجة تشكّل رابطًا بينه وبين الحيوان.. تساءل إن كانت الـ«مادرا» هي سرّ ترويض المسخّرين للأوركا؟ ابتسم وهو يتابع تربيت الجلد الأملس بلطف، لم يجفل الحيوان البحريّ الهائل للمسته كأنّما بألفه.. هل تحفظ الحيتان الرّوائح المعروفة والآمنة لديها مثل الكلاب؟

ابتسم وهو يتراجع بحذر نحو الشّاطئ.. يكفي هذا لليوم!

رغم المزاج الجنائزيّ الذي استولى عليه معظم النّهار عاد إلى الكوخ متشبّثًا بتجربة التّواصل الفريدة مع الكائن البحريّ، مرّ بباله خاطر عابر وهو يتمدّد على سريره وقد هدأ العالم من حوله: هل ظهرت الأوركا حين كاد يغرق فحملته إلى الشّاطئ؟

***

خطا داخل مبنى الحجز في عتمة الليل، رافقته روان مرّة أخرى حتّى مدخل ولبث هناك تنتظره بعد أن تحدّثت إلى الحرّاس. كان قد حصل على موافقة «كوتانا» عمّار لوداع والده، سيكون مشغولًا في الغد وقد لا يجد فرصة للقدوم إلى زنزانته، سيكون يومًا مشهودًا لكليهما وسيحرص على أن تغيب شمسه غيابًا مرضيًا لأحدهما على الأقلّ.

كان خيط ضوء ضئيل يتسلّل من الكوّة الصّغيرة في منتصف الباب حتّى انحنى ونادى برفق ليوقظ القاطن النّائم:

- أبي؟

رفع أشرف رأسه وتلفّت في حيرة، تمالك بقية من حلم لم تطلع للـ
الهاتف في شاشته، وربما استطاعت أصوات الحلم بإنهاء الواقع.

- أيها هنا أنا!

اقترب أشرف من الكوّة في لهفة وسأله مثل المرّة الأولى:

- آدم، ما الذي تفعله هنا؟

قال آدم بابتسامة واسعة:

- جئت أزفّ إليك البشرى.. سوف يُطلقون سراحك!

- ماذا؟ ما الذي فعلته؟

- لقد توصّلتُ إلى اتّفاق مع المجلس.

كان صوت أشرف مليئًا بالشّك:

- ماذا بشأن القصاص؟

- لقد انتهينا من هذا!

- ماذا تعني؟

- لقد انتهى أمره.. لقد فزت!

- فزت؟ فزت على المُسخِّر؟

عضّ آدم شفته السّفلى وهو يهزّ رأسه مؤكّدًا، ثمّ أخرج من جرابه العلبة البلاستيكيّة السّوداء ومرّرها بحرص عبر الكوّة، هتف أشرف:

- جهاز الإرسال! لقد وجدتَه!

تلك قصّة طويلة أخرى، إنّ الأحداث تتسارع بجنون خارج الحجز،

قال آدم:

- لقد جفّفته جيّدًا، لا تزال البطارية تحتفظ ببعض الشحن لكنّه لن يستقبل أيّ تردّدات تحت الظلة، حين تبتعد عن الجزيرة ستتمكّن من تجربته.. عسى أن يعمل جيدًا!!

- ماذا تقصد؟ ماذا عنك؟ هل ستبقى؟

- لا تقلق سوف ألحق بك قريبًا، لقد عقدت اتّفاقًا مع المجلس! سيطلقون سراحك، وستحصل على الحجر أيضًا!

- الحجر؟

- من أجل والدتي، حين يضعونك على الطّوف ستحصل على «حجر الشّمس» والمؤونة، ربّما يساعدك جهاز الإرسال على الاتّصال بسفينة عابرة ما، أرجو أن يفعل، ثمّ أثق بأنّك ستتدبّر أمرك من دونه أيضًا، لقد كانت هذه هي الخطّة منذ البداية.. أليس كذلك؟ الحصول على الحجر والعودة إلى الوطن...

التفت إلى روان التي كانت تمكث على مقربة فأومأت تطمئنه، فتحت جرابها فتلألأ حجر بحجم قبضة يده داخلها، سيكون كافيًا لتغذية والدته بالـ«مادرا» التي تحتاج إليها سنوات مديدة أخرى، لقد وفّى عمّار بالجزء الخاصّ به من الاتفاق.

تلعثم أشرف في حيرة:

- ماذا.. ماذا سأقول لوالدتك؟ كيف أبرّر تركك خلفي؟

- أخبرها أنّني في مهمّة، سأساعد قومها على أمر ضروريّ وهي ستكون فخورًا بلا شكّ.

قال أشرف في حذر:

- ما الذي وعدتهم به؟ فيمَ تورّطت يا بنيّ؟

- أنا أعرف جيدًّا ما أفعله!

كانت التّعابير التي ظهرت على ملامح والده تُظهره ساذجًا نجاة في حين أراد أن يبدو بطلًا، لعلّه يرى نفسه بطلًا لملحمة إغريقيّة ما لكنّ المأساة قد تنتهي بسفك دمه، فالأبطال يموتون في الملاحم غالبًا!

تململ آدم في ضيق، كان الانحناء غير مريح لكنّ شيئًا آخر غير وضعيّة جسده جعله يشعر بالانزعاج، إنّ هذا لا ينتهي، لن ينال يومًا رضا والده وتأييده، إنّ كلّ ما يفعله في عينيه خاطئ! لقد تعوّد هذا، بعد عشرين يومًا من القرارات المتسرّعة والنّتائج الكارثيّة، أليس هذا ما كان عليه الأمر؟ لقد أثبتتْ الملابسات أنّ البروفيسور أشرف كان محقًّا دائمًا، وقد استمرّ آدم في عناده معتقدًا أنّ كلّ مرّة ستكون مختلفة!

لكنها مختلفة هذه المرّة، كان آدم على يقين لكنّه لا يستطيع إقناع والده، تلك النّظرة القلقة المستنكرة التي يراها في عينيه الآن تنبئه بأنّ النّقاش لن يُجدي، سيثق في حدسه -كما فعل كلّ مرّة- وسيثبت هذه الكرّة أنّه قد نضج فعلًا، سيجيد التصرّف، سيخرجهما من المأزق! لكنّه سيحتفظ بقراره لنفسه ولن يدافع عن موقفه.

أومأ برفق ثمّ قال متفلّتًا:

- عليّ الذّهاب الآن، الحرّاس ينتظرون في الخارج، لقد حصلت على فُسحة زيارة قصيرة..

عاد أشرف يقول في لهفة:

- لن ترتكب أيّ حماقة.. أليس كذلك؟ لا تتورّط مع السكّان المحليين أبدًا!

أومأ آدم ثانية بابتسامة فاترة، لقد فات الأوان على الاختباء والشفافية والبقاء في الظلّ، لكنّ البروفيسور أشرف لا يزال يعتقد أنّه غير مرئيّ! لا يدري إن كانت أحاديثهما خلال شعوره بالهواء حقيقيّة أم لا، لكنّه واثق بأنّ والده على الأقلّ ستتفهّم، لعلّها تشعر به كما يشعر بها، واصل في إصرار:

- أثق بأنّك ستكون قادرًا على الإبحار بحنكة، أنت تحتفظ ببوصلتك.. أليس كذلك؟

دسّ أشرف كفّه في جرابه وأخرج البوصلة التي كانت عقاربها تدور في محورها بجنون معلنة عجزها عن تحديد اتّجاه الشّمال، هزّ آدم رأسه في استحسان:

- حين تغادر نطاق الظلة سوف يكون كلّ شيء على ما يرام.

الإبحار باتّجاه الشّمال، كان أشرف يراهن على ذلك، سوف تستعيد البوصلة قدرتها على تحديد الاتّجاهات وربّما يعمل جهاز الإرسال والاستقبال، سوف يكون والده في طريقه إلى الوطن، كلّ شيء سيكون على ما يرام.

- عليّ أن أذهب الآن.

نبض أشرف على كفّه بقوّة وعيناه تتلألآن بالدّمع.

- أنت لستَ مضطرًا لهذا..

ابتسم آدم بحزن ثمّ قال:

- هذا هو الاتّفاق، سأبقى لبعض الوقت.. سأساعد على ترتيب بعض الأمور هنا ثمّ سأجد طريقي.

سيحتاج إلى كلّ العبارات المطمئنة حتّى يحافظ على إيمانه بأنّ هذه الأزمة ستنتهي بأخفّ الأضرار، قبل أن يغادر والده الجزيرة سيحصل على عقار النّسيان -الذي سيجعله يغفل عن كلّ شيء يخصّ مغامرتهما معًا!- ولن يفكّر في مصيره على الإطلاق، ربّما يعتقد بشبهه في عرض البحر ولن يفكّر إلا في سبيل العودة إلى الوطن، يجهل مدى تأثير العقار وامتداد الفترة الزّمنية التي يمسحها غير أنّه يعتقد في قوّة تأثيره.

سحب كفّه برفق بعد أن شدّ على أصابع والده في حركة وداع أخيرة.

- بنيّ، أنا فخور بك!

توقّف آدم في موقعه متحجّرًا.. استدار ببطء ليتأمّل ملامح البروفيسور أشرف المترعة بالألم والحزن لكنّ شفتيه تنفرجان عن ابتسامة لطيفة حانية وهو يكرّر بحرارة:

- يجب أن تعرف، أنا فخور بك جدًا، نعم.. والدتك ستكون فخورة أيضًا.

حاول آدم ألا يستسلم للبكاء، هزّ رأسه مصدّقًا قوله ثمّ ابتعد بخطوات واسعة. كان من الجميل أن يسترع من والده -أخيرًا- اعترافًا كهذا. في تلك اللّحظات لم يكن واثقًا إن كان يستحقّ الفخر أم الشّفقة فنتيجة نزال العقد لا تزال في علم الغيب لكنّه قد حقّق واحدة من أمنياته الأخيرة في الحياة على الأقل!

مشى في صمت وإلى جواره روان وحين أصبحا على مشارف القرية قال أخيرًا وهو يخرج من جرابه لفافة سميكة من الأوراق:

- لقد أنهيت تدوين كلّ ما أحفظه من القرآن!

حدّقت في عينيه بمزيج من الدّهشة والامتنان. كان من المثير للإعجاب أن يستمرّ في التّدوين كلّ هذا الوقت، لعلّها تتساءل كيف يفعل رغم المصاب الذي وقع له والمصير التي يتربّص به؟ إلّا أنّه يفعل حتّى لا يستسلم للهواجس حين ينفرد بنفسه داخل الكوخ، يستمرّ يكتب ويكتب حتى تتصلّب عضلات كفّه وتؤلمه مفاصل أصابعه القابضة على الدّواة وتدمع عيناه فيكون سبيله إلى النّعاس أيسر.

لقد فهم في تلك الأوقات أنّ «المعلم الروحي» سليمان بن إبراهيم قد احتاج إلى الكتابة منذ قرون علاجًا لوحدته، إن كانت تلك الجزيرة هي قدره فسينهض بمسؤولياته تجاهها إلا أنّه حين ينفرد بذاته يبوح للألواح الطينية بالأسرار التي لا يملك الإفضاء بها لأحد، أمّا آدم فلم تكن كتابة المذكرات تستهويه غير أنّ الكتابة كانت العلاج الذي وصفه لنفسه فانكبّ يسوّد اللفافات في الليالي السّاكنة، يزجّي الوقت ويترك أثرًا لمروره القصير بالجزيرة.

قال في رجاء:

- سأنتظر تأكيدًا منك بأنّ والدي قد غادر الجزيرة بالفعل وبحوزته الحجر!

رنت إليه بنظرة غريبة ثمّ أومأت في صمت وعلى لسانها تتقافز كلمات غير منطوقة تثير فضوله وحيرته، رافقته حتّى باب الكوخ ثمّ مضت إلى شأنها.

(21)

اليوم الواحد والعشرون

لم يكن مستعدّا.

لكنّ هذا لا يُغيِّر من الأمر شيئًا، سيكون عليه أن يواجه المُسخِّر الأرعن خلال ساعات!

بعد وداع والده خلا بنفسه في الظلام الدّامس ليستقبل ليلة طويلة تملؤها الهواجس والمخاوف، حاول أن ينام.. كان خاطر النّوم هو آخر ما تكّر فيه وهو يغمض عينيه على سريره.. قبل أن يفتح عينيه على الشاطئ!

كان مبتلًا -مرّة أخرى- وقد وصل الماء إلى خصره، شهق في ذعر وهو يتلفّت حوله مثل المجنون ثمّ سحب قدميه باتّجاه الرّمال التي تحفّها الظلمة، لا يذكر كيف وصل إلى هناك، لقد أخذته سِنة من النّوم فزارته الأحلام. هل تاقت نفسه لمعانقة هيكل الحوّامة الهامدة كرمز في لا وعيه بعكس حنينًا إلى عالم متحضّر قد لا يعود إلى أحضانه أبدًا؟

كان الشّاطئ الفضيّ هادئًا في تلك السّاعة غير أنّه لمح خيالها على النور فخفق فؤاده، كانت روان تجلس على الرّمال غير بعيد عن مربض المروحيّة، يطوّق ضياء المساء المحتضر طيفها، بدت ساكنة والنّسيم العليل يطيّر أطراف ردائها. كانا قد افترقا منذ ساعتين ربّما غير أنّه لا يملك التقدير الدّقيق للوقت باعتبار فقدانه السيطرة على وعيه بتحرّكاته عبر المكان، اقترب ليجلس على مبعدة مترين منها محافظًا على مسافة احترام،

لم يكن بنى في عرض الشّيخ لذلك تجنّب زيارته وتجاهل تابعه الذي كان يلازمه طويلًا حول الكوخ إلّا أنّ فُرصًا أخرى قد تكون متاحة، لم يكن عليه إلا التواري عن عيون الحرّاس ثمّ السّباحة حتّى عرض البحر وحين يرجع البحارة أدراجهم إلى الشّاطئ سيقفز لينضمّ إلى والده في طوفه.

تبدو خطّة بسيطة وناجعة لولا الرّهبة العميقة التي تسكنه من وحش البحر الكاسر! أيّ شخص آخر كان ليغتنم الفرصة وينجو بحياته، كان يحاول على الأقلّ، باعتبار أنّ العيون المبثوثة قد تغفل عنه ولو لبعض الوقت، لكنّ اللّعنة القديمة كانت لتجمّد أطرافه؛ أن يغرق حتّى الموت، فإن يرتفع مستوى الماء من حوله حتى يأخذه إلى أشدّ كوابيسه حلكة وفظاعة! إنّ مجرّد التخيّل يبثّ في فؤاده جزعًا يكاد يُرديه صريعًا! لو أنّه يتمكّن من ترويض الحوت «الولا» لكان قد أخذها إلى عرض البحر في لمحات قليلة لكن ذكراها لا تزيده إلا عجزًا!

توقّف سيل الأفكار فجأة وهو يعود ليعاين ثيابه الرّطبة، هل دفعه لا وعيه إلى محاولة اللّحاق بالطوف سباحة؟ تسارعت أنفاسه فجأة واضطربت النّبضات في صدره، هل يمكن أن يكون قد أقدم على ذلك فعلًا دون أن يشعر؟ كيف؟

ازدرد لعابه من جديد ومسح عرقًا وهميًّا عن جبينه ثمّ ألقى نظرة جانبيّة على ملامحها الهادئة، لم تكن لهجتها تنمّ عن اتّهام من أيّ نوع، مهما كان ما حاول إنجازه منذ حين فهي لم تنتبه إليه، لم يبد في عينيها مثل هارب متسلّل، ولا شكّ أنّ الحرّاس لم يعتبروه كذلك أيضًا وإلا كانوا ليطوّقوه على الفور، ألقى نظرة شاملة أخرى من حوله على امتداد الشاطئ ثمّ زفر الهواء بيطء، سألها، يغيّر الموضوع:

- أنت من وجد جهاز الإرسال؟

لم تلتفت روان إليه بل ترك عينيها تسبحان في ظلام الغرفة الأنيس أطراف الليل الذي يعانق الرمال اللامعة انطلق ضوءها على البحر بانعكاس متلألئ فيما استأنفت سطوانها الشريعة التي لجعله يلهث خلفها لقد مرر أنّ عمّار أو سعى إلى نوع من انتزاع جهاز الإرسال من اليد وعلى استعراض جهاز كان يملك مساحة كافية من الوقت ليتأمل هذا ويتعجب ويتصرف قبل أن يعود مرشد الصيادين إلى الشاطئ، بأمر هذا واشتغال ذهنه لكنّ عمّار لن يستسلم لجهاز المشيخ بلا سبب يكفي أنّ الحكيم لا يوصي الإيقاع به بل إبقائه على الجزيرة لهدف لا يزال مجهولًا لديه.. تساءل إلى قالت روان قد تولّت المهمّة؟ هل أرادت مساعدته مساعدة غير مباشرة؟ ولماذا تخاطر بمساعدته على الرّحيل متحدّية أوامر والدها والمجلس؟

قالت روان أخيرًا:

لقد أنفقنا على الفراخة والثلة، لذلك.. لم أستطع أن أخفي عنك العلبة سرين و جدتها، كانت ضمن أشياء والدتي.. لقد عرفت أنها تعني لك شيئًا مهمًا وأنه أخفاها لإبقائك، لكنّك لست ملزمًا بالتضحية من أجلنا.

مزيد من الطّلاسم التي لا تشرح ولا تبين، لقد أراد الحكيم إبقاءه؟ لقد بات يدرك هذا غير أنه لم يضع بنانه بعد على السّبب، من أجل ترجمة الألواح؟ هل مهمّة تعليمات المعلّم الرّوحي إلى تلك الدّرجة؟ ثمّ ما الذي تقصده بالتّضحية من أجلهم؟ إنّه ينقد حكم القصاص الذي يخصّ والده وحده فلماذا تُشعره كلماتها بأنّه يفعل أكثر من ذلك؟ أم أنّ للأمر علاقة بالمهمّة التي يدّخرها عمّار من أجله -إذا بقي على قيد الحياة- بعد النّزال؟ إنّه لا يشغل باله بأمر المهمّة المفترضة بعد، لن تغدو ذات أهميّة إلا حين يكون قادرًا على الوفاء بها.

قال في انكسار:

- أنت لا تعتقدين أنّني قد أفوز في النّزال؟

جاء صمتها البليغ ليؤكّد مخاوفه، قالت أخيرًا وهي تواجهه بنظرة باسمة:

- أعتقد أنّك ستبلي حسنًا.

أطرق في إذعان لكنّها فاجأته حين أضافت بنبرة لطيفة:

- أنت رجل شجاع!

لم يدر أيّ عاطفة نطقت بها نظرتها على وجه التّحديد؛ الشّفقة أم الإعجاب، ربّما يكون بقاؤه شجاعة في اعتبارها غير أنّه قد وازن بين مرتين: واحدة مؤكّدة في عرض البحر وأخرى مرجّحة في نزال غير متكافئ وقد وجد أنّ المعجزة أقدر على الحدوث حين تكون قدماه ثابتتين على الأرض الصّلبة!

مرّة رغم ذلك أن يثير إعجابها، ليس أنه يحاول أن يفعل لكنّ نظرات الاحترام من الـ«ماغداخا» ترفع من تقدير الذات عند أيّ رجل.

***

حانت ساعة الصّفر.

بعد ليلة أرق لم يغمض له جفن فيها حتّى ساعات الصّباح الأولى. حين استيقظ كان متعبًا ومشوّشًا ولم يخفت التوتّر الذي منعه من النّعاس، بزغ الفجر عبر فتحات السّقف بإضاءة فاترة وتسرّبت معه درجات الرّمادي الباهتة على الكآبة.

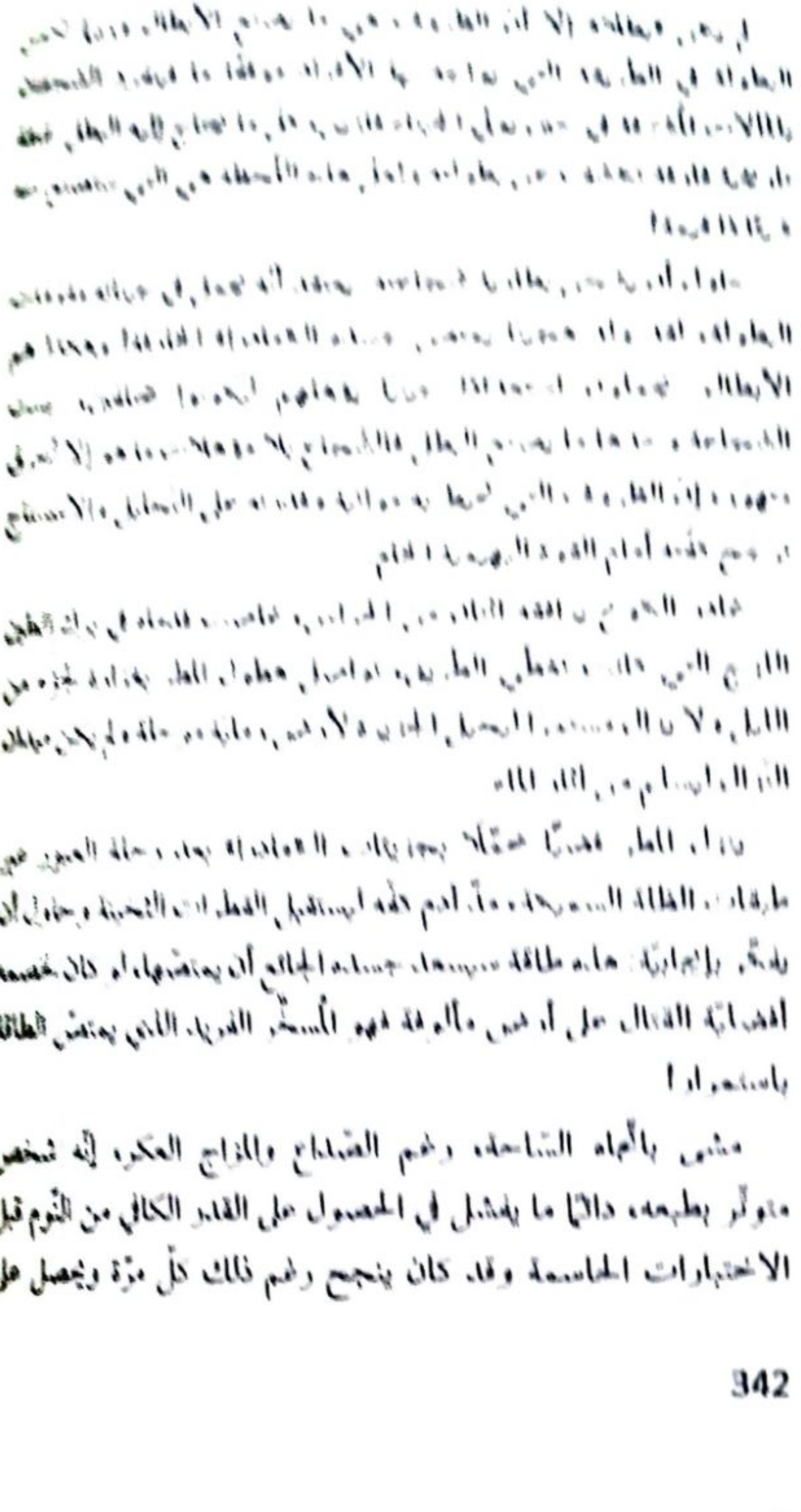

...ت النهائية، حاول أن يهوّن على نفسه أمر هذا الاختبار، غير أنه ...ر مدى اختلافه عن كلّ التّحارب السّابقة التي خاضها في حياته ...ف في الميدان وقد اجتمعت الحشود لحضور النّزال المشهود. كان ...ر قد توقف أخيرًا، قبالته كان أوران محاطًا بوفاقه من المسخّرين الشّداد، ...ا على قدر عالٍ من الثّقة والثّبات وقد أطلّت نظرات متحفزة، ومتحدّية ...ر عبيد القاصيتين. لم يبد أنّ خصمه قد عانى مشاقّ نقص النّوم، أيًّا ...م مرتقبًا ثمّ آخر، سيجتهد للحفاظ على تركيزه وحضور ذهنه.

جاء الحكماء واتّخذوا موقعًا يُشرف على الميدان دون أن يزاحمهم ...ر عمّار في اتّجاهه بإيماءة باردة، لم يكن يودّ أن يعتقد أحدٌ بحميمية ما ...ا على يمينه وقف «بندار» نوح، حليفه العلميّ الوحيد، كان لا يزال يؤكّد ...ي أوران بلهجة مطمئنة: سيكون كلّ شيء على ما يرام!

خطا داخل الحلبة متبوعًا بهتافات لم يكن واثقًا إن كانت تدعمه أم ...حده. كان الجمع في مزاج حماسيّ رهيب بغضّ النّظر عن النّتائج المحتملة. ...ا حدث اجتماعيّ آخر يستحقّ أن يترك كلّ فرد أشغاله من أجل أن يهتمّ ...يه به، حدث استثنائيّ بكلّ المقاييس القرويّة، بل هو تاريخ حديث ...حكي الأساطير القديمة ويعيد مجد الأجداد إلى الوجدان.

اقترب أوران بخطى ثقيلة ليقابله على الطّرف الآخر فيما تراجعت ...جماهير لتفسح لهما مجالًا كافيًا للحركة. ألقى آدم نظرات قلقة نحو الحكماء ...ثمّ تجاه «ماغداخا» فغمرته روان بدفء ابتسامتها، شعر بكفّ نوح توبّته ...هره في حركة تشجيع فرفع كتفيه في اعتداد، تحسّس بأنامله زهرة الشمس ...صغيرة التي تختفي بين طيّات ثيابه ثمّ استدار يواجه غريمه.

خلال ثوانٍ، كانا يلتحمان.

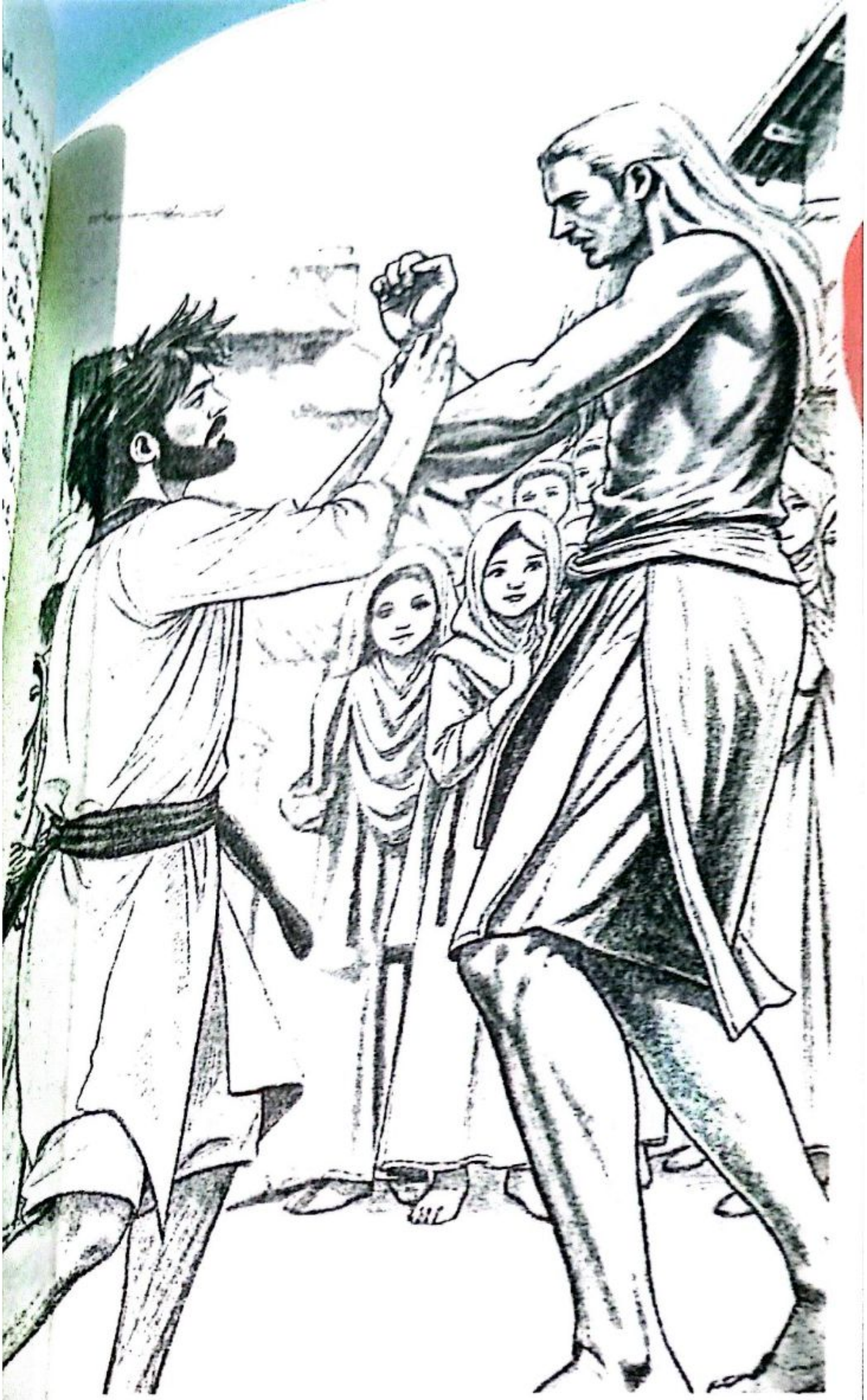

ربما لا يجدر به أن يسمّيه التحامًا فهو لم يدم سوى ثانيتين قبل أن يرفع المُسخِّر كفّه ويرسل وهج الطّاقة فترفع الصّعقة الخاطفة خصمه في الهواء وتطبع به على ظهره مثل كومة مسحوقة. أنَّ آدم في ألم وهو يستجمع قواه ويلملم فتات كرامته المبعثرة ويجاهد لينتصب واقفًا من جديد.. حسنًا، لا شيء غير متوقّع حتّى الآن، إنّه يدرك مدى مهارة أوران وقدرته الخارقة.

تحسّس موضع الصّدمة في صدره فأطلق أنينًا بائسًا حين لامست أنامله الكدمة الطازجة، لا يعتقد أنّ ضلوعه قد تحطّمت لكنّه ليس واثقًا من مقدار الضّرر الحاصل. رغم الوجع الحادّ الذي يثزّ أزًا وينتشر ويتمدّد مثل شِباك صيّاد يُحكم قبضته على عضلاته المكدودة وعظامه الهشّة، عاد بخطوات بطيئة مأزومة إلى الحلبة. تذكّر خطّته الخاصّة، عليه أن يجرّب أيّ شيء، لن يستسلم للموت كقدر محتوم، ربّما ينجح في امتصاص طاقة خصمه، هذا إن منحه الفرصة للاقتراب منه بالقدر الكافي.

في ما بدا غريبًا، بدا أنّ أوران لن يمانع في منحه فرصة!

كان يقف وسط السّاحة، كفّاه عند خصره وتطلّ من عينيه نظرة عابثة متعالية كأنّه يقول: «هاتِ أفضل ما عندك!»، لم يكن يتأهب لهجوم معاكس بل كان مسترخيًا تمامًا وفي غاية الاستهانة بغريمه. تلفّت آدم حوله، لا أحد هنا يؤمن بعكس ذلك، لعلّ حظوظه كانت منعدمة منذ البداية وزهرة الشمس البائسة الجالبة للحظّ لن تغيّر من الأمر شيئًا، لقد كان «بندار» دَعيًّا بلا هبة!

غير أنّه استمرّ يسعى إلى الأمام، كان سعيه حلزونيًا في سرعته وقد ثقلت حركته جرّاء الإصابة، مأساويًا في مآله مثل بطل أسطوريّ يسير إلى حتفه. لشيء حتّى وقف قبالة أوران الذي لم يبد أيّ ردّة فعل. في محاولة يائسة لمسك آدم بمعصمي خصمه بكلّ ما بقي في جسده المرضوض من بأس،

حدّق أحدهما في عيني الآخر بدهشة متبادلة. لم يحدث شيء! استيقظ آدم الطفل، في حزن وشت نظرات أوران بمزيج من الاضطراب والاستغراب. في اللّحظة التّالية كان يدفعه عنه بحركة صارمة ليذكّر فيضي آدم المغشيّ عليهما في وهن بوسعيه فيرمي به ليطير في الهواء ثانية و يحطّ على مجرّة أخرى.

لقد انتهى أمره، أسهل آدم جفنيه وهو ملقى على الأرض في استسلام. كانت عظامه تئنّ في مواضع عدّة، وبدا النّهوض من السّقطة الأليمة أمرًا مستحيلًا. تخافتت الأصوات التي تحيط به حتّى غدت بعيدة وغائرة.. هل كان يفقد الوعي؟ كان يتأرجح بين الواقع والغيبوبة! وكانت هذه الأخيرة تسحبه في إصرار، لكنّه أدرك أخيرًا كم كان وحيدًا، لقد رحل والده، إله وحيد جدًّا على الحلبة، يائس ومثير للشّفقة!

إنّه ملقى على الأرض الآن، وقد لا يكون قادرًا على الوقوف أبدًا. تساءل إن كانت إصاباته بليغة، ربّما لا تكون مميتة، لكنّه قد يكون أصيب بالشّلل، لم تكن أيّ من عضلاته تستجيب لنداء عقله.

شعر بلمستها فجأة، ظهر وجهها في زاوية عينه المتورّمة نصف المفتوحة، تناهى صوتها خافتًا ونائيًا ثمّ مرّرت كفّها على رأسه وكتفيه ثمّ صدره وذراعيه لتتناثر الشذرات المضيئة في مواضع لمستها، ابتسم لنفسه في سخرية.. لقد كان مسخّرًا ميؤوسًا منه غير أنّ الـ«ماهداخا» ربّما تكون قادرة على شفاء جروحه الظاهرة على الأقلّ، همست بصوت دافئ رنّ بوضوح في رأسه:

- انهض، لم ينته الأمر بعد!

بعد ذلك أخذت أطرافه تستجيب، لكنّه لم يستوعب: ما الذي تنتظره منه بعد؟ إن كانت الضّربتان السّابقتان لم تقتلاه فإنّ الثالثة ستفعل لا محالة! وحينها لن تنفعه معالجة الجزيرة ولا جراحة في أفضل مصحّات نيويورك!

يمر بكفها لتحسن ذراعه وتسنده لتساعده على النّهوض. كانت تدفعه رغبة ليعود إلى الحلبة، تدفّقت موجة الملح لتهاجم صدره وتخنق رئتيه، زعيق الطّنين في أذنيه واندفعت الدّماء إلى رأسه في استنفار محارق. كان يقف وسط الميدان من جديد قبالة أوران. رمش ببطء وقد ثقل جفناه الوزمان ليبصر صورًا مهزوزة لخصمه وهو يثب في الجاهه بشراسة كأنّ تعاطف المعالجة قد استثار سخطه، والحشود تهتف بحماس منقطع النّظير. تراءت الجموع لتلاشى، خفتت الأصوات وغابت الصّور.. لم تبق إلا الحلبة الدّائرية التي يصنع الرّمل الفضيّ حدودها والمسافة التي تفصله عن الخصم الأرعن. مع كلّ انفراجة لأهدابه الثقيلة تقترب ضربة أوران من صدره أكثر بشرر متطاير فيما يصمّ الصّمت العنيف أذنيه وينافس الطّنين الهائل الفاده صوابه، رغم ذلك.. يتردّد صوت روان الهامس في أذنه:

- بمكنك أن تفعلها.

ربّما كان عليه أن يحاول، أغمض عينيه واستحضر خيوط الطاقة ذات الألوان الأربعة، كانت تطفو تحت جفنيه بتراخٍ، ربّما لو ركّز بعض الشيء، لو أتاح له خصمه فرصة، لو امتلك بعض الوقت.. ربّما يتمكّن من الإمساك بطرف الخيط وسحبه بهدوء حتّى يشتدّ في قبضته. أخذ نفسًا عميقًا واستلّ الخيط الأبيض من متاهة الخيوط برفق.

ثم.. لم يشعر بشيء بعد ذلك.

@ART_OF_BOOK

(22)

اليوم الثاني والعشرون

كان طفلًا في العاشرة..

في ذلك اليوم البعيد الذي سقط من الذّاكرة كان يجلس في غرفته يلهو بالحجارة الحمراء المفضّلة لديه، والدته تحت مياه الدشّ، يستأنس بصوت تدفق الماء فلا يشعر بالوحدة في احتجابها العابر، أمّا والده فغائب منذ أسبوعين.. ربّما في رحلة إلى طرف العالم الآخر، يُلقي محاضرات ويمارس أعماله البحثيّة الغامضة، لم يكن لتلك الرّحلات معنى في ذهن الطّفل الذي يدرك غير أنّ الأب غير موجود في الجوار لبعض الوقت وهو أمر معتاد وغير مربك لروتين الحياة اليوميّة.

سمع صوتًا مكتومًا لخطوات غريبة تتسلّل عبر الفناء.. لم تكن قطّة الجيران ولا حمامة هائمة فقدت الطّريق إلى عشّها، كانت خطوات بشريّة تحمل نكهة التلصّص ونيّة السّوء، كان طفلًا لكنّه استشعر الخطر بحدسٍ بدائي، عرف أنّ المتسلّلين -كان قد لمح ظل رجلين يحاولان اقتحام المنزل!- قد يؤذيانه ووالدته قد لا تكون قادرة على فعل شيء إزاءهما. كان سنّ يافعة تعلّم أن يحميها لا أن يلوذ بها وتلك واحدة من سمات عقوله المعقّدة.

[illegible] ... أنه قادر على [illegible] ... [illegible] ... [illegible] ...

هاجر من الحمام مفجوعة على صوت الصّراخ الذي تعالى في غرفة جلوسها وانقطاع التيار.. شُدهت للمشهد الذي قابلها، كان ثلاثة أفراد ملقين على الأرض، من ضمنهم طفلها، وقد تعرض الرّجال للضرب والركل.

واحتاج الطّفل إلى متابعة نفسيّة على مدى سنوات للسّيطرة على توهان الدّم الذي أصبحت تهاجمه باستمرار، وجاءت حادثة السّرقة لتضيف طبقة إضافيّة من الغموض بعد حادثة الغرق! استمرّ آدم يطرح أسئلة لا إجابة لها، فلا هو قادر على استحضار تفاصيل الحادثة ولا استيعاب التفاصيل التي أدّعتها والدته لكنّه نسي أمر الحجر تمامًا، ليس في الحال، لكنّه استمرّ بفتح الدّرج في خزانة والدته كلّ يوم، فلا يجد الحجر. لم تقل هاجر شيئًا بشأنه وهو لم يسألها قطّ، وبمرور الأيّام أهملت ذاكرته ذكرى الحجر اللّامع حتّى سقط منها إلى الأبد!

***

لم يفتح آدم عينيه على الفور، استمرّ في حالة من التّأرجح بين النّوم واليقظة وقد لفّ عقله ضبابٌ كثيفٌ لا يكاد يختلف عن ضباب الجزيرة الأبيض ذي الرّائحة الكيميائيّة، لم تكن الرّائحة تحدو للّذة وجليّة إلا في ارتفاعات بات يعلمها غير أنّ صوت والده وصله بوضوح:

- آدم، أنت بخير؟

تملّكته الحيرة.. ما الذي يفعله والده في الجوار؟

- أبي، لماذا أنت هنا؟ ألم تغادر الجزيرة؟!

لم تتحرّك شفتاه لتنطق بالكلمات لكنّ المعنى وصل لكل والده بطريقة ما ليجيبه صوته مجدّدًا بنبرة مطمئنة:

- أنا بخير، لا تشغل نفسك بشأني.. لكنّك لا تبدو بأفضل حال!

ـانظر في الخارج.

ـت المعالجة مُشرِقة ومفعمة بالنّشاط، إنّها تلوح منسجمة مع خاطبها
ـأنّ انتصاره في المعركة قد أكسبه نقاطًا في وجدانها.

ـال بصوت مختنق:

ماذا الآن؟

ـست لي حماس ملموس:

يجب أن تستعيد عافيتك أوّلًا ثمّ ستمثُل أمام المجلس.

بالتأكيد، المجلس، وهل ينتظره غير هذا؟ تجاهل تلك الفكرة ليقول
ـرارا:

لقد وعدتني بشأن والدي!

نعم، لقد فعلتُ.. ووفيت بوعدي.

لكنّه كان هنا منذ حين!

ـالت فيه باستغراب جليّ ثمّ قالت في شكّ:

هل كنتَ تحلم؟

لم يحاول أن يناقشها، لم يكن واثقًا إلى أي مدى ستكون صادقة على كلّ
ـال، ولم يكن أيضًا على يقين من مدى اتّزان ذهنه منذ حين، قد يكون ما
ـعه هاوسة أو شيئًا مشابهًا لـ«الشّعور بالهواء»! كان يحادث والدته لأيّام
ـا الذي يمنعه من التّواصل الرّوحي مع والده؟

قال حين استعرّ صمته:

كيف تشعر؟

عبست ملامحه في امتعاض، لماذا تبالي الآن أو تتظاهر بالاكتراث؟ لقد استمرّت تدفع به إلى حتفه على أرض المعركة وهو قد بات يشعر بالعار والدّمار والضآلة والصّغار، قال في تهكّم:

- كيف يفترض بي أن أشعر؟

قالت بلهجة دافئة:

- بالفخر!

الفخر؟ كان آخر ما قد يخطر بباله أن يكون فخورًا بنفسه! لكنّ ملامحها لم تكن تحمل أدنى قدر من السّخرية، كانت تبتسم في سعادة طاغية وهو لم يستوعب ما ترمي إليه!

- تهانينا يا آدم، لقد نجحت!

- نجحت؟!

ردّد في حيرة.. ما الذي نجح فيه بالضّبط؟! ليس هذا ما يبدو عليه النّجاح لديه!

- فيمَ نجحت؟ لقد فقدت الوعي مثل جبان أخرق!

- لقد أصابك هبوط في الدّورة الدّمويّة بعد انفجار طاقتك لذلك فقدت الوعي.

- انفجار ماذا؟

كرّرت بلهجة ثابتة:

- انفجار طاقتك.. لقد قذفتَ في عيون الحاضرين وقلوبهم النّورا

أطلق ضحكة متشنّجة قصيرة، هل نجح في «قذف النّور» بالم الحرفيّ؟ لقد فقد الوعي على مرأى من الجميع بعد أن أوسعه أوران ض سقط على الأرض وتهشّمت ضلوعه! هل رأى النّاس ذلك؟ غير أ

ل على قيد الحياة، وهذا كافٍ. ربّما يطلقه المجلس وقد نجح في التّسخّير؟
ن يكون أمر القصاص قد انتهى عند ذلك الحدّ؟
رفع رأسه بقدر يسير ليلقي نظرة على أوران المرابط عند باب غرفته،
بجبة المُسخَّر ثانية بانحناءة احترام مبالغ فيها، حسنًا، هذا لا يدع أيّ مجال
لقد تحوّلت نظرات التوعّد الشّرسة لإيماءات احترام وتبجيل. بات
جميع يدركون كونه مُسخَّرًا يمتلك هبة ما، ضحك مجدّدًا، إنّ هذا يبدو
حلمًا وردّيًا مشرقًا لا يُصدَّق! لقد انتهى كلّ شيء، لم يمت ولم يصبح قاتلًا
بقاتل والده وهذا أفضل مخرج ممكن، لكن.. ماذا لو كان حلمًا حقًا؟
ماذا لو كنت تتبخّر حين يستعيد وعيه بالواقع؟

رك عينيه إمعانًا في اليقظة، لا تبدو الأحلام حقيقيّة هكذا، لا يمكن
يكون حلمًا، تساءل: هل يعرف المرء أنّه يحلم حين يفعل؟

- هل تودّ أن تأكل شيئًا؟ أنت لم تتناول شيئًا منذ أمس.

نفض بصوتها القريب فتملّكه الذّعر، المعالجة.. إنّها لا تتصرّف بهذه
لعادية في الحقيقة، يكاد يجزم بأنّه مجرّد حلم الآن، لقد عرفها صلبة
عبارة وشديدة التحفظ، يحتاج إلى الاستيقاظ على الفور!

حاول أن يستند إلى مرفقه ليرفع جسده ويستقيم جالسًا على السّرير
لكنّ الدّوار أجبره على الاستلقاء مجدّدًا، انتبه إلى الإضاءة الخافتة، سواء
كان يعيش واقعًا أم خيالًا فقد كان الوقت مساءً.. هل استمرّ إغماؤه منذ
أمس؟!

ألقى نظرة أخرى على أوران، إنّه يبدو في كامل لياقته بالنّسبة إلى خصم
تلقى حزمة من النّور السّاطع في منتصف الصّدر! تململ وهو يغمغم في
سه:

- إنّه يبدو في حال أفضل مقارنة بالمنتصر!

ابتسمت وقالت وهي تقول:

لقد تعرّضت للإصابة أيضًا وحصل على العلاج، لا تنسَ أنه فيندارو يتحكّم في طاقته مثل سنوات، إنّه قادر على التّحكّم خلال وقت قصير، سنفعل أيضًا مع التّدريب.

تنهّد وهو يريح رأسه على الوسادة، أسدل جفنيه المثقلين واستسلم لسبات داخليّ يدعوه إلى الاسترخاء، حين يفتح عينيه في المرّة القادمة سوف يعرف يقينًا إذا كان كلّ هذا هلوسة ناتجة أم لا، وقبل أن تغلبه غفوة النّوم استحضرت ذاكرته فجأة صورًا من الماضي، مثل برق خاطف، فحبس في شكّ قبل أن تستقرّ الخيالات في رأسه لتغدو شديدة الوضوح.

الصّوامة ومحرقة الغرق.

ثمّ منزل طفولته والآخرون.

لا يمكن أن يكون هذا كلّه مجرّد هلوسة، ابتسم لنفسه في ارتياح، كان ينجح في تسخير طاقته في أشدّ التجارب حلكة وقسوة، نوبات الهلع وتلك أفضال الطّاقة بتلازمان، كان يصنع من عجزه قوّة بالمعنى الحرفيّ!

لم تكن لديه قدرة خارقة طوع بنانه بل هي غريزة البقاء فحسب.

تذكّر حجر الشّمس الخاصّ بوالدته في منزل طفولته، لقد استمرّ طيلة سنوات يمتصّ طاقة الحجر دون أن يدري! غمره الإدراك فجأة! قد يكون عليه أن يعيد حساباته في ما يخصّ فترة صلاحيّة الحجر خارج الجزيرة، ربّما يكون قد تسبّب دون قصد في تقليص المدّة الزّمنيّة!

تداعى وعيه ببطء ليغوص في نوم مريح ومرمّم، كان يحتاج إلى مزيد الوقت ليتعافى من آثار عمليّة التّسخير الأخيرة، ربّما حين يستيقظ ص سيكون قد استعاد طاقته المهدرة واستحضر كلّ التّفاصيل التي غابت

(23)

اليوم الثالث والعشرون

اضطراب الهويّة التّفارقي -أو ما يعرف عند عامّة الناس بانقصام الحصبة- قد بصبب الأشخاص الذين تعرّضوا لصدمات وضغوط في فترة الطفولة، من أعراضه العامّة: فقدان الذاكرة المتكرّر والإحساس بوجود كيان آخر ينازعك جسدك ويتحكّم به بين الفينة والأخرى بما يسمّى السّيطرة، ومن الوارد ألا يحمل الشخص أدنى فكرة عن تصرّفات هويته الأخرى التي تتلبّس وعيه بالكامل.

بعد حادثتي الغرق والسّرقة.. شرح الدّكتور بشير، المباشر لحالة آدم ضمن فريق الصّحة النّفسية في مستشفى العاصمة، وجود حالات مشابهة يخصّها علم النّفس باضطراب الهويّة التّفارقي، وقد خضع الولد فترة طويلة للمراقبة والمتابعة إلا أنّ التّشخيص لم يتأكّد رغم ذلك نهائيًّا، باستثناء تلك الحوادث المنعزلة، لم يكن سلوكه اليوميّ يوحي بتلبّس كيان غريب لجسده.

بعد عقد ونصف يكاد آدم يتحسّس حضور ذلك الكيان أخيرًا، كأنّما قد استيقظ بعد سبات عميق. ذلك الكيان الذي يتحكّم في جسده بلحظات الخطر، حين يشعر بالهواء، وحين واجه أوران في الميدان، وفي أوقات أخرى بأخذه في مغامرات بحريّة ليلية لا يذكر عنها شيئًا! لا يزال يجهل كيف نجح في مغادرة المروحيّة المهشّمة وأخرج جسد والده فاقد الوعي

ثمّ نقلهما إلى الشاطئ غير أنّه يكاد يشرع في التّواصل مع ذاته الأخرى، لقد بات قاب قوسين أو أدنى.

جاء نوح لزيارته عند الظهيرة، ربّت كتفه في زهوّ وأعربت قسماته عن عظيم اعتزازه بتلميذه الذي نجح في تجربة التّسخير الصّاعقة، تحدّث بإسهاب عن النّزال، كيف مدّ آدم ذراعيه أمامه في حركة دفاعيّة ليوقف اندفاع خصمه فانفجر النّور من حوله ليُردي أوران صريعًا على الفور ويطيح بالحضور المتحلّقين حول الحلبة مثل موجة صاعدة تدفعها رياح عاصفة لا ينجو منها أحد. لقد اهتزّت الأرض تحت أقدامهم، وسقط كثيرون من هول الصدمة وعظم الرجّة!

- لم ير أحدهم في حياته نورًا بذلك السّطوع ولا شعر بطاقة بمثل تلك الكثافة!

ابتسم آدم في مزيج من الغرور والدّهشة، يعرف رصانة نوح واقتصاده في الكلمات لكنّ عقدة لسانه كانت قد انفكّت ولم يبد أنّ أيّ شيء قد يجبره على التوقّف، لم يكن حلمًا إذًا في نهاية المطاف!

- هل تستطيع النّهوض؟

قدّمت الـ«ماغداخا» ما أمكنها من رعاية منذ أمس، لم تكتف باللّمسات السّحريّة بل وفّرت حبّات الدّواء ومشروبات أعشاب دافئة، بدت ودودًا حانية بقدر لم يعهده منها! لم تكن عاجزة عن التّعاطف في نهاية الأمر، لقد رأى كلٌّ منهم في صورة مختلفة منذ أمس، أغدقوا عليه المشاعر وأجزلوا له العطاء، تساءل إن كان الإعلان عن هبته يستحقّ كلّ ذلك الاحتفاء!

كرّرت روان:

- سيكون عليك الذّهاب للقاء الحكماء!

نزل من السّرير في صمت، أدهشه أن يشعر بتحسّن على الفور، لقد كانت مجرّد دوخة بسيطة مثل تلك التي أصابته في الصّباحات بأيّامه الأولى على الجزيرة. تذكّر: كان ذلك بعد تجربة التّسخير في المحيط! كان يربط الهبوط ويُكمل ملامح اللّغز في ذهنه، تلك أعراض جانبيّة لأعمال ذاته الأخرى -المُسخِّر- يفقد الجسم توازنه بعض الوقت ريثما يستعيد عافيته كاملة! لقد كانت الطّاقة التي استخدمها في الحلبة أوفر من أيّ وقت آخر لذلك استمرّ يشعر بالخواء والضّعف يومين كاملين!

كان أوران في انتظاره خارج الغرفة كما كان أمس، يترقّب نهوضه ليصحبه إلى المجلس. انقاد آدم بلا جدال مستسلمًا لمصيره. مشى المُسخِّر الشّاب إلى جواره، يتأخّر عنه نصف خطوة على سبيل الاحترام، كان التحوّل في سلوكه مدعاة للضّيق والتوتّر لكنّ لم تكن تلك إلا البداية.

حين أفضيا إلى الشّارع فوجئ آدم بالجموع التي كانت تترقّب ظهوره خارج بناء المشفى. لم يكن واثقًا كيف عرفوا بموعد مغادرته أو كم من الوقت انتظروه لكنّ المشهد كان مُربكًا وغامرًا بالنّشوة. انحنت الرّؤوس في اتّجاهه بتقديس عميق والتفّ النّاس حوله وتدافعوا للحصول على لمسة عابرة من كفّه!

امتدّت ذراع آدم في تردّد أوّلًا ثمّ أخذ يمسح على الرّؤوس والنّواصي الخاضعة متسائلًا إن كانت تلك طقوسًا خاصّة بتتويج المُسخِّرين الجدد! لا، ربّما لم يكن مجرّد مُسخِّر عاديّ، قال نوح إنّ النّور كان أقوى ممّا استحضره أيّ «بندار» في وقت سابق. حين عبرا السّاحة وتجاوزاها تنفّس الصّعداء، كان يرتجف، ألقى نظرة متفقّدة على صاحبه المُسخِّر الذي كان لا يزال يتبعه مرشدًا إيّاه من حين إلى آخر نحو المسار الذي يتّخذانه، لم

تبد عليه أمارات السّخرية المتوقّعة، انتبه إلى أنّهما يسيران في اتّجاه بيوت القرية، لم يكن المجلس وجهتهما.

- إلى أين نذهب؟

- إلى منزل «كوتانا» عمّار.

أومأ آدم في استسلام، كان يعرف الطريق ولم يعتقد أنّه يحتاج إلى الحماية، لكنّه لم يعترض. حين وصلا إلى الوجهة طرق أوران الباب ثمّ تراجع بانحناءة احترام. دلف آدم إلى القاعة الفسيحة المفروشة بالسّجاد فألفى عمّار في انتظاره. وقف الـ«كوتانا» ليحييه بحفاوة وترحاب ثمّ جلسا متجاورين وقد بدت على الحكيم أمارات البِشر.

- تهانينا يا آدم! لقد صفح المجلس عن والدك وأقرّ بنفاذ القصاص!

تنهّد آدم في ارتياح، كان قد توقّع ذلك القدر على الأقل. انشغل عمّار للحظات بتقديم واجب الضّيافة، صبّ الشاي الدّافئ في الأكواب الزّجاجيّة بصمت ثمّ تنحنح أخيرًا قبل أن يقول في حذر:

- هل تذكر حين تحدّثنا منذ أيّام، قلتُ إنّ لي عندك طلبًا ما؟

أومأ آدم بحرارة ونشوته بنجاته لا تزال غامرة.

- ما الذي تريده منّي؟ سأفعل ما تأمرني به!

ابتسم الحكيم في رضا ثمّ اتّخذ وضعيّة جادّة وعلا قسماته الحزم.

- أظنّك تدرك أهميّة الـ«مادرا» بالنّسبة إلى شعبنا.. أليس كذلك؟

هزّ آدم رأسه ببطء فاستطرد عمّار:

- منذ أسابيع لاحظ أحد المُسخِّرين شيئًا غريبًا يحدث داخل الكهف، لقد رأيت العين التي تنبع منها الـ«مادرا» وتتدفّق؟ حسنًا، لقد أخذ نسق الفوران يتباطأ فجأة! أجرى المُسخِّر حسابات دقيقة مرّة بعد

[illegible]

[illegible]

[illegible]

- كانت خطّتي مجرّد نظريّة منذ عشرة أيّام لكنّها -بفضلك- أصبحت حلًّا ملموسًا وممكنًا، في الحقيقة أنا مدين لحضورك وهبتك!

أطلق الحكيم ضحكة قصيرة ثمّ أضاف:

- هل تريد أن تعرف الخطّة؟ أتوق إلى مشاركتك إيّاها وأرجو أن تشاركني حماسي تجاهها.. إنّ مجيئك لن يكون سببًا لإنقاذ والدتك وحسب بل إنّك ستنقذ شعبًا بأسره!

أومأ آدم في انتباه وقد أخذ الحديث منحى جادًّا وحاسمًا، أيًا ما كان يطلبه الحكيم -طالما هو قادر عليه- فلن يتردّد في قبوله إذا كان يعني كثيرًا لشعب الجزيرة؛ أهل والدته.. أطلق عمّار الخبر دفعة واحدة:

- باختصار.. نريد الذّهاب إلى العالم الخارجيّ!

- ماذا؟

في تلك اللّحظة فُتح الباب وظهرت روان، اتّخذتْ موقعًا في طرف الجلسة دون أن تقاطع حديثهما وأصغت في صمت.

يبدو كلّ شيء منطقيًّا الآن، لقد أرادت المعالجة أن تعرف أكثر عن العالم الخارجيّ، كانت قد شرعت في تعلّم طبّ البشر العاديّين لأنّها تدرك أنّ المادّة المتوهّجة آخذة في الاضمحلال، سيكون على قومها التّأقلم وربّما بعد عقود لن يكون هناك معالجون بالمعنى التقليديّ، لقد اعترفت بفقدان الهبة جزئيًّا لدى الجيل الجديد، هي نفسها لم تعد قادرة على الإتيان بالعجائب التي كان أسلافها يمارسونها بسهولة ويسر، العلاج، التّسخير، الـ«مادرا».. قد تصير مجرّد أساطير لدى الأجيال القادمة.. هذا إن نجحت عمليّة الإنقاذ واستمرّ وجود أجيال أخرى بعد الآن!

همهم آدم مقترحًا:

- حسنًا، هل تريد أن أخبرهم عن والدتي؟ عن قدرتها على التعايش مع العالم الخارجيّ؟

ابتسم عمّار ثمّ قال:

- هذا لن يكون كافيًا! هاجر ليست هنا ليتعرّف عليها أهلها وتشهد بحقيقة الادّعاء، شهادتي وشهادتك لن تصمدا طويلًا أمام شراسة المعارضين، نحتاج إلى حجّة أقوى؛ شيء ملموس يمكنهم رؤيته بأبصارهم ومعاينته بحواسّهم!

عبس آدم برهة ثمّ قال محاولًا من جديد:

- إذًا تريد أن تخبرهم عن قدرات الهجناء على التعايش مع العالمين؟ المعالجة مارتا تعرّفت عليّ، تعرف أنّني حفيدها، يمكنها أن تشهد..

قاطعه الحكيم بسرعة:

- حجّة الهجناء ستكون مفيدة بالتّأكيد، سيعرف شعبنا أنّ الأجيال القادمة ستكون قادرة على العيش بسلام في العالم الواسع وهذا سيطمئنهم لكنّني أخشى الانقسام والفوضى، لن أسمح بالارتباك والاضطراب، حين ينتشر الخبر سيرغب بعضهم في الهرب على الفور، ربّما يُغِيرون على الكهف لنهب ما يكفيهم من الـ«مادرا» قبل الإبحار بعيدًا! بعضهم الآخر سيعترض بهمّة وسيقفون في وجوههم لردعهم عن مسعاهم، هل تعرف إلى ماذا سيؤدّي ذلك؟ إلى حرب أهليّة! سيقتل النّاس بعضهم وسيكون المُسخِّرون قوّة يرغب كلّ طرف في ضمّها إليه.. سينهار مجتمعنا وينقسم مجلس الحكماء، ستكون نهاية متعجِّلة قبل مداهمة الخطر الحقيقيّ! إذًا، لا، ليس هذا هو الحلّ المثاليّ. سنذهب إلى العالم الخارجيّ لكن بشكل منظّم ومدروس، سنرسل مجموعات استطلاع، ونخطّط للوجهات

المناسبة، أريد أن يكون أمامنا وقت كافٍ لإيجاد موقع ملائم لاستقبال شعبنا ولتحقيق التقال سلس ومريح، ولأجل هذا نحتاج أوّلًا إلى سلطة عليا يُصغي إليها الجميع ويستجيب لأوامرها!

أصغى آدم في صمت قبل أن يقول في دهشة:

- أليس المجلس هو السّلطة التي تتحدّث عنها؟

ارتفع صوت عمّار في غضب:

- ألا تفقه؟ المجلس منقسم! لسنا على رأي واحد ولا سبيل إلى توحيد رؤيتنا إلا بوجود صوت أعلى؛ صوت يملك صلاحيّة توجيه الحكماء والشعب جميعهم!

لم يفهم آدم شيئًا، نقل بصره بين روان ووالدها في صمت منتظرًا مزيدًا من الشّرح، قال عمّار أخيرًا:

- نحتاج إلى مُخلّصٍ؛ شخصٍ ذي صبغة مقدّسة، صاحب معجزة، وهذا الشّخص.. هو أنت يا آدم!

لم يتمالك آدم نفسه فأطلق ضحكة مغتصبة، ما هذا التّخريف الذي يتفوّه به الـ«كوتانا»؟ هل أدّت الأزمة الوشيكة إلى فقدانه عقله؟ لكنّ النّظرة الجادّة لم تغادر عيني الحكيم وإنما استمرّ يقول بلهجة حازمة:

- هل تذكر المعلم الرّوحيّ الذي جاء إلى هذه الأرض منذ زمن بعيد؟ لقد حدّثتك عنه، وعن الفرضيّة التي وضعتُها بشأنه، لقد كان المعجزة الأولى.. وأنت المعجزة الثانية يا آدم! هجين ثانٍ وجد طريقه إلى الجزيرة.

يعرف آدم مَن يكون المعلّم الرّوحي، ربّما أكثر من عمّار نفسه ومن أيّ بشر على سطح الجزيرة، لا تزال كلماته المحفورة على الألواح ترنّ في رأسه

لو بالأحرى ترجمتها التقريبيّة التي توصّل إليها- استحضر أيضًا كلمات عمّار في لقائهما السّابق، لقد كان قدومهما إلى الجزيرة معجزة.. لا أحد يصل إليها مرّتين، لا أحد على الإطلاق، على مرّ العصور، لكنّ والده فعل. قاطع عمّار خيط أفكاره وهو يقول:

- هل تعتقد أنّ وصول والدك إلى هنا كان مصادفة؟

هزّ آدم كتفيه وهو يقول مبرّرًا:

- لقد أمضى سنوات طويلة وهو يحاول الوصول..

فاطعه عمّار مرّة أخرى بحدّة:

- لكنّه لم يصل!

- لقد فعل..

- هل تظنّه مَن فعل؟

- ماذا تقصد؟

- أنت يا آدم.. أنت من وصل وليس والدك!

رأى آدم ما بين حاجبيه في وجوم، لم يكن ذلك يعني شيئًا على الإطلاق.

- كيف أكون قد وصلت وأنا لم أحاول أساسًا؟ لقد كنت معه على السّفينة، وفي الطّائرة.. لكنّني لم أفعل شيئًا أكثر من ذلك! لست من خطّط وبحث وأرشد القبطان.. كنت حاضرًا وحسب!

ضحك عمّار ثمّ قال:

- لقد فعلتَ يا بنيّ، لقد حاول والدك كثيرًا، كثيرًا جدًّا، أكثر من أيّ شخص آخر.. لكنّه لم يجد الطّريق إلا حين صحبك في رحلته! ألا نجد هذا مصادفة مثيرة حقًّا؟

همهم آدم في حيرة: إنها كالملائكة! لكنّه لم يتساءل عن هذا من قبل، لقد وجدها الجزيرة، وكان هذا كافيًا وموحيًا حتى اللّحظة.

لقد أخبرتك عن نظريّة وضعتها منذ بعض الوقت، هل تريد أن تستمع إليها؟! بيساطة: «المجانين يجعلون الطّريق دوغا! المجانين هم الجسر بين العالمين.. إنهم يحملون بصمة الإلهام في جسدهم النّوعيّ فيجذبونهم جميعًا مثل المغناطيس! لأجل ذلك وصل المعلم الرّوحيّ إلى الماضي.. وبالطريقة نفسها وصلت أنت.

لم يستطع آدم أن يضحك هذه المرّة، رغم غرابة ما يتفوّه به الإكزوتاني من فرضيّات. لقد بدا الرّجل الكهل المتسربل في رداءه الأبيض مقتنعًا تمامًا بما يقول، ولعلّه كان محقًّا بشأن نقطة واحدة: المعلّم الرّوحي كان مجنونًا! وآدم يعرف ذلك جيّدًا لأنه قرأ المذكّرات وفكّ شيفرتها، لكنّ هذا لا يشرح المعضلة ولا يوضّح دوره في الحلّ المزعوم، قال في حيرة:

— وماذا بعد هذه الفرضيّة؟ هل ستعني شيئًا عند النّاس إذا أخبرتهم بها؟

ابتسم عمّار في ثقة ثمّ قال:

— لن نخبر أحدًا بهذا، بالتّأكيد لا، هذا سرّنا الخاصّ، أنا وأنت!

استدار آدم ليلقي نظرة على روان، ربّما هناك مزيد من الأفراد الذين يشاركونهم هذا السرّ «الخاصّ»، لكنّ هذا لا يبدو ذا أهميّة، إن كان الحكيم يريد التكتّم بهذا الصّدد فلا شكّ أنّ أعوانه وأفراد عائلته محلّ ثقة مطلقة، قال في نفاد صبر:

— إذًا؟

إذًا سيعرفون بالقدر الذي يحتاجون إلى معرفته، لقد جاءنا مُخلِّص في الوقت الذي كنّا نتخبّط فيه على أبواب المحنة! إنّها رسالة الرّبّ إلينا لأنّه لم ينسنا ولن يتركنا نموت وحيدين، لقد حان الوقت للرّحال إلى العالم الواسع!

نفر آدم فاه ثمّ همس:

- وهل سيصدّقون هذا؟

أسعت ابتسامة عمّار وهو يعلن بحركة مسرحيّة:

- لقد فعلوا! المُخلِّص أتى بالمعجزة: هو غريب تمامًا عن الجزيرة لكنّه يملك هبة التّسخير، تمامًا مثل المعلم الرّوحيّ! تغلّب على الشّياطين.. وسيأخذ بأيدينا إلى العالم! كما أنّه «المُعلِّم» الذي يحمل كتاب الله في صدره خليفة للـ«نافيا»!

فتح آدم عينيه في صدمة: الأسطورة! لم ينبع طلب عمّار بتعليم الأطفال القرآن من نوايا صافية خالصة لله بل كان يجهّزه منذ ذلك الوقت لمهمّته ونقبة وبني شعبيّته ويؤسّس لصيته كـ«معلّم روحي» آخر.

تمتم عمّار وهو يشرح:

- التّربة جاهزة تمامًا وعلينا إلقاء البذرة! النّاس متعطّشون للاستماع إلى حكمة المُخلِّص، وسوف تخبرهم بما عليهم عمله؛ بأنّ الجزيرة لم تعد كافية، ليس دفعة واحدة بالتأكيد، لكنّنا سنعمل على إحداث تغيير تدريجيّ، سأعلمك بالمراحل الدّقيقة في حينها..

تململ آدم في قلق:

- هذا سيحتاج إلى وقت طويل!

ألم أقل لك؟ سوف تحلّ ضيفًا علينا لبعض الوقت، أنت المخلّص وعليك أن تهتمّ بوصول شعبك إلى برّ الأمان.

هتف في صدمة:

- بعض الوقت؟

- بضع سنوات.. لا أعتقد أنّ سنوات قليلة من عمرك ثمن باهظ لقاء حياة والديك الاثنين! لقد ساعدتك على إنقاذ والديك والآن حان وقت تسديد دينك!

سكت آدم وأخذت أطرافه ترتجف، عاد عمّار يقول مطمئنًا:

- لا يجب عليك أن تقلق، أنت تؤدي عملًا شجاعًا وشريفًا، والداك ستكون فخورًا بك، أنت ستنقذ شعبها كلّه من الانقراض!

***

مشى آدم بخطوات متمهّلة بعد أن غادر منزل الحكيم. كانت كلمات الرّجل لا تزال ترنّ في رأسه بنغمة مزعجة، المُخلِّص جزء من المعتقدات اليهوديّة والمسيحيّة.. المهديّ المنتظر في التّراث الإسلاميّ، حاكم عادل يظهر في آخر الزّمان ليُنهي الظلم والفساد على وجه الأرض! إنّ إسباغ تلك الصّفات على شخصه يبدو سخرية سوداء مبالغًا فيها، لم يكن قطّ أكثر من شابّ عاديّ يحبّ الآلات!

جاءه صوت روان من خلفه في هدوء وثبات:

- يمكنك أن تثق بوالدي، إنّه لن يضرّك بأيّ حال.

- باستثناء استغلالي للسّنوات القليلة المقبلة!

تنهّدت، ثمّ أطبقت شفتيها في وجوم، تتفهّم مقدار صدمته وارتباكه،

استدار آدم بحركة حادّة فاجأتها وأخذ يستجوبها:

- أخبريني، هل تشاركين والدك مُخطّطه؟ هل هذا ما تصبين إليه أيّتها «ماغداخا»؟ تريدين أخذ شعبك إلى العالم الخارجيّ؟

توقّفت عن المشي واستقامت في مواجهته ثم قالت بحزم:

- أنت تعلم أنّ هذا قد يصبح ضرورة في وقت قريب! عالمنا مهدّد ويجب أن نفكّر في طريقة للنجاة، هذا ليس خيارًا ضمن مجموعة من الحلول.. إنّه الخيار الوحيد!

احتدّ وهو يرفع صوته في وجهها:

- هل تعرفين معنى مغادرة جزيرتك؟ ستكون النّتيجة هي الشّتات في الأرض! وقد لا يجد شعبك أبدًا طريق العودة، لن يبقى هناك شعب واحد متماسك بل أفراد غرباء متفرّقون في كلّ مكان، تمامًا مثل والدي، وربّما مثل آخرين من قبلها ومن بعدها! ولن يصبح لكِ موقع آخر وطنًا بديلًا.. أبدًا! هذا ما يحدث مع الذين يتركون أرضهم منذ قديم الزّمان، وما لن يتغيّر في المستقبل!

غمغمت في احتجاج:

- ألم تسمع ما قاله الـ«كوتانا»؟ الهجناء يعرفون دومًا الطّريق!

أطلق آدم ضحكة مغتصبة:

- بالتأكيد، أنت هجينة، ربّما تعتمدين على قدرتك المفترضة على العودة! لكن ماذا لو وجد آخرون الجزيرة في غيابكم واتّخذوها موطنًا؟ لن تكون مأهولة في ذلك الوقت ولا محجوبة بالظّلمة! ستكون متاحة لكلّ من أراد الاستيلاء عليها ولن يكون أمام أحد طريقة لاسترجاعها، من يرحل عن أرضه يفقدها إلى الأبد!

أشاحت بنظراتها وقالت مدافعة:

- حسنًا، لن نرحل جميعنا، ليس في وقت واحد! لن تخلو الجزيرة من السّكان بالتّأكيد، ستكون هناك خطّة، أنا لا أعرف تفاصيلها كلّها.. لكن والدي...

قاطعها آدم في استياء:

- روان، أنت معالجة! أمامك فرصة صنع مستقبل أفضل لا ينضمّن خداع شعبك وفرض خطّة والدك اللّعينة عليهم! لقد طوّر أسلافك دواء يسمح للغرباء بالبقاء على الجزيرة دون أن يلحقهم ضرر وعقارًا آخر يُجبرهم على النّسيان.. فلماذا لا تسخّرين جهدك لصنع دواء يسمح لسكّان الجزيرة بالتّعايش مع العالم الخارجي؟

وقفت ترقبه في صدمة:

- عقار للنسيان؟

هزّ آدم كتفيه في استهانة، لقد قال أكثر ممّا ينبغي! لم يكن يفترض به أن يعلم شيئًا يخصّ ذلك العقار السريّ إلّا أنّها تفوّت النقطة الأهمّ هنا: عبارته تحمل اتّهامًا بالتّخاذل والخيانة، إنّه يقول إنّها تملك مسارات أخرى.. ليس الرّحيل الخيار الوحيد المتاح!

لكنّه لا يعرف بالتّأكيد مقدار الصّعوبة التي ينطوي عنها ابتكار عقار طبيّ جديد. لقد اعترفت بعجزها عن علاج أمراض كثيرة كان أسلافها قادرين على شفائها بلمسة عابرة، لعلّها صارت تفتقر إلى كثير من مهارات السّابقين لكنّها اختارت أن تتجاهل تلميحاته، رمشت بعصبيّة ثمّ استأنفت المسير فجأة، لم تكن ترغب في الدّفاع عن نفسها، لم يكن من حقّه أن يحاسبها، لحقها آدم وهو يكمل:

- أنت.. لا تفهم!

انتظر أن توضّح أكثر لكنّها لم تفعل فتنهّد في استسلام، إنّه لا يعرف كثيرًا، لا يزال يكتشف كلّ يوم شيئًا.. أو أشياء، لكنّه لا يستوعب أنّها قد تجد لوالدها دوافع كافية لخداع شعبهم، لقد شعر في وقت ما أنّها شخص مسؤول وشجاع، أنّها تحمل هموم قومها وتتطلع إلى مستقبل أفضل.. لكنّه بات الآن يشعر بالخيبة!

حين وصلا إلى مدخل الكوخ افترقا في صمت.

(24)

اليوم الرّابع والعشرون

جلس إلى جوار نوح على الشّاطئ يتطلّعان إلى الأفق في سكون.

عرف آدم في اليوم الماضي بريق الشهرة وزخم المكانة الاجتماعيّة، لم يصنع منه النّزال بطلًا فحسب بل رمزًا مقدّسًا! لقد بات يعرف: إنّه يمتلك المقوّمات في نظر السّكان السذّج ليكون المُخلِّص المنتظر الذي سيأخذ بأيديهم نحو العالم!

«بندار» نوح كان مختلفًا، لقد درَّبه ورأى مدى عبقريته، يعرف عدم حذارته باللّقب، لذلك يشعر آدم في حضوره بالصّغار والتّواضع، ويستطيع أيضًا برفقته أن يكون صريحًا وعاريًا من كلّ الزّيف والادّعاء اللّذين صارا يرافقانه في كلّ ظهور علنيّ!

بادر آدم بالسّؤال في لهجة ساخرة:

- هل تعتقد حقًّا أنّني المُخلِّص؟

ربّما أمكن لعمّار أن يخدع الجميع بما في ذلك أفراد المجلس لكنّ نوح يعرف كلّ شيء بشأن قدراته المزعومة، ألقى الـ«بندار» المتمرّس عليه نظرة طويلة ثمّ قال:

- أعتقد أنّك قد تكون!

- أنت لستَ مقتنعًا؟

- أعتقد أنني لم أقابل شبيهًا لك من قبل، قد تكون شخصًا استثنائيًا بالفعل.

ألحّ آدم في السّؤال:

- شخصًا تأتمنه على مستقبل الجزيرة وأهلها؟

تمهّل نوح قبل أن يقول بابتسامة صادقة:

- أودّ أن أومن أنّ هناك مستقبلًا ممكنًا وآمنًا لشعبنا خارج هذه الأرض، لا يمكن أن تكون نهاية عالمنا قريبة.

- هل كنت أنت.. مَن اكتشف تباطؤ التدفّق؟

أومأ نوح بنظرة مظلمة. فكّر آدم أنّ الوقوف على أمر مماثل كان صدمة حقيقيّة لا ريب؛ صدمة يشقّ عليه تصديقها، ومن ثمّ مشاركتها مع آخرين، ربّما يخفّف من عنائه إيمانه أنّ الخلاص ممكن. قال نوح بنبرة عميقة:

- حين تصبح جاهزًا سيكون من دواعي سروري أن أستأمنك على مصير شعبنا!

ابتسم آدم في إشفاق، لم يكن يجد الأمر مسليًا حتّى وهو يقبل بالتّعاون مع «كوتانا» عمّار، لا يزال يعتقد في قرارة نفسه أنّه مجرّد مُدَّعٍ، تمامًا مثل المعلم الرّوحيّ المزعوم! إنّ تنصيبه «مُخلِّصًا» مهما عناه ذلك بالنّسبة إليهم ليس إلا مجرّد استمرار للمسرحيّة الهزليّة التي بدأها هجين آخر منذ قرون!

التفت إلى نوح وسأله:

- أنت تثق بـ«كوتانا» عمّار؟

ظهرت علامات التعجّب على ملامح الـ«بندار»، قبل أن يقول بإيمان عميق:

- بالتأكيد!

لكنه «أبتورا»؛ غريب عن الجزيرة!

همف نوح باستنكار:

- إنه ليس غريبًا، إنّه واحد من أكثر الأشخاص انتماءً إلى هذه الأرض.

- ماذا عن المجلس؟ ألا تثق بقرارات الحكماء الآخرين؟

صمت نوح بضع ثوانٍ، ثمّ قال بعبوس:

- المجلس ليس دائمًا على صواب.

أبقل شبئًا إضافيًا، استمرّ صمته دقائق فعرف آدم أنّه لن يزيد! هناك حكاية شخصيّة وراء موقفه، بإمكانه أن يستشعر هذا، حكاية تشبه المصير الذي ينتظر الرّجل المحكوم عليه بالنّفي! بعض الحكماء أشدّ غلظة من غيرهم، لقد بات يدرك هذا، ربّما يعتقدون أنّ مهمّتهم المقدّسة هي نبذ الرّذيلة وحماية المجتمع من الثمرات الفاسدة التي من شأنها أن تفسد المحصول كاملًا أو الحفاظ على التّوازن كما يقول «كوتانا» عمّار.

لكنّ تلك القسوة غير المبرّرة قد تولّد الثّورة، نوح سيثور إذا واتته الفرصة، وأفراد كثر آخرون، آذاهم المجلس في مناسبات عديدة، ربّما يحقّق ذلك إرادة شعبيّة خاملة تحت الرّماد، ربّما هو صانع التّغيير الذي ينتظره السّكان ويتوقون لظهوره.

ليس انقلابًا على سلطة شرعيّة.. إنّها ثورة!

إنّه لا يتّفق وعمّار في أسلوبه، لقد استغلّ موقفه الدّقيق وظرفه المريع ليحصل منه على وعد بالتّعاون، لكنّه يحاول أن ينظر إلى الصّورة الكبرى، وإذا كان سيكون جزءًا من هذا التّغيير فيجب على الأقلّ أن يقتنع بالحكمة من ورائه، يرى أوجه خيرٍ لا شكّ فيها لكنّه يتوجّس ممّا يخفيه عمّار في المستقبل!

استمرّ يحاول إقناع نفسه: بعض الأنظمة تحتاج إلى أن تُقوّض تمامًا من أسسها لإحداث التّغيير، ليس كل المستبدّين سيّئين، بإمكانه أن يستحضر مثالًا أو اثنين من التّاريخ الحديث.. «لي كوان يو» رئيس وزراء سنغافورة الأسبق مثلًا، سيطر على الحكم لأكثر من ثلاثين عامًا ونجح في صنع التاريخ ليكون الأب المؤسس للدّولة الحديثة قبل أن يُسلم مقاليد البلاد للجيل الجديد، كان رجلًا ذا رؤية وقد عمل على تحقيق رؤيته حتّى النّهاية، تداول سطحيّ على السّلطة كان ليسلّم البلاد للغط كثير وتنازع متواصل ويعدّ من الإنجاز الفعليّ. البناء على المدى البعيد يحتاج إلى استمراريّة الحكم واستقراره.

إنّه لا يعرف كم سيكون عمّار صالحًا، لكنّه يستحق فرصة. إن كان قادرًا على تحقيق العدالة والرّخاء فهو الخيار الأفضل لشعبه. يودّ أن يؤمن أنّ الرّجل صاحب رؤية مستقبليّة تستحقّ أن يلتفّ حولها النّاس.

جاءه صوت نوح مجدّدًا:

- لعلّ عامّة النّاس توّاقون للالتفاف حول المُخلّص لكنّ المجلس له شأن آخر. إنّهم أشخاص متشكّكون وحذرون لا تتوقّع اعترافهم بك بيسر، سيحتاجون إلى دليل أكبر من مجرّد إطلاق النّور.. أنت تفهم ما أعنيه؟

لقد عاد المجلس إلى المعتزل -مرّة أخرى- في غضون أيّام قليلة ليتداول بخصوصه -من جديد- كأنّما لم يعد للمجلس شأن غيره! هذه المرّة سوف يعرض عليهم عمّار نظريّته الخاصّة بالمُخلّص معتمدًا على الاعتقاد الشعبيّ.

فرّت نظرات آدم نحو البعيد حين تردّد نداء الأوركا عبر مساحات السّكون الممتدّ، انفرجت شفتاه في ابتسامة غامضة ليردّ بسؤال آخر:

- كم يبلغ متوسّط عمر الحيتان؟

طالعه نوح بعينين حائرتين ثمّ قال:

- إنها تعيش خمسين عامًا وأكثر.

- ماذا عن لولا؟

- إنها أنثى شابّة، لعلّ سنّها لا يزيد على خمسة عشر عامًا.. إلّا أنّني لم أشهد مولدها، لذلك لست واثقًا تمامًا.

حدّق فيه آدم في اهتمام متزايد:

- هل تعرف بشأن كلّ حوت في محيط الجزيرة؟

أرمأنوح في فخر ثمّ قال:

- الحيتان التي تعيش تحت الظلّة لا تختلف كثيرًا عن البشر. إنّها تحرص على البقاء ضمن المساحة الآمنة.. إذا غادرت فإنّها لن تجد طريق العودة! لذلك نعرفها واحدة واحدة ونحتفي بمواليدها الجدد.. إلّا أنّ الأمر مختلف بشأن لولا، لقد ظهرت فجأة! لم أشهد مولدها ولا عرفت شيئًا عن أمّها غير أنّها حوت رمادي مثل الآخرين.. أليس هذا عجيبًا؟

ارتسمت ابتسامة آدم، هذا الشيء العجيب يوحي إليه بأمر مألوف تمامًا: حوت هجين!

***

تعالت طرقات خفيفة على بابه في المساء، فتح آدم في حذر فطالعه وجه ريحان المبتسم، لم يكن قد حظي بكثير من الفراغ أخيرًا ليمضي بعض الوقت مع الفتاة اليافعة ورفاقها، ولم يكن يمانع في وقت مقتطع يُلهيه عن الزّخم الذي طوّق حياته بالإثارة، أشرع الدّفة ودعاها إلى الدّاخل فالتهبت رجلاها في حرج ثمّ قالت:

- أنت مدين لي بخدمة.. أليس كذلك؟

رفع حاجبيه في استغراب، لقد أسدت إليه خدمة بالفعل، بل خدمات، لكنّه لم يتوقّع أن تطالب يومًا بردّها.. هؤلاء الأطفال لا أمان لهم!

- حسنًا، أظنّ ذلك! ما الذي يمكنني عمله من أجلك؟

هتفت في رجاء:

- هلا رافقتني إلى مكان ما؟

- في هذا الوقت؟

لقد أخذته في السّابق إلى السّوق والشّاطئ وأخيرًا إلى الصّخرة، لكنّه لم يستطع أن يخمّن أيّ نوع من الوجهات ستأخذه إليها اللّيلة، استسلم لكفّها الصّغيرة تشدّه وراءها عبر الأزقّة وهو يتساءل في حيرة أين يذهبان.. فثمّة أنّ المسار المتعرّج بين البيوت لا يقصد موقعًا خارج القرية، ربّما تحمله للقاء أحد ما، تباطأت خطواتها حين شارفا على منزل «كوتانا» عمّار، استدارت ريحان تواجهه ثمّ قالت بلهجة اعتذار:

- أنت لن تغضب مني.. أليس كذلك؟ لقد وعدتهنّ بإحضارك إليهنّ، إنّهنّ مسالمات لن يقسين عليك.

لم يستوعب من تعني بـ «هنّ» لكنّه تحضّر للكارثة، سحبته ريحان ليقطعا الأمتار الأخيرة التي تفصلهما عن بوابّة منزلها، خلال ثوانٍ ألفى نفسه بقف قبالة مجموعة من السّيّدات في منتصف العمر، كنّ يجلسن على السّجاد في غرفة الاستقبال وعيونهنّ المتفحّصة تطالعه بتمعّن وانتباه. همست ريحان وهي تشير باتّجاه السّيدة التي تتصدّر المجلس بأريحيّة صاحبة المكان:

- هذه والدتي.

جذبه آدم بالحناءة عميقة من رأسه أردفها بأخرَ خفيفات نحو ... وهو يجول ببصره بين الوجوه ثمّ عاد يقف في شيء من ... تجاوزته ريحان لتجلس ملتصقة بوالدتها وعلى شفتيها ابتسامة ... سرق آدم نظرات سريعة إلى زوجة الـ«كونانا»، إنّها من أهل ... يكن هناك مجال للشك. لقد أخذت منها روان ملامحها الدّقيقة ... الشّاحبة في حين كانت ريحان نسخة من والدها.

مرّ الصّمت دقيقتين طويلتين كانت تتسرّب خلالها ضحكات ... من الغرفة الدّاخليّة، ربّما تكون روان برفقة شقيقتها في الدّاخل ... لؤلؤات الشّابات، غير أنّ السّيدات أمامه اكتفين بالتّحديق ... كان عددهنّ خمسة يرفلن في عباءات نسائيّة منقوشة فضفاضة ... شعورهنّ في لفّات سميكة فوق رؤوسهنّ، لاحظ أنّ النّساء في ... لا يفصحن شعورهنّ! تجلله القتيات وتدليته على ظهورهنّ من ... الرّأس فما تعتصه السّيدات مثل كعكات الجلّات فلا تظهر منه ... واحدة.

... الذي شرع يضوّع به هواء الغرفة مثل نوع من البخور ثمّ انتبه ... يشبه ثخنة من الورق المحشوّ بالأعشاب كنّ يتناقلنها بينهنّ ... تدخينها فيتصاعد عنها غمام معطّر مثل أرجيلة من عصر آخر.

... في وقته مستشعرًا خجلًا وغرابة، كان على أحدهم أن يبادر ... ما وهو لن يكون هذا الشّخص، إن كنّ يتوقّعن عرضًا آخر ... يجب آدمنّ، يمكنه التهرّب والتّبرير: الـ«بنادر» لا يبذّر طاقته بلا ... خفيفٍ.

... إحداهنّ أخيرًا بلغتهنّ المحليّة متغافلة عن جهله بها فيما ... يخاطبن العربيّة:

- منذ أسابيع.. حين أعلنت ابنتي أنّ «بندار» قد جاء من وراء البحار لم أصدّق!

هزّت الأخريات رؤوسهنّ يؤمّنّ على قولها بحركات جادّة، قد تكون ابنتها حضرت حفل الزّفاف، ربّما هي مِن وصيفات العروس الجالسات عند السّرادق. ابتسم آدم في حرج وتساءل إن كان عليه أن يتدخّل في الحديث أو يردّ على استفسار لم يطرحه أحد، ليس بشكل مباشر على الأقلّ.

تكلّمت زوجة «كوتانا» عمّار فانتبه آدم إلى الوقار الذي تنطق به سحنتها ولغة جسدها، كانت تنهض بدور زوجة زعيم على أكمل وجه، قالت بصوت عميق وحاسم:

- لقد رأيتنّ كيف قذف النّور في وجوه الحضور! لقد نجح في الاختبار.

ازدرد آدم لعابه في توتّر، إنّهنّ لن يُخضعنه لاختبار بدورهنّ؟ لم يحزر على الفور أنّ اختبارهنّ سيكون من نوع آخر، مدّت السّيدة القريبة منه كفّها وشدّت ذراعه تدعوه إلى الجلوس وتحسّست في الوقت ذاته عضلاته الضّامرة، قالت بتودّد بعربيّة متكسّرة:

- اجلس يا بنيّ، لا تقف هكذا!

جلس على ركبتيه وهو يستشعر ضيقًا وتوجسًا، لا شكّ أنّ بنيته الجسديّة ليست باهرة على الإطلاق، ولقد لمح ذلك الأثر في التواء فم السيّدة وهي تسحب كفها عنه، قالت في عتاب:

- أنت لا تأكل جيّدًا.. كيف ستنهض بمهامّك وأنت على هذا الهزال؟

حدّق في الأرض بارتباك متزايد، قالت جارتها -بالآراميّة- بلهجة العارف:

الرّجل بحتاج إلى امرأة ترعاه، البيت الخالي من المرأة لا طمأنينة ولا استقرار فيه!

لعنى آدم في انتباه إلى التّرجمة، غير أنّه لم يدرك علاقة قولها بضمور
ه(ة)، لكنّ الأخريات وجدن ملاحظتها لمّاحة وفي محلّها، قالت ثالثة:

- إنّه لا يعرف تقاليد القرية بعد، سوف نهتمّ بالأمر، لا تشغل بالك.

بدت الكلمات الغامضة التي نطقت بها ممّا يشغل البال بالفعل، تساءل
ترى إن كان عليه القلق ممّا ينوين بشأنه! ابتسمت جارته الأولى وهي تنحني
بإتجاهه:

- أنت لا تتحدّث كثيرًا.. أليس كذلك؟

ضحكت الثّانية وهي ترمقها بنظرة ساخرة:

- لا تقلقي.. ابنتك تتحدّث نيابة عن اثنين!

شاركتها الأخريات الضّحك فيما تجهّم وجه جارته ومطّت شفتيها في
تذمّر.

قالت والدة ريحان بلهجة مطمئنة وبعربيّة سلسة تشرح الوضع:

- لقد أرادت السّيّدات أن يلقين نظرة عن قرب فالـ«بندار» عملة
نادرة، ناهيك بـ«المُخلِّص»، سيكون عليك اختيار قرينة للاستقرار
وبناء عائلة.. وكلّ سيّدة هنا تريد أن تحظى ابنتها بفرصة جيّدة..

نفر آدم فاه وقد استوعب الموقف، إذًا هذا ما يتعلّق به الأمر! اشتعل
وجهه خجلًا وهرش مؤخّرة رأسه في حرج، بَيْدَ أنّه شعر بشيء من العُجب
لو يحظى بذلك القدر من الاهتمام.. استقام في جلسته فجأة حين فُتح
الباب الدّاخليّ وظهرت الفتيات؛ أربعة منهنّ. كانت هناك بعض الوجوه
المألوفة بالإضافة إلى روان، تعرّف إلى خلود؛ فتاة الشّاطئ التي انتزعت منه
الاعتراف بالتّسخير.. وأحرجته لتقديم عرض ليلة الحفل!

مشت في دلال وجاءت لتجلس على السجّاد إلى جوار أقرب السيّدات عن يمينه. إذًا فقد كانت جارته والدتها، كانت خلود أكثر الفتيات جرأة وانفتاحًا ولعلّها الأكثر ثرثرة أيضًا باعتبار الملاحظات التي أبدتها السيّدات منذ حين، غير أنّها أحنت رأسها في حياء ولزمت الصّمت على غير عادتها مثل عروس تتحرّج من خاطبها.

انتابه شعور مفاجئ بالحرارة وقد صارت الغرفة مزدحمة بالشابّات ووالداتهنّ. كان الرّجل الوحيد وسطهنّ ومحطّ الأنظار أيضًا. التقت عيناه بعيني روان فتوسّل إليها في صمت أن تفعل شيئًا لإنقاذه، يا طالما هبّت لنجدته؛ من الفتيات الفضوليّات والمُسخِّر الأرعن، لكنّ نظرة استمتاع كانت تتراقص في مقلتيها، جلست بدورها حذو والدتها ولم تبد عليها الرّغبة في التدخّل.

تنحنح آدم أخيرًا وقال في محاولة للاعتذار:

- سيّداتي الكريمات، آنساتي المحترمات.. أشكر لكنّ الدّعوة اللّطيفة...

قاطعته والدة خلود:

- أنت لم تأكل شيئًا بعد!

أشارت إلى المائدة فانتبه إلى المأدبة التي حضّرنها. كانت هناك أصناف من المعجّنات المحشوّة وكُرات السّمك وخضراوات مشويّة وأنواع أخرى لم يسبق له تذوّقها. قدّر أنّ عليه أن يُكرّم جهدهنّ ويأكل إلّا أنّ معدته تقلّصت بفعل التوتّر، قال معتذرًا:

- شكرًا لكرمكن، لكنّني...

تنحنحت روان فأدرك أنّه كاد يقترف خطأ، قال على الفور وهو يتناول كرة سمك:

- ماكفي هذه!

وضع الكرة في فمه دفعة واحدة وأخذ يمضغها ببطء محاولًا ألا يختنق
إن بدر أحمق وأخرق في تلك اللّحظة، دمعت عيناه وقد انقطع تنفّسه،
بكل مايفكّر فيه هو كيف يُفلت من محاصرة العيون اللّصيقة التي تجعله
يحب عرقًا. أخيرًا انزلقت قطع السّمك المفروم إلى بلعومه فشعر بشيء
من الارتياح. قرّر أنّه لن يغامر بأكل شيء آخر على الإطلاق، لاحظ أنّ
لكن نحن المراقبة يمكن أن يصنّف ضمن المغامرات الخطرة المهدّدة
بحياة!

- أعتذر الآن.. عليّ الانصراف...

تكن هذه المرّة من التلفّظ باعتذاره دون أن يقاطعه أحد، كانت زوجة
حكيم تطالعه بنظرات مشفقة، قالت بلطف:

- اذهب يا بنيّ.. شكرًا لمجيئك!

إيصدّق أنّ إشارة الحريّة قد جاءته. وقف بسرعة واستدار مغادرًا
تحرّه المسات والضّحكات الخافتة. إن كان هدفه أن يقنع الجماهير
تريثة بكونه «مُخلِّصًا» فإنّ أوّل ظهور علنيّ له باء بفشل ذريع. استمرّ
يزم نفسه وهو يهرول في اتّجاه الكوخ لا يلوي على شيء، إنّ كلّ ما يفكّر به
و الاختفاء لبواري خيبته!

نفس بعمق حين أغلق عليه باب الكوخ، ربّما كان مجلس النّساء أقسى
في أعصابه من مجلس الحكماء! لم يشعر من قبل بذلك التّأرجح في تقدير
نفسه، في لحظة يكون مليئًا بالفخر وفي التّالية يغمره الخزي!

@ART_OF_BOOK

(25)

اليوم الخامس والعشرون:

داخل القمرة المعدنيّة الصّلبة للطائرة المروحيّة فتح آدم عينيه، كان الماء لا غير الفضاء خارج القمرة وأخذ يتسرّب إلى داخلها تدريجيًّا. إلى جواره كان والده لا يزال في مقعد القيادة غائبًا عن الوعي، رمش ثانية وقد استولى عليه الصّداع. اهتزّت رؤيته وغلّف عقله الضّباب، لقد سقطت المروحيّة، تذكّر، نسبّب السّقوط الحرّ في صدمة عصبيّة لكليهما لكنّهما على قيد الحياة، لا يزال يتنفّس الهواء المحبوس داخل القمرة غير أنّه في طريقه إلى النّفاد.

تناهى إليه نداء بعيد يمتطي تردّدات الماء ويتحدّى حدود المكان. تنبّهت حواسّه وهو يتلفّت يمنة ويسرة في حيرة واستغراب؛ يتذكّر النّداء العجيب الذي رنّ في رأسه منذ أكثر من عقد ونصف، النّداء الذي سحبه من منزل الشاطئ ليتوغّل في البحر حتّى حدود الغرق، استمرّ ذهوله وهو في حال وسط بين الإغماء واليقظة حتّى أبصر الجسد الفضيّ الضخم الذي يسبح بمحاذاته لا يفصل بينهما إلا حاجز الزّجاج. اتّسعت عيناه دهشة وانسحب عنه التشوّش، حبس أنفاسه انبهارًا وهو يتطلّع إلى الكائن الهائل الذي يخاطبه عبر ذبذبات الأثير ثمّ مدّ يده غريزيًا ليلمس صورة الحوت عبر الشاشة.

ذلك النّداء.. لقد أيقظه من سباته وأنقذ حياته!

***

دوّى نداء البوق في الأرجاء بصوت عميق ومفزع.

أطلّ آدم في فضول وتوجّس لبرهة نظرة على الشّارع وكذلك فعل السكّان واحدًا إثر الآخر. لم تكن ثمة مكتومة لغضّ المسخّرين بل وقفا صامتًا يستدعي الجماهير، راقب الأبواب تفتح والنّاس يندفعون لخارج البيوت في اضطراب وحماس. مع تكرار النّداء تدفّق أهل الجزيرة عبر الشّوارع واندفعوا في اتّجاه دار العبادة، كانوا يعرفون الإشارة ويتقبّلونها وقد آن أوان الاجتماع.

ظهر أوران فجأة وهو يلهث، أعلن على الفور:

- لقد عاد الـ«كوتانا» من المعتزل!

أومأ آدم في وجوم، لقد بات يدرك هذا القدر.

- يطلب «كوتانا» عمّار رؤيتك على الفور.

تسارعت نبضاته وتساءل في حيرة: هل...؟ سبقه أوران ليقول باندفاع:

- الأنباء سارّة!

تنهّد آدم ثمّ سار وراء المُسخّر الأرعن بخطى حثيثة.

بدت علامات الفرح جليّة على الوجوه التي حفّتهما على الطّريق، كان بروز المُخلّص نبأ مبهجًا يستحقّ الاحتفاء وقد عاد المجلس ليؤكّد أنّ ظهوره في هذه الآونة وارد بشكل كبير. لقد درسوا الملابسات والعلامات التّاريخيّة ونبوءات الأسلاف والضّرورات الزّمنيّة ووجدوا أنّ ظروف الوقت الحاليّ مناسبة للحدث الفارق، ليس أنّهم كانوا متّحدين ومتّفقين اتفاقًا كاملًا، لكنّهم لم يغادروا مقرّ عزلتهم إلّا بعد أن عُقِدَ الإجماع.

ولعلّ مهمّة عمّار بإقناعهم لم تكن هيّنة أبدًا.

ة واحد من أشرطة آدم المفضّلة -والمرجع الكلاسيكي حين
ر بعون الإقناع والتّفاوض- «اثنا عشر رجلًا غاضبًا»، احتاج
حكماء غاضبين» إلى وقت أطول من لجنة المحكّمين في الفيلم
ر إجماع. ربّما يكون عمّار قد اعتمد استراتيجيّة مشابهة لتلك
ن في الحكاية: الشكّ سبب كافٍ لمنح المتّهم فرصة!

ة يقطع الصّمت المتوتّر بينهما:

. لا يبدو لك المشهد مسلّيًا؟

ر ورفع رأسه في دهشة ثمّ قال بسرعة:

. لا.. سيّدي!

ر تقدّم عن ابتسامة جانبيّة ثمّ أردف:

. كيف تبدو لك مسألة المُخلِّص هذه؟

ر فكّر قليلًا ثمّ قال بلهجة جادّة:

- نحن معلّقاء بوصول المُخلِّص أخيرًا ونتطلّع إلى مستقبل أفضل
ركه وكراماته!

ر تقدّم وقد صار لقاء المُسخِّر الأرعن يثير بداخله قدرًا من
استمتاع، إذ بدأ يلتذّ بملاحظة التناقض الصّارخ في سلوك الشّابّ مذ أُعلِن
ه.

ه أن أسلمه للحكيم عمّار وقف الـ«بندار» الشابّ خارجًا متحفّزًا
ب المفضّلات مثل كلّ سكّان الجزيرة. كان ظهور المُخلِّص حدثًا جللًا
ه إليه. اعتبر آدم أنّ الأحداث تسير حسب الخطّة حتّى الآن باعتبار
ه الفعل الشعبيّة والفرديّة التي حظي بها، إلّا أنّ سحنة عمّار الشّاحبة
ه غير ذلك! أشار إليه بالجلوس بحاجبين معقودين وعينين غائمتين.

ساورت آدم الشّكوك، ألم يُفض اجتماع المجلس إلى نجاح عارم؟

قال عمّار بلهجة جادّة:

- لقد أقرَّ المجلس بصدق النّبوءة.. إلّا أنّهم أشخاص حكماء ونبهاء لا يسلّمون مقاليدهم للأساطير الشعبيّة ببساطة!

تساءل آدم في حيرة:

- هل لديهم شروط أخرى؟

- بل اختبار آخر، يجب على المُخلِّص أن يروّض الحوت!

تصلّبت عضلات آدم في توتّر وقُرعت طبول صدره بصخب، بدت عليه المفاجأة لكن ليس الفزع، لعلّه كان يتوقّع شيئًا من هذا القبيل بعد حديثه إلى نوح بالأمس.

كان عمّار أشدّ قلقًا وهلعًا، أضاف في تلجلج وارتباك:

- أنا آسف يا بنيّ.. لم أعتقد أنّهم سيشترطون هذا.. إنّهم في انتظارنا على الشاطئ..

تحرّكا على الفور وانطلقا يسبقهما أوران، استقبل ثلاثتهم مشهدٌ مهيبٌ على الشّاطئ، بدا أن السّكان قد احتشدوا عن بَكرة أبيهم ليشهدوا الحدث التّاريخيّ. اصطفّ الحكماء السّتة تلقائيًا في المقدّمة وسارع عمّار لينضمّ إليهم متعثّرًا في عباءته الطّويلة، كان الرّجل يتنفّس بصخب ويتصبّب عرقًا للمرّة الأولى منذ عرفه آدم، بدا أنّ حِيَل الحكيم الواثق على الدّوام قد نفدت.

تقدّم آدم بثبات انفعاليّ يُحسد عليه، حيَّى الحكماء بإيماءة من رأسه والجماهيرَ العريضة بكفّه المرفوعة والملوِّحة، تكلّم «كوتانا» تافي أوّلًا:

- أيّها الـ«أيتورا».. شعبنا يودّ الاعتقاد بأنّك المُخلِّص الذي انتظرناه طويلًا.. فهل أنت كذلك؟

رفع آدم صوته في ثقة بالغة لا يدري من أين استعارها وقال:

- احسبني كذلك!

تمكن بمشقّة من السيطرة على ارتجاف صوته ورعشة أطرافه، يبدو يذهبا محرقًا الآن، متمرّسًا في فنّ الاقناع، بيد أنّه يتساءل كم سيدوم زلكه قبل أن يسقط القناع..

- إذًا فليدعُ أحد المُسخّرين حوتًا!

لم يلتفت آدم ولم تبدر عنه أدنى حركة إلّا أنّه ابتهل سرًّا حتّى جاء بون نوح معلنًا:

- سأفعل!

اغمض آدم عينيه وهدأت نبضاته المجنونة، أطلق نوح صفيره نحو لبحر، سبق الآخرين وهبّ لنجدته، سيكون بخير الآن.. تقدّم آدم ليقف لى جواره على السّاحل يرقبان الأفق بانتباه وتأهّب، تصمّ ضرباتُ الأفئدة لقارعة مثل طبول حرب أذني كلّ رجل يرقب الموقف.. بعد لحظات زلص ذيل الأوركا العابثة وهي تقترب مبعثرة المياه هنا وهناك حتّى صارت على مسافة أمتار من الشّاطئ الرّمليّ، همس نوح مشجّعًا:

- لولا حوت لطيف.

بدرك آدم مدى لطفها ووداعتها وهذا كلّ ما يعتمد عليه لنجاح بهته.. تنفّس على مهل وهو يخطو في المياه الضّحلة حتّى صار عند سنرى الحيوان البحريّ الضّخم، اقترب أكثر وهو يحدّق في عينه الدّائريّة لتي تعكس ملامحه مثل مرآة ومدّ ذراعه ليربّت خطمه الأملس بلطف، لم خلقه تعالت همهمة حماسيّة بين الحشود بعد احتباس الأنفاس.

هل كان ذلك كافيًا؟ ألقى نظرة عابرة من فوق كتفه يرصد ردود فعل الـ«كوتانا»، كانوا يتهامسون بحدّة.. لا يبدو العرض مقنعًا كفاية؟

زفر بقوّة مثل عمّار.. سيكون عليه أن يثبت جدارته باستمرار، ليس من اليسير أن تصير حكيمًا أو مُخلِّصًا في قومك، فما بالك بغريب يدّعي سلطة روحانيّة!

أصدر الحوت نداءً رقيقًا فابتسم آدم وهو يقول:

- هل تودّين قول شيء ما؟

فتح ذراعيه وأحاط رأس الحوت بعناق غامر، إنّها حوت قاتل.. يجب عليه أن يتذكّر، لكنّ «بندار» نوح إلى جواره لذلك يمكنه أن يجازف، إنّه يحتاج إلى أن يجازف في كلّ مرّة أكثر! سيُقدِم على أفعال أكثر تهوّرًا مرّة بعد المرّة طالما أراد أن يملك قلوبهم.

أصغى إلى وجيب قلبه المتسارع ثمّ شعر بالطّنين البعيد الذي يتردّد في أغوار الجسد الفضيّ فاسترخت أنفاسه وانتظمت حتّى تناغم النّبضان.

تكلّم «كوتانا» تافي مرّة أخرى ليعلن:

- يجب أن تركب الحوت!

رفع آدم رأسه ليكسر العناق، لقد أحبّ ذلك التّواصل النّاعم مع الأوركا إلا أنّ التحدّي يزداد صعوبة، لم تكفِ مداعبة الأوركا لإقناع الحكماء، يحتاج إلى أن يتجاسر على ركوبها.

في الخلفيّة تصاعد حماس المتفرّجين وخرج عن السّيطرة، لقد أبلى حسنًا حتّى اللّحظة، لا، لقد أبلت لولا كما أمِل وأكثر لكنّ الأمر يتعلّق به هو الآن، هل سيكون قادرًا على التمسّك بزعنفتها؟ هل سيجيد وضعيّة الرّكوب؟ وهل يضمن ألا تطيح به في الماء في واحدة من مُزَحِها الرّهيبة؟!

تراجع خطوة وشمل الحشد بنظرة طويلة. في الصّفوف الأماميّة
بين روان ترقب المشهد عن كثب، لن يموت.. بحضور «بندار» نوح
إلى عناخا! روان ستسلَم حياتُه، عليه أن يطمئنّ بهذا الصّدد، ويبقى عليه
فقط أن يكسر حاجز الرّهبة ويواجه لعنته القديمة بجسارة.. هذا كلّ شيء.
كلّ شيء؟ تقوّست شفتاه في مرارة، لعلّ هزيمة الأعداء المرئيّين أهون
من مرّة من مواجهة أولئك الذين يقبعون في أغوار الذات السّحيقة! إلّا
أن لكلّ معركة أوانًا، ولعلّ أوان مقارعة هواجسه القديمة الرّابضة في
أعماق ولقاء وحش البحر المرعب قد حان!

ولا لبرّت خطم لولا برفق ثم همس في رجاء:

- لا تخذليني!

ثم اندفع فجأة ليمتطي ظهر الأوركا بحركة ماهرة، كأنّما قد فعل
ذلك طيلة حياته. أم هل تراه فعل حقًا؟ لعلّ الكيان الآخر الذي يسكن
جسده قد فعل في وقت ما! تُشعره سلاسة الحركة وتلقائيّتها بأنّه قد فعل..
في الجزيرة؟ في منزل الشاطئ؟ في تلك المرّات التي ينتبه فيها مبتلًا من
رأسه حتّى أخمص قدميه بلا سبب؟ لا يحمل أدنى ذكرى لتلك اللقاءات
المترفة بالحوت لكنّ ذاكرة جسده أقوى دليل، أسلم العنان لكيانه الآخر
حتّى يقودهما إلى برّ النجاة..

منح الحوت مهلة كافية فلبث بلا حراك حتّى توازن واستقرّ، ما تلا
ذلك كان جزءًا من حلم غائم.. كأنّما يحلّق عبر ندف السّحب، شهق حين
رفرفت لولا في الهواء في استعراض لرشاقتها وكاد قلبه ينخلع من صدره
لأنّه لم يُفلت زعنفتها حتّى وهي تغطس عميقًا، لوهلة.. غمرته المياه
فابتلعه برفقة الحوت، توقّف عن التنفّس حين أحاط به الماء المالح من كلّ

صوب إلا أنه عزف عن المقاومة وطرد الملح، سيكون بخير، انشقّ مطلع الماء عنهما خلال ثوانٍ فهلّل المتفرّجون بحماس منقطع النّظير!

أغمض آدم عينيه مستسلمًا لحركة الأوركا الانسيابيّة وغمره إحساس دافئ بالسّلم والسّكينة، كان يشعر برذاذ الماء يبلّل ساقيه أو يغمره جزئيًا مع تتابع القفزات ويستقبل زخّات الهواء الحرّ المندفع من حوله، انتابه إحساس غريب بالألفة وصدح داخله صوت مؤكّدًا: لقد فعل هذا من قبل!

همس لنفسه:

- لولا.. هل كنت هناك منذ خمسة عشر عامًا؟

يعود طفلًا في الثامنة، يقبع خلف نافذة غرفته في منزل الشّاطئ، يتناهى إليه النّداء الرّقيق من بعيد؛ نداء صغير حوت أوركا هجين، لا يدري كيف حملته الأمواج إليه إلّا أنّ الصّوت كان قريبًا واضحًا ومفهومًا لديه.. «الهجناء يعرفون الطّريق».. أيّ طريق بالضبط؟ كيف عرفت لولا الطّريق إليه؟ وكيف وجد هو طريقه إلى الجزيرة؟ لا تزال أسرار الجينات التي تسكن جسده مُغلقة عليه ولا يزال التحكّم في الـ«مادرا» مستعصيًا على خلاياه، لكنّه سيرضى بقليل متاح في الوقت الحاضر..

لقد أنقذت لولا حياته من قبل وكذلك فعلت اليوم..

حين رجع إلى الشّاطئ كانت الهتافات قد انطلقت حُرَّة من القيود، العَبَرات تبلّل لحية الحكيم عمّار المنتشي بالانتصار العظيم، والاطمئنان يلفّ ملامح باقي أعضاء الـ«كوتانا» الرّاضين بنتيجة الاختبار.. ترجَّل آدم عن مطيّته وربّت خطمها بامتنان ثمّ سار على الرّمال الفضيّة مثقلًا بزخم التّجربة.

عانقه «بندار» نوح في حرارة وتأثّر:

- كنتَ مدهشًا!

يؤمن أنّه كان كذلك، لقد كانت التّجربة مدهشة بالنّسبة له أيضًا! لا يزال بصارع بقايا رهاب تصدّعت جنباته منذ حين، إنّه حرّ أكثر من أيّ وقت مضى، كأنّ شيئًا في الوجود لم يعد يُخيفه! ذلك الكيان الذي ينازعه جسده، نوبيّ ثابت ولا يهاب شيئًا، لا مخاوف لديه ولا هواجس، وهو يسعى لامتلاك الصّفات ذاتها حتّى تتحّد هويّته ويرأب صدعها.

تعالى هتافات حارّة، صادقة ومخلصة، يتهافت النّاس من حوله يحثون عن كفّه، طرف ثوبه، أو أثر له يلثمونه بشفاه خاشعة، يستقبله الحكماء في تسليم وخضوع ويحيطه عمّار بذراعين قويّتين يكاد يعتصره، من بعد، نطالعه روان بنظرة باسمة هانئة.

إنّه مُخلِّص حقيقيّ الآن.

***

استمرّ الاحتفال ردحًا من الزّمن والسّكان يحتفون بمُخلِّصهم كما يجب.

جلس آدم في صدر القاعة وتوزّع الحكماء عن يمينه وشماله، حرص عمّار على البقاء على مقربة وقد احتاج آدم إلى ذلك الوجه المطمئن ليحافظ على رباطة جأشه طيلة الأمسية الممتدّة. توافد السّكان واحدًا إثر الآخر في نظام ليقبّلوا كفّه في احترام ويبايعوه على الولاء والطّاعة.

في الخارج كانت الذّبائح تُعلّق على مواقد الحطب وتُطبخ الولائم على نار هادئة. كان عُرسًا حقيقيًّا بل أكثر، تواصل استقباله للمريدين لساعات

وجاء المُسخّرون وحتّى الشّيخ الجليل لينحنوا أمامه، تملّقه هذا الأخير بابتسامة ذات مغزى يُذكّره بأنّه كان حليفه منذ أمد وهمس في أذنه يساره:

- لقد عرفت أنّ حامل كتاب الله لا يمكن إلا أن يكون رجلًا استثنائيًا ولقد كان حدسي في محلّه أيّها المُخلِّص المبجّل!

لقد كان لبعضهم سلطة سياسيّة -مثل الـ«كوتانا»- ولآخرين سلطة القوّة -مثل الـ«بندار»- وللشيخ الجليل سلطة دينيّة، غير أنّ الـ«نافيا» -ومن بعده المُخلِّص- يجمع في يده السّلطات الثلاث في تسخير فجّ لمعنى «الدّيكتاتوريّة»: سلطة الرّجل الواحد.

في وقت متأخّر من تلك اللّيلة وبعد أنّ انفضّت جموع المُحتفلين، تسلّل آدم عبر طرقات القرية متواريًا عن العيون، ولأنّ لديه جذورًا في الجزيرة فقد وجد نفسه يلجأ إلى الفرد الوحيد المتبقّي من عائلته. حين طرق بابها كانت مارتا بانتظاره مثل كلّ مرّة وطبق العشاء على المائدة كالعادة.

غسّل كفّيه وجلس لينال نصيبًا من الطّعام بنهم، رغم توافر البروتين والدّهن على مائدة الاحتفال لم يصل أيّ منها إلى شفتي آدم. عقدت الإثارة معدته وأجهز الاضطراب على شهيّته!

كان طبخ مارتا مميّزًا أم لعلّه يحمل نكهة مألوفة ومُحبّبة كما يبدو طعام الجدّات غالبًا. يقولون إنّ طبخ الجدّة ألذّ من طبخ الأمّ ولم يكن قد جرّب تلك المقارنة قبل ذلك لكنّه مع استمرار تفكيره الكثيف بوالدته البعيدة في الأيّام الماضية صار يجد أثرها في أبسط الأشياء، واليوم بدت الوجبة كأنّها من صنيع هاجر لا والدتها مارتا.

رمقته بمحبّة وفخر وهو يلتهم الطّبق برمّته في دقائق معدودة.

- كُل على مهلك أيّها المُخلِّص.

انزوت وجنتاه فدفن وجهه في الطّبق ليُلقي في جوفه لقمة أخرى، لم يكن قد اعتاد اللّقب رغم زخم الأمسية إلّا أنّه حمل طعمًا مختلفًا على لسانها: طعم الفخر والاعتزاز الأبويّين، أضافت المعالجة العجوز تداعبه:

- عرفت بلقائك بالسيّدات بالأمس!

توقّف عن الأكل وأرسل باتّجاهها نظرة مُحرَجة، هل تحدّثت روان بشأن هذا؟ أم أنّ ألسنة أخرى نشرت تفاصيل الاجتماع؟ ليس أنّه قد توقّف عن كونه موضوع الشّائعات منذ يوم وصوله لكنّ هذا نوع آخر من النّميمة. بعد الآن سيغطّي عرض ترويض الحوت على كلّ الأقاويل الأخرى، لن تقوى على السّطح إلا حقيقة كونه المُخلِّص المنتظر.

تابعت مارتا:

- عليك أن تعرف، النّساء هنا يأخذن موضوع ارتباط بناتهنّ بجدية تمامًا.

إنكن تحتاج إلى شرح، لقد حزر هذا لكنّه لم يتوقّع أن يجد منهنّ انفتاحًا تجاه الغرباء، فهو في نهاية المطاف عابر سبيل حديث الوصول لا يعرفون تاريخًا ولا نسبًا، ربّما كانت إثارة كونه مُخلِّصًا تجعله غريبًا من نوع خاصّ ربّما يتوقّعن استقراره بعد ذلك في الجزيرة ممّا يجعله مختلفًا عن الغرباء بالمعنى التقليديّ.

- إنّهم يرون كم كانت أرابيلا محظوظة ويطمعن في تكرار التّجربة!

أرابيلا؟ خمّن أنّها زوجة «كوتانا» عمّار.. محظوظة؟ ربّما كان عمّار حكيمًا لكنّه ليس بالرّجل فارع الطّول أو قويّ البنية، إنّه سياسيّ محنّك لكنّه لم يحظ بشيء يُذكر من الوسامة، أجابت مارتا عن تساؤلاته حين أضافت:

- لقد أنجبت أرابيلا ثلاثة أبناء! في حين أنّ معدّل الخصوبة في شعبنا لا يتجاوز الطّفلين في أحسن الأحوال، معظم العائلات ترزق بطفل واحد لا أكثر!

رفع آدم حاجبيه في دهشة.. الخصوبة! لقد كان للمعلّم التّروحي سبعة من الأبناء، لكنّ هاجر لم تنجب غيره.

- هل لديك إخوة؟

كانت مارتا تتعقّب أفكاره.. هزّ رأسه علامة النّفي فتنهّدت، ربّما كانت والدته مريضة معظم الوقت، لم يكن جسدها قويًّا كفاية لإنجاب أطفال آخرين لكنّها رُزقت ولدًا وحيدًا ممّا يجعلها لا تختلف عن نساء الجزيرة الأخريات، سأل في فضول:

- لم ألحظ وجود هجناء آخرين، هل عمّار هو الغريب الوحيد؟

أومأت مارتا قبل أن تقول:

- لا يأتي كثيرون إلى الجزيرة ونحن لا نتزوّج إلّا من قوم مؤمنين مثلنا.. وهؤلاء وصولهم نادر للغاية، وقلّما يقرّر الغرباء الاستقرار بيننا.. لذلك كان عمّار فريدًا من نوعه، ربّما كان هناك آخرون قبله في أزمنة سابقة.. ربّما بيننا دماء هجينة لكنّها تلاشت في الغالب ولم يبق لها أثر لأنّ الدماء المحليّة غلبت.

تأمّل آدم كلماتها في صمت، فأضافت مارتا تدّاعبه:

- هل تودّ أن أنتقي لك واحدة من بناتنا؟

أطرق في خجل، إنّ هذا الموقف العجيب يملؤه بالحنين، يفكّر في والدته أكثر من أيّ وقت مضى لكنّ تلك الكلمات لم تكن لتصدر عنها على الإطلاق، لقد انقضى عهد وصاية الآباء على زواج الأبناء منذ عقود

ذا زواج المتحضّر، كان ليقدّم إليها فتاته التي اختارها حين يكون مستعدًا
لك لينال مباركتها ولإضفاء صبغة رسميّة على الارتباط، ستكون هناك
وة خطبة تطول أو تقصر ثمّ يكون هناك حديث عن الزّواج.
تساءل في كآبة إن كان ذلك قد يحدث يومًا، ربّما تُملي عليه واجبات
خلُّص أشياء أخرى.
في زاوية الغرفة، لمح لفافات الورق التي لمحها بين يديّ روان أكثر من
رة تساءل إن كانت المعالجتان تجتمعان سرًّا لنقاش المسائل الطبيّة. لعلّهما
عملان بالفعل على إنتاج عقار جديد، واحد يسمح لسكّان «آرا» بتحمّل
ذة الشّمس.
سألها فجأة وقد تذكر أمر عقار آخر:
- هل تعرفين بشأن عقار النّسيان؟
لم ترتمش مارتا لبعض الوقت، تصلّبت سحنتها واكفهرّت ملامحها قبل
تقول بجمود مفاجئ:
- لا أعرف عمّ تتحدّث!

(26)

اليوم السّادس والعشرون

إن حلم تغيير العالم لا يراود إلا صنفين من الناس: الزّعماء والمجانين ولم يكن يومًا قائدًا، إنّه يُسلم نفسه لقيادة عمّار، يفعل ما يُؤمَر به أملًا في إحداث فارق لكنّه يبدو في تلك اللّحظة كمن تعرَّض لغسيل دماغ!

دخل آدم إلى المشفى منتفخ الأوداج مثل ديك منفوش الريش تنضح نبرته كبرياء وحماقة وثقة زائفة، تعالت شهقات متتالية من الفتيات اللاتي يُصرن المُخلِّص -مذ صار مُخلِّصًا بصفة رسميّة- لأوّل مرة من تلك القرية، أطلت روان أخيرًا وألقت عليهن نظرتها الزاجرة المعتادة ثم استدارت تستقبله..

تلقفها بابتسامة خرقاء ثم همس:

- هل يمكننا أن نتحدّث؟

أشارت إلى غرفة الفحص التي قضى فيها ليلة منذ أيام فانصاع لأمرها.

كانت الأحداث الأخيرة قد جعلت وضعه في الجزيرة مختلفًا، لم يعد الغريب السّاذج المفتقر إلى المهارات والهبات، ومؤهلاته لم تعد مجرّد نظريّة فقد أثبت جدارته في عرض علنيّ أمام نفسه وأمام كلّ العيون، فهل يجعله ذلك أهلًا للـ«ماغداخا» العظيمة؟

في قرارة نفسه لا يزال الدَّعيّ الذي يعجز عن الإمساك بخيوط طاقته تفلت.

جعله ذلك الصباح جلسة مطوّلة بالحكيم عثمان، وما أمسى المساء
حتى كان الشاب قد ملأ نهاره بأحاديث وأشياء كثيرة بهجة وفخرًا، فوق
ما أداه أدهم مع الحوذي، كل له فعاله وأجره، من لمسة الحنان على رؤوسهم
الشائبة التي فشلت جهود الحكيم ومساعيه المتتالية في القائها، لم يعد هناك
ما يمنعه بعد الآن من التعجيل بعملية الزواج الكبرى!

بعد ساعات من أحاديث الأسئلة البريئات قادته قدماه إلى المائدة
حيث مائدة الغذاء الباذخ تشهد على أن الذي يقف خلف الباب المسحور
الشاب بن الله معظم الوقت مثل خادم شخصي وقد أعد بنفسه فريقًا
بمعاونيه المستمرّ، وإن بدا الأمر قاسيًا في البداية لكنه بات يتقبله، حريصًا
وعاولة التخلي الشاملة.

سألها في تردد:

- ألستِ.. سعيدة جدًا، أليس كذلك؟

حدّقت فيه بنظرة متسائلة، بدا الحديث الفاجع عن الزواج في غير
محله، كان من الوقاحة أن يتدخل في شأنها الخاص، وأن يستنطقها في ما لا
يعنيه لكنه لم يقدر جوابها على أي حال، استدارت بوجهه الملائكي نظرة سريعة
إلى حيث وقف أوران ثم عادت وجنتيها حمرة خجل بريئة، تابعها بنظراته
في توجس فيما يستمرّ شعورها، قالت بعد برهة:

- أوران.. لا يمكنه أن يتزوجني!

- ماذا تعنين؟

- لا يمكنه أن يتزوج أيًا من بنات شعبنا.

حملق فيها غير مستوعب فأخذت تشرح:

أنت لا تعرف بعدُ ماذا يحدث هنا؟ ألم تفهم لماذا نغادر وطننا؟ الهجناء.. الهجناء يمكنهم العيش في العالم الخارجيّ، يمكنهم الاستغناء عن الـ«مادرا»، ويمكنهم العودة أيضًا.. لذلك.. لذلك نحتاج إلى أن يكون كلّ أفراد الأجيال القادمة من الهجناء!

آدا إنه يعرف بالتّأكيد، تلك كانت الخطّة منذ البداية! غير أنّه لم يكن يفكّر صفاء. كلّ تلك المعطيات جعلت ذهنه مشوّشًا، سيذهبون إلى العالم الخارجي. لأنّ المادّة المتوهّجة تنفد، إنّ انتهاء المادّة سيعني انتفاء القدرة على التكيّف مع هذه الأرض بالقدر نفسه على غيرها.. لا «مادرا» لا ظلمة لا حياة، إنّ أمل السكّان في الانطلاق نحو العالم يتمثّل في صنع مستقبل للأجيال القادمة، إمّا البقاء على الجزيرة والتحوّل إلى شعب ليليّ وإما اختيار الرّحيل والاندماج ضمن شعوب العالم! وما الذي سينقذهم في العالم الخارجيّ إلا إنتاج نسل من الهجناء؟

- بعد تفعيل خطّة النّزوح.. سيتغيّر كلّ شيء بالنّسبة إلى شعبنا، كلّ مشاريع الزّواج ستتوقّف، سيكون إرسال الشّباب إلى العالم أولويّة.. لأنّهم الأوفر حظًّا للتّزاوج مع الشّعوب الأخرى.

عبس آدم في ضيق:

- إذًا هذه هي الخطّة؟ تنزلون على أوّل جزيرة مأهولة وتشرعون في التّزاوج؟

رمقه بنظرة مستاءة، كانت كلماته فظّة وخرقاء، حاول أن يلطّفها بقوله:

- ألن يُشعرك هذا بالسّوء؟ لا شكّ أنّ لديك أحلامًا ورغبات!

- أنا «ماغداخا»، يا آدم.. يجب أن أكون قدوة.

إذًا سنتحاور مع المستطلعين؟

هذا قدرهم، سأرحل بعد أن تنهي الأخريات من تدريبهن، لا يمكن أن يبقى شعبنا دون معالجة.

وأوران؟

سيكون له دوره في الخطة.

كانت حازمة وجادّة جدية لا تُطاق! إنّه يسألها عن رغباتها، عن الرّجل الذي تريد الارتباط به، لكنّ حديثها كلّه عن الخطّة والواجب والقدر! لم تبد أدنى تعلّق بأوران لكنّها لا تبدي أيّ عاطفة على الإطلاق، لقد منحته دعمها في الأيّام الماضية لكنّها لا تهتمّ بشخصه أبدًا، إنّه «المُخلّص» المنتظر.. لا شيء أكثر أو أقلّ!

إنّه يودّ أن يؤمن بالمشروع القوميّ الذي يخطّط له عمّار غير أنّ كلّ ما يشغل ذهنه هو مصيره بعد انتهاء كلّ هذا، لا يملك أن يرنو إلى الهدف الأسمى ويُغفل الجانب الشخصيّ.. إنّه فقط إنسان بسيط، عمليّ ويحبّ ذاته ولا يستوعب أن يكون الآخرون مختلفين إلى تلك الدّرجة! لم يكن يحتمل تلك الصّورة المثاليّة التي تظهر الـ«ماهداخاه» عليها!

ألا تضيفين ذرعًا بكلّ هذا؟

انفعل فجأة لكنّه ندم على الفور عندما حدّقت فيه مندهشة..

ماذا تعني؟

تباطأت الكلمات على لسانه رافضة الانسياب إلى شفتيه، سيبدو موقفه سخيفًا، سيطيح بالهالة المزيّفة التي صنعها نوره وترويضه للحوت، ستنهار صورة المُخلّص المقدّسة التي يحاول عمّار جاهدًا أن يضفيها على شخصه المتواضع في عيون العامّة، سيكون عاريًا أمامها كآدم فقط.

لذاب المبتدئ، الأحمق الأنانيّ والمفتقر إلى النّضج الذي تتنفّسه جميع مسامّ
لهالجة! نلجلج قبل أن يفصح:

- أنصد.. أقصد فقدان الهبة! الابتعاد عن المصدر يعني انتهاء هِبة العلاج، أليس كذلك؟

عادت نظراتها لتشرد نحو الأفق ثمّ غمغمت في وجوم:

- ربّما.

- لقد اكتشفتُ علاقتي بـ الـ«مادرا» منذ أيّام قليلة لكنّني غير مستعدّ للاستغناء عن هِبتي الحديثة بهذه السّهولة.. حتّى لو كانت مجرّد هِبة سطحيّة وبلا أهميّة حقيقيّة، فما بالك بهِبة العلاج التي حلمتِ طيلة حياتك بامتلاكها وشغلتِ كلّ وقتك بشحذها!

نالت بصوت ضعيف:

- لا أريد التّفكير في هذا، هذا الأمر.. إنّه لا يخصّ روان وحدها، هذا الخطر، إنّه لا يعني حياتي فقط، هذا أكبر منّي ومن أحلامي ورغباتي!

كانت لهجتها قد ازدادت صلابة مع تدفّق الكلمات واكتست عنفوانًا وحزمًا. تأمّلها آدم بأنفاس مبهورة وقد اجتمعت العَبَرات في مقلتيها، شعر لمامها بصغره المتناهي لكنّه لا يستطيع أن يفكّر بعد إلّا في نجاته الفرديّة، لا يمكنه أن يجاري شغفها بإنقاذ العالم غير أنّ أمرها هي قد غدا يهمّه.

بعد سهرته برفقة السيّدات وباعتبار كلمات زوجة الـ«كوتانا» وجدّته مارتا أمس، فكّر إن كان عليه حقًّا أن يختار زوجة في المستقبل. منذ أسابيع قليلة لم يكن يعتقد أنّه قد يهتمّ بالارتباط على الفور ناهيك باختيار فتاة من خارج وطنه، لعلّ الظروف تسهم في تغيير خطته، ليس لأنّه مضطرّ، وليس

لأنه يفكر بالزواج كحتمية ضرورية، لكنه لا ينفر من الفكرة نفورًا كاملًا، لم يكن المشروع ضمن مخططاته الفورية فهو يخطو خطواته الأولى خارج الجامعة، لم يستلم وظيفته رسميًا بعد ويشك بأنه قد يفعل في وقت قريب!

إلا أنّ اضطلاعه بمهمة المخلّص المقدّسة تنطوي على مسؤوليات أخرى، من بينها اختيار قرينة، لقد التقط الإشارات بوضوح، فإن كان لا بدّ له من الارتباط فإنه يحبّذ أن يمتلك حريّة الانتقاء، وحين يفكر في فتيات الجزيرة المرشحات لا يجد في نفسه ميلًا لأيّ منهن -رغم محاولات خلود العلنيّة-. ربما تكون الفتيات في سنّ السادسة عشرة قد بلغن سن الزواج طبقًا لمعايير الجزيرة، لكنّهنّ قاصرات حتمًا باعتبار قوانين عالمه، إن أيّ رجل في موقفه، كان ليجد الاهتمام مُلهمًا غير أنه كان قاطعًا في رأيه: إن كان سيرغب في واحدة منهنّ فستكون روان دون ريب! إنها ليست أجملهنّ لكنها حتمًا الأفضل. ستكون الخيار الأول لأيّ رجل عاقل غير مفتون أو مصاب بأعراض الحبّ وهو شخص عقلاني، ثمّ إنّها الأنسب سنًّا، وهي أكثرهنّ شبهًا به لأنّها هجينة أيضًا، وهو «بندار» ومُخلِّص حتّى في عيون أهلها. الـ«ماغداخا» والـ«بندار» ثنائيّ مثاليّ بمقاييس أهل الجزيرة، صحيح أنّه مبتدئ لكنه «بندار» في نهاية المطاف والحكيم يضع عليه آمالًا عريضة، تساءل إن كانت مخططاته تقتضي تزويج ابنته من المُخلِّص؟

التهبت وجنتاه حرجًا عند ذلك الخاطر.. هل شطح بخياله بعيدًا؟

حين خلا بنفسه ذلك المساء شغّل هاتفه، رغم ما يعرفه من اقتراب نفاد شحن بطّاريته، ربّما ستكون المرّة الأخيرة.. هل انتهى إلى الاستسلام والتّسليم بأنّ الهاتف لن ينفعه بعد الآن؟ تلك الشحنة الضئيلة لن تصمد شهورًا أخرى فضلًا عن سنوات حتّى يفرغ من تنفيذ خطّة التّزوج الكبير

الماضية بعثار. لقد كان طقسًا أخيرًا يُنهي تعلّقه بالعالم المتحضّر ويُجهّزه
إيجابيًا لتقمّص دوره بإخلاص.

***

اللوح الثاني عشر:

«أرى منذ شهور الكابوس نفسه؛ مقاتلو الملغاش ينزلون على
الشواطئ، يطلقون صرخاتهم الوحشيّة ويُمعنون قتلًا وتنكيلًا في
سكانها، أستيقظ فزعًا لاهثًا في كلّ مرّة. هذا الخوف، لا أريد أن أعيشه
من جديد، هذه الحياة الآمنة، لا أريد لها أن تنتهي، إذا وصل الملغاش
إلى ملاذي الأخير فستكون نهاية العالم».

اللوح الثالث عشر:

«بعمل الـ«ماغداخا» على تركيب العقاقير وإجراء التّجارب بلا
توقف، جرى مزج كلّ عشبة ممكنة على سطح الجزيرة مع دماء كلّ
كائن حيّ في بيئتها، من جرذ الحقل إلى الحيتان، بلا فائدة. عقار
الخلود هذا.. هل يكون ضربًا من المستحيل؟»

***

يجلس أمام الهاتف الذي فرغت بطّاريته وانطفأت شاشته ليتحوّل
إلى ظلام دامس. تنفّس في اضطراب وهو يخفيه أسفل الحشيّة في حرص، لم
يدوّن أنواع كثيرة في سجلّات المعلّم الرّوحي التذكاريّة إلا أنّه لم يعرف بعد
كيف فلان نجح أخيرًا في إنتاج العقار الذي يسعى إليه!

لعلّ الرّجل ومعالجيه لا يحيطون ببروتوكولات التّجارب العلميّة الحديثة ولهذا كانت النّتائج محدودة حتّى وقت طويل إلّا أنّهم لا شكّ قد حقّقوا النّجاح في النهاية. ألم يفعلوا؟ يسترجع دهشة روان حين ذكر عقار النّسيان أمامها وتعابير مارتا الجامدة وهي تُنكر بحدّة، ألبست العقارات سرّ الـ«ماغداخا» الذي لا يجدر بغيرهم الاطّلاع عليه؟

إن لم يكن كذلك فكيف واجه سليمان المعلّم هاجس الخوف من الغرباء؟ خفق فؤاده بعنف، إن لم يحصل والده على عقار النّسيان ذاك فلماذا كان مصيره؟

تلبّسته حالة من الهلع المتصاعد، ما الذي يحلّ بالغرباء الذين يزورون الجزيرة ثمّ يرغبون في مغادرتها؟ إن لم يكن مصيرهم نسيان أمرها فما الذي يمنعهم من ذكرها؟ لماذا لا يشغل أمرُها مواقع التّواصل الاجتماعي وأحاديث «التوك شو»؟ لماذا هام والده ربع قرنٍ كاملًا دون أن يعثر على حليف واحد مثل ذاك الغريب من بيليز أو الطّبيب النرويجي؟ هل يقطعون ألسنتهم؟ أم يؤذونهم بشكل آخر حتّى يصمتوا إلى الأبد؟

هبّ خارج الكوخ دون تفكير واندفع عبر الأزقّة الرّمليّة نحو وجهة محدّدة، مشى حتّى وصل إلى مدخل الكهف، الحرّاس لا شكّ مبثوثون في الجوار.. أعينهم تحيط به ورماحهم الحادّة في متناول اليد، لكنّ أحدًا منهم لن يجرؤ على إيقاف المُخلِّص، لقد غنم في هذه اللعبة ترخيص عبور مفتوحًا.

تقدّم بثبات داخل مسارات الكهف المتعرّجة التي اكتشفها سابقًا برفقة روان. توقّف بضع مرّات ليُدقّق في التفرّعات التي تنبثق عن الخطّ الرّئيسي ثمّ استمرّ في التقدّم، هرول ليقطع الأمتار الأخيرة التي تفصله عن القاعة

... على جدارها الألواح ثمّ تعلّقت عيناه باللّوحين الأخيرين..
... الحروف وتشكّل الكلمات في لهفة!

***

... الحادي عشر:

... شياطين، إنّهم شياطين! يحمل الواحد فيهم لعنات العالم ... الشراهة والطّمع والقسوة التي دمّرت شعوبًا وحطّمت بلادًا، ... أن أسمح لهم بتسميم الهواء بأنفاسهم العفنة ووضع أيديهم ... «دمادرا» الخاصّة بي، سيموتون جميعًا على شواطئنا وستزيّن ... النلال مغروسة على الحراب».

... الخامس عشر:

... استخرج العمّال الحجارة البيضاء من الأرض، إنّها تشبه تلك التي ... يعملها المسلمون للنّقش وزخرفة البنيان. تُطحن الحجارة وتجفّف ... الأفران الحجريّة مع جذوع النّخل حسب الطّريقة التي تعلّمتها ... النّجار حتّى تجفّ الحجارة وتتخلّص من الماء بعد أن تطحن ... المقدّن الخشبية تكوّن بودرة يسهل عجنها وتشكيلها. استخدمتُ ... الغرباء المتحلّلة لصناعة القوالب البشريّة، دفنتها بضعة أيّام في ... مجرى «دمادرا» حتّى تجمّدت المادّة من حولها، بعد ذلك سحبت ... وملأت القوالب بالعجينة، لدينا الآن شياطين بيضاء، إنّها ... لإقناع شعبنا بخطر الغرباء القادمين من وراء البحر».

***

لمث آدم وهو ينهي ترجمة الكلمات النهائية على اللّوح الأخير، جابت عيناه الكهف بلا فائدة.. كان ذلك كلّ شيء، انتهت مذكّرات الـ«نافيا» المدوّنة على الجدران!

احتاج إلى بضع لحظات إضافيّة ليستوعب، لا عقار للنسيان.. لقد أصيب المعلّم في آخر حياته بجنون الارتياب ودفعه خوفه من الآخر إلى شيطنة كلّ الغرباء! كان يقتلهم ويمثّل بجثثهم! رفع رؤوسهم على الحراب واستخدم أجساد آخرين لصناعة تماثيل من الجصّ تنطق ملامحها بالرّعب!

أطلق صرخة صغيرة كتمها بكفّه، لقد جُنّ المعلّم.. فماذا فعل أبناؤه من بعده؟

خرج من الكهف يكاد يطير، قدماه تسابقان الرّيح، لم يتوقّف إلا عند باب «كوتانا» عمّار، طرق بعنف حتّى فتح الرّجل وهو يفرك عينيه من النّعاس، حدّق في آدم دهشًا..

- أبي، ما الذي حلّ به؟

- ما الذي تهذي به؟ هل رأيت كابوسًا؟

استمرّ صوت آدم متهدّجًا وهو يطلق اتّهامه في لوعة:

- هل قتلته؟ هل هذا ما تفعلونه بالغرباء الذين يريدون المغادرة؟ هل كنت تعرف ولهذا اخترت البقاء طواعية؟

فغر عمّار فاه مذهولًا، تلعثم وهو يقول في ريبة:

- مَن الذي.. أوحى إليك.. بهذه الأفكار السّوداء؟

- مذكّرات الـ«نافيا»، لقد قرأتُها، كان الغرباء يُقتلون في عهده...

كان صوته قد غدا نحيبًا، لقد فعل كلّ شيء، كلّ شيء، حتّى ينقذ والديه! حتّى يرسل «حجر الشّمس» إلى الدّيار! لقد تبنّى قضيّة لا تعنيه

ذراعاي عباءة فضفاضة لا تلائمه من أجل أن ينجو كلاهما، لكنّ كلّ ذلك لن يكون مجدي!

- تعال لنتحدّث بالدّاخل.. اهدأ يا بنيّ!

أخذ عمّار ذراعه وساقه حتّى جلسا على السّجاد، أطلّت ريحان من عليائها تُلقي نظرة فضوليّة فنهرها والدها. اختفت الصّغيرة وسكن الهواء من أنفاس آدم المضطربة ونشيجه المكتوم، سأله الحكيم في اهتمام:

- إذًا.. لقد قرأت مذكرات الـ«نافيا»؟

أومأ آدم بي صمت فتحمّس عمّار أكثر إلا أنّه حافظ على ثباته وهو يستطرد:

- فماذا تقول إذًا؟

- كلّ شيء.. منذ وصوله إلى الجزيرة حتّى خطّته الشيطانيّة لقتل الغرباء!

حاول عمّار أن يخفّف من انفعاله قائلًا:

- إنّ هذا غير ممكن، لقد طوّر الـ«نافيا» العقار الذي بفضله يتنفّس الغرباء بسلام هواء الجزيرة! انظر إليّ، أنا على قيد الحياة منذ خمسة وعشرين عامًا لهذا السّبب بالذّات!

أومأ آدم ثانية ثمّ قال:

- كان ذلك في البداية، ثم استبدّ به الخوف من الهجمات الأجنبيّة، فكان يستقبلهم، يتعرّف من خلالهم على المستجدّات التي طرأت على العالم، ثمّ ينحرهم على الشاطئ حين يهمّون بالرّحيل!

- هذا جنون! أؤكّد لك يا بنيّ، لا أحد يفعل هذا في وقتنا، تفصلنا قرون عن قدوم المُعلّم، لقد تطوّر المجتمع وأصبح أكثر انفتاحًا منذ

أيّ وقت مضى. نحن لسنا متوحّشين، لسنا رجال كهف بدائيين، لقد رحل والدك.. وضعته بنفسي على طوف وعانقته موذّعًا، لقد غادر.. أنا أعدك!

توقّف آدم عن النّحيب، هذا لن يجدي! لن يعترف عمّار بشيء من هذا، ولعلّه مغيّب عن الحقيقة، فهو «أيتورا» في نهاية الأمر حتّى لو غدا جزءًا من مجلس الـ«كوتانا». سيطر آدم على اضطرابه حتّى هدأت أنفاسه، ابتسم عمّار وهو يطالعه في اهتمام:

- إذًا، ما الذي ورد في تلك الألواح؟

وصف آدم باقتضاب ما يذكره من تفاصيل عن قصّة المعلّم الرّوحي ليشبع فضول الحكيم الذي تحرّق شوقًا لعقدين ونصف لفكّ شيفرة الألواح الغامضة ثمّ استأذن مغادرًا.

حين وصل إلى الكوخ أحكم إغلاق الباب من الدّاخل ثمّ استلقى على السّرير، تعلّقت عيناه بالسّقف، عادت العَبَرات لتسيل على جانبي وجهه في صمت، ما من وسيلة أمامه ليعرف ما حلّ بوالده، سينكرون بحرارة طالما يحتاجون إليه مُخلِّصًا مزعومًا يخدم دعوتهم إلى استيطان العالم!

ثمّ حين يحين وقت رحيله سيتخلّصون منه كما فعلوا بكلّ من سبقه

أغمض عينيه واعتصرها في ألم، نبضت الخيوط الشفيفة تحت جفنيه فجأة، يحرّكها الغضب ويحييها الحزن.. بلطف، تسرّب الخيط الأبيض حتّى عانق أنامله، فأخذ يسحب بهدوء وتركيز.

(27)

اليوم السّابع والعشرون

تفصل بين وصول المعلّم الرّوحانيّ إلى الجزيرة وتحوّله إلى مهووس بعد سنوات عدّة. لقد استطاع خلالها أن يؤسّس حضارة لغصّه، بجزائريين مجهول لدى السّكان المحليّين وملبيًا حاجات نفسيّة وروحيّة لهم. لقد استمعوا إليه بعد ذلك، رغم جنونه الجليّ، بمقتضى القداسة التي أنزلوها بشخصه واستمرّوا يزهقون أرواح الغرباء الذين ألقت بهم الأمواج على سواحلهم، تلك الأساطير عن الشّياطين كان هو مصدرها، جعلهم يخشون الآخر وينغلقون لقرن ونيّف.

كلّ رجل في أعلى هرم السّلطة يحتاج إلى سلطة مضادة تحدّ من جبروته وتكلّل مستشارين حكماء أو مجلس شورى لكنّ سليمان بن إبراهيم لم يعمل على أيّ منهم. بكى آدم طويلًا وهو يتجرّع مرارة تلك الفكرة حتّى تلبّه النّعاس، وفي كابوسه رأى حرّاسًا يطاردونه عبر مسارات الجزيرة، ينفذون على حراب حادّة ترتفع فوقها رؤوس مقطوعة يعرف أصحابها!

أيقظته طرقات عالية على الباب، كان أوران مرّة أخرى؛ رسول الكوتانا.

- المجلس مجتمع ويحتاجون إلى حضورك.

مسح آدم آثار النّعاس والدّمع والقهر عن وجهه وكتم حرقته ولوعة صدره ثمّ غادر إثر المبعوث متعجّلًا.

قاده أوران إلى خارج القرية، تواصل المسير نحو السّاعات الثلاث، ربما كان المستكشر الأرعن قادرًا على عبور المسافة في طرفة عين، لكنه استسلم تمامًا لسرعة المخلص، الذي استعجل بأقصى ما يمكن لجسد شاب عادي بلا هبة. لم يعد آدم يتعرّف على محيطه حين أخذت الطّريق تتدرّج ارتفاعًا في مسارات جبليّة ملتوية وتبتعد عن المنطقة المألوفة التي يستوطنها سكّان الجزيرة، كانا يصّعدان ويقتربان تدريجيًا من سقف الظلة. هذا جانب من الجزيرة لم يسبق له زيارته وقد بدا المسار الترابيّ الوعر مهجورًا ولا يسلكه السُكّان. حين انتهيا إلى هضبة منبسطة السّطح استقبلهما منظر غير اعتياديّ.

ظهرت أجمة كثيفة من الأشجار الوارفة تبدّى من خلفها عدد من الأكواخ المرتّبة بنسق شبه دائريّ. حين عبرا إلى قلب المجمّع السّكني المكوّن ممّا لا يزيد على عشرة أكواخ تبيّن آدم تفاصيلها الاستثنائية، لم تكن تشبه بيوت القرية على الإطلاق.. كانت ترتفع على أعمدة خشبيّة قصيرة ثمّ تمتدّ أسقفها المخروطيّة شاهقة في إتقان بديع، ولم يكن للأكواخ جدران بل ينفذ إليها الهواء من كلّ جانب، غير أنّ السّعف الذي ينسج هذه السّقف يتدلّى على مسافة قريبة من الأرض تجبر الزّائر على الانحناء ليدلف داخله.

ربّما كان هذا موقع القرية السّكنية القديمة، أو ما تبقى من أطلالها، الموقع يمثّل برج مراقبة صخريًا ويتمتّع بحماية طبيعيّة من المدّ العالي الوحوش البريّة التي قد تكون سكنت الجزيرة قديمًا ومن الغرباء القادمين عن طريق البحر، ولعلّ تغيّر ظروف العيش جعلت السّكان ينزلون السّفح ويقتربون من مجرى الماء بعد أن انتفت المخاطر الخارجيّة و الجزيرة منعزلة عن العالم، أمّا الآن، فقد غدا معتزل الحكماء.

... أوران نحو الكوخ الأكبر حجمًا الذي يتوسّط التجمّع. كان ... المجلس داخله، قبل أن ينحنيا ليصبحا تحت المساحة المظلّلة ... إليها أصوات الحكماء الغاضبة، توقّف أوران في تردّد وبادل آدم ... مسائلة، لم يكن آدم واثقًا من السّلوك المناسب في ظروف مماثلة ... عرفتها بخارج الكوخ العتيق أثارت انتباه الرّجال المجتمعين فجاء ... لاستقبالهما.

... بفضل، كنّا بانتظارك!

... ملامح الرّجال بالدّاخل لتتحوّل إلى الانبساط والحفاوة مع ... أوسع الحكماء مجالًا لآدم حتّى ينضمّ إلى الحلقة فيما وقف ... ضرورة الاستعداد بخارج الكوخ طالما لم يُدع.

... عن تأخّرنا في استقبالك يا بنيّ فالوضع حرج هذه الأيّام.

... وعبارات اعتذار بدوره ردًّا على كلمات الحكيم اللّبقة لتأخّره في ... المجلس منذ تتويجه الرّسمي أمام الحشود. كان يجهل تمامًا كيف ... أن يتحدّث أو يجلس أو يتصرّف، كيف تتشكّل لغة جسده ... ما زال ذلك الدّور عصيًّا على فهمه وقد خشي أن يبدو ... أمام الرّجال المعمّرين أصحاب الوقار والهيبة. كان يفترض به ... على تدريب ما، مثل التّدريب على التّسخير، غير أنّ عمّار انشغل ... المزوح المكبير ولم يخصّص وقتًا لتنظيم دورة «تكوين القائد» ... الذي بداخلك» من أجله، لكن حماقته -على أي ... ذكر- شاغل الحكماء في تلك اللّحظة.

... وصول المُخلِّص نعمة في زمن الأزمات.. نحن شاكرون ... ومؤمنون.

... لاختيارات العظيمة يبعث الله معها لطفًا.. دائمًا.

تكلّم الحكماء واحدًا إثر الآخر ليعبّروا عن سعادتهم بحضوره. سكن روع آدم نوعًا ما وأحكم السيطرة على اضطرابه، إنّه المخلّص وسيكون عليه الآن المشاركة برأيه الرّاجح النّاجم عن إلهام ربّاني في حلّ مسألة عويصة أشكلت على الحكماء. ارتفعت كفاه في اعتداد واكتست ملامحه قناع الجدّ إلا أنّ نظرات عمّار الثّاقبة هزّت ثقته، لم يكن على القدر نفسه من الحماس لوجوده!

لقد استشعر تململ عمّار فور وصوله، كان يفترض به أن يكون الأشدّ احتفاءً والأوفر شغفًا لحصوله على «مخلّصه» أخيرًا، كان كذلك حتى أمس إلا أنّ الصّدام بشأن مصير الغرباء باعد بينهما. استمرّ الحكيم صامتًا وعابسًا بما يدعو إلى الرّيبة.. هل يعقل أن يكون قد أفضى بشكوكه إلى بقيّة أعضاء المجلس؟ أم أنّ ما كانوا بصدده أشدّ وطأة وأكثر عجلة من مشروع التّزويج؟ استمرّ آدم يرقبه في حذر فيما تكلّم «كوتانا» توماس:

- يجب أن نحيطك علمًا بالموقف على الفور...

استعاد المجلس سمته الجادّ وعلت الملامح أمارات الرّصانة.

- منذ أيّام، شوهدت مركبة كبيرة في الأفق، ليس أنّ هذا عارض غير معهود فالبحّارة يلمحون سفنًا عابرة في البعيد وهي لا تتوقّف إلا زمنًا يسيرًا إذا فعلت، أمّا هذه فهي رابضة في موقعها منذ أربعة أيّام! التفت آدم في تحفّز لتلتقي عيناه بنظرات عمّار، إذًا هذا هو الأمر! سفينة!

- نحن نرحّب بالغرباء غالبًا.. لكنّ الوضع هذه المرّة مثير للارتياب، السّفينة متوقّفة عند حدودنا تمامًا كأنّ ربّانها يدرك تأثير الضّباب وهناك حركة كثيرة على متنها، عدد لا بأس به من البحّارة، فهي مركبة ضخمة! لا يمكن أن تكون مجرّد مصادفة.

كتم آدم غيظه بصعوبة، يُرحّبون بالغرباء؟! ليستغلّوهم ثمّ ينحروهم؟ هؤلاء القتلة يخافون أن يكتشف أمرهم فتسقط أقنعتهم! فكّر في والده على الفور.. هل يكون قد نجح في الفرار من جلّاديه ونوصّل إلى الاتّصال بسفينة عابرة فور مغادرته الجزيرة؟ إنّ التّوقيت مُواتٍ فقد رحل منذ خمسة أيام، بافتراض أنّه قد نجا، هل أقنع الربّان بالعودة من أجل ولده؟ كان يرغب في التشبّث ببريق الأمل الذي يلوح في الأفق، ولعلّ الأفكار ذاتها تدور في خَلَد عمّار أيضًا، لعلّه قد لاحظ اختفاء جهاز الإرسال والاستقبال وأدرك أنّ أشرف قد يكون عائدًا مع بعض الرّفقة المساندة!

حاول آدم أن يتمالك نفسه حتّى لا تفضحه لهفته، قال بما وسعه من اتّزان:

- أفهم قلقكم أيّها السّادة الكرام، من بين جميع الحاضرين هنا، بل على الجزيرة كلّها، ربّما أكون أوفر تجربة في التّعامل مع الغرباء من العالم الخارجيّ...

شعر باستنفار عمّار وتصلبّه إلّا أنّه تابع في ثبات:

- أرسِلوني لاستطلاع الأمر.. سيسرّني أن أكون مفيدًا.

سيطر الصّمت على الجلسة برهة ثمّ أنشأ «كوتانا» توماس يقول:

- إذا كانت هذه رغبة المُخلِّص...

قاطعه عمّار بسرعة:

- لا يمكننا إرسال المُخلِّص ببساطة! هذه مهمّة خطرة.

جاء صوت أوران من الخارج:

- سادتي، إذا سمحتم.. سأرافقه للحماية.

- وأنا أيضًا.

كان هذا صوت المعالجة، ظهرت الدّهشة على ملامح آدم حين ا
تحت السّقف المخروطي وتصهيح أمامهم، واجهت آدم بملامح هادئة
بريبة، في حين تبادل الحكماء نظرات متشاورة قبل أن يهزّوا رؤوسهم في
نحسان. كانوا حذرين جدًا حين يتعلّق الأمر بالتعاطي مع الغرباء وربّما
يعتقد أحدهم أن فريقًا من المتطوّعين سيكون جاهزًا مع أوّل إشارة بل
بأدنى إشارة حتّى!

تململ عمّار في مكانه، لم يستطع آدم قراءة ملامحه بوضوح، هل مر
المعالجة والمُسخِّر ضمان كافٍ في نظره؟ حاول أن يبدو متحمّسًا لشار
حتى يبدّد شكوك الحكيم:

- سأكون ممتنًا للصّحبة.

أعلن توماس حسم الأمر:

- على بركة الله إذًا!

ولم يعترض أحد.

***

على الحكماء مهمّة التخطيط والتّرتيب من أجل الرّحلة الاستطلاعيّة.
هؤلاء الرّجال الطّاعنون في السنّ لا يملّون الحديث، إنّهم يقتاتون كلّ
تفصيل بحثًا وتمحيصًا وهو رجل عمليّ يفضّل التحرّك. في الحقيقة، لم
يكن المخطّطون له يهمّه قيد أنملة بل كانت لديه أمور أخرى يحتاج إلى أن
يفعلها من أجلها العدّة.

الله على وشك الرّحيل!

مثّلت الصّخرة وما وراءها معتزلًا مناسبًا للخلوة بنفسه، تبيّن أنّ هؤلاء الصّغار ملائم للتّواري عن عيون المعالجة والمُسخِّر، أمّا الحكيم فهو مجبر على الامتثال لقرار المجلس.

عند الظهر جاء الصّغار لإيناس وحدته، تأمّل وجوههم المستديرة وعيونهم المليئة شقاوة وفضولًا نحو العالم بابتسامة حالمة، سيشتاق إلى تلك الكائنات العابثة والمرحة أكثر من أيّ فرد آخر على الجزيرة، هؤلاء طلّابه النّجباء الذين حفظوا عنه القرآن.. لقد أحبّ ماهر، مُسخِّر المستقبل، وياسر الطفل الشقيّ الذي يتعرّض للحوادث دائمًا، وريحان على وجه الخصوص؛ تلك الفتاة اللّماحة التي تعرف كلّ شيء عن كلّ شيء لديها مكانة خاصّة في فؤاده، يدرك فجأة كم كانت أيّامه على الجزيرة زاخرة بالمغامرات اللّطيفة التي ستصبح عن قريب ذكريات بعيدة عن رحلة غير اعتياديّة!

مع اقتراب الرّحيل خمّن أنّ عليه وداع الشّخص الوحيد الذي تربطه به قرابة على الجزيرة، زار المعالجة مارتا في بيتها، لعلّها كانت تنتظره هذه المرّة أيضًا. بدأ يتساءل بجدية إن كانت لديها حاسّة سادسة تتوقّع الأحداث قبل وقوعها أم أنّها جاهزة على الدّوام لاستقبال الزّوار! وربّما كانت تتبع أخباره فأدركت أنّه سيأتي لرؤيتها لا محالة قبل الرّحيل.

المهمّ هو أنّ وجبة ساخنة أخرى كانت معدّة من أجله -مثل كلّ مرّة- وما زالت الأبخرة الحارّة تتصاعد منها، جلس وهو يبتسم في امتنان وأصاب من الطّعام في شراهة تليق برجل لم يأكل منذ يومين، إذا شاء أن يقارب تعامل جسمه مع الـ«مادرا» بعمليّة الأيض لديه فقد كان تحويله للطّعام الذي ينزل إلى معدته إلى طاقة أسرع بكثير من هضمه للمادّة! لم تكن الدّهون تتراكم رغم إقباله على الأكل وقد كان محظوظًا من هذه

يتفاوت سرعة الأيض بين شخص وآخر ممّا يجعل بعضهم أكثر
عرضة للسمنة من غيره، بالشكل نفسه يحتفظ بعض المُسخِّرين بالطّاقة في
جسدهم أطول من غيرهم وقد كان محظوظًا أيضًا في ما يخصّ هذا الجانب
الأيض!.

حاول خلال الأيّام الماضية أن يجد تفسيرًا لقدرته العجيبة على تخزين
الطاقة بمقدار أوفر من المُسخِّرين الآخرين، ربّما تكون نشأته بعيدًا عن
الحضر وتعرّضه المتباعد للمادّة قد جعلت الخلايا المسؤولة عن تخزين
مادة الـ«مادرا» تتأقلم، فتحبسها فترة أطول! إنّ هذا السّلوك شبيه بالصّوم
الطويل عن الطّعام، سيشرع الجسم في إبطاء استهلاك الطاقة على جميع
الأصعدة والمحافظة على المخزون لأطول وقت ممكن، يمكنه القول -دون
مبالغة- إنّ جسده قد تعرّض لصوم طويل عن الـ«مادرا» فما إن أصبحت
متوفرة ثانية حتّى سارعت خلاياه إلى تخزينها بنهم!

حين أنهى اليخنة التي أعدّتها جدّته استلقى إلى الخلف وقد أثقله
الشبع، نظّلع إلى ملامح السيّدة العجوز كأنّه يحاول أن يحفظ تقاطيعها،
إذ كان سيرحل فلن يراها بعد ذلك أبدًا، ربّما ستودّ والدته أن تعرف كيف
قضيت والدتها وسيكون جاهزًا ليصفها بكلّ التّفاصيل: الشّعاه الرقيقة
التي ترتاح إحداها على الأخرى في شبه ابتسامة دائمة، العيون الصّغيرة
المحدقة بفعل التّدقيق المستمرّ في الأشياء رغم قصر النّظر، الخصلات
البيضاء التي خالطها الشّيب فجمعتها في ضفيرة هزيلة تتدلّى على كتفها
اليمنى كما تفعل شابّة في مقتبل العمر.

قاطعت مارتا تأمّله وهي تقول باسمة:

- كيف تُبلي في منصبك الجديد أيّها المُخلِّص المبجّل؟

توزّدت وجنتاه في خجل وضيق، إنّها تعرف أكثر من غيرها أنّ صفته المذكورة ليست إلا وليد مصادفة وطفرة جينية وعمليّة تأفلم أيضية! لم يكن مبعوثًا إلهيًا أو الحاكم العادل الذي ينتظره شعب الجزيرة بأيّ شكل، تململ في مكانه فيما كانت تستأنف:

- حين أنظر إليك أشعر أنني قد أدّيت رسالتي في هذه الحياة. إنا كانت هذه هي ثمرة الإثم الذي ارتكبته منذ خمسة وعشرين عامًا فسأكون راضية.

حملق فيها آدم محاولًا تتبّع تلميحاتها.. «الإثم»؟ أيّ إثم تكون قد ارتكبته؟ سرقة «حجر الشمس» من أجل ابنتها؟ لقد دفعت ثمن ذلك بالفعل، عوقبت بالإقامة الجبريّة لبقيّة حياتها، لكنّه لم يكن إثمًا خالصًا باعتبار إبقائها على حياة طفلتها التي كان المجلس لينفيها.. إلا إن كانت قد فعلت أكثر من ذلك. لقد تركت موقع الحدث وهرولت إلى الكهف، كانت تحتاج إلى حجر من الحجم الكبير ليحفظ حياة ابنتها وقتًا طويلًا لكنّها لن تضمن سلامتها إلا إذا ضمنت نجاح الغريب وفوزه في التحدّي.. هل تكون..؟

- لقد كان والدك بحاجة إلى المساعدة، لكنّني عرفت أنّك لن تحتاج إليها.

هل أرسلت أحدًا ليساعد والده؟ طلبت منه أن يضع حجرًا -سلاحًا- أمامه؟

كانت تبتسم في زهوّ، حفيدها كان قادرًا على الاهتمام بنفسه، قالت إن من يذكر تفاصيل الحادث لا شكّ له علاقة وثيقة به، الشّاهد، لقد اختفى، وهو لم يبحث عنه منذ ذلك الحين. انشغل بأشياء أخرى تفوقه أهميّة، هل كان مبعوثها الخاصّ؟ لقد استنتج منذ بعض الوقت أن عمّار يحرّك الخيوط،

ـه قد أجبر شخصًا عشوائيًّا على شهادة زور، ربّما لا يكون
ـ ربّما، بل شخص يمكنه الضغط عليه لأنّه ارتكب جُرمًا في وقت
ـ ينجز عمّار عليه؟
ـه نفسه يسألها على حين غرّة:
ـ هل لديك أبناء.. آخرون؟
ـ بحسرة ثمّ قالت:
ـ كان لي ولد وبنت وقد فقدت كليهما.. منذ زمن بعيد.
ـ أن بعيد ترتيب المعطيات في رأسه، لكن ما الفائدة؟ إنّه يستعدّ
ـ ـيًا، ذكّر نفسه: لقد جاء يودّعها لا ليحقّق في حوادث الماضي
ـ لا يملك أن يكون واضحًا ومباشرًا، لا يأمن الآذان التي تصغي في
ـ ـزوبا، قالت دون مقدّمات:
- ربّما تعتقد أنّ هذا ليس قدرك.. لكنّه ربّما يكون كذلك!
ـدره؟ أن يكون مُخلِّصًا؟ حاول ألا ينفجر ضاحكًا، سوف يترك ذلك
ـ تشريفًا كان أم تكليفًا- وراء ظهره غير آسف. المعلم سليمان أراد
ـيرجة أهل الجزيرة، لقد اختار قدره وسخّر حياته له.. فكيف انتهى؟
ـ مرتابًا متحاملًا على العالم! لا يريد آدم أن يرث حلمه ومهمّته، لم
ـ الشخص المناسب لدفع عجلة القدر في اتجاه جديد حتّى لو كان يدرك
ـ ـه إنجازه.. أن يوقف مذبحة الغرباء على الأقل!
ـ أنّه يخشى أن يغوص في وحل السّياسة ومحاولة صناعة التّغيير
ـ الرمال المتحرّكة حتى تتعذّر عليه النجاة بجلده!
ـ وهو يخفض كفّيه ويستقيم واقفًا:
- هل توصيني شيئًا؟
ـ ـبت (يا جدّتي) معلّقة على طرف لسانه لا يجرؤ على النّطق بها.

- لا تغب عني كثيرًا، أشتاق إلى التأمّل في ملامحك بين حين وآخر.

بادلها الابتسام ولم يعقّب، ألقى نظرة أخيرة وشاملة على السّيدة المسنّة ومنزلها المرتّب النّظيف الذي تفوح منه رائحة العجين الطّازج ثمّ أفضى إلى الشّارع.

ولم يلتفت بعد ذلك.

(28)

اليوم الثامن والعشرون

لم يعد أمس إلى الكوخ.. قضى اللّيلة مختبئًا في الجحر؛ مخبأ الأولاد الواقع وراء الصّخرة، كان يتجنّب أي لقاءات تفضح سريرته مع الـ«ماغداخا» والـ«بندار» الكهل والـ«كوتانا»، خاصّة عمّار، الحكيم يشكّ فيه وسيتوقّع محاولته الرّحيل، لا يريد أن ينظر الرّجل في عينيه عميقًا ويقرأ أفكاره على صفحة وجهه.

كان قد توصّل إلى خطّة؛ إذا كان والده على متن السّفينة فسيصعد على سطحها وحيدًا -للتفاوض المزعوم- ثمّ يرحل. تمنّى أن يكون الأمر بتلك البساطة، يدرك أنّ المُسخِّر والمعالجة لن يتركاه يمضي بمفرده، إنّهما بصحبانه لحمايته. سيرفضان ذهابه دونهما، بلا ريب، لذلك يجب أن يجد سوّغًا مقنعًا.

السّفينة تمكث على حدود الظلة، الهواء الحرّ قد يشكّل خطرًا على المُسخِّر، سيحدّ من قدراته ربّما وقد يشعر بالغثيان والضّعف لكنّ الأمر مختلف بالنّسبة إلى المعالجة فهي هجينة مثله! لكنّ روان لن تكون مصدر خطر، إذا نجح في السّيطرة على أوران فسترجح الكفّة لصالحه، لا يريد أن يتسبّب لهما في أيّ ضرر لكنّه سيثبت لهما أنّه من الأفضل لهما البقاء ضمن الحدود الآمنة، هذا كلّ ما عليه عمله.

كانت الخطّة بسيطة وعمليّة لكن ماذا لو كانت مخاوف الحكماء في محلّها وتبيّن أنّ السفينة تُبيّت نوايا عدوانيّة؟ قراصنة مثلًا؟ أو صائدو كنوز لا يريدون الرّجوع خاليي الوفاض؟ سيكون حينها في حاجة الى الحماية بالفعل.

عليه ألا يحرق سُفنه في وقت مبكّر، سينتظر حتّى يتحقّق من الوضع قبل أن يقطع صلته برفاق الرّحلة، لن يضع بيضاته كلّها في سلّة واحدة فتتحطّم جميعها!

في الصّباح توجّه رأسًا إلى الشّاطئ حيث سيحملهم مركب صيد الى الأفق البعيد. كانوا جميعًا هناك؛ الـ«كوتانا»، الـ«ماغداخا»، الـ«بنادر» -حفنة منهم- بالإضافة إلى جموع من الأهالي جاؤوا لتحية الموكب، كان آخر الواصلين.. لم يضايقه أن تتعلّق به الأنظار وهو يبرز عند الطّريق الرّملية يختال على مهل، لقد صار هذا جزءًا من روتينه الطّبيعي؛ أن يكون محطّ الأنظار ومركز الاهتمام.

حيّى الحكماء بهزّة رأس بسيطة فيما حظي بانحناءات عريضة من المُسخِّرين والعامّة. وقفت روان تطالعه بنظرات غير راضية، لم يهتمّ كثيرًا بأيّ من ذلك، لم يكن أيّ ممّا يحدث على هذه الأرض يعنيه بعد الآن، انتهى فصل «آرا» وهو مستعد للعودة إلى «مهافيا دياما»، قال معلنًا:

- الجميع هنا؟ فلننطلق إذًا!

كان يتعجّل أن ينتهي من هذا كلّه، بعد دقائق قد يكون في طريقه إلى أرض الوطن.

تنحنح عمّار ثمّ قال:

- لقد تفقّد البحّارة المركب وزوّدوه بعريشة مُظلّلة للحماية.

بالتأكيد لم يفتهم هذا، سيفتربون كثيرًا من الحدود وقد يكون المُسخَّر بكشوفًا، هزّ آدم رأسه مُخفيًا امتعاضه، لن ينجح في تحييد أوران بسهولة إذا وجد وسيلة ما، سيكون المُسخَّر بلا حماية حين يحاول الانتقال إلى سطح السّفينة، قد تنزلق قدمه -عرضًا- حينها ويسقط في الماء، تربكه أشعة الشّمس فيفقد توازنه، هذه أشياء تحدث ولا يمكن التنبّؤ بها.

- هل يمكنني الحديث إليك برهة؟ أودّ أن أذكّرك ببعض مبادئ السّلامة...

ألقى آدم نظرة عابرة على الجمع المحتشد على الشّاطئ ثمّ استجاب لدعوة عمّار إلى حديث جانبيّ على مضض، ابتعدا نحو عشرين خطوة على امتداد الشاطئ ثمّ توقّف عمّار، قال بصوت هامس كالحفيف:

- أنت لا تفكّر في الإقدام على أيّ عمل أخرق، أليس كذلك؟

حافظ آدم على ثباته، قال بصوت خالٍ من الانفعال:

- أنا المُخلِّص الآن، هل سمعتَ من قبل عن زعيم يفرّ ويخلّف شعبه وراءه؟

حقيقةً لم تكن الأمثلة منعدمة! بإمكانه استحضار واحد أو اثنين من التّاريخ الحديث، يشكّ بأنّ عمّار قد يكون ضليعًا في التّاريخ العسكريّ لكنّه بالتأكيد يدرك كيف تسير الأمور على أرض الواقع، إنّه رجل محنّك فذ خبر الحياة -في نسختها المصغّرة على جزيرة منعزلة- ويعرف أنّ القائد الحقيقيّ وحده هو الذي يشدّه الولاء إلى قومه أمّا القادة المزيّفون فيلوذون بالفرار حين تسوء الأمور وهو أقرب ما يكون إلى الصّنف الثاني، ولعلّ عمّار يدرك السّخرية خلف الكلمات الجادّة المتلحّفة بالحزم! لم يكن آدم بارعًا في الكذب أو محترفَ خداعٍ لكنّه يحاول، أَمِلَ أن يكون أداؤه مقنعًا بكفاية رغم الارتجاف الذي يعتريه.

- أنت لن تفوّت فرصة المجد.. أليس كذلك؟ هنا سنصنع التّاريخ بالمعنى الحقيقيّ للكلمة، سيذكرك مدوّنوه قائدًا غيّر مجرى الحياة على الجزيرة الفضيّة أمّا إذا رجعت إلى وطنك الآن فما الذي ستجنيه هذا عمل روتينيّ في شركة مغمورة؟ فكّر في هذا.

تمالك آدم نفسه حتّى لا تخونه ضحكاته المتهكّمة، لقد اختار عمّار الآن في مرافعته الأخيرة والوعد بالمجد والشّرف.. محاولة جيّدة.

- فكّر بجدّتك التي خلّفتها وراءك وبأبناء خالك الذين لا أظنّك لقيتهم.. مصائرهم تعتمد عليك، مصير شعب بأسره منوط بك!

توقّف آدم عند تلك الكلمات: لديه أبناء خال؟! قالت السيّدة مارثا إنّ لها ولدًا وبنتًا، ولقد فقدت كليهما، لكنّها لم تذكر أحفادها.. قد يكون له أبناء خال بالفعل على الجزيرة لكنّ ذلك لن يغيّر شيئًا في معادلته!

- ثق بي، والدتك ستكون فخورًا إذا أنقذتَ قومها من الفناء.. هل تعتقد أنّها ستفضّل أن تراك تعود إلى جوارها سريعًا مُخلّفًا الدّمار وراءك؟ ألن يجلّلك العار في نظرها؟ ألن ترى كفّيك ملطّختين بدماء أحبّائها كلّما نظرتْ إليك؟

ألحّ في رجاء:

- لستُ عدوّك.. ثق بي!

حين عاد إلى القارب كان آدم قد غدا مهتزًّا ومرتبكًا.. عمّار، إنّه بارع بالفعل! كلّما تحدّث إليه يشعر بأنّه قد تعرّض لغسيل دماغ! يجد دائمًا العبارات المناسبة للّعب في رأسه، لقد عزف على الأوتار كلّها في لحظات قليلة: المبادئ، العاطفة، الخزي، البطولة!

جلس في وجوم على سطح المركب. في المقدّمة كان أبو ياسر مع بقية من البحّارة الآخرين يجذّفون بجدّ لدفع القارب إلى عرض البحر بعيدًا عن منصارع، بعد دقائق من الصّمت المستغرق اقتربت روان من مجلسه وهمست في اهتمام:

- ما الأمر؟ لا تبدو بخير؟

لقد كان بحال أفضل قبل أن يتحدّث إلى الحكيم لكنّه مشوّش الآن، يرمي الرّجل الدّاهية إلى أن يُشعره بالذّنب، يجعله يتأرجح، يتركه فريسة لضميره، إنّه يراهن على انتصار معياره القيميّ على النّفع الذّاتي.

- لم تبت في الكوخ أمس.. أين كنت؟

لقد حاول الفرار، هرب من حصار نظرات الحكيم واتّهاماته وتهديداته، حسب أنّه سيكون في مأمن إذا تجنّب المواجهة، لكنّه قد غدا متذبذبًا.. لقد نجح عمّار في هزّه وإرباكه، والآن يسعى القارب بوتيرة ثابتة في اتّجاه الأفق، تلاشى اليابسة عن شماله ويغمرهم الضّباب تمامًا.. لا شيء يلوح بعد عن بعيد، لكنّه يثق بمهارة البحّارة ودقّتهم في تمييز الاتّجاهات، لقد حدّدوا موقع السّفينة المشتبه بها وراقبوا حركات الطّاقم في الأيّام الأربعة الماضية.

- هل تسمعني؟

اختلّ صوتها وارتفعت نبرتها بعض الشيء مع استمرار تجاهله وصمته، استدار ليرمقها بنظرة فارغة، لم يكن حاضرًا تمامًا.. إنّه يريد الانزواء في موقعه أكثر من أيّ وقت مضى، يحتاج إلى أن يحسم أمره قبل أن تأتي اللّحظة الفارقة، ستظهر السّفينة في الأفق عمّا قريب وسيكون عليه أن يختار خيارًا يواجه به القبطان: المُخلِّص قائد فريق الاستطلاع أم الغريب اللائذ بجزيرة غرباء مثله!

لو أنّه يرى إشارة ما ترشده!

عند خطّ التقاء الماء بالسّماء ظهر الجسم الضّخم للسّفينة التّجارية الرّاسية، كانت ندف متفرّقة من الضّباب تجعل شكلها هلاميًّا مائعًا في عيونهم لكنّها هائلة الحجم. يمكنه أن يقارنها بالتّلال الجيريّة العالية، لعلّ كلًّا منهم يقارنها الآن في ذهنه بأضخم مرجع من الموجودات سبقت له رؤيته، إنّها أكبر من أيّ آلة أخرى قد رآها سكّان الجزيرة في ماضي أيّامهم، ورغم سفر آدم على متن واحدة منذ نحو شهر فما زال مشهدها العظيم يبثّ في نفسه الإعجاب والانبهار.

توقّف البحّارة عن التّجذيف وهلة وقد سرتْ الرّهبة في أفئدتهم.. ربّما كانوا قد حدّدوا موقعها وراقبوها لأيّام لكنّ أحدهم لم يقترب منها بذلك القدر من قبل، بعد لحظات من التّحديق المرعب سرت همهمات خافتة واستأنفت المجاديف ضرباتها على سطح الماء بهمّة.

توقّفت روان عن مضايقته وتعلّقت نظراتها بجسم السّفينة العملاق مثل مارد من عالم الخيال، تساءل آدم فيم كانت تفكّر! هل يراودها حلم السّفر على ظهر مركب بهذا الحجم نحو الـ«مهافيا دياما»؟ ابتسم في استمتاع، يلذّ له أن يلمح أمارات الافتتان على وجوههم، عظمة العالم الخارجيّ الذي سبق وحدّثهم عنها.. إنّهم يرون بعض أماراتها بأعينهم أخيرًا، انتهى دوره في الاندهاش وحان دورهم.

مرّ بذهنه خاطر مفاجئ: روان.. هل تراها قد ترغب في مرافقته إ عالمه؟ ألم تكن تلك أمنيتها؟ لعلّ الفرصة تكون سانحة الآن، تسارع نبضاته فجأة وهو يزدرد لعابه بمشقّة، أما زال يودّ الحفاظ على ص بهؤلاء القوم القتلة؟ ماذا لو كان والدها ضالعًا في مقتل والده؟ إلّا لا يعتقد البتّة أنّها تدري أو أنّ لها يدًا من قريب أو بعيد في المكائد

...ذ الغرباء، ثمّ قد يكون عمّار صادقًا في نهاية الأمر، يودّ الاعتقاد بأنّ ...جير على سطح هذه السّفينة نفسها.. ربّما.

...خذ موقفًا حاسمًا بعد، لكنّ لحظة التحرّك قد باتت على مدى ...، عاد لبحدّق في شكل السّفينة التي غدت أقرب وأوضح وطبول ...قرع في أذنيه بصخب!

...لاحت بحروف لاتينية عريضة كلمة قلبت الموقف رأسًا على ...الأسطورة!

...ستدار آدم في استنفار تامّ وهمس لصاحبيه:

- حين نصعد على سطح السّفينة لن أكون المُخلِّص، أنا غريب، ضيف ...يكم، وقد رافقتكم لدواعي التّرجمة والتّواصل.. اتّفقنا؟

...لفانيه بنظرات متسائلة ومشكّكة، عاد يقول بسرعة وثبات:

- أنا لستُ المُخلِّص الخاصّ بكم! يجب أن يقتنع القبطان بأنّني في ...فه، أفاوض من أجل مصلحته، إذا عرف أنّني أنتمي إليكم فلن ...صغي إليّ، من الأفضل أن أكون طرفًا محايدًا في نظره، مجرد مسافر ...تمي إلى عالمه، هذه استراتيجية تفاوض معروفة، دفع وجذب..

...هل فهمتما؟

...بما أورخان برأسه بسرعة وقد راقته الفكرة، المُسخِّر سهل الانقياد لا ...يل فمه على الإطلاق لكنّ نظرات المعالجة حافظت على مسحة ريبة، في ...هاية هزّت رأسها بدورها دون وافر اقتناع ولم تطرح السّؤال الذي يلحّ ...ى طرف لسانها. تنهّد آدم واستدار ليواجه جسم السّفينة التي كاد المركب ...ل عند قاعدتها وقد غلبه التوتّر، لم يعد واثقًا ممّا ينتظره بعد الآن.

***

تحرّك البحّارة بسرعة ليغطّوا رؤوسهم بقبّعات مصنوعة من السّعف وتلحّفوا بعباءات خشنة تتدلّى حتّى أقدامهم وكذلك فعل المُسخِّر والمعالجة، ابتسم آدم وهو يتابع الاستعدادات ويرقب السّفينة بعين يقظة، لن تغامر الـ«ماغداخا» بالذّهاب مكشوفة رغم أنّها تتشدّق بقدرات الهجناء طيلة الوقت.

مع اقتراب القارب من الحدود الغائمة صارت السّماء شبه مرئيّة، لا يزال الضّباب كثيفًا من حولهم لكنّه ضباب طبيعيّ أقرب إلى ما يراه آدم في الصباحات الشّتوية في بلده، لم يكن سقفًا واطئًا بمفعول الـ«مادرا» غير أنّه امتداد له، يموّه الحاجز اللّا مرئيّ بين الجزيرة ومحيطها وما عداهما، تتخلّل أشعّة الشّمس السّحب وطبقات الغيوم الباهتة وتصل إلى سطح الماء في لمعان مُحبَّب، لم يدرك أنّه سيشتاق بذلك القدر إلى رؤية الضّوء الطبيعيّ!

التفت إلى روان ليراقب ردّة فعلها، لم تجرؤ على إخراج ذراعها من تحت العباءة، استمرّت تحدّق بعينين مأخوذتين في بقع الضّوء المتفرّقة على صفحة البحر دون أن تخاطر بتعريض بشرتها لسهامها النّافذة، حين انتبهت إلى نظراته رفعت رأسها إليه، كانت في عينيها نظرة جذل بريئة مثل طفلة تلمح طيف ألوان قوس قزح لأوّل مرّة، تساءل في تلك اللّحظة إن كان سيراها بعد ذلك.. هل تفترق سبلهما اليوم وإلى الأبد؟

عاد لصدره الخفقان العنيف والاضطراب، على بُعد خطوات منهما تدلّى سلّم من الحبال المجدولة من سطح السّفينة ليلامس الماء، كانت خطّته في السّابق تقتضي أن يصعد وحيدًا، يرفع السلّم ويحتمي بالجسد المعدنيّ، لن يقدر المُسخِّر على فعل شيء في عرض المحيط بعيدًا عن مصدر طاقته.

يكن بعد قادرًا على اتّخاذ تلك الطّريق بعد الآن. إن كان مايك راسل
ي فهو لن يرجع بعد أكثر من شهر أمضاه في الترقّب دون أن يحقّق
به.

ينهض بنجاحها، تردّدت روان قبل أن تضع كفّها في كفّه ليساعدها على
نزل السّلّم المتأرجح وهو يهمس في مرح:

- أنت أوّلًا!

كانت بد المعالجة صغيرة وباردة، إنّها خائفة، خوفهم فطريّ وغريزيّ
ي لديه لكنّه في محلّه هذه المرّة، كان ليرتعب لو كان مكانها، إنّها تقف
ي حدود عالمها، لأوّل مرّة في حياتها، إزاء وحش هائل لم يسبق لأحد من
به الاقتراب من مثله!

تشبّث بالدّعامات الخشبيّة ثمّ أخذت ترتقي بمفردها ببطء،
ة بحسّها بالجاذبيّة والدّوار، لقد لاحظ آدم على الفور تغيّر الهواء
ي حوله، يكن محرومًا من الأكسجين مثل سمكة خارج الماء لكنّ تنفّسه
ا قليلًا، لقد انتابه الإحساس ذاته عند وصوله إلى الجزيرة منذ نحو
ي، إنها مجرّد فترة تعوّد وتأقلم مع تركيبة الهواء المختلفة.

حين وصلت روان إلى الكوّة المُفضِية إلى طابق السّفينة الثّاني اختفت
جه كلّيًا ابتلعها فم الوحش الذي لا يزال مفتوحًا، تعلّق آدم بدوره
حه وأخذ يتسلّق وهو يتقدّم صعودًا مُحتكًّا بالسّطح المعدنيّ الرّطب
نى إليه أنّه في طريقه إلى العودة من حيث أتى، إنّه يقترب أكثر من
صورة الوحش بالنّسبة إليها وطن في نظره!

حين أطلّ برأسه داخل الكوّة امتدّت أربع أذرع لتسحبه إلى أعلى،
ت في وجوه البحّارة المألوفين لديه ثمّ استدار إلى الرّجل الذي اقترب
ل حماوة:

- آدم، أخيرًا! لقد عدتَ إلى الدّيار يا ولد!

استقبله مايك راسل بترحاب وفير كأنّه من أصدقائه القدامى. في الحقيقة لم يكن قد تبادل مع الرّجل أكثر من حفنة من الجُمل القصيرة في الماضي، كان ليسعد بلقائه لو أنّه ظلّ على جهله بنواياه لكنّه يرمقه الآن بشيء من التوجّس والحذر. لا تزال كلمات والده بشأنه ترنّ في رأسه: إذا كنا لصوصًا صغارًا فمايك راسل لصّ كبير!

فجأة، ومن حيث لا يدري، اندفع جسد أنثوي رفيع ليرتمي بين ذراعيه. عانقته مانويلا بحرارة لم يتوقعها، هتفت بصوت خنقته العَبرة وهي تضع رأسها على صدره:

- آدم! حمدًا لله على سلامتك! ظننتنا فقدناك إلى الأبد!

دفعها عنه برفق مداريًا إحراجه، في ذاكرته لم تكن الصّداقة السّطحيّة التي جمعتهما في الماضي مسوّغًا لذلك اللّقاء العاطفي المؤثّر لكنها حتمًا هرمونات الأنثى وطبعها المتعاطف ومشاعرها الجياشة!

تمتم في ارتباك وهو يشيح ببصره:

- أنا بخير.. لا داعي للقلق.

بينما تتراجع مانويلا وهي تكفكف دمعها وقع بصره على ملامح روان الصّارمة، فازدرد لعابه وقد ارتفع مستوى التوتّر من حوله، لم يعرف يقينًا إن كانت ردّة فعلها تخصّ شخص مانويلا أم أنّها قد عرفت سرّه وكشفت انتماءه للسفينة وأصحابها! رغم الحوار القائم بالإنجليزية حتّى اللّحظة فإنّ تفاعله مع مانويلا وأبيها لا يدع مجالًا للشك.

سرعان ما نسي أمر الفتاتين واستعاد وعيه بالأشياء المهمّة، تلفّت في قلق بحثًا عن أبيه، إذا كان فعلًا على متن السّفينة فسيحتاج إلى أن يستيقن

من سلامته أوّلًا، بعد لحظات تعالت الضوضاء في الخارج فمدّ ذراعه استقبال أوران الذي انتهى من رحلة صعوده للتوّ، قال مايك مشيرًا إلى مرافقيه:

- هؤلاء أصدقاؤك؟ سكّان محلّيون؟

أومأ آدم علامة الإيجاب وتجنّب مزيدًا من التّفاصيل، يحتاج إلى الاطمئنان على والده.

- مرحبًا بالضّيوف! أتوقّع أنّ هذه زيارتكم الأولى لسفينة بهذا الحجم، أليس كذلك؟ ما رأيكم في جولة؟

تكلّم مايك بالإنجليزية فترجم آدم إلى العربيّة، عادت روان لتعلّق نظراتها بوجهه، تبحث عن إجابة أو إشارة، فهزّ رأسه بحركة خفيفة يحثّها على قبول الدّعوة. بدا أوران مرتبكًا بدوره، لم يتعوّد أحدهما التّعاملَ مع الغرباء، ليس بعيدًا عن أرضهم على الأقل، هما الغريبان الآن في الواقع، خارج الحدود، في حين ينتمي الآخرون إلى جانب واحد، لقد انقلبت الموازين!

اتّجه مايك إلى الدّرج المؤدي إلى الطّابق العلوي وأشار إلى ضيوفه باتّباعه في حين تخلّف آدم عن المجموعة. توقّف مايك لبرهة والتفت إليه ليقول بابتسامة:

- والدك يستريح في مقصورته.. أنت تعرف الطّريق إليها!

تنفّس آدم الصّعداء وابتهجت أساريره على الفور، تطوّعت مانويلا لتقول بلطف:

- اذهب، سأتولّى التّرجمة.

أومأ آدم في امتنان وأخذ يرتقي درجات السلّم وراء أربعتهم، كانت المقصورة في الطّابق الثالث تحت السّطح مباشرة في حين تابعت المجموعة رحلة الصّعود، عرّج آدم على الممرّ المؤدّي إلى غرف النّوم وسار بخطوات عريضة حتّى توقّف عند غرفة والده، طرق على الباب بخفّة، ثمّ نادى:

- أبي، أنت هنا؟

أُشرع الباب بغنة بحركة عنيفة وظهر أشرف داخل المقصورة، طالعه بعينين متّسعتين دهشة وحبورًا ثمّ غاص كلاهما في حضن الآخر بلهفة. لا يذكر آدم رائحة عناق والده ولا درجة دفئه ولا يعرف كيف تنطوي ذراعاه على جسده. كان عناقهما يحمل طعم «المرّة الأولى» بطريقة لا تصدّق! لعلّ والدته كانت محقّة في نهاية الأمر؛ تلك الرّحلة المحفوفة بالمخاطر قلّصت المسافات بينهما لينتهي أحدهما ملتصقًا بالآخر لا يكاد يُفلته. فكّ أشرف ضغطه على عنق ولده أخيرًا وقد تبلّلت عيناه تأثرًا ثمّ جلسا متقاربين على طرف السّرير، حين تفارقا لم يعتقد أحدهما أنّ اللقاء قد يكون قريبًا، أسابيع في أحسن الأحوال، وسنوات في أسوئها، ثمّ.. كان هناك الاحتمال الأسوأ: لا لقاء!

تكلّم آدم أولًا:

- جهاز الإرسال.. لقد تمكّنتَ من تشغيله!

أومأ أشرف بابتسامة، لقد كان محظوظًا، حالما غادر منطقة الضّباب تمكّن من استقبال إشارة سفينة «الأسطورة» التي كانت لا تزال في الجوار، لسبب يجهله، سأل آدم مرّة أخرى، متلهفًا لتفنيد شكوكه:

- هل سمحوا لك بالرّحيل ببساطة؟

- لقد حاولوا قتلي لكنني نجوت!

- يا إلهي!

شهق آدم في ذعر، لقد كان محقًّا في ارتيابه وهذا لا يبشّه أدنى قدر من الارتياح.

- سنكون بخير على سطح السّفينة.. لن يجرؤ أحد على الاقتراب.

سأل أشرف بدوره في شكّ:

- ماذا عنك؟ كيف تركك عمّار ترحل؟

ابتسم آدم بمرارة ثمّ قال:

- هل تحسبه يفعل؟ لقد أرسلني المجلس لاستطلاع أمر السّفينة التي تقف عند حدود الجزيرة ولا تبرح مكانها، لكنّني لست وحيدًا.. يرافقني مُسخِّر ومعالجة!

- آه!

تابع آدم بعد لحظات في حذر:

- مايك، ما الذي ينتويه؟

أخذ أشرف يهمس، كما كان يفعل في الكوخ، كأنّهما محاصران، عدو في البرّ وعدو في البحر:

- يجب أن تلزم الحذر، إنّه يعرف كثيرًا عن الجزيرة و«حجر الشّمس».

عاجله آدم في لهفة:

- ماذا أخبرته بعد؟ هل يعرف بشأني؟

- بالتّأكيد لا، لم أخبره بشيء إضافيّ منذ رجعت، لكن...

لم تتح لأشرف فرصة الإمعان في الشرح فقد تعالت طرقات على بابه من جديد. أطلّ رأس مايك بعد حصوله على الإذن وهو يقول بابتسامة واسعة:

- كم هذا شاعريّ، لقاء الأب والابن أخيرًا! أنا سعيد من أجلكما، هل تودّان الانضمام إلينا؟ سنتناول وجبة خفيفة على السّطح.

التفت أشرف إلى ولده وقال مشجّعًا:

- اذهب أنت، ما زلت أشكو دوّار البحر كلّما صعدت إلى السّطح، سنتحدّث لاحقًا.

استجاب آدم على مضض محاولًا أن يطرد إحساسه بالضّيق وهو يسير وراء الرّجل عبر الممرّات، مايك راسل منقذه.. منقذ والده، لقد وصلا إلى تلك البقعة من الأرض بفضله، وسيعودان إلى الوطن أيضًا بفضله، لكنّه يجاهد حتّى لا يعامل الرّجل بفظاظة خرقاء، لن يشعر بالرّاحة إلا حين تشقّ «الأسطورة» طريقها في اتّجاه الشّمال بعيدًا عن الشّاطئ الفضيّ.

على السّطح كان مايك قد أعدّ جلسة مريحة لضيوفه، وجهّز على المائدة أنواعًا من المقبّلات والفواكه، بالنّظر إلى الوجبات المعلّبة التي يتناولها البحّارة غالبًا فقد بدا أنّ الطّباخ قد بذل جهدًا ملحوظًا للمناسبة، كان مايك يروم أن يبهر السّكان المحلّيين.

انضمّا إلى روان وأوران ومانويلا على المقاعد المعدنيّة تحت المظلة القماشية، وتحدّث مايك بإسهاب طيلة الوقت وترجمت مانويلا دون كلل، استمرّ آدم يلقي نظرات جانبيّة على روان، بدت بشرتها شاحبة بقدر ملحوظ رغم احتفاظها بالقبّعة والرّداء وقد تجعّدت شفتاها في شبه تكشيرة.. الغثيان.. لقد لازمه الإحساس الكريه بالغثيان حين كان في الغابة ويتوقّع أن يهاجمها مغص مشابه في هواء العالم الخارجيّ، ربّما لن تتمكّن من الحصول على أيّ نوع من الطّعام على الفور!

- أرجو أن تروقكم الأصناف التي أعدّها طبّاخ السّفينة.. تفضّلوا، لا تتردّدوا!

امتدت ذراع روان لتلتقط قطعة من الفاكهة ذات الشّكل الغريب بالنّسبة إليها، لم يكن البرتقال ينمو على أرض الجزيرة أو أيّ من الحمضيّات، مما جعل آدم يوقفها بحركة مباغتة وهو يقول:

- ربّما ليست هذه فكرة جيّدة، سيصاب ضيوفنا بالمغص بسبب الطّعام غير المألوف.

ارتفع حاجبا مايك في دهشة..

- حقًّا؟ إذًا تذوّقا قليلًا منه، لا بأس بهذا، أليس كذلك؟ سيكون الطّعم مختلفًا عن أيّ فاكهة محليّة، لن ترغبا في تفويت التجربة.

التقط آدم البرتقالة وقشّرها بالسّكين المعدنيّ ثمّ تذوّق بعضها قبل أن يدفع إلى روان قطعًا من لبّها، قال بهدوء:

- ليست شديدة الحموضة، خذي قليلًا منها..

رمت روان في حرج وتناولت قطعة صغيرة، ابتلعت عصيرها الحامض وابتسمت، وضع آدم أمام أوران قطعة أخرى وأشار إليه ليجربّها بدوره، بعد حصّة التذوّق صفّق مايك ليعلن انتقاله إلى المواضيع الجادّة:

- إذًا.. من المسؤول هنا؟ السيّد أم السيّدة؟

نقل بصره بين أوران وروان في فضول وقبل أن ينطق أحدهما سارع آدم بقول:

- السيّد أوران مبعوث مجلس الجزيرة!

في الحقيقة كان هو «المُخلِّص»؛ المبعوث الرّسميّ للتفاوض مع الغرباء، بالنّظر إلى طلبه السّابق بإبقاء طبيعة دوره سرّا تكون روان هي التّالية في مرم السّلطة. إنّها الـ«ماغداخا» التي تأخذ بزمام الأمور في غياب الحكماء

لكنّه اختار باندفاع أن يضع الـ«بندار» في الصّدارة، بحدس بحت أراد أن يحميها من خطر ما، لا يزال غير مدرك لماهيته.

شعر بالارتباك من حوله لكنّ أحدهما لم يُبد اعتراضًا، تساءل إن كان أوران يجيد التّفاوض، لم يكن قد تحدّث إليه كثيرًا، وباستثناء التحدّي العلنيّ لم يكن واثقًا إن كان الشابّ ماهرًا في ما عدا استعراض عضلاته وقدراته الخارقة. استدار مايك باتّجاه أوران وقال بلهجة ودود:

- إذًا.. نحن غرباء عن الجهة ونودّ أن نزور جزيرتكم إن كنتم لا ترون مانعًا! لقد حدّثنا السيّد أشرف بشأنها فوجدتُ في نفسي فضولًا لرؤيتها عن قرب.

تبادل الـ«بندار» والـ«ماغداخا» نظرات متشاورة فأردف مايك بسرعة:

- أودّ أيضًا أن أشارككم بعض المنتجات التي لا تتوافر في الجوار، نحن تجّار والصّناديق المخزّنة ملآنة بالحرير والشّاي والبهارات والخزف القادم من الشّرق، قد تودّان إلقاء نظرة؟ ستكون هدايا طبعًا مقابل الجولة والضيافة القصيرة.. فماذا تقول؟

يعرف آدم أنّ الجزيرة هي الوجهة الأولى والوحيدة لرحلتهم، لم يكن مايك قد توقّف في أيّ موانٍ أخرى للتّجارة كما يدّعي، ليس هذه المرّة على الأقلّ، لكنّه قد جاب العالم في مناسبات سابقة، ربّما يحتفظ بكميّة من البضائع تحسّبًا، لعلّه توقّع أن يطلب السكّان مقابلًا لقاء «حجر الشّمس»، كان مستعدًّا للمقايضة.

كان أوران يهمّ بالكلام حين قاطعته روان بسرعة:

- نحن نستقبل الغرباء دائمًا لكنّ شاطئنا ليس مُهيّأً لمركب بهذا الحجم!

استدار مايك تجاهها وقد أدرك مَن يفاوض في الحقيقة.

هذا متوقع، السفينه لن تقترب أكثر، سوف نستخدم
قوارب صغيرة للإنزال.

خطرت الفكرة على عقل آدم: مايك يعرف، لن تقترب السّفينة
تحافظ على أمانها وسلامة محرّكاتها واتّصالها بالعالم، قال والده
يبدو، ربّما يكون أشرف قد أبلغه بهذا القدر، لم يكن ليجازف
بالسّفينة التي ستقلّهم إلى الدّيار وربّما يكون مايك نفسه قد أمضى
الوقت يدرس محيطه، لا شكّ أنّه لم يضيّع وقته سدى مترقّبًا عودتهما،
سأل والده: هل تدرك الـ«ماغداخا» أيّ نوع من الأشخاص هو؟
ما معنى الكلمات؟ سمعها تتكلّم ثانية:

- نحتاج إلى أن نشاور الحكماء في هذا الشأن.. نحن مجرّد مبعوثين.

- يبدو هذا طبيعي!

- كم عدد الأشخاص المتوقّع هبوطهم على الجزيرة؟

- لا أعرف، هل أحتاج إلى أن أحدّد العدد بدقّة؟ سوف يبقى معظم
الوفد لتأقلم على ظهر السّفينة، سيكون برفقتي بعض المعاونين
لبعض المخصّصات وابنتي مانويلا للتّرجمة وربّما ينضمّ إلينا
صديقة أشرف وآدم، أليس كذلك؟

- إنّه حبيبي بالتّبنّي، لم يكن بنوي ترك السّفينة مطلقًا، لن يفعل إلا
إذا لزم الأمر، سيجد وسيلة لرفض الدّعوة في الوقت المناسب، ابتسم
وأكمل بحزن:

- سوف يرجع عليكم في مجلس وزراء عليكم قريبًا.

- لم أعرف حياة لأعتقد بأنّها قد تكون في حاجة إلى حمايته في أيّ وقت
من الوقت، ممكن تصرّف بعفويّة، دون أن أرد أن يرد إليها خاطرها بنظرة

فيعرض حمايتها في عالمه كما فعلت في عالمها، كانت تهمّ بالوقوف إعلانًا لنهاية الزّيارة مثل قائدة للمهمّة لكنّ مايك استوقفها على الفور:

- لماذا الاستعجال؟ فلتبقوا بعض الوقت، أودّ أن أعرض عليكم محتويات مخازننا فقد تجدون فيها ما يهمّكم؟ بعض التّحف البرونزيّة والعطور والأعشاب العلاجيّة ربّما؟

التمعت عينا روان عند كلماته الأخيرة، لن تقاوم الـ«ماغداخا» طُعمًا من هذا النّوع، لكنّها صمدت في ثبات:

- إذا أتيحت لنا فرصة لقاء ثانٍ فسأكون ممتنّة للاطّلاع على بضائعكم.
- سأنتظر لقاءكم على الجزيرة إذًا.

وقفوا جميعًا وساروا باتّجاه الدّرج المؤدي إلى الأسفل حيث ينتظرهم سلّم الحبال ثمّ القارب، لوّح لهم مايك وابنته مودّعين من السّطح فيما تبع آدم الـ«ماغداخا» والـ«بندار» إلى الطّابق الثّاني ثم توقّف عند الكوّة المفتوحة، كانت لحظة حاسمة أخرى قد حانت، أعلن بلهجة حازمة:

- سوف أبقى!

بانت علامات الدّهشة على ملامح أوران في حين بدت قسمات روان ساكنة وخالية من التأثر، كانت مُهيّأة لاستقبال الصّدمة، حالما أدركت أنّ السّفينة مألوفة لديه وعلى متنها والده توقّعت الآتي! قال إنّه لا يستطيع الرّحيل في السّابق، لقد فهمت موقفه فهمًا خاطئًا لكنّها تعلم ألا شيء قد يمنعه من الذّهاب الآن، استدارت باتّجاه أوران وقالت تأمره:

- اذهب أنت.. سوف أبقى أيضًا!

حدّق فيها الرّجلان مذهولين، فأضافت:

- مهمّتي حماية المُخلِّص.. لا يمكنني العودة من دونه.

أوما أوران متفهّمًا قبل أن يشرع في نزول السّلم المتدلّي خارج السّفينة
خفي القارب دون أن يناقش قرارها، على أحدهما نقل الرّسالة وعلى الآخر
مواصلة مهمّة الحماية، باعتبار القدرات كان الـ«بندار» مرشّحًا أفضل لمهمّة
الحماية لكنّه لم يسائل الـ«ماغداخا» البتّة.

بعد غيابه، نظر إليها آدم في شكّ، إنّه باقٍ لأنّ هذا ما أراده طيلة الوقت؛
أن يجد سبيل العودة برفقة والده ومعهما «حجر الشّمس» من أجل والدته،
قد تمّت المهمّة بنجاح، لم ينو أن يكون مُخلِّصًا أو بطلًا أو ما شابههما، حين
غادر هي السّفينة سوف يغلق الكوّة وربّما يحاول إقناع مايك بعدم فتحها
بة والإتلاع على الفور، لكنّه يجهل ما يدور في رأسها الصغير.

قالت بهدوء:

- أعلم أنّك لا تنوي العودة، لكنّني جئت في مهمّة، ستفعل ما عليك
فعله وسأفعل المثل، لا تهتمّ لشأني.

ثمّ سبقته بخطوات واسعة باتّجاه الدّرج كأنّها قد تعوّدت المكان
وصارت تتنقّل بحريّة وثقة مخلّفة إياه في حيرة وريبة، حين أبصرهما مايك
عائدين إلى سطح السّفينة ابتسم في جذل وهتف مخاطبًا روان:

- هل غيّرتِ رأيك بشأن العطور والأعشاب؟ لديّ كثير لأعرضه
عليك!

ابتسمت روان بأدب وقالت:

- سيكون من دواعي سروري مشاهدة مجموعتكم في انتظار عودة
المبعوث بقرار الحكماء.

أشار مايك إلى الممرّ العلوي فقصدته روان دون تردّد، كان خوفها
الأوّلي قد تبدّد وبدت مسيطرة على الوضع كما عرفها آدم دائمًا. سارت

مانويلا على أثرها فيما تأخّر عنهما مايك للحظات، ابتسم لآدم وهمس وهو يغمزه بمكر:

- هل تودّ صديقتك الصّغيرة مرافقتنا إلى الدّيار؟ لديّ مقصورة إضافيّة من أجلها!

ابتسم آدم ببرود يجاريه، لم يستطع أن يضحك لمزحته، كان منشغلًا بتأمّل مستقبل الأحداث.. إن كانت تعتقد أنّ بقاءها سيشكّل عامل ضغط فهي مخطئة تمامًا، لا شيء، لا شيء بتاتًا سيُغيّر قراره، لقد نجح في تجاهل خطاب عمّار العاطفيّ هذا الصّباح وسيغلق أسماعه عن أيّ نداء إضافيّ، لكن.. إذا شاءت مرافقتهم.. فهل يمنعها؟

لاقت البذرة التي ألقاها مايك تربة خصبة وتشبّثت جذورها وتشعّبت فروعها. كان يدرك أنّ المستثمر لن يرحل قبل أن ينال مبتغاه وعمّار سيجرّب كلّ الألاعيب الممكنة ليحقّق هدفه، بوسعه أن يختصر الطّريق على كلا الطّرفين إذا شرح النّوايا وشارك في المفاوضات خفية دون أن يكون في الواجهة. حين عادت روان إلى السّطح بعد جولتها الاستكشافيّة بين صناديق التّخزين كانت الفكرة قد تبلورت في ذهنه وصارت جاهزة للطّرح.

وقفت إلى جوار، أمام الحاجز المعدنيّ المطلّ على المحيط على مسافة قصيرة أمامهما، امتدّت سحابة ضباب منخفضة عاشت تحتها الـ«ماغداخا» سنواتها العشرين، لا تظهر اليابسة من موقعهما خارج الحدود ويخفّ الغموض بالأرض الخفيّة، رغم علمه بوجود الجزيرة أمامهم في مكان م فإنّ غطاء الضّباب يجعل العثور عليها مهمّة شبه مستحيلة، لن تميّز بوصلا الاتّجاهات ولن يجد البحّارة أدنى علامة بارزة تقودهم إلى الأرض الصّلبة يمتدّ البحر من حولهم أميالًا وأميالًا في جميع الأنحاء وتحت مساحة الغما

المحليون قادرون على
طريق في أمان ومراقبة حدودهم دون أن يُبصرهم الغرباء العابرون.
مدت روان كفّها، أخرجتها من تحت العباءة الحامية وتركت شعاع
الشمس الباهت يعانق بشرتها العارية، لم تعد خائفة، لم يظهر عليها المغص
أو الغثيان بعد تذوّقها البرتقال، ربّما كان آدم قد بالغ في أكل التوت البريّ
تلك المرة فيما تبدو سرعة تأقلمها مذهلة!

بادرت روان قائلة:

- هذه سفينتك وهؤلاء قومك.. أودّ أن أعتقد أنّهم جديرون بالثّقة.

كانت تقرّر، لا تسأل، فاجأه أنّها لا تزال تظنّه جديرًا بثقتها وكذلك
قومه بالتبعيّة. لقد خسر قومها ثقته أمس حين اكتشف ما تحويه ألواح
العلم الأخيرة وقد ظنّ أنّه قد خسر ثقتها منذ حين حين أعلن قرار
الرحيل. حاول أن يتظاهر بأنّه لا يهتمّ، لكنّه يفعل وتلك مصيبته؛ أنّه رغم
مغبته تجاههم جميعًا لا يزال يشغله مصيرهم من بعده!

ألقى نظرات حذرة على السّطح الهادئ والخالي إلا منهما ثمّ قال مداريًا
قبضته:

- يجب أن تكوني على بيّنة، مايك على علم بشأن «حجر الشّمس»،
رغبته في زيارة الجزيرة ليست مجرّد فضول مستكشف، إنّه يطمع في
أكثر من جولة سياحيّة قصيرة.

- إذًا.. هل هو شخص خطر؟ هل يجب عليّ منعه من الوصول إلى
الجزيرة؟

أخذ نفسًا عميقًا ثمّ لفظ فكرته:

- مايك سيكون تحت السّيطرة على الجزيرة، يمكنك منع حبوب
الدّواء عنه ولن يستطيع الإقدام على أيّ عمل متهوّر..

[illegible] مايك ستعمل لصالح الفريق [illegible] أهم الخطة التي تعتمل في [illegible] ولكنه تمالك نفسه [illegible] حال فعلى الجزيرة مسخّرون [illegible] غير أن الفضاء الاستباع لم يكن في مصلحة أحد، أيهم يحتاج إلى تلك [illegible] المعدة سلفًا لأي أجنبي عن الوطن ولن يكون ذلك ممكنًا إلا إذا سلّم [illegible] ونيسوه أن يأخذ مايك الآلي بوبال وصحبها.

التفت إلى ونيسوه:

- بالإضافة إلى هذا.. أعتقد أنه بالإمكان عقد صفقة مناسبة لكل الأطراف.

ونيسوه إليه في اهتمام فيما يشرح:

- أليست الخطّة تقتضي الرّحيل نحو العالم؟ هذه وسيلة نقل ممتازة ستأخذ طريق الاستطلاع بسرعة وسلامة إلى الوجهة التي تختارونها.. مقابل قدر مناسب من «المادرا»، مصادر الطّاقة تنفد في العالم الخارجيّ أيضًا والكلّ يسعى نحو اكتشاف مصادر جديدة، سوف يحصل مايك على كميّة كافية وهي ليست بالمعضلة في الوقت الحاليّ طالما يستمرّ تدفّق المادّة المتوهّجة من المصدر لكنّه سيعرف بعد حين أنّها بلا فائدة بالنّسبة إليه، لن يتوصّل إلى طريقة استخدامها في غياب مُسخّرين تحت إمرته ولن يرغب في العودة أو الحصول على مزيد وستكون الجزيرة بأمان، في نهاية الأمر ستكون الصّفقة في صالحكم.. سيقدّم مايك خدمة جليلة لخطّة والك!

كانت ابتسامة ساخرة تطلّ على شفتيه وهو ينطق بعبارته الأخيرة إلا أنّ نظراتها كانت متجهّمة وسحنتها تفيض عبوسًا، قالت بهدوء وحزم رغم ذلك:

- لن يحصل على شيء من الـ«مادرا».. إطلاقًا.

الأمر ضدين الفكرة على الحكماء أوّلًا؟

ـ إنها هو المخلّص الذي يريد منه والدها اتّخاذ قرارات مركزيّة وثوريّة، إن إراد التدخل السافر في شؤون الجزيرة فسيأخذ مايك من يده بالمّاء إتلاف مباشرة وينهي هذه القصّة برمّتها وبذلك يتمكّن من العودة إلى وطنه في أقرب فرصة. لكنّه لا يزال يتّخذ موقف المتفرّج، بإمكانه إسداء النصيحة ويبدهم قبولها أو رفضها، سيُرجع الأمر إلى الحكماء وإلى عمّار وربّما إذا طلب منه عمّار فرض المسار بوصفه سلطة عليا فوق إرادة الجلس قد يفعل، أيّ شيء يُنهي الأزمة سيكون مُرحّبًا به، بهذه الطريقة لن يحل بضمير موجوع.

إلا أنها صارمة لا تتزعزع.

ـ أنت لا تريد أن تكون مُخلِّصًا، أقدِّر هذا، لا يهمّك أمر الـ«مادرا» ولا تدرك أهمّيتها.. أفهم هذا أيضًا، فقد عشت حياتك كلّها بعيدًا عنها، لكنّ الكهف مساحة محظورة على الغرباء بل على عامّة النّاس باستثناء المُسخِّرين والمعالجات، هذا مبدأ مقدّس في عرفنا، هذه هِبة تخصّ شعبنا ولن نفرّط في أيّ حجر منها! قد نبدو لك محبطين نسعى إلى إنقاذ أنفسنا بأيّ وسيلة لكنّنا لسنا يائسين إلى هذه الدّرجة، والدي لن يوافق على هذا!

قال معترضًا:

ـ إنها مجرّد كميّة بسيطة! لن يشعر أحد بغيابها على الإطلاق!

ـ أنت لا تعرف ما قد يحدث بعد ذلك! ماذا لو عرف صاحبك أنّه يحتاج إلى مُسخِّر؟ ماذا لو سيطر على هجين أيضًا؟ سيصبح الطّريق مفتوحًا أمامه، يرجع كلّ حين ليحصل على حمولة جديدة!

كانت تشير إليه بوضوح، إنّه مُسخّر ومجبن! لكنّ مايك لا يعلم بشأنه وسيحتفظ بالسّرّ مهما كلّفه ذلك.

فاجأهما صوت نحنحة خلفهما فاستدارا في حدّة، كانت أصواتهما الهادئة الحذرة بداية قد تصاعدت وتيرتها دون أن ينتبها، كان أشرف يقف إزاءهما، قال بلهجة جادّة:

- أعتذر على المقاطعة، هناك شيء مهم يجب أن تعلما بشأنه، نحن لسنا ضيوف مايك الوحيدين...

قبل أن يمعن في الشّرح تعالى وقع خطوات كثيرة على الدّرج المعدني القادم من بطن السّفينة الخفيّ، ظهر مايك أعلى الدّرج معلنًا:

- لقد حان موعد الغداء.. هل تتفضلون جميعًا؟

حين أفضت المجموعة إلى الممرّ في الطّابق الثاني حيث قاعة الطعام برز من الزّاوية رجلان آخران، تعرّف إليهما آدم وروان على الفور: الرّجل المحكوم عليه بالنّفي والشّاهد المفقود! طرفان مجهولا الولاء ولا يعرف أحد مقدار ما ثرثر به لساناهما!

استمرّ الصّمت في الممرّ لثوانٍ طويلة مشبعة بتوتّر مُربك، حبس آدم أنفاسه وراجع في رأسه تواتر الأحداث الماضية، كان واثقًا.. لا أحد من الرّجلين يعرف بحقيقة انتمائه ودمائه المختلطة ولا بمنصبه الشرفيّ كمُخلِّص مزعوم. ازدرد لعابه وهو يستعيد السّيطرة على أعصابه إلّا أنّ نظرات الكهل الماثل أمامه لم تنسحب، ظلّ الرّجل المنفيّ يحدّق في ملامح آدم وروان بتمعّن، ربّما احتاج إلى بعض الوقت بسبب ظهور الـ«ماغداخا» في هيئة غير مألوفة، كانت لا تزال ترتدي قبّعتها العريضة وعباءتها الثّقيلة، قال الرّجل المنفيّ بصوت متهدّج وهو يشير بإصبع الاتّهام ناحية روان:

- إنّها «ماغداخا»! وابنة «كوتانا»!

يتكلم باللغة المحليّة المجهولة لدى مايك وابنته وآدم أيضًا إلّا أنّ تلك
الكلمات المميّزة صارت مألوفة عند آدم، لثانيتين فكّر في تحريف فحوى
الكلام - مرّة أخرى ليحمي روان- إلّا أنّ صاحبه - الشّاهد المفقود- سبقه
إلى القول بعربيّة مهشّمة إلّا أنّها مفهومة لدى مانويلا:

- يقول إنّها معالِجة.. وهي أيضًا ابنة حكيم، الحكماء هم أصحاب
القرار على الجزيرة..

هتف مايك -بعد أن ترجمت ابنته- وهو يصفّق في حماس:

- لقد أدركت أنّ الآنسة ليست شخصيّة عاديّة! ابنة أحد الحكماء
الوقّرين! ومعالِجة؟ لا أشكّ أنّها مهمّة جليلة!

تحلّى بأتجاهها في احترام فيما زمّت روان شفتيها في انزعاج، لم يكن
يحبّ هوايتها يُشعرها بالارتياح ناهيك بالتعرّض للمساءلة على أرض
جديدة من طرف رجلين حاقدين على نظام الحكم في الجزيرة وعلى والدها
بالخصوص!

اتّخذ الرّجلان وضعيّة عدائيّة على الفور فيما وقف مايك متفرّجًا في
استمتاع. كان المشهد يثير لديه بهجة وإثارة. في هذه الأثناء استمرّ آدم يحلّل
المعطيات في ذهنه بتركيز، لقد اختفى الشّاهد منذ عشرة أيّام تقريبًا.. ربّما
يكون قد هرب أو طُرد، لا يهمّ أيّ الخيارين أصحّ لكنّ الثّابت لديه هو أنّ
الرّجل كان يتعرّض للتنمّر وربّما التّهديد، بوسع آدم الآن أن يقيّم طبيعة
انفعالاته، ربّما تدفعه أحقاده على المجلس وأهل الجزيرة إلى إفشاء أسرارهم
وحتى تيسير الوصول إلى اليابسة على مايك.

- هلّا واصلنا الحديث على مائدة الغداء؟

أشار مايك إلى ضيوفه ليتوجّهوا إلى قاعة الطّعام فتحرّكت الأرجل
متقاربًا إلى الدّاخل، همست روان لآدم في ضيق:

- لا أشعر بالارتياح!

أو ما آدم بملامح متجهّمة، لا يمكنه أن يحوّل بعد الآن على جهل مايك بطبيعة الحياة على الجزيرة، خلال الأيام العشر الماضية وربما يكون قد حصل على كلّ المعطيات التي يحتاج إليها وأكثر؛ طبيعة المناخ العدائيّة، تطويع الـ«بندار» للهادّة، هبات الـ«ماهداخاه».. كأنّها تفاصيل قد يكون محيطًا بها بالفعل، اعترف في استياء:

- لم أعد أعتقد أنّ الصّفقة ستكون في صالحنا.

اكتفت روان بإيماءة خفيفة ثمّ لحقت بالآخرين إلى مائدة الطّعام.

كانت المائدة زاخرة بأنواع من الأطعمة التي تُذكّر آدم بالدّيار: حساء العدس، المعكرونة بكرات لحم الضّأن، السّلطة الطازجة التي لا يدري كيف حصل مايك عليها أو كيف تمكّن من حفظها من التّلف، بعد كلّ ذلك الوقت الذي أمضاه في الإبحار. كان يُبرز بسخاء إمكانات العالم الخارجيّ أمام السّكان المحليّين، لا يمكن لكرمه أن يكون مجانيًا، إنّه يحاول إغراءهم باستعراض كنوزه وإثارة فضولهم نحو عالمه البعيد.

أكل الرّجلان الكهلان بنهم دون أن يحتاجا إلى تشجيع كثير من مضيّفهما، كلّ شيء يخصّهما كان ينبع آدم بأنّهما على السّفينة منذ بعض الوقت، وقت كافٍ للتأقلم وتقبّل طعام العالم الخارجيّ دون تقلّصات معدة ومغص معويّ. إن كان الشّاهد قد اختفى منذ عشرة أيّام فإنّ آدم قد رأى المحكوم عليه بالنّفي في زنزانته منذ خمسة أيّام فقط، في أحسن الأحوال ربما يكون قد أُرسل إلى المحيط يوم النّزال وربّما يكون قد صحب أشرف على العلّوف ذاته!

نظرة جانبيّة على روان، لم تنل شيئًا من وجبتها، فقدت
آدم استمرّت تحرّك الملعقة في طبق الشوربة دون أن تقرب فاها،
آدم تركي لحم على وجه صحن المعكرونة ثمّ شعر بالاكتفاء، رغم
للكرات المعجونة بالإكليل والنعنع فإنّه لم يجد رغبة في مزيد،
لا إراديًا ذكرى تذوّقه كرات السّمك في حضور سيّدات القرية
إحساس ثقيل بالضّيق.

أكلت المجموعة في صمت بعد أن ألجم اللّقاء غير المتوقّع الألسن.
آدم أنّه لم يتمكّن من الخلوة بوالده بعد، ليس لوقت كافٍ، يحتاج
إليها إلى مواكبة ما فاته من أحداث على الضفّة الأخرى، تبادلا نظرة
الطاقة: بعد الغداء في مقصورة أشرف.

كانت روان أوّل من انسحب من المائدة، قالت في أدب:

- مبدئي، هل مِن مكان يسعني أن أنال قسطًا من الرّاحة فيه انتظارًا لعودة مبعوث مجلس الحكماء؟

- بالتأكيد.. سأرافقك إلى مقصورتك.

كانت مانويلا مَن تطوّع لاصطحابها، تحرّكت لتسبقها باتّجاه الدّرج ثمّ
خفت كلتاهما وما إن غيّبهما الممرّ حتّى انتصب آدم واقفًا وتبعه أشرف
دون تأخير. استمرّ مايك يبتسم تجاههما ابتسامة متبجّحة تثير حنق آدم أكثر
في كلّ لحظة. إنّه يستمتع بالعرض، قال بمرح:

- إذًا حان وقت القيلولة أيّها السّادة! استريحا جيّدًا!

مز آدم رأسه مؤيّدًا، هذه المرّة على الأقلّ لن يقاطع حديثهما. حيّا
رجلين المحلّيين الذين تابعا وجبتهما بشهية مفتوحة بإيماءة خفيفة
رضبّتها الذي فقد مترجمه وقتيًّا ثمّ تبع والده إلى الطّابق الثالث.

قابلها مانويلا عند أوّل السلّم عائدة بعد أن أرشدت المعالجة إلى مقصورة عالية. كانت على الجانب الثاني من الممرّ إلى جوار مقصورتها ومقصورة مايك نفسه في حين كنت غرف باقي الضّيوف متقاربة على الجانب الآخر. أومأت بابتسامة عريضة لآدم وربّتت كتفه بألفة، لم يهتمّ آدم بتحليل حركات جسدها فقد كانت مسائل أهمّ تشغل ذهنه.

حين جلسا أخيرًا متقابلين في مقصورة أشرف سأل في اهتمام:

- إذًا، ما الذي حدث بالضّبط؟

وأخذ أشرف يحكي كل شيء.

***

في اليوم الثّاني والعشرين على الجزيرة انتبه أشرف من نعاسه في ساعة البكور. لا تزال زنزانته قاتمة والعتمة في الخارج قد أخذ يخالطها الغبش غير أنّ قاطن الزنزانة المجاورة استمرّ يئنّ طوال الليل أنينًا متقطّعًا، نادى أشرف بصوت خافت عبر الكوّة الضيّقة:

- مرحبًا.. هل أنت بخير؟

حين لم يجئه ردٌّ أخذ يطرق برفق على الجدار الطّينيّ الفاصل بين الحجيرتين. بعد محاولات متكرّرة أولاه الرّجل انتباهه، أجاب بصوت ضعيف وجافّ:

- ماذا تريد؟ اتركني أموت بسلام!

همس أشرف في قلق:

- ماذا تعني؟ هل أنت مصاب؟ هل تشكو شيئًا؟

استنشق الرّجل الهواء على فترات ثمّ قال بصوت مجهد:

سوف يرسلونني للموت في البحر، لكنّني سأعجّل الأمر.. أودّ أن أدفن على أرضي.. سأموت جوعًا قبل أن يلتهمني المحيط وأغدو وليمة للأسماك!

قال أشرف في لين:

- أنا أشرف.. أخبرني مَن تكون أنت؟

تردّد الرّجل برهة ثمّ قال:

- أنا أنوش.

- مرحبًا يا أنوش، إنّ مغادرة الجزيرة لا تعني الموت بالضرورة، حسنًا؟ لديك فرصة للنّجاة، اليوم سوف يرسلونني إلى العالم الخارجيّ، سوف أحصل على بعض المؤونة للرّحلة ويمكنني أن آخذك إلى برّ الأمان.

- برّ الأمان؟ هل هناك مكان خارج الجزيرة قد يعتبر آمنًا لشعبنا؟

توقّف أشرف متفكّرًا، لم يكن يرغب في إخبار الرّجل الغريب عن رحلته وحياتها المديدة في أرض بعيدة، قال أخيرًا بلهجة واثقة:

- سوف أرشدك إلى طريقة ما، يجب ألا تفقد الأمل، تناول طعامك الآن، تحتاج إلى أن تكون في وافر صحّتك وقوّتك من أجل الرّحلة التي تنتظرنا. اتّفقنا؟

ربّما لم يصدّقه الرّجل تمامًا لكنّه رغب في التشبّث بخيط الأمل الضّئيل الذي لاح بين ثنايا حديث جار زنزانته ووعوده المستحيلة، أصغى أشرف إلى حركة الرّجل في فضائه الضيّق، بدا من وقع الحركات المتخبّطة أنّه قد شرع بلتهم وجباته المتروكة في الزّاوية أو ما بقي صالحًا منها. كان الإضراب عن الطّعام يستهلك كثيرًا من الإرادة وضبط النّفس وحين لاحت تباشير الفرج استسلم دفعة واحدة لسلطان الجوع. ابتسم أشرف في رضا.

في نهاية اليوم جاءت روان لتفي بوعدها، أشارت إلى الحرّاس فأشرعوا باب حجيرة أشرف وأوسعوا له المجال ليُفضي إلى الخارج، كانت قد أعدّت من أجله مؤونة كافية لأسابيع من الإبحار وحصلت على حجر كبير في حجم قبضة اليد، سيكون كافيًا لعقود مقبلة، همس لها أشرف راجيًا:

- لقد فهمت أنّ الرّجل الذي يشغل الزنزانة المجاورة لي محكوم عليه بالنّفي؟

أومأت في وجوم فأضاف بسرعة:

- إذا كان سيُرسل في وقت قريب إلى المحيط فإنّني أودّ أن أصحبه في رحلتي.

حدّقت فيه روان في دهشة فتابع أشرف:

- سيكلّفكم هذا طوفًا واحدًا مكان اثنين! وإنّي أرغب في بعض الأُنس خلال رحلة قد تستمرّ أسابيع طويلة..

تململت المعالجة في ضيق ثمّ قالت في حرج:

- لكنّني لن أستطيع الحصول على مزيد من المؤونة من أجله!

- لا بأس سأشاركه مؤونتي.

- لن يروق هذا لآدم!

- لا داعي أن يعرف آدم بشيء ممّا دار بيننا.

استمرّ أشرف يبتسم في رجاء.

في عُرف قومها، الحكم بالنّفي مرادف للقضاء بالموت، لم يكن يُفترض بها أن توفّر مقوّمات النّجاة لرجل مصيره الهلاك لكنّ الرحمة في قلبها غلبت الاستقامة. لم تكن تتجاوز حكم المجلس صراحة غير أنّها قد تتدخّل في حيثيات التّنفيذ رغم أنّ ذلك لم يكن من صلب اختصاصها وصلاحياتها،

طوف واحد بدل طوفين ستكون كافية.

تحدّثت إلى الحرّاس برهة ثمّ بدا
عادت إلى الدّاخل،
بحجّتها وخلال دقائق كان الرّجلان يسيران
في اتّجاه الجانب الآخر من

كان في انتظار المسافر الوحيد الذي
أطلعته روان على تدبيرها المُرتجل فهزّ رأسه ولم
متقابلين للمرّة الأخيرة يكرّران مشهد
منفيًّا آخر ينقذه من
بادر صاحبه في تجهّم:

- إنّي أحذّرك...

قاطعه عمّار على الفور:

- سأحرص على أن يعود آدم إلى الدّيار بلا أذى، أعدك بهذا.

أطلق أشرف نخرة ساخرة ولم يعقّب، لا يعرف إن كان الحكيم قادرًا على الوفاء بوعده ولا إن كان تحذيره ذا فائدة تذكر، دون وداع استدار ليلحق بصاحب السّفر على الطّوف مستسلمًا للمصير الذي ينتظره.

طوف واحد، حجر واحد، ورجلان. كان يفترض بمركب صيد أن يسحب الطّوف حتّى حدود منطقة الضّباب ثمّ يطلقه في اتّجاه المحيط الشاسع إلّا أنّ سلوك الحرّاس تحوّل فجأة بعد أن ابتعد المركب مسافة كافية من الشّاطئ واختفت الجزيرة والمعالِجة والحكيم عن الأنظار. هجم الرّجلان على أشرف وصاحبه بشراسة، طوّقا عنقيهما من الخلف في محاولة لخنقهما خنقًا، شعر أشرف بشبح الموت يدنو مخاتلًا على أطراف أصابعه

ليسلبه الأنفاس، لقد حسب أنّ نهايته قد حانت لولا التدّخل غير المتوقّع لمُسخِّر كهل يمتطي حوتًا فضيًّا! ظهر فارس البحر على حين غفلة من الحرّاس المتآمرين ليُرسل باتّجاههما موجة عالية بحركة من كفّه، ألقتهما في الماء.

تمالك أشرف نفسه واستردّ أنفاسه فأشار إليه المُسخِّر بالابتعاد دون تأخير. وقف في خيلاء ممسكًا بزعنفة الأوركا واستمرّ يراقب الألواح الخشبيّة وهي تتهادى على صفحة الماء تتقاذفها الأمواج وتلهو بها الريّاح حتّى اختفت في الأفق البعيد فأقفل راجعًا يجرّ مركب الصّيد والحرّاس فاقدي الوعي على متنه.

ما إن غابت الظلّة أعلاهما وبهت تأثير الصّدمة حتّى سارع أشرف ينزع عنه قميصه ويرميه على رأس رفيق رحلته، لم تكن أشعّة الشّمس قويّة بعد لكنّها ستكون أشدّ حرارة وأثرًا في المرحلة المقبلة، لن تضرّه خيوطها اللامعة التي يكاد يغلبه الشّوق إليها بعد نحو ثلاثة أسابيع من الظلال لكنّها ستكون فتّاكة بجلد صاحبه الشّاحب قليل المناعة أمامها.

لم يكن الطّوف قد ابتعد إلّا بقدر يسير عن الجزيرة وطاقية الإخفاء الخاصّة بها حين أخرج أشرف جهاز الإرسال والاستقبال وشرع في محاولة التقاط الإشارات القريبة.. بغتة لاحت ذراع بشريّة في البعيد تُجاهد سباحة، كان الرّأس يغطس وتغمره الأمواج ثمّ يعلوها طالبًا الهواء في استماتة، استمرّ المسافران على الطّوف يحدّقان في الماء مشدودي الأعصاب دون أن يملك أحدهما وسيلة لإنقاذ الغريق المتخبّط، لكنّه نجح رغم ذلك في تقليص المسافة التي تفصله عن الطّوف ثم صار على بعد أمتار قليلة فميّز أشرف ملامحه.. لم يكن إلا الشّاهد الذي كاد بلاغه أن يودي بحياة أشرف نفسه!

رغم بغضه للرّجل لم يملك أن يشيح ببصره عن النّفس التي يكاد يطفئها الموت. لقد تهوّر وغامر بحياة كلّ مَن على الطّوف الخشبيّ حين بادر إلى فكّ أحد الحبال التي تبقي الألواح مترابطة وملتحمة ثمّ رمى طرفه في اتّجاه الغريق، حاول مرّة إثر المرّة، حتّى نجح أخيرًا في التّسديد ليلتقط الرّجل الطّرف ويتمكّن أشرف من سحبه.

في المساء ذاته التقط جهاز الاستقبال إشارة من «الأسطورة».

***

حلّ الليل، ولم يصل ردّ من مجلس الجزيرة.

بعد وجبة العشاء الصّامتة تفرّق الجميع ولاذ كلٌّ بمقصورته، لم يكن يشعر بالطمأنينة، بقاء روان على السّفينة واستمرار غياب أوران كانا يثيران جزعه. إنّه يعرف بشأن تلكّؤ المجلس حين يتعلّق الأمر باتّخاذ قرارات حاسمة، هؤلاء الرّجال بطيئون للغاية، دقيقون بمبالغة! ربّما يتأخرون أيّامًا معتزلين في أطلال القرية القديمة، وهو لا يشعر بالارتياح لوجود روان على المركب في حضور عدوّين حاقدين على والدها، قد يفكّر أحدهما في إيذائها وهي خارج جزيرتها لا تمتلك أدنى سلطة أو قوّة بها بدت ثابتة وصارمة فإنها لا يمكنها مواجهة رجلين شديدي البأس بالكاريزما وحدها!

بات يشكّ أنّها لا تعرف شيئًا عن المؤامرة التي يحيكها قومها تجاه الغرباء، إنّه مدين لها ولنوح بنجاة والده، لا تزال الحرارة تصعد إلى رأسه وتملؤه الثّورة كلّما استحضر صورة المُسخِّر الذي يركب الحوت وتخيّله يهاجم الخرّاس الأشقياء الذين كانوا على وشك إنهاء حياة أشرف، لقد غنم في رحلته هذه مُدرِّبًا فذًّا وصديقًا صدوقًا وحسبه بذلك غنيمة.

بعد أن آوى الجميع إلى مقصوراتهم تسلّل آدم في هدوء إلى الممرّ، مشى بحذر أمام الأبواب المغلقة مرهفًا السّمع لكنّه لم يقف على أدنى صوت مثير للرّيبة. توقّف عند مقصورة روان وأصغى في انتباه، لم يكن واثقًا من خلودها إلى النّوم بسهولة في مكان غريب وبعد يوم مشحون بالتوتّر، غير أنّه لم يرغب في الطّرق على بابها، لم يُرد أن يثير حفيظتها بمشاركتها المخاوف التي تُعشّش في رأسه.

استمرّ في اتّجاه الدّرج المؤدّي إلى السّطح وخطا بتؤدة على الدّرجات الستّ عشرة وحين أفضى إلى المساحة المكشوفة تحت الضّباب انتبه إلى الظلّ الآخر الذي وقف يتأمّل الأفق الغارق في الظلام عند مقدّمة السّفينة.. مايك، تنحنح حين صار خلفه مباشرة فاستدار المستثمر على الفور، رمقه بدهشة ثمّ أشار إلى المقعد القريب، جلسا متقابلين في صمت قبل أن يقول مايك بنصف ابتسامة:

- أصدقاؤك السّكان المحلّيون مثيرون للاهتمام!

سأله آدم مباشرة:

- ما الذي تريده منهم بالضبط؟

التمعت نظرة إثارة في عيني مايك وانطلق يقول في فيض من الحماس:

- لقد رأيت الحجر بعينك.. أليس كذلك؟ اكتشاف بهذا الحجم سيغيّر العالم. هؤلاء النّاس البسطاء لا يدركون قيمة ما لديهم ولا يقدّرونه حقّ قدره. في المستقبل قد تكون هناك معامل طاقة تشغّلها بكفاءة تامّة حفنة من الحجارة!

توقّف ليأخذ نفسًا ثمّ استطرد:

- هل نعرف كيف بدأ تسويق الألماس في العصر الحديث؟ سنة 1866 اكتشف الشابّ البريطاني «سيسيل رودز» في منطقة كيمبرلي بجنوب إفريقيا مناجم للألماس فسارع إلى الاستثمار فيها، في بداية القرن العشرين كان قد استحوذ على كلّ المناجم في المنطقة وصار إنتاجه يغطي تسعين بالمئة من انتاج العالم للألماس الخام! هل تفهم المقاربة؟ حين يعرف العالم بشأن هذه الحجارة -في وقت قريب- سأكون قد فرضتُ السّيطرة على المناجم الموجودة بالجزيرة، بطبيعة الحال، سأشتريها منهم، وسأدفع ثمنًا مجزيًا.. كن واثقًا، لن يُظلم أحد!

ناطعه آدم بحدّة:

- لكنّهم لا يفكّرون في البيع مطلقًا! هذا الحجر مقدّس لديهم ومنه يستمدّون قوّتهم بل هو ضروريّ لديهم مثل الماء والهواء، دعني أخبرك: لن تشكّل أموالك أيّ إغراء بالنّسبة إليهم! إنّهم لا يتعاملون حتّى بالعملة التي أعرفها أنا وأنت.

ابتسم مايك ثمّ قال بدهاء:

- ستكون هذه العملة ذات أهميّة حين يتعلّق الأمر بالسّفر إلى العالم! سأساعد من يرغب منهم على الرّحيل بتوفير وسيلة النّقل ومبلغ مالي كافٍ لحياة كريمة. أنت تقول إنّ المنجم مقدّس إذًا هو مِلك شائع يشترك فيه السّكان كلّهم؟ سيكون عليهم تقاسم حقوقهم فيه وتحديد نصيب كل فرد، ومن يرغب في بيع نصيبه نشتريه منه! أليس هذا عادلًا؟

تخيّل آدم الفوضى التي ستعمّ الجزيرة إذا ما تحقّقت خطّة مايك لكنّه بقي واثقًا بمدى رغبة السكّان في مغادرة موطنهم، ليس وهم يجهلون حال الأزمة المرتقبة، مع تباطؤ تدفّق المادّة المتوهّجة من المصدر إذا عرفوا

فسيتهافتون على الكهف للاستئثار بجزء من الحجارة، وإذا تعدّد لكلّ واحد منهم نصيب -نتيجة لوسوسة مايك- فقد يحرص على الاحتفاظ ببعضه فيما قد يكون بيع المتبقي -الذي لا يسعه اصطحابه في رحلته- قرارًا واردًا وحكيمًا أيضًا، لا يزال يعتقد أنّ مخطّط عمّار يلتقي مع نوايا مايك ويكمّل أحدهما الآخر لكنّ مجيء مايك سيسرّع مجرى الأحداث بقدر قد يخرج عن السّيطرة.

لقد احتاج إليه عمّار من أجل هذا بالذّات؛ أن يُحكم قبضته على أهل الجزيرة من خلال سلطة عليا تنبع مصداقيّتها من قيمتها الروحانيّة المقدّسة، ربّما يمكنه أن يرجع لوقت قصير! كان قد قرّر صباحًا أنّه لن يغادر السّفينة إلا حين تصل إلى الدّيار غير أنّ مايك لن يرحل على الفور، سيكون مضطرًّا للانتظار على كلّ حال، لذلك قد يكون بوسعه الإسهام في دفع العجلة على المسار الصّحيح بصفته المُخلِّص يمكنه تهدئة النّاس وتهيئتهم للآتي إلّا أنّ ذلك ينطوي على إبلاغ مايك بهويّته المكتسبة منذ أيّام قليلة وهو يكره أن يفعل.

في نهاية الأمر قد يتمكّن من مراقبة الوضع عن كثب إذا ما رافق مايك إلى الجزيرة ليضمن عدم خروجه عن السّيطرة أمّا إذا غادر مايك من دونه فلن يعرف أبدًا ما قاله السكان في حضوره، سيتمكّن من صياغة الحكاية بالطريقة التي تناسبه أيضًا فلا يعرف مايك أبدًا بشأن هِبته المفترضة، سيكون من الخطورة بمكان أن يعرف المستثمر سرّه!

قال أخيرًا على مضض:

- سأرافقك إذا شئت.. ربّما يمكنني أن أجسّ النّبض قبل أن تجاهر بعرضك.

اتّسعت ابتسامة مايك وهو يردّ في حماس:

سيكون لك عمولة عن كلّ فرد تُقنعه ببيع حصّته!

حاول آدم أن يبادله الابتسام لكنّه لم يكن يشاركه حماسه، لا يعرف بعد كيف يواجه روان بشأن ما ينتويه! نزل درجات السلّم بهدوء شديد إلّا انّ أحد الأبواب فُتح فجأة فتوقّف عن الحركة، راقب الممرّ في حذر حتّى اطلّ أحدهم وحدّق في الظلام ثمّ جاءه صوته العميق:

- آدم، هل هذا أنت؟

أطلّ آدم متلصّصًا ثمّ أظهر نفسه للعيان، تابع الشّاهد بلهجة يشوبها الرجاء:

- هل يمكننا أن نتحدّث؟

تبعه آدم إلى داخل مقصورته.. لم يترك لقاؤهما السّابق أثرًا طيّبًا في نفسه يحثّه استجاب لدعوته وقد غلبه الفضول، تأمّل آثار الحروق التي ظهرت على وجه الرّجل وذراعيه، لعلّه لم يتجهّز للرّحلة كما فعل الآخرون، كانت بشرته مكشوفة أمام أشعّة الشّمس وهو يقاوم الغرق ثمّ لساعات طويلة قبل أن ينقذهم مايك، لعلّ تلك الآثار ستلازمه لما بقي من أيّامه، قال الرّجل بلطف:

- أنا إبراهيم.

أومأ آدم وقد أسند في ذهنه أخيرًا اسمًا إلى الوجه الغريب.

- لقد تغيّرتْ أشياء كثيرة منذ لقائنا الأخير وأردت أن أشرح لك الملابسات وجهًا لوجه.. لقد وجدتُ نفسي مضطرًا للشهادة ضدّ والدك منذ أيّام، لست فخورًا بهذا.. في الحقيقة أنا مسرور لنجاته بعد كلّ ما حدث. أعتقد أنّك قد عرفت بما حدث، لقد أنقذ حياتي!

كان آدم قد عرف التّفاصيل بالفعل. كان تحوّل الأحداث مثيرًا للاهتمام ولعلّ الشّاهد، لا يعمل الضّغينة تجاه والده بعد الآن لكنّه لم يكن سليم الصّدر تجاه شخص آخر.

- لقد أردتك أن تدرك شيئًا.. لقد حملني «كوتانا» تافي على شهادة الزّور.

حبس آدم أنفاسه في صدمة.. تافي؟ لقد كانت شكوكه تحوم حول عمّار وحده. «لستُ عدوّك»، كانت تلك كلماته قبل افتراقهما، لم يعرف عدوّه الحقيقيّ طيلة الوقت!

- في واقع الأمر، لقد حملني على أشياء كثيرة خلال السّنوات السّالفة! بعد أن أدليت بشهادتي أمام المجلس عشتُ أيّامًا أتقلّب على الجمر، لقد كرهتُ حياتي وأردت أن أتجنّب تافي وألاعيبه التي سمَّمت روحي، اختفيت في الغابة وراقبت تحرّكات الحرس خلسة حتّى رأيت والدك يُساق إلى الشّاطئ. لقد رحل ذات يوم وكان قادرًا على العودة، لقد أدركت أنّني لن أجد فرصة أفضل من اتّباعه، أيًا ما كان العالم الذي سيأخذني إليه فإنّه سيكون خيرًا لي من البقاء...

أخذ آدم نفسًا:

- ما الذي جعلك تخشى تافي وتذعن لسيطرته كلّ هذا الوقت؟

- لقد ارتكبتُ خطأً منذ خمسة وعشرين عامًا وأنا أدفع ثمنه منذ ذلك الحين!

- خطأ؟ أيّ نوع من الأخطاء؟

زفر إبراهيم بعمق ثمّ أخذ يعترف:

الجرم الذي اتّهم والدك به كنت أنا مرتكبه! لقد وضعتُ الحجر
أمامه، ومكّنته من السّلاح الذي قتل به غريمه! لكنّ تافي انتبه إلى
ما فعلته دونًا عن كلّ الحضور. لقد كان شاهدًا على فعلتي فاستمرّ
يخزني كلّ هذا الوقت! كان يملك حياتي بين يديه فعليًّا، يموت
الناس على هذه الجزيرة لأتفه الأسباب، لقد كنت محاصرًا بلا
مهرب، وشاية بسيطة منه كانت ستجعلني أُنفَى على الفور، إنّه ذو
دم مقدّس، هل تفهم؟ آخر من ينتمي إلى سلالة المعلّم الرّوحانيّ،
لكنّ الاستسلام لتهديداته كان أسوأ من النّفي. لقد جعلت نفسي
دمية بين يديه يحرّكها كيفما يشاء فأقدمت على أعمال كثيرة أخجل
من ذكرها، طاعة لأوامره. حين أصبح حكيمًا خليفة لوالده حسبت
أنّ مهمّتي قد انتهت وأنّه لن يورّطني في ألاعيب جديدة إذ أصبح
ذا سلطة تخوّله إنجاز كثير بنفسه، لكنّه أصبح رجلًا خطرًا يستحقّ
الخشية أكثر من أيّ وقت مضى...

لم يعد آدم في انتباه إلى اعترافات إبراهيم. تافي! الرّجل الوحيد المتبقي
من سلالة سليمان بن إبراهيم، لا يزال يحمل إرث أسلافه وينفّذ إرادة جدّه
بكثير بخانٍ وإخلاص والحرّاس يصغون إليه ويتّبعون أوامره، يواصلون
مهمّة الحماية المقدّسة من الغرباء الشياطين.. سأل في حيرة:

- لكن.. لماذا؟ ما الذي جعلك تضع الحجر أمام والدي؟

تنهّد إبراهيم في تهكّم ثمّ قال:

- كنت أصغي لابتزاز من نوع آخر، لقد أمرتني والدتي بتوفير سلاح
الجريمة حتّى تنقذ ابنتها من النّفي! لقد أدركتُ في ذلك اليوم أنّ
حياتي لم تكن ذات أهميّة بالنّسبة إليها، لم تفكّر في مصيري بعد تلك
الحادثة وما قد يحدث لي إذا ما اكتشف أحدهم فعلتي! ولقد فعل

تافي وحوّل حياتي إلى جحيم! لذلك انتهت علاقتي بها منذ ذلك اليوم، لم أزرها قطّ في إقامتها الجبريّة، أصبحنا غريبين منذ ذلك اليوم!

حدّق آدم في الرّجل وقد اعتراه الذهول! خاله! لقد كان إبراهيم خاله! كانت كلمات عمّار والمعالجة مارتا تتخّذ معاني واضحة في ذهنه أخيرًا، لقد فقدتْ المعالجة العجوز ولديها في اليوم ذاته: اختفت ابنتها وراء المحيط مع الغريب وهجرها ابنها المتبقّي إلى الأبد!

هل يعلم أشرف من يكون الرّجل بالنّسبة إلى زوجته؟ هل يدرك إبراهيم أنّ شقيقته لا تزال على قيد الحياة في مكان ما من العالم؟ لم يبد أنّ الرّجلين قد بلغا ذلك القدر من المصارحة وإلا كان أشرف قد أخطره ولما احتاج إبراهيم إلى تلك الخلوة به!

سأل آدم أخيرًا في اهتمام:

- وما الذي تنوي فعله الآن؟

- لم يعد بقائي ممكنًا على الجزيرة.. لقد كرهت هذه الحياة!

- أليس لديك أبناء؟

امتقع وجه الرّجل وازدرد لعابه في توتّر ثمّ قال بحزن جليّ:

- لديّ ولدان.. لكنّ فضيحة شقيقتي منذ ربع قرن ومحاكمة والدتي بالعزل جعلت زوجتي تتنكّر لي! لقد عشتُ سنوات على هامش الحياة، لقد آذيت كثيرين بتحفيز من تافي ممّا زاد من تعقيد الوضع، لقد حسبت أنّ أسوأ ما قد يحدث لي أن أضطرّ إلى مغادرة الجزيرة لكنّني بتّ أعتقد أنّ هذا هو الخيار الوحيد المتبقي لإنقاذ نفسي من الحضيض الذي وصلت إليه!

@ART_OF_BOOK

(29)

اليوم التّاسع والعشرون

أفاق آدم مبكّرًا، كذا صار يفعل أخيرًا فلا ينال من النّوم إلا نصيبًا
صعد إلى السّطح على الفور يروم التطلّع إلى الأفق علّه يبصر مركب
مقبلًا وعلى متنه مبعوث المجلس بالجواب لكن ما قابله كان
مختلفًا جعله يرمش في شكّ ويفرك عينيه طلبًا لليقين!
انصبّت ملامحه وهو يحدّق في الأجسام العائمة التي تحفّ «الأسطورة»
من الجانبين، بدا أنّ السّفينة الضخمة قد استُنسخت إذ ظهرتْ إلى جوارها
مجرّدتان تكادان تطابقانها من ناحية الحجم والمهابة غير أنّهما لم تكونا
مجرّدتين مسطّحتين بل مجسّمات ثلاثية الأبعاد حقيقٌ بها أن تبثّ الرّعب
في أكثر المُسخَّرين ضبطًا للنّفس.

- ما رأيك في الأسطول؟

التفت آدم ليواجه مايك الذي كان قد سبقه إلى السّطح منذ آونة..
الأسطول؟ هل هناك سفن غيرها؟ لعلّ الأجسام الضّخمة التي تسدّ الأفق
هي أخرى مشابهة لها، كتل معدنيّة ضخمة تبسط سيطرتها على حدود
الضباب، لكنّه لا يفهم: هل يستعدّ مايك راسل لتحميل كميّات ضخمة
من «حجارة الشّمس» تحتاج إلى كلّ هذه السّعة؟ كان آدم يشكّ في احتواء
السّفن على هذا القدر من الحجارة أساسًا! من المؤكّد أنّه لم يطّلع على
تقارير الغارة كلّها، قد تكون هناك كميّات وفيرة من المادّة المتوهّجة بالفعل

لكن جشع مايك يثير في نفسه الرّهبة! هل يفلح في إقناع نصف السّكان أو حتّى ثلثهم ببيع نصيبهم من الحجارة له؟ قد تكون السّفن الأخرى محمّلة بالذّهب والمعادن أو بالعملة التي سيدفع عن طريقها ثمن مشترياته، لكنّه قطعًا لا يحتاج إلى أسطول كامل من سفن الشّحن العملاقة!

- ما الذي تنتويه؟

سأل آدم مرّة أخرى، لقد أجاب مايك استفساره أمس لكن أمام المشهد المهيب لم تعد الإجابة مقنعة! أيًا ما كان يبيّته مايك فهو لا يورثه أدنى قدر من الاطمئنان، همس مايك كمن يبوح بسرّ خطير:

- سوف نُنزل القوارب ونمضي باتّجاه الجزيرة!

اختفت الألوان من وجه آدم وهو يسأل:

- هل رجع مبعوث الحكماء؟

- لم يفعل، ولا أحسبه سيفعل في القريب، لكنّني انتظرت أربعًا وعشرين ساعة حتّى يصل أصدقاؤنا.. الآن لا سبب لمزيد من التّسويف، غدًا هو اليوم الموعود!

حبس آدم أنفاسه، إذًا لم يكن مايك يهتمّ بموافقة مجلس الجزيرة، لم يكن سكونه احترامًا بل ترقّبًا للتّعزيزات! لكنّ هذا لا يفسّر شيئًا بعد، قال في حيرة:

- هل تعرف في أيّ اتّجاه تنطلق؟ كيف ستصل إلى الجزيرة المخفيّة وسط الضّباب؟

اتّسعت ابتسامة مايك وهو يردّ في تباهٍ:

- لقد حللتُ هذه المعضلة بالفعل، حين رحل المركب أمس تبعته قواربنا على مسافة كافية وتركت علامات على امتداد الطريق!

علامات؟ على الماء؟

ضحك مايك ملء شدقيه ثمّ قال:

- أجسام عائمة مترابطة في ما بينها بالحبال، لقد عملت ثلاث فرق على تثبيتها يوم أمس وتناوبت حراستها.. يبدأ المسار الموسوم من حدود منطقة الضّباب وينتهي على بعد ميل واحد من اليابسة، مسافة كافية تظهر منها الجزيرة بوضوح للعيان فلا نُخطئ الوجهة مع البقاء بعيدين بقدر لا يثير ريبة أصدقائنا المحليّين، لقد حرصنا على إخفاء آثارنا وعدم إثارة الانتباه قدر الإمكان.

ابتسم آدم في تهكّم، هل يحسب مايك أنّه يواجه أفرادًا عاديّين؟ لا يشكّ لحظة واحدة بأنّ الحرّاس والمُسخَّرين قد راقبوا تحرّكاته وكشفوا لعبته منذ أمس، لا شيء يفوت المجلس ورجاله داخل حدوده، لقد عرفوا بوجود السّفينة حتّى وهي ترابط خارج الحدود!

فاجأه مايك وهو يضيف:

- حتّى لو عرفوا بوجودنا في الجوار فنحن جاهزون لمواجهتهم.

- لا يمكنك الاستخفاف بالمُسخَّرين.. لو كنت مكانك لما جازفت بمواجهة أحدهم!

هزّ مايك كتفيه وهو يقول في استهانة:

- لديهم أسلحتهم ولدينا أسلحتنا، ولا أعتقد أنّ أحدهم سيحاول تنفيذ أيّ عمل متهوّر بعد أن تنفجر أوّل رصاصة! ربّما يكون لديهم عدد قليل من المُسخَّرين ذوي القدرات الخارقة لكنّ كلّ رجل منّا مُسخَّر من نوع مختلف حين يحمل على كتفه بندقيّة!

سلاحًا لم يعتقد آدم أنّ التّصعيد سيصل إلى ذلك المستوى وبتلك السّرعة! لكنّ مايك ربّما لا يزال يجهل نقطة ذات أهمّيّة، لن يقاوم رجاله المسلّحون مناخ الجزيرة المعادي لأكثر من ساعات قليلة.. بعدها سنصبح أسلحتهم بلا فائدة إذا ما حرمتهم الـ«ماغداخا» حبوبها السّحريّة.

ضيّق مايك عينيه وهو يتابع تقلّبات تعابير آدم عن كثب ثمّ سأله في اهتمام:

- هل هناك ما يجدر بي أن أحترس بشأنه بعد؟

ازدرد آدم لعابه في توتّر، إبراهيم وأنوش، لا يشكّ بأنّهما قد تحدّثا وربّما انفلت لساناهما بإسراف، لا يمكن أن يكونا قد أغفلا هذا النّوع من التّفاصيل، لكن ماذا لو فعلا؟ لا يريد أن يكون أوّل من يحذّره بهذا الصّدد، إلّا أنّه قد يخسر ثقته إن لم يفعل، لا يزال يعتقد أنّه قد ينجح في التّأثير في مايك إذا ارتدى عباءة النّاصح الصّدوق، ثمّ قد يؤدّي إدراك مايك للخطر إلى تأخير إنزاله أو إلغائه تمامًا، قال آدم أخيرًا:

- المادّة الفضيّة.. إنّها تتسبّب في تأثيرات عميقة في الماء والهواء، لا يمكن للغرباء تحمّلها! إن لم تحصل على الدّواء خلال ساعات من وصولك إلى أرضها ستتدهور وظائف الجسم تدريجيًّا.. ثمّ تموت!

التمعت في عيني مايك نظرة غامضة ثمّ هزّ رأسه بحزم وقال:

- شكرًا لتحذيرك يا صديقي!

لم يبح بمزيد، غير أنّ آدم شعر بأنّه قد أحسن صنيعًا، عاد مايك ليقول وهو يطالعه في اهتمام:

- هل لديهم قدرات خارقة حقًّا؟ هل عاينتها بنفسك؟ يتابني فضول كبير لرؤيتها بعيني رأسي!

***

استمرّ القلق ينهش صدر آدم طيلة النهار، كان يشارك مايك سرّه ويخفيه عن بقيّة ركّاب الرّحلة، لازمه إحساس بالخزي خاصّة إزاء روان، التي لا يضمن ردّة فعلها إذا ما أخبرها بما يعرف، قد تتهوّر وتكشف تواطؤه أمام مايك، إنّه يلعب لعبة خطرة: يحاول أن يكون محلّ ثقة الطّرفين لكنّه لا يُحسن هذا النّوع من اللّعب ولا يمكنه أن يكون عميلًا مزدوجًا بلا ضمير، مع الوقت يكاد يفقد البوصلة.. أيّ الطّرفين تستحقّ مصالحه الحماية؟ وأيّ الأسرار يجدر به أن يحفظ؟

لقد كان مشهد السّفن المهيبة واضحًا للعيان بقدر لا يترك مجالًا للإنكار إلا أنّ مايك كان يجد العبارات المناسبة لطمأنة المعالِجة وتأكيد مزاياه الحسنة: لقد أرسل إلى سفن الشّحن التي تتبعه للانضمام إليه، بعضها محمّل بالسّلع التي يحسب أنّ سكّان الجزيرة يحتاجون إليها وبعضها يركبه مستكشفون بادروا إلى الإبحار في اتّجاهه حين بلغهم وقوعه على جزيرة غير مُدرجة في خرائط العالم الحديث، مجرّد فضول علميّ!

انقضى يوم آخر دون أن يأتي خبر من الجزيرة وحكمائها وانزوى فيوف مايك وتجنّب بعضهم الاحتكاك ببعض، كان أنوش وإبراهيم بجنبات السّطح وكان آدم يلوذ به معظم الوقت هربًا من مساءلة روان المُخجلة، لم يتحدّث كثيرًا طوال اليوم وكانت غمزات مايك المتواطئة من حين إلى آخر تثير غيظه، كان يذكّره ضمنيًّا بأنّهما على الجانب ذاته.

عند المغيب جاءت مانويلا لتقف إلى جواره مقاطعة شروده وتأمّله، قالت دون مقدّمات بابتسامة ماكرة:

- ليست باهرة الجمال.. لم أعتقد أنّ الصّنف الجادّ والحازم يستهويك!

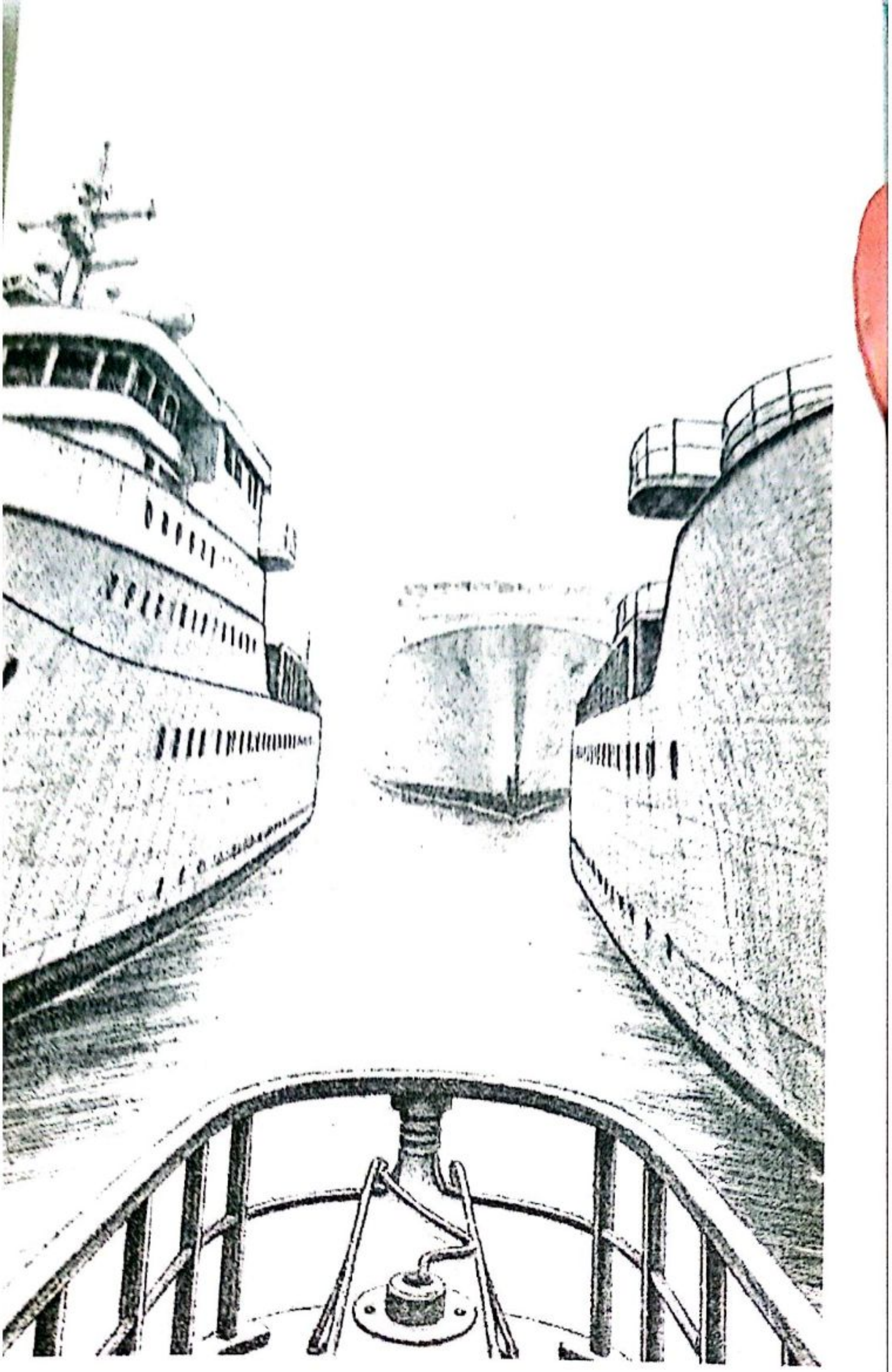

عض آدم شفته الجافّة وتجاهل تلميحاتها، لم يكن في مزاج يسمح باللّهو
ومانويلا تبدو خالية البال بشكل مزعج بالنّظر إلى ما يخطّط له والدها! لم
يدر إن كانت فعلًا بتلك البراءة أم أنّها تتقن دورها كعامل إلهاء، استمرّت
بتحويل إزاء صمته:

- لقد تحدّثنا طويلًا هذا الصّباح..

نجحتْ هذه المرّة في إثارة انتباهه، كان يجب أن يدرك أنّها قد تنهض
بمهمة استدراج المعالجة وفكّ لجام لسانها، الطّبيعة الأنثويّة قد تميل إلى
الانفتاح إزاء بنات جنسها إلّا أنّ روان لن تكون فريسة سهلة، هي تعلم
أنّ مصير قومها على المحكّ، أمّا الآن فلعلّ مانويلا تحاول الحصول على
معلومات منه، تلك التي فشلت في استخراجها من بين شفتي المعالِجة عن
طريق التلاعب والإيهام.

استعاد آدم رباطة جأشه وهو يقول في لا مبالاة مصطنعة:

- هل تسلّيتما؟

- أظنّ أنّنا فعلنا، كان حديثنا عنك بالمناسبة!

اتّسعت ابتسامة مانويلا كأنّها تستفزه إلّا أنّه تمتم بفتور:

- لم أدرك أنّ شخصي المتواضع قد يكون موضوع حديث ملهم.

وكزته مانويلا بمرفقها في خاصرته وهو تقول من بين أسنانها:

- أنت ممل!

تراجع آدم ليتجنّب حركتها فانتبه إلى روان الماثلة على قيد خطوات
وراءهما وقد اكتست سحنتها شحوبًا أضاف إلى بشرتها درجة إضافيّة من
البياض، نقل بصره بين الفتاتين وقد اعتراه دوار البحر والحيرة.

تساءل إن كان ما يكنّه لروان حبًّا حقيقيًّا أم مجرّد افتتان عابر؟ وهل كانت مشاعره اللّحظية التي لا يتجاوز عمرها شهرًا واحدًا تستحق أن يضحي من أجلها بحياته على الضّفة الأخرى ويتجاهل جرائم قومها؟ تنهادى مانويلا إلى جواره في دلال مثل غواية العالم المتحضر في حين تمثّل روان كل المبادئ التي يمجّدها ولا يجرؤ على نصرها ملء إرادته.

قبل أن تنطق أيّ من الفتاتين سارع يقول وهو ينسحب باتّجاه الدّرج:

- ربّما تودّان الحديث على انفراد.. حديث فتيات!

ابتعد مسرعًا تحت نظراتهما الذّاهلة، تمنّى في داخله لو كانت مساحة السّفينة أكبر، لو كان على سطحها ملاذ مثل الصّخرة يواريه عن العيون بعض الوقت! إنه يشعر بدودة القلق تنهش أحشاءه ولا يملك أن يشارك همومه أحدًا، خاصّة روان!

طرق باب غرفة والده تلك اللّيلة، كان أشرف كعادته منعزلًا عن الآخرين فلم يلتقه طيلة اليوم، بغير تخطيط طلب معظم المسافرين تناول وجباتهم في مقصوراتهم المنفردة تجنّبًا لرياح العاصفة التي أخذت تهبّ خلال اجتماعات قاعة الطعام.

قال أشرف وهو يدعو ولده إلى الدّاخل:

- تذكّرتُ شيئًا طريفًا قد يهمّك الاستماع إليه، حين رأيت الحوت الذي يركبه المُسخِّر استحضرتُ مشهدًا من رحلتي منذ خمسة وعشرين عامًا! تخيّل.. لقد لمحتُ حوتًا فضيًّا مماثلًا فيما كنتُ أبحر مبتعدًا عن الجزيرة! ثمّ رصدته في مناسبات متكرّرة بعد ذلك، يظهر ويختفي في المحيط، حتّى حسبته يتبع اليخت!

أطلق أشرف ضحكة قصيرة إلا أنّ آدم بدا جادًّا تمامًا وهو يسأله:

هل كانت أمي تروّض الحيتان؟

حدّق أشرف في ولده برهة قبل أن يستوعب قصده.

هل تقصد على الجزيرة؟ لا أعرف إن كانت قد فعلت.. لكنّها تأنس الأسماك والحيتان، أذكر غير مرّة أنّ الدّلافين تأتي لتداعبها على أطراف البحر حين كنّا نقيم في منزل الشاطئ!

تبسّم آدم وهزّ رأسه في رضا.

@ART_OF_BOOK

(30)

اليوم الثلاثون

قبل أن تشرق شمس اليوم الجديد طرق آدم باب مقصورة روان فتحت الباب على الفور، كانت متحفّزة ومستنفَرة الحواس، ربّما تنام واحدة مستعدّة للحظة التحرّك وما إن وقعت نظراتها عليه حتّى هتفت بانفعاد صبر:

- هل رجع أوران؟

هزّ آدم رأسه علامة النّفي ثمّ تجرّأ ليخطو داخل الغرفة ويغلق الباب خلفه. تراجعت روان واستمرّت تطالعه في دهشة، كان ظهوره في مقصورتها غير متوقّع باعتبار تجنّبه إيّاها كالهارب من الطّاعون أمس، أخذ يهمس في حذر:

- مايك يخطّط للإنزال في وقت قريب! لن ينتظر عودة أوران بقرار مجلس الجزيرة!

أعاد على مسامعها باختصار فحوى الحديث الذي دار بينه وبين المستثمر نفس فانتفعت سحنتها، لقد أضناه التّواري وممارسة لعبة الاختفاء وفشل في الحصول على قسط كافٍ من النّوم، كان يجب أن يتحدّث. قالت في حيرة:

- لكن لماذا؟ لماذا يريد الشيطرة على الجزيرة و الـ«مادرا»؟ هذه الأرض ليست له و«حجر الشّمس» لا ينتمي إلى عالمه! ألا تُجرّم قوانين عالمكم الاعتداء على أملاك الآخرين؟

ابتسم آدم في سخرية وهو يقول:

- إنّه يفعل هذا لأنّه يستطيع! إنّ القانون الأهمّ في عالمي هو قانون القدرة: يعتدي القويّ على الضّعيف لأنّه قادر على ذلك، يستولي المحتلّ على ثروات البلاد البعيدة والقريبة لأنّه يمتلك العدّة والعتاد لذلك! المحاكم الدّوليّة قد تجرّمه وقد تفرض عليه ضريبة لكنّها لن تمنعه من الاستمرار، ستشجب وتستنكر وتندّد، تنشر العرائض وترسل مبعوثي السّلام لكنّها لن تواجه القويّ ولن تردعه حتّى يكتفي، وربّما يقاسمها جزءًا من الغنيمة فتصمت إلى الأبد!

ابتلّت رموشها وظهرت علامات الخيبة على ملامحها.

- هل هذا هو العالم الذي تنتمي إليه؟ هل يستحقّ هذا العالم أن نذهب إليه ونضحي بكلّ شيء لنصبح جزءًا منه؟

زفر آدم في ضيق. عالمها الصغير مثاليّ مثل مدينة فاضلة حتّى لو كان ظالمًا بقدر ما فهو أفضل بمراحل من «غابات العالم» التي يسودها الأقوياء ويُسحق فيها الضّعفاء. حين يفكّر في التّاريخ القديم والحديث يدرك أنّ العالم لن يخرج في القريب عن سيطرة الرّجل الأبيض وعقدة التفوّق لديه، ليس مطّلعًا ولا مفوّهًا مثل البروفيسور أشرف، يمكن لوالده أن يقدّم محاضرات مطوّلة عن تاريخ الحضارات وجرائم الرّجل الأبيض تجاه السّكان الأصليّين في مختلف بقاع الأرض، تلك الرّقعة الخفيّة تحت غطاء الضّباب كانت محظوظة حتّى اللّحظة لأنّ يد الاحتلال لم تطلها غير أنّه لم يعد واثقًا من استمرار الوضع على ما هو عليه بعد الآن!

ثم هذه المرّة إزاء شعب أبيض بل أشدّ بياضًا من كلّ درجات
التي يعرفونها ويمتلكونها، شعب الجزيرة يتربّع على عرش البياض
، وباعتبار قوانين «استعلاء البيض» غير المدوّن فيجب ألا يتجرّأ
أحد! لكن ها هم أولاء على أبواب الظلة!

آدم قد وجد الكلمات المناسبة للردّ حين تعالت صيحات البحّارة
صيح وتحرّكت الأقدام على السّقف فوقهما بنسق سريع وعمّ الهرج
تحرّكا على عجل وتوجّه كلاهما إلى الدّرج ليُشرفا على المشهد،
صيب آدم بالذّوار، لم يكن الصّبح قد أسفر بعد وبدت الظلال من
شبحيّة مثل خيالات الدّمى على المسرح.

بدت أعداد كثيفة من البحّارة -أو المرتزقة أو القراصنة، من يدري!-
متشعّبة على السّطح، أعداد لم يكن آدم يدرك أنّها تسافر على متن
السّفينة ولا كيف وصلت إليها لكنّ ذلك لم يكن مصدر صدمته، كان
رجال يرتدون بدلات وقاية بيضاء تغطّي كلّ أعضاء الجسم بالإضافة
إلى زجاجيّة على الرؤوس في حين يضع آخرون أقنعة مزوّدة بمصفاة
للكيميائيّة ويستعدّون للقفز إلى زوارق النّجاة المطّاطيّة.

يشهد لآدم مقتبسًا من بعض أفلام الخيال العلميّ! تثير البدلات
لديه ذكرى رجال فضاء يغامرون على كوكب غلافه الجويّ مجهول
السّمّيّة أو توغّل علماء كيمياء في محيط كارثة نوويّة! كان هناك العشرات
من تلك الأوكسجين التي يحملها بعضهم على ظهورهم مثل
غوّاصين محترفين لكنّهم لا يستعدّون للغطس في أعماق المحيط بل في
عوالم جويّة! حين التفت إلى روان كانت غائبة في صمت صاخب
بمعرفة مسبقة لا يُسمع فحواها!

لم تدم في غفلتها

- كان يعرف!

لم يكن تأجيل الإنزال بسبب الحلفاء المسلّحين وحسب بل لانتظار البدلات الواقية التي تصحبهم، لقد أحاط مايك بالوضع كلّه منذ أسبوع على الأقلّ فطلب المعدّات والمَدد على الفور، الآن، أمام عيني آدم، تستعدّ فرقة مسلّحة ومجهّزة لدخول منطقة الضّباب ليس زوّارًا مستكشفين أو تجّارًا مسالمين بل إنهم مقاتلون في مهمّة حربيّة تسعى إلى فرض سيطرتها بأيّ وسيلة كانت!

استرجع كلمات والده عن الدّمار الذي يخلّفه المستكشفون البيض القدامى: إنّهم يسرقون خيرات الأرض ثمّ يحرقونها فيذرونها قاعًا صفصفًا ويسحقون كلّ مَن يقف في طريق تحقيق مطامعهم الدّنيئة. همس آدم في ذعر:

- يجب أن نسبقهم! هل تعتقدين أنّنا قد نتمكّن من بلوغ الجزيرة في الوقت المناسب لتحذير الجميع؟

«الهجناء يصلون دائمًا» تلك نظريّة والدها التي ربما يكون الوقت قد حان لتأكيدها أو تفنيدها، ستكون مخاطرة، سيضطرّان إلى سرقة زورق ما وسلوك طريق تنحرف عن المسار الذي ترك جنود مايك علامات على امتداده فإمّا يصلان في الوقت المناسب وإمّا يتوهان في المحيط الشّاسع إلى ما شاء الله.

أومأت روان بقوّة، لا يدري إن كان مأتى عزمها ثقتها في رجاحة عقل والدها أم اعتمادها على تجربة آدم السّابقة، لعلّها يائسة إلى درجة تدفعها إلى مغامرة غير محسوبة العواقب، وربّما لا هذا ولا ذاك وإنما اعتدادها بذاتها وخبرتها كمعالجة لا يشقّ لها غبار.

استدارا متسلّلين إلى الطّابق الأسفل من حيث أتيا مبتعدين عن زحام الحجارة المستفزّين ثم توقّفا حين قابلهما مايك بابتسامة واسعة وبصحبته مانويلا، كان مايك يتحدث ومانويلا تلاحقه بالترجمة:

أرى أنكما قد اطّلعتما على الاستعدادات، مفاجأة لطيفة.. أليست كذلك؟

كانت في صوته هنّة سخرية جعلت روان تزمّ شفتيها في حزم وقد تطاير الشرر من حدقتيها، لم يعد مايك يتملّقها أو يدّعي الوداعة والكرم، لقد صارت نواياه جليّة لكلّ ذي بصر فضلًا عن البصيرة.

- أردتُ أن أشكرك يا صديقي لأنّك نبّهتني بشأن المناخ العدائيّ للجزيرة. من حسن الحظّ أنّنا تمكنا من الحصول على المعدّات في أجَلٍ قياسيّ! معدات أوروبية عالية الجودة كانت في طريقها إلى اليابان تحت طلب مشغلي المفاعلات النووية لكنهم وجدوا عرضًا أفضل في السّوق الصينية! تخيَّل، كانت الشحنة المرتجعة تعود أدراجها لكنّني تمكنت -بشبكة علاقاتي الخاصّة- من تحويل وجهتها، وهكذا وجدت لها موطنًا جديدًا خلال أربع وعشرين ساعة!

استدارت روان لتحدج آدم بنظرة قاسية فيما حملق آدم فيهما بارتباك، لم يكن الأمر كما يدّعي مايك على الإطلاق، لقد أخبره بهذا الشأن، لا يسعه أن ينكر، غير أنّ وصول الأجهزة والبدلات بتلك السّرعة مستحيل تمامًا! قد لا تكون قصّته مختلقة بالكامل لكنّه يبالغ لا شكّ بالنّسبة إلى آجال الشحن.

إلا أنّ الـ«ماغداخا» لا تعرف شيئًا عن القيود اللوجستيّة للشّحن البحري، العالم الخارجيّ بالنّسبة إليها مجرّد أرض قريبة تصل إليها عبر طريق إبحار مستمرّ، لا يمكنه أن يشرح لها هذا دون أن يعترف بأنّه قد حذّر مايك بالفعل وذلك ذنب لا فكاك منه!

- آدم.. هل أنت مستعد؟ سترافقنا في الرّحلة الاستطلاعيّة.

كان آدم لا يزال يحدّق في روان ويفكّر في شكل الاعتذار المناسب، لكن مايك سبقه حين خاطبها بلطف مبالغ فيه:

- آنستي.. هلّا رجعتِ إلى مقصورتك رجاء؟

- ماذا؟ هل ستحتجزني هنا؟

صرخت بلهجة عدائيّة فقال مايك مداهنًا:

- إنّه مجرّد احتياط ضروريّ، الخطة «ب».. في حال فشلت الخطة «أ» السّلميّة، أميل دائمًا إلى التفكير بكلّ الاحتمالات ودراسة المخارج الممكنة، مجرّد غريزة رجل أعمال.

ثمّ أطلق ضحكة صاخبة لم يشاركه إيّاها أحد.

سارت روان إلى مقصورتها في خطوات غاضبة دون مقاومة تتبعها مانويلا، في حين قال مايك وهو يشير إلى الحارسين عند بابها:

- اعذري وقاحتي آنستي، إنّها مجرّد تدابير للسّلامة، ستعودين إلى أهلك خلال أيّام على الأكثر، أنت ضيفة مبجّلة لدينا حتّى ذلك الحين.

تجاوزت المعالجة العتبة وصفقت الباب خلفها في سخط، لم يرها آدم من قبل بذلك القدر من الانفعال فيما هزّ مايك كتفيه وخاطب الحارس بصرامة:

- إذا حاولتْ الهرب لا تتردّد في إطلاق النّار!

ارتجفت أوصال آدم مع كلمات مايك الباردة في حين أضاف الأخير وهو يبتسم تجاهه:

- سأكون في انتظارك على السّطح.. هناك بدلة حماية من أجلك.

أوما آدم دون أن يعلّق، لا يزال مايك يجهل هذا بشأنه على الأقلّ: أنّ هواء الجزيرة لن يشكّل أدنى خطر بالنّسبة إليه، قال متلطّفًا:

- سأتحدّث إليها أوّلًا!

ابتسم مايك متفهّمًا ثمّ خطا مبتعدًا.

أخذ آدم نَفَسًا عميقًا ثمّ طرق على باب المقصورة، طال انتظاره دون أن يحصل على إذنها، فأدار الأكرة في حذر ودفع الدفّة برفق وقال حين لمحها تجلس معقودة الذراعين على السّرير:

- هل يمكن أن تمنحيني فرصة للشّرح؟ تلك المعدّات لا يمكن أن يكون مايك قد طلبها أمس، هذه التّجهيزات تحتاج إلى أيّام بل أسابيع في الظروف الطبيعيّة حتّى تُشحن من أيّ أرض كانت! لا أدري كيف نجح في الحصول عليها حتّى!

طالعته روان بنظرة منكسرة ثمّ قالت بنبرة يغلّفها الحزن:

- آدم، أنتَ لست شخصًا سيّئًا.. لكنّك تنحاز إلى الجانب الخطأ!

نأفّف في سخط ثمّ أخذ يهتف:

- أنت لا تصغين إليّ! أتدرين، لولا عنادك لما وصلنا إلى هذا.. لم يكن عليك البقاء أساسًا! لو أنّك رحلت مع أوران لما كنّا نواجه هذه الأزمة الآن!

استمرّت تقول كأنّها لا تسمعه أو تُلقي بالًا إلى كلماته:

- لقد رأيتُ رؤيا بشأنك!

حدّق فيها للحظة غير مستوعب، ما الذي تهذي به الآن.. رؤيا؟ كادت شفتاه تنفرجان في ابتسامة ساخرة، مسألة المُخلِّص هذه تطفو على السّطح مجدّدًا، فليعترف أنّها أوفر ابتكارًا من والدها.. محاولة جيّدة، إلّا أنّ هذا آخر ما يودّ الحديث بشأنه في هذه اللّحظة، قال في برود:

- رؤيا إذًا؟

تابعت روان بلهجة جادّة:

- كان ذلك قبل مجيئك إلى الجزيرة.. منذ شهر تقريبًا، رأيت في المنام سحابة بيضاء ذات أجنحة هبطت على الشّاطئ وكنت أنتَ على متنها، لم تكن ملامحك واضحة لكنّني أدركت أنّه أنت حين لقيتك، ثمّ انتشر النّور في كلّ مكان، والسّماء كانت صافية ومشرقة بلا ضباب...

كان يبتسم الآن في شيء من المرارة، هذا لن يؤدّي إلى أيّ شيء بتاتًا، لكنّه يدرك ما تحاول فعله.. هل تذكّره بانتمائه؟ المجد الذي يفترض به أن يحقّقه؟ واجبه تجاه قومها؟ هزَّ رأسه عدّة مرّات وهو يتحرّك في الغرفة بلا وجهة ثمّ استدار ليواجهها، قال في قسوة كأنّما يبصق في وجهها:

- لقد حاول الحرّاس قتل أبي! قومك يفعلون هذا بالغرباء!

تسمّرت روان مكانها محجمة عن الرّد، لا تنكر ولا تستنكر، لا تدافع ولا تبرّر! حاول أن يقرأ في عينيها: هل كانت تدرك؟ هل كانت هي من طلب مساعدة نوح؟ وحين عجز عن فكّ شيفرة نظراتها، زفر في حدّة ثم اتّجه إلى الباب مغادرًا.

قبل أن يصفق الباب خلفه استدار نحوها وقال بلهجة محذّرة:

إنهم يملكون أسلحة، لا تتهوّري!

توقف خارج المفصورة وقد تملّكه نوعٌ من الحنين، ربّما لن يراها ثانية، تكون تلك كلماته الأخيرة لها.. تنهّد بعمق ثمّ خطا مبتعدًا.

يكون عليه أن يتنكّر، يرتدي البدلة التي أحضرها مايك من أجله مفاوضًا باسمه، يتبدّل موقعه من المعادلة مرّة إثر المرّة وهو لا يعرف بعد ما الذي يمكنه عمله لإيقاف الصّراع المتوقّع! سيكون خائنًا في بعض أهل الجزيرة وهو يرجع إليهم بشكل لا يعرفونه تمامًا كما تراه روان الآن، ما إن يختار البدلة حتى يكون قد خسر لقبه كمُخلِّص، لا يمكن أن يكون حليف مايك ومُخلِّص السّكان المحلّيين في الوقت ذاته!

توقف يراقب الحركة الدّؤوب على السّطح، تنزل الزّوارق المطاطية إلى لجة دويّ ارتطام صاخبًا، ثمّ يقفز الرّجال إليها متعلّقين بالحبال، آخرهم أخيرًا، انزلق داخل البدلة البيضاء في حركات ميكانيكيّة، ذهنه مشوّش ومعطّل عن التّفكير السليم، سيكون عليه أن يركب قاربًا الآن ولا يعرف ما سيأتي بعد ذلك!

حين استدار ليُلقي نظرة أخيرة على السّطح، قابلته نظرات والده الجهمة تقول في صمت: «إنّ أسوأ ما قد يحدث لأرض مجهولة أن

إنهم يتخذون قراراتهم دون استشارته ثمّ يلومونه على ما تؤول إليه الأمور! لقد أحضر أشرف المستكشف بنفسه، لقد فعل والده به هذا حين صاحبه في رحلته، لقد ورّطه والآن يجرؤ على إرسال نظرات الاستهجان إليه!

ما ضرّ كولومبس لو أنه احتفظ بأمر الأمريكتين لنفسه؟ ألم يكن الهنود الحمر ليعيشوا بهناء في أرضهم إلى يومنا هذا؟ لماذا كان عليه أن ينشر الخبر ويجعل الآلاف يركبون السّفن المحمّلة لتعمير الأرض الجديدة؟ ومستكشفو اليوم هم الأسوأ على الإطلاق! يرتحلون مدّججين بالعدسات والمعدّات وما إن يعثر أحدهم على قرية نائية أو شاطئ هادئ حتى يلتقط عشرات الصّور وينشرها على مواقع التّواصل الاجتماعي فتتحول «الجنة الضّائعة» إلى مزار سياحي شهير خلال سنوات قليلة!

وهذه الجزيرة على وشك أن تصبح محطّة إنزال لوفد من المستكشفين الشّرسين.

تأرجح القارب حين وطئت قدماه أرضه الطافية على الماء، أرسل بصره إلى البعيد.. لم تكن الجزيرة تظهر للعيان من تلك المسافة، تذكّر في شيء من الحنين هبوطه الاضطراريّ منذ نحو شهر في تلك المياه ومغامرته التي تلت، إنّه على وشك الوصول مرّة ثانية في ثوب جديد وبمشاعر مختلفة، لم يعد مستكشفًا بل غازيًا!

لقد شاهد عشرات الأفلام التي تذكّره بموقعه هذا: «أفاتار»، «حرب النّجوم»، «الكثيب».. وقد انحاز في كلّ مرّة للسُكّان الأصليّين وشجّع المقاومة! دائمًا ما كان الانحياز لأصحاب الأرض بسيطًا تلقائيًا غريزيًا ومنطقيًا في الأفلام، فلماذا يجد تقييم الموقف الواقعيّ مستعصيًا؟

أخذ القارب يتهادى مبتعدًا برفق عن السّفينة الأمّ وكذلك فعلت قوارب أخرى كثيرة، كانت بعثة مكثفة.. أحصى آدم عشرات الرّجال على متن القوارب المتفرّقة وربّما لم يرصد بصره أخرى غيرها قد تزاحمت في الأفق، تسارع وجيب قلبه وهو يحدّق في وجه مايك الذي اختفى داخل

محاذيًا الآخرين، ما الذي يفكّر فيه الآن؟ ما الذي سيفعله

حين غزّة ارتفع صراخ من ورائهم، التفت على الفور ليرقب على السّفينة الأمّ التي صارت تفصله عنها مئة متر أو تزيد.. حدث بسرعة فاقت قدرته على المتابعة، ظهر شبح يتحرّك على السّطح آخرون ثمّ سقط الجسم في الماء من ذلك الارتفاع الشّاهق، كانت ورشيقة محدثة لطخة عنيفة وصاخبة ليغوص بعدها الجسم تحت عن الأنظار، إلّا أنّ ملاحقيه كانوا أكثر إصرارًا فدوّى في الهواء طلقة ناريّة ثمّ أخرى!

سمع مايك يقول غير بعيد عنه:

- يا للأسف! كانت صديقتك سيّدة لطيفة.. وددت لو عرفتها وقتًا أطول!

صرخ آدم:

- لا!

إلّا أنّ صوته لم يصل إلى أسماع قد تهتمّ، استمرّ الرّصاص يلعلع ثمّ على صفحة الماء بركة دماء حمراء قانية.. اتّسعت عينا آدم في صدمة.. لم يكن من اليسير تمييز شكلها من تلك المسافة لكنّ الحرّاس تلقوا بإطلاق النّار حال حاولت الهرب! لعلّها أرادت أن تسبقهم لتحذير فغامرت بحياتها!

«إنّها معالِجة».. حاول أن يقنع نفسه بأنّ الرّصاصات لن تضرّها.. لكنّه تذكّر: الـ«ماغداخا» لا تقدر على علاج نفسها!

استمرّ يحدّق في الماء بأنفاس متهدّجة مترقّبًا ظهور أيّ علامة تشير إلى حياتها لكنّ السّكون عاد ليخيّم على مشهد الصّباح بعد أن أوقفت البنادق سيل الرّصاص واستأنف البحّارة التّجذيف كأنّ شيئًا لم يكن، شعر بالدّمع يحرق جفنيه، لا يمكن أن تكون المعالجة قد ذهبت إلى الأبد!

ضاق صدره وانقبضت رئتاه انقباضًا مؤلمًا، إلّا أنّها لم تكن نوبة هلع هذه المرّة، لم يغب في دهاليز الضّياع بل احتشدت مشاعره لتغمره بيقين وصفاء مذهلين، كانت لحظة إدراك فارقة.. لم تعد خشية وحش الماء تكبّل حركته وتخنق أنفاسه، كان يهتمّ لأمرها بقدرٍ يفوق سطوة هواجسه القديمة.

في اللّحظة التّالية.. كان ينزع الخوذة عن رأسه في حسم ويقفز في الماء.

يُتبع..

@ART_OF_BOOK

معجم الكلمات باللغة الآرامية

الكلمات الآرامية	الكلمات العربية
كوتانا	حكيم
بندار	مسخر
ماغداخا	معالجة
مادرا	مادّة
أيتورا	غريب
آم	شعب
نافيا	معلم روحي
آرا	يابسة
مهافيا دياما	ما وراء البحر

@ART_OF_BOOK

خاتمة

بالنسبة إلى شخص يمارس الكتابة كهواية منذ عقود، وينشر منذ أكثر من عقد واحد، لم يكن مجال الخيال العلميّ والفانتازيا يستهويني أبدًا. إن كان لرواياتي طابع مميّز، فهو الواقعيّة لا شكّ. أبحث في محيطي وعالمي عن القضايا التي تستحقّ أن تناقش، والمواضيع التي تعني الشباب وتؤثر فيهم.. أكتب عمّا يشغلني ويحمّسني. حتّى وقت قريب، كانت كتابة رواية تاريخية هي «التحدّي التّالي».. ثمّ استيقظت يومًا وقد قرّرت أن أكتب سلسلة إطارها الخيال.

هذه مغامرة، أخوضها بكلّ وعي ومسؤوليّة، وأرجو أن يغفر لي قرّائي الذين ينتظرون رواية واقعيّة أخرى، وأن يستقبلوا هذا المولود الجديد برحابة صدر. ولعلّي أقول أنّ الخيال العلميّ لا يبتعد كثيرًا عن الواقع، نحن ما نزال على كوكب الأرض، نعالج قضايا تخصّ البشر.. لكنّها مطعّمة بنكهة خيال يؤطّرها العلم. وقد قيل لي كثيرًا أنّ رواياتي تحوي نوعًا من المنهجيّة العلميّة -وهذا ممّا أفخر به- وسيستمرّ العلم منهجًا لهذه السلسة بإذن الله.

أتوجّه بالشكر إلى الصديقين نيفين تهامي ومحمد جميل صبري القائمين على دار كيان للنشر، لمساندتهما لي في هذه المغامرة الجديدة، وإلى لجنة القراءة من الصّديقات اللواتي استمتعت كثيرًا بنقاشهنّ في مختلف عناصر الحبكة: حنان ديلو، رانية تومي، رانية ربيعي، وخاصّة عفيفة عايب التي كانت ملاحظاتها دائمًا دقيقة ولمّاحة.

إلى أبنائي، مرام ولينة ويوسف: آمل أن تقرؤوا هذا الكتاب يومًا، نبحفزكم على الخروج من منطقة الرّاحة وخوض تجارب مختلفة.

@ART_OF_BOOK

ید واحد خشت	۲۳۱
ید واحد آجری خشت	۲۱۷
ید واحد آجری خشت	۲۰۵
ید واحد خشت	۱۹۳
ید واحد خشت	۱۸۱
ید واحد خشت	۱۶۹
ید واحد خشت	۱۵۷
ید واحد خشت	۱۴۵
ید واحد خشت	۱۳۳
ید واحد خشت	۱۲۱
ید واحد خشت	۱۰۹
ید واحد خشت	۹۷
ید واحد خشت	۸۵
ید واحد خشت	۷۳
ید واحد خشت	۶۱
ید واحد خشت	۴۹
ید واحد خشت	۳۷
ید واحد خشت	۲۵
ید واحد خشت	۱۳
ید واحد خشت	۱

اليوم الرّابع عشر	247
اليوم الخامس عشر	261
اليوم السّادس عشر	275
اليوم السّابع عشر	283
اليوم الثامن عشر	301
اليوم التّاسع عشر	313
اليوم العشرون	325
اليوم الواحد والعشرون	337
اليوم الثاني والعشرون	349
اليوم الثالث والعشرون	357
اليوم الرّابع والعشرون	373
اليوم الخامس والعشرون	385
اليوم السّادس والعشرون	399
اليوم السّابع والعشرون	411
اليوم الثامن والعشرون	423
اليوم التّاسع والعشرون	463

اليوم الثلاثون 473
معجم الكلمات باللغة الآرامية 485
خاتمة 487

@ART_OF_BOOK

كيان للنشر

أفضل دار نشر مصرية ٢٠٢١

أفضل ناشر عربى ٢٠٢٣

للتواصل معنا :

kayanpub@gmail.com

info@kayanpublishing.com

أو زوروا موقعنا:

www.kayanpublishing.com

وللاتصال الهاتفي:

هاتف أرضي: 0235918808

هاتف محمول: 01001872290/ 01000405450

وللاطلاع على كُتُبنا، ومتابعة إصداراتنا الجديدة، وأنشطتنا وأنشطة كُتَّابنا الثقافية، يمكنكم متابعتنا على حسابات التواصل الاجتماعى التالية:

KayanPublishing

سماء بلا ضياء

حجر الشمس

تراءت أمام عينيه قلادة روان المصنوعة من الحجارة المميّزة والتي تلمع ببريق غريب غير مألوف لديه، تساءل في عجب" - وهل يعرف سكّان الجزيرة الشّمس حتّى يطلقوا اسمها على حجرهم؟

- للشّمس الخفيّة فوق الظلة دلالة بليغة فهي مصدر الطّاقة الأساسيّ لمخلوقات العالم الخارجيّ لكن تلك الحجارة الفريدة -بشكل ما- هي شمسهم الخاصّة، لعلّها تسدّ حاجتهم إلى الشّمس بالفعل، ولذلك اختاروا لها هذا الاسم الغريب! إنّها كنز الجزيرة الذي يحرصون عليه أكثر من حياتهم. لكنّنا نحتاج إليها، ولن نغادر حتّى نحصل عليها!

9 789778 202670

دار كيان للنشر والتوزيع
Kayan House For Publishing & Distribution

كيان
KAYAN PUBLISHING